لي ستروبل



القضية... الإيمان

ترجمة: حنا يوسف



تعليقات النقاد على الكتاب و مؤلفه

لقد منح لي ستروبيل المؤمنين والمتشككين على حدٍ سواء هدية في هذا الكتاب. فهو لا يتجنب طرح أصعب الأسئلة التي يمكن تخيلها - أسئلة حول الله والمعاناة، حول الدينونة الإلهية والجحيم، حول الظلم، وحول مقصورية المسيح. وتبلغ جراءته أن يتعامل مع التعقيد أيضاً؛ أي رفض إرضاء الناس بتقديم إجابات ساذجة تضر أكثر مما تنفع. ومع ذلك، فإن أسلوبه في الكتابة – بتسجيل اللقاءات مع خبراء يناقشون هذه القضايا الصعبة – يجعل من الكتاب ساحراً وسهل المنال بصورة مدهشة. لقد وجدتُ الكتاب فاتناً ومعيناً.

جيرالد سيتسر – أستاذ الدين – كلية ويتوورس، ومؤلف *A Grace Disguised*، *The Will of God as a Way of Life*

مستجوب عنيد، بحدّة، وبمهارة محاور صريح، يناقش لي ستروبل عقبات الإيمان في عالم ممزق بين الروحانية الزائفة والتشكك الصارم.

إجابات مقنعة لأسئلة النفس الباحثة مختارة ببراعة من إنسان لا يخشى أن يطرح أقسى الأسئلة على من لهم امتياز التأكيد على حق الإيمان المسيحي.

رافي زكريا

كل إنسان – الباحثون، المتشككين، المؤمنين المتحمسين – سيستفيد عندما يخطو لي ستروبل الطريق بحثاً عن الإجابات كما يفعل من جديد في «القضية .. الإيمان». ففي ثنايا لقاءاته الفحصية تتهاوى بعض أقسى العقبات العقلية للإيمان.

لويس بالاو

بعمق وبأمانة عقلية، يتحرى لي ستروبل ثم يفند أقسى الاعتراضات الموجهة للمسيحية. هذا الكتاب ممتاز للمثقف، والمتشكك، والباحث. وسيلة عظيمة لبناء الإيمان.

بيل برايت

من مؤلفات لي ستروبل

- القضية .. الخالق
- القضية.. المسيح
- إقرارات الله الحاسمة
- داخل عقل هاري وماري المحرومين من الكنيسة
- ما الذي كان يود أن يقوله يسوع



صحفي يتحرى

أصعب الاعتراضات المُوَجهة للمسيحية

ترجمة: حنا يوسف

القاهرة - مصر

٢٠٠٧



© جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر
مكتبة دار الكلمة Logos
٠٢٠١٦٣٧٣٢٩٨
www.el-kalema.com Info@el-kalema.com

Originally pulished in the U .S . A. under the title:
The Case For Faith
copyright© 1998 by Lee Strobel
Published by permission of Zondervan, Grand Rapids. Michigan

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

الطباعة والتنضيد: مطبعة سان مارك ☎ ٠٢٤٩٥٠٦٩٠
الترجمة: حنا يوسف
الجمع والإخراج الفني: زهور برنابا
المراجعة اللغوية: خالد سمير
تصميم الغلاف: جرمين شفيق
الإشراف الفني والإداري: محمد حسن غنيم

رقم الإيداع : ٢٠٩٤٤/ ٢٠٠٦
ISBN :977- 384 -073-5

المحتويات

مقدمــة

تحدي الإيمان

«الإيمان بالإله المسيحي لا بدَّ أن يرفضه أي إنسان يُوَّجه أدنى احترام للمنطق.» جورج هـ. سميث، ملحد [١]

«الإيمان المسيحي ليس قفزة لا عقلانية. فعندما تُفحص إدِّعاءات الكتاب المقدس بموضوعية، يتَّضح أنها مسائل عقلية مُدَّعمة جيداً بالمنطق والبرهان.»

تشارلز كولسون، مسيحي [٢]

تماسكَ ويليام فرانكلين جراهام بالقبض على جانبي المنبر. كان في الثمانين من عمره، يتصارع مع مرض شلل الرعاش؛ لكنه تأمل ملياً في الحشود داخل قبة RCA في انديانابوليس، وتكلَّم بصوتٍ قوي ثابت. لم تكن هناك أية إشارة تردد، لا شك، أو غموض. كانت عظته هي نفس الرسالة البسيطة الصريحة التي اعتاد أن يعظها لمدة ٥٠ عاماً.

لقد أشار إلى الفوضى والعنف حول العالم، وركز على العذاب، والألم، والاضطراب في قلوب البشر. تكلم عن الخطية، والغفران، والفداء، وعن الوحدة، واليأس، والاكتئاب الذي يُرهق الكثير من البشر.

قال بلهجة نورث كارولينا المألوفة لديه بينما اقترب من ختام حديثه: «نحن جميعاً نريد أن نكون محبوبين. فكلنا نريد مَنْ يحبنا.

حسناً، أريد أن أخبركم أن الله يحبكم. إنه يحبكم جداً حتى بذل عنا ابنه كي يموت على الصليب من أجل خطايانا. وهو يحبكم جداً حتى إنه سيُغير حياتكم، وسيُعدّل مسارها، وسيجعل كلاً منا إنساناً جديداً مهما كانت حالته.

«هل أنت متأكد أنك تعرف المسيح؟ تأتي لحظة يُوَبخك فيها روح الله، ويدعوك، ويتحدث إليك عن فتح قلبك والتأكد من علاقتك مع الله. مئات الحاضرين منكم الليلة غير متأكدين. عليكم أن تتأكدوا. عليكم أن تغادروا هذا المكان الليلة وأنتم عارفين أنه إن مُتّم في طريق عودتكم، تكونون مستعدين للقاء الله.»

وهكذا حثّهم على المجيء. وقد فعلوا. في البداية كانت هناك قلة من الناس، ثم بدأت الجموع تتدفّق: أفراد، أزواج، وعائلات بأكملها تتدفّق إلى الفضاء الشاسع أمام المنصة. وسرعان ما صاروا كتفاً لكتف حتى التفوا حول جوانب المنصة، وكان عددهم حوالي ٣٠٠٠ إنسان. كان البعض يبكي وهم متأثرون بالتوبيخ الشديد، والبعض الآخر يُحدّق للأسفل، وهم لا يزالوا نادمين على ماضيهم، وكان كثيرون مبتسمين، متحرّرين، فرحين ... فقد عادوا أخيراً إلى الوطن.

كانت هناك سيدة متزوجة تعيش حياة مثالية. فقد قالت لأحد الاستشاريين: «أمي ماتت بمرض السرطان عندما كنتُ صغيرة، واعتقدتُ حينها أنني أعاقب من الله. والليلة أدركتُ أن الله يحبني. لقد كنتُ أعرف ذلك، لكني لم أستطع الفهم. الليلة لمس السلام قلبي.» [٢]

ما هو الإيمان؟ لم تكن هناك حاجة لتعريف الإيمان لهؤلاء الناس في ليلة يونيو الحارة تلك. لقد كان الإيمان ملموساً بالنسبة لهم تقريباً. فلقد توَصلوا إلى الله تقريباً كما لو كانوا يتوقعون أن يحتضنوه بالجسد. لقد انتشلهم الإيمان من الذنب الذي حاصرهم. الإيمان بَدل اليأس بالرجاء. الإيمان ألهمهم بمسار جديد وبهدف جديد. الإيمان فتح السماء. الإيمان كان كماءٍ بارد ينفذ إلى نفوسهم الظمآنة. لكن الإيمان ليس دائماً بهذه السهولة، حتى بالنسبة لمن

يريده بكل كيانه. البعض يجوع من أجل اليقين الروحي، ومع ذلك يعوقهم شئٌ ما عن اختبار ذلك. يتمنون أن يكونوا قد ذاقوا ذاك النوع من الحرية، لكن العقبات تعترض طرقهم. الاعتراضات تضايقهم. الشكوك تسخر منهم. قلوبهم تريد أن تُحلق إلى الله، لكن عقلياتهم تجعلهم مربوطين ومشدودين لأسفل.

يشاهدون التغطية التليفزيونية للجماهير التي جاءت للصلاة مع بيللي جراهام، فيهزون رءوسهم، ويتنهدون قائلين آه لو كان الأمر بهذه البساطة. آه لو لم تكن هناك أسئلة كثيرة.

من المثير للسخرية أن الأسئلة الدائرة حول الله قد تحوَّلت إلى اعتراض حاد للمسيحية من قِبل تشارلز تمبلتون – رفيق بيللي جراهامٍ على المنبر وصديقه المُقرَّب. ومثل جراهام، تحدَّث تمبلتون بقوة للجماهير في احدى المرات في مساحات شاسعة. ودعا الناس لأن تُكرِّس حياتها ليسوع المسيح، حتى إن البعض تنبأوا أن شعبية تمبلتون كواعظ ستفوق شعبية جراهام.

لكن هذا كان منذ وقتٍ طويل. كان هذا قبل الأسئلة المحيرة.

واليوم فإن إيمان تمبلتون – الذي يتحطم باستمرار بالشكوك المتواصلة العنيدة – قد انهار. وربما إلى الأبد.

... ربما.

من الإيمان إلى الشك

كان العام ١٩٤٩. لم يكن بيللي جراهام البالغ من العمر ثلاثين عاماً يدرك أنه على وشك أن ينطلق للشهرة والنفوذ حول العالم. والمثير للسخرية أنه بينما أعدَّ نفسه لهذه الحملة القوية في لوس أنجلوس، إلا أنه وجد نفسه يتصارع مع الشك – لا حول وجود الله أو ألوهية يسوع - بل حول ما إذا كان بإمكانه الوثوق كليةً فيما يقوله له الكتاب المقدس.

في سيرة حياته، قال بيللي جراهام إنه شعر كما لو كان مُهملاً. وقد جذبته إلى الله هنرييتا ميرس المعلمة المسيحية الرقيقة اللامعة

التي كان لها فهم شامل للثقافة الحديثة، وثقة وافية بيقين الأسفار المقدسة. وكان ينتزعه للجانب الآخر رفيقه المقرَّب وزميل كرازته تشارلز تمبلتون البالغ من العمر الثالثة والثلاثين عاماً. (٤)

أصبح تمبلتون مسيحياً – على حد قوله – مبكراً بخمسة عشر عاماً عندما وجد نفسه قد سأم على نحوٍ متزايد أسلوب حياته الذي اعتاده في فريق تورنتو جلوب. وبعدَ أن أفاق من ليلةٍ ماجنة قضاها بالخارج في نادٍ للتعرّي، شاعراً بالدناءة والدنس، دخل غرفته وركع أمام فراشه في الظلام.

وفيما استدعى ذكرياته بعد ذلك قال: «وفجأةً، بدا كما لو كانت بطانية سوداء قد انسدلتْ عليَّ. شعورٌ بالذنب غطى عقلي وجسدي بأكمله. كانت كلماتي الوحيدة هي: يا رب، هلمَّ إليَّ. هلمَّ إليَّ ....» ثم:

> بدأ حملٌ يرتفع عني ببطء، حملٌ ثقيل ثقلي أنا. مرَّ من خلال فخذي، وجذعي، وذراعي، وكتفي، وفارقني. وبدأ دفءٌ يفوق الوصف يغمر جسدي. بدا الأمر كما لو كان نورٌ قد أنار في صدري، وأنه قد طهرني ... تجرأتُ بصعوبة أن أتنفس، خشية أن أغير هذه اللحظة أو أختمها. وسمعتُ نفسي أهمس مراراً في رقة. «أشكرك يا رب، أشكرك، أشكرك.» وبعدها استلقيتُ بهدوء في الفراش في منتهى السعادة الغامرة المتألقة السامية. (٥)

بعدما ترك الصحافة من أجل الخدمة، تقابل تمبلتون مع جراهام في العام ١٩٤٥ في أحد اجتماعات «شباب للمسيح Youth for Christ». كانا رفيقا غرفة واحدة، ورفيقان دائمان خلال رحلة أوربية مثيرة، حيث كانا يتبادلان مكانيهما على المنبر أثناء وعظهما في الاجتماعات. أسس تمبلتون كنيسة سرعان ما كان عدد المترددين عليها يفوق الـ ١٢٠٠ مقعد التي هي سعتها. قالت المجلة الأمريكية American Magazine إنه «وضع معياراً جديداً للكرازة الشاملة». (٦) وقد نمت صداقته مع جراهام حتى قال عنه جراهام ذات مرة لأحد كاتبي السير: «إن تمبلتون هو أحد

الرجال القلائل الذين أحببتهم في حياتي.»

لكن الشكوك سرعان ما بدأت تُزعج تمبلتون. فقد قال فيما بعد: «لقد جزتُ اختبار تحوّل بينما كنتُ شاباً غضاً. افتقدتُ المهارات العقلية والتدريب اللاهوتي الضروري لتدعيم معتقداتي حينما بدأتّ الأسئلة والشكوك تعذبني، وكان هذا الأمر لا يمكن تجنبه ... بدأ عقلي يتشكك، وأحياناً يهاجم، العقائد الأساسية للإيمان المسيحي.» (٨)

انتصار للإيمان

والآن كان تمبلتون المتشكك - على خلاف هنرييتا ميرس الأمينة – يجذب صديقه بيللي جراهام بعيداً عن تأكيداتها المتكررة بأن الأسفار المقدسة موثوق بها. وكان يتجادل قائلاً: «بيللي، أنت إنسان متأخر بمقدار ٥٠ عاماً. فالناس لم يعودوا يقبلون بالكتاب المقدس كموحيّ به كما تقبله أنت. إن إيمانك ساذجٌ جداً.»

كان يبدو أن تمبلتون يكسب السباق. فقد قال جراهام فيما بعد: «حتى ولو لم أكن متشككاً تماماً، فقد كنتُ بالتأكيد مضطرباً.» لقد عرف أنه إن لم يستطع أن يثق بالكتاب المقدس، لما تمكن من الاستمرار. كانت حملة لوس أنجلوس – الحدث الذي سيفتح الباب أمام خدمة بيللي جراهام حول العالم – موضع تقييم.

بحث جراهام الأسفار المقدسة من أجل الإجابات، وقام بالصلاة والتأمل. وأخيراً في نزهة تمشية كئيبة في جبال سان بيرناردينو المتلألئة تحت ضوء القمر، وصل كل شئ إلى حد الذروة. مُمسكا بكتاب مقدس، خرَّ جراهام على ركبتيه، واعترف أنه لم يستطع إجابةً بعض الأسئلة الفلسفية والنفسية التي كان يثيرها تمبلتون وآخرون.

وكتب قائلاً: «كنتُ أحاول أن أكون صادقاً مع الله، لكن شئٌ ما بقى دون أن يُوصف.» «في النهاية حرَّرني الروح القدس كي أقول ذلك. «أبي، سأقبل هذا ككلمتك أنت – بالإيمان! سأسمحُ للإيمان أن يتخطى أسئلتي وشكوكي العقلية، وسأؤمنُ أن هذه هي

كلمتك الموحى بها.»

نهض من ركوعه، والدموع تملأ عينيه، قال جراهام إنه شعر بقوة الله كما لو لم يشعر بها من عدة شهور. وقال: «لم تُجاب كل أسئلتي، لكن جسراً رئيسياً تم عبوره. عرفتُ بكل تأكيدٍ أن هناك معركةً روحية في نفسي قد حوربتْ ورُبحتْ.» (٩)

كانت هذه اللحظة محورية بالنسبة لجراهام، لكنها كانت بمثابة انقلاب أحداث مُخيب للآمال بالنسبة لتمبلتون. فقد صرَّح تمبلتون قائلاً: «لقد ارتكب [جراهام] الانتحار العقلي حينما أغلق عقله.» وكانت العاطفة التي شعر بها بالأكثر تجاه صديقه هي الشفقة. والآن بدأت حياتهما في الانعطاف في اتجاهين مختلفين.

التاريخ يعرف ما سيحدث لجراهام في السنوات اللاحقة، ذاك الذي سيصبح أكثر كارزي العصور الحديثة إقناعاً وتأثيراً، وأحد أكثر الرجال المحبوبين حول العالم. ولكن ماذا سيحدث لتمبلتون؟ لقد استقال تمبلتون ـ مقهوراً بشكوكه ـ من الخدمة، وعاد إلى كندا حيث أصبح مُعلّقاً وروائياً.

إن منطق تمبلتون طارد إيمانه. ولكن هل الإيمان والعقل متنافران حقاً؟ هل من الممكن أن تكون مفكراً ومسيحياً مؤمناً بالكتاب المقدس في نفس الوقت؟ البعض لا يؤمنون بذلك.

يؤكد الملحد جورج هـ. سميث قائلاً: «العقل والإيمان ضدان، مصطلحان مانعان تبادلياً: فليس هناك توافق أو أرضية مشتركة. فالإيمان هو الثقة بدون، أو بالرغم من، العقل.» (١٠)

أما المعلم المسيحي بينجهام هانتر W. Bingham Hunter فيتبنى الرؤية المضادة، حيث قال: «الإيمان استجابة عقلية لبرهان إعلان الله عن ذاته في الطبيعة، والكتاب المقدس، وابنه القائم» (١١)

بالنسبة لي، وبما إني عشتُ أغلب حياتي ملحداً، فإن الشئ الذي لا أريده بالمرة هو إيمانٌ ساذج مبني على أساسٍ هشٍ من تطويع الأفكار للأماني أو التظاهر. فأنا أحتاجُ إيماناً متناغماً مع المنطق، لا متعارضاً معه. أريدُ معتقدات متأصلة في الواقعية، لا منفصلة

عنها. أحتاجُ أن أكتشف مرةً واحدة وإلى الأبد ما إذا كان الإيمان المسيحي يمكنه أن يواجه الفحص.

آن الآوان بالنسبة لي كي أتحدث مع تشارلز تمبلتون وجهاً لوجه.

من "خادم" إلى "لا أدري"

على بعد ٥٠٠ ميل تقريباً من المكان الذي كان بيللي جراهام يُطلق منه حملته في انديانابوليس، تعقبتُ تمبلتون إلى مبنى حديث في إحدى مقاطعات تورونتو متوسطة المستوى. وحيث أخذتُ المصعد إلى الدور الخامس والعشرين، توَّجهتُ إلى باب عليه هذه العلامة «Penthouse»، وضغطتُ على المقبض النحاسي.

كنتُ أحمل تحت ذراعي نسخةً من آخر مؤلفات تمبلتون الذي لا يترك عنوانه أي مجالٍ للشك بخصوص منظوره الروحي، فقد كان عنوان الكتاب: «وداعاً الله: أسباب رفضي للإيمان المسيحي *Farewell to God: My Reasons for Rejecting the Christian Faith*». هذا الكتاب الفظ يسعى لسلب المعتقدات المسيحية، وشنِ الهجوم عليها باعتبارها «عتيقة، خاطئة مع توافر الأدلة، وغالباً ما تكون في إظهاراتها الخاصة ضارة بالأفراد وبالمجتمع.»

يعتمد تمبلتون على مجموعة من التوضيحات فيما يجاهد أن يُقوّض الإيمان بإله الكتاب المقدس. لكنني صُدمتُ بشكلٍ خاص بقطعةٍ مؤثرة أشار فيها لمصاعب مرض الزهايمر، وهو يصف بالتفصيل الممل الطريقة التي يسلب بها الزهايمر شخصية الإنسانِ بإفساد ذهنه وذاكرته. وتساءل قائلاً كيف يمكن لإله حنَّان أن يُعذِّب مثل هذا المرض المرعب ضحاياه ومحبيهم؟

واستنتج أن الإجابة بسيطة: فالزهايمر لا يمكن أن يوجد إن كان هناك إلهٌ محب. ولأن الزهايمر موجود، فهذا دليل آخر مقنع أن الله غير موجود. [١٣] وبالنسبة لإنسان مثلي، حيث احتملتْ أسرة زوجتي عواقب الزهايمر المدمرة، كان ذلك بمثابة حُجة قوية.

لم أكن متأكداً مما كنتُ أتوقعه بينما انتظرتُ على عتبة تمبلتون. هل سيكون مهاجماً كما كان في كتابه؟ هل سيكون حاداً تجاه بيللي جراهام؟ وهل حتى سيستكمل لقائنا؟ عندما كان تمبلتون قد وافق في مكالمةٍ هاتفية قصيرة قبل يومين، قال بغموض إن صحته ليست على ما يرام.

فتحتْ مادلين تمبلتون - وهي منتعشةً من ري الزهور في حديقتها أعلى السطح – الباب، وألقتْ عليَّ التحية بدفء. وقالتْ: «أعرفُ أنك جئتَ من شيكاغو، لكني أخشى أن أقولَ لكَ إن تشارلز مريضٌ جداً.»

فعرضتُ عليها قائلاً: «يمكنني العودة في وقتٍ آخر.»

فقالت: «حسناً، لنرَ كيف هي صحته الآن.» قادتني للأعلى عبر سلم مُغطى بسجاد أحمر إلى شقتهما الفاخرة، وكان بالقرب منها كلبان كبيران نشيطان. «لقد كان نائماً...»

في تلك اللحظة، خرج زوجها البالغ من العمر الثالثة والثمانين من غرفة نومه. كان يرتدي رداءً بنياً قاتماً خفيفاً فوق بيجامة بنفس اللون، وخُفاً أسمر في رجليه. كان شعره الرمادي الخفيف مبعثراً قليلاً. كان نحيفاً شاحباً، رغم أن عيناه ذات الزرقة الرمادية قد بدتا متحفزتان مُعبرّتان. مدَّ يده للمصافحة في أدبٍ.

قال: «من فضلك اعذرني – وهو يسعلُ – لكنني لستُ على ما يرام.» ثم أضاف كنوعٍ من التأكيد: «في الواقع أنا أحتضر.»

فسألته: «ما الأمر؟»

فصدمتني إجابته: «الزهايمر»

اتجه ذهني لما كتبه عن أن الزهايمر هو برهان عدم وجود الله، وفجأة تبادرتُ إلى ذهني فكرة بخصوص بعض الدوافع وراء تأليف كتابه.

لقد أصبتُ به ... هل منذ ثلاث سنوات؟

قالها وهو يقطب حاجبيه ويوَّجه نظره لزوجته من أجل

المساعدة. «لقد أصبتُ به ... منذ ثلاث سنوات. حقاً، أليس كذلك يا مادلين؟»

فأومأتْ إليه قائلةً: «بلى، يا عزيزي، ثلاث سنوات.»

فقال: «لم تعد ذاكرتي كما كانت، فكما تعرف أن الزهايمر قاتلٌ دائماً. دائماً. كم يبدو هذا مأساوياً، لكن الحقيقة هي أنني أموت غير مأسوفٍ عليَّ. فآجلاً أو عاجلاً سيقتلني. لكنه أولاً سيحتل ذهني.» ابتسم بشحوبٍ وقال: «أخشى أن يكون قد بدأ. و مادلين يمكنها أن تشهد بذلك.»

فقلتُ: «عفواً لتدخلي، طالما أنت لست على ما يرام...»

فأصرَّ تمبلتون على إجراء الحوار، وقادني نحو غرفة المعيشة، المزخرفة بألوانٍ زاهية بأسلوبٍ عصري، والمغمورة بأشعة شمس ما بعد الظهيرة التي تسللتْ من خلال الأبواب الزجاجية التي أتاحت رؤية بانورامية رائعة للمدينة. جلسنا على مقاعد مزخرفة قريبة، وفي غضون دقائق بدا أن تمبلتون قد استجمع طاقة جديدة.

قال: «أعتقد أنك تريدني أن أشرح كيف اتجهتُ من الخدمة إلى اللاأدرية.» وبهذه الكلمات أفاضَ الحديث عن الأحداث التي قادته لرفض إيمانه بالله.

كان هذا هو ما توقعته، لكنني لم أتوقع أبداً كيف سينتهي حوارنا.

قوة صورة

كان تمبلتون منهمكاً فيما كان يقوله آنذاك. ففي بعض الأحيان كنتُ أرى دلائل إصابته بالزهايمر، مثلما كان عاجزاً أن يستدعي التتابع الدقيق للأحداث، أو عندما كان يُكرِّر كلامه. لكنه تكلم غالبية حديثه بفصاحةٍ وحماس، مستخدماً مفردات مؤثرة. كان صوته القوي الثري يرتفع وينخفض من أجل التأكيد. كانت له نغمةٌ أرستقراطية بدت أنها نغمة مسرحية في بعض الأحيان.

في البداية سألته: «هل كان هناك شئٌ معين دفعك لفقد إيمانك بالله؟»

ففكر لمدةٍ قصيرة وقال أخيراً: «صورة في مجلة لايف Life.»

فقلتُ: «حقاً؟ صورة؟ كيف كان ذلك؟»

فضيقَ عيناه قليلاً ثم إتجه ببصره نحو الجانب، كما لو كان يستطلعِ الصورة من جديد، ويستعيد إحياء تلك اللحظة، وقال شارحا: «لقد كانت صورة امرأة سوداء في إفريقيا الشمالية. كانوا يعانون من مجاعةٍ مدمرة. وكانت تحمل طفلها الميت بين ذراعيها، وتنظر للأعلى إلى السماء في أبأس تعبير.»

نظرتُ للصورة وفكرتُ قائلاً: «هل من الممكن أن أؤمن أن هناك خالقاً محباً مهتماً بينما كل ما تحتاجه هذه المرأة هو المطر؟»

وبينما أكدَّ على كلمة «المطر» لمع حاجباه الرماديان، ورفع ذراعيه نحو السماء كما لو كان يلتمس استجابة.

فالتمس قائلاً فيما أصبح أكثر نشاطاً، وكان قد تحرك نحو حافة مقعده: «كيف يمكن لإلهٍ محب أن يفعل هذا لتلك المرأة؟ مَنْ يُجري المطر؟ لا أنا، ولا أنت. بل هو – أو هذا ما كنتُ أعتقده. لكنني حينما رأيتُ هذه الصورة، عرفتُ على الفور أنه من غير الممكن أن يحدث هذا طالما أن هناك إلهاً محباً. لم تكن هناك طريقة. مَنْ سوى عدو يمكنه أن يفني طفلاً ويقتل أمه بالعذاب – بينما كل المطلوب هو المطر؟»

توَقف تمبلتون تاركاً السؤال يتردد في الهواء طويلاً، ثم استوى في جلسته من جديد، وقال: «كانت هذه هي اللحظة الحاسمة. وحينها بدأتُ أفكر بعمق في قضية أن العالم هو خليقة الله. بدأتُ أفكر في الأوبئة التي تحصد أجزاءً من كوكب الأرض، وتقتل كل أنواع البشر – العاديين، والنبلاء، والأدنياء. وقد بدا لي من الواضح جداً أنه من غير الممكن لإنسانٍ ذكي أن يؤمن أن هناك

إلهاً يحب.»

لقد تطرَّق تمبلتون لموضوع ظلَّ يؤرقني شخصياً عدة سنوات. ففي عملي محرراً صحفياً، لمَ أر صوراً للمعاناة الشديدة فحسب، بل كنتُ أيضاً أعاين بأم عينيَّ أدنى مستويات المعيشة حيث المأساة والمعاناة: المناطق العشوائية في الولايات المتحدة، وضواحي الهند المُهمَّشة، وسجن كوك كاونتي، والسجون الرئيسية، وعنابر مصحات الحالات الميئوس منها، وكل أنواع المشاهد المُفجعة. ولأكثر من مرةٍ تردّد ذهني في محاولة قبول فكرة وجود إله محب مع وجود الفساد وانفطار القلب والعذاب أمام عيني.

لكن تمبلتون لم يختم حديثه. وقال: «ذهب ذهني آنذاك إلى المفهوم الأشملِ للجحيم. «يا إلهي - وقد امتلأ صوته بالدهشة - لا أحتملُ أن تُمد يد إنسان للنار لدقيقةٍ واحدة، ولا حتى للحظة! فكيف يمكن لإلهٍ محب، بمجرد أنك لا تطيعه ولا تفعل ما يريده، أن يُعذبك إلى الأبد – دون أن يسمح لك أن تموت، بل أن تستمر في هذا الألم إلى الأبد؟ فحتى المجرم لا يفعل هذا!»

فسألته: «إذاً، هذه هي الشكوك الأولى التي واجهتك؟»

فأجابني: «قبل هذا، كانت لديَّ الكثير والكثير من الأسئلة. لقد وعظتُ للمئات وللآلاف من الناس بالرسالة المعكوسة، ثم اكتشفتُ بعدها لدهشتي أنني لم أعد أؤمن بها. فلكي أؤمن بها فهذا معناه أن أنكر العقل الذي وُهب لي. لقد أصبح من الواضح تماماً أنني كنتُ على خطأ، لذلك قرَّرتُ أن أترك الخدمة. وهكذا صرتُ لا أدرياً.

فقلتُ: «عَرِّف ماذا تقصد بذلك، فهناك كثيرون قدَّموا تفسيرات مختلفة لهذا المصطلح.»

فأجابني: «الملحد يقول لا إله. المسيحي واليهودي يقولان إن هناك إلهاً. أما اللا أدري فيقول: «لا يمكنني أن أعرف.» إنه لا يقول: «لا أعرف»، بل يقول: «لا أستطيع أن أعرف.» لم يسبق لي أبداً أن قلت بوضوح إنه لا يوجد إله. أنا لا أعرف كل شئ؛ فأنا لستُ تجسيد الحكمة. لكن من غير الممكن بالنسبة لي أن أؤمن بالله.»

تردّدتُ في طرح السؤال التالي، فبدأتُ بلهجةٍ مُلطفة قائلاً: «فيما يتقدم بك العمر. وتواجه مرضاً قاتلاً دائماً، فهل أنت...»

فاعترضني قائلاً: «أقلق بكوني قد أكون مُخطئاً؟»

«لا، لا أقلق.» قالها وهو مبتسماً.

«ولم لا؟»

«لأنني قضيتُ العمر كله أفكر في ذلك. ولو كانت هذه خاتمة بسيطة لاختلف الأمر. لكن من المستحيل بالنسبة لي – من المستحيل – أن أؤمن أن أي شئ أو شخص أو كيانٍ يمكن أن يوصف كونه إلهاً محباً يسمح بما يحدث في عالمنا كلّ يوم.»

فسألته: «هل تود أن تؤمن؟»

فتعجب قائلاً: «بالطبع! لو استطعتُ لآمنتُ. أنا في الثالثة والثمانين من عمري ومصاب بالزهايمر. بالله عليك إني أحتضر! لكني قضيتُ حياتي أفكرُ في ذلك، ولن أغير موقفي الآن. افتراضياً، لو جاءني واحدٌ قائلاً لي: «أنظر، أيها العجوز، إن سبب مرضك هو عقاب الله لرفضك أن تستمر في الطريق الذي سرتَ فيه – فهل سيُمَثّل هذا أي اختلافٍ بالنسبة لي؟» وردَّ على نفسه بوضوحٍ مُصرِّحاً: «لا. لا. لا يمكن أن يكون في عالمنا إله محب.»

وأغمضتْ عيناه مع عينيَّ. «لا يمكن.»

خداع الإيمان

مَرَّر تمبلتون أصابعه من خلال شعره. كان يتحدث بنغماتٍ حادة، ويمكنني أن أقول إنه كان قد بدأ في الإرهاق. أردتُ أن أكون حساساً تجاه ظروفه، لكن كانت لديَّ أسئلة قليلة أردتُ طرحها، فواصلتُ الحوار بعد استئذانه.

«بينما نتكلم الآن، يكون بيللي جراهام في منتصف سلسلة اجتماعات في انديانا. ماذا تقول للناس الذين خطوا خطوات نحو

الإيمان بالمسيح؟»

فاتسعتْ عينا تمبلتون، وأجابني قائلاً: «أنا لا أتدخل في حياتهم على الإطلاق. فلو كان إنسان لديه الإيمان، وكان هذا الإيمان يجعله إنساناً أفضل، فأنا أؤيد ذلك تماماً – رغم إني أعتقد أنهم حمقى. بما أنني كنتُ مسيحياً، أعرفُ مدى أهمية ذلك لحياة الناس، وكيف أن ذلك يُبدِّل قراراتهم، ويساعدهم على التعامل مع المشكلات الصعبة. بالنسبة لمعظم الناس، الإيمان بركة لا توصف. ولكن هل ذلك لأن هناك إله؟ لا، ليس كذلك.»

لم يحمل صوت تمبلتون أي وهن، ومع ذلك كانت إيحاءات كلماته متعالية تماماً. هل هذا هو الإيمان كله – أن تخدع نفسك كي تصير إنساناً أفضل؟ أن تُقنع نفسك أن هناك إلهاً حتى يكون لديك ما يدفعك للتنازل عن أخلاقياتك خطوةً أو خطوتين؟ تصديق قصة خيالية قبل النوم بهدوء في المساء؟ لا، عفواً، هكذا قلتُ لنفسي. إن كان هذا هو الإيمان، فأنا لا أهتم به.

فتساءلتُ: «ماذا عن بيللي جراهام نفسه؟ لقد قلتَ في كتابك إنك تشعر بالأسف من أجله.»

فأصرَّ قائلاً: «آوه، لا، لا – على خلاف كتاباته – فمَنْ أنا حتى أشعر بالأسف حول ما يؤمن به إنسانٌ آخر؟ يمكنني أن أعتذر عن ذلك نيابةً عنه – لو جاز لي ذلك – لأنه أغلق عقله على الحقيقة. ولكن هل أتمنى أن يكون مريضاً؟ لا على الإطلاق!»

تطلَّع تمبلتون كثيراً لمائدة قهوة زجاجية قريبة كانت فوقها السيرة الذاتية لبيللي جراهام.

فأوضح بإعجاب: «إن بيللي كالذهب الخالص؛ فلا غش فيه أو رياء. إنه إنسانٌ من الطراز الأول، وهو مسيحي راسخ الإيمان، وإنسانٌ صالح بحق كما يقولون. فهو يؤمن بإخلاص دون شك. وهو أخلاقي ومخلص كما يمكن لأي شخص أن يكون.»

«وماذا عن يسوع؟» أردتُ أن أعرف رأي تمبلتون عن أساس المسيحية. فسألته: «هل تؤمن أن يسوع قد عاش؟»

فأتاني الرد السريع: «بلا شك.»

«هل تعتقد بأنه الله؟»

فهزَّ رأسه قائلاً: «لقد كانت هذه هي آخر فكرة يمكن أن تطرأ على ذهنه.»

«وتعليمه، هل أُعجبتَ بما علَّمه؟»

«حسناً، لم يكن واعظاً جيداً جداً، فما قاله كان ساذجاً جداً، ولم يفكر فيه. ولم يُرهق نفسه بإثارة أخطر سؤال مطروح.»

«وهو....؟»

«هل هناك إله؟ وكيف يمكن لأي إنسانٍ أن يؤمن بإلهٍ يفعل، أو يسمح، بما يدور في العالم؟»

«كيف تُقيِّم إذاً يسوع هذا؟» بدا أن هذا هو السؤال المنطقي التالي، لكنني لم أكن مستعداً للإجابة التي تلقَّيتها.

جاذبية يسوع

هدأتْ حركات تمبلتون. وبدا الأمر كما لو كان قد شعر فجأة بالاسترخاء والراحة بالحديث عن صديقٍ عزيز قديم. وقد أخذ صوته ـ الذي كان حاداً مصمماً ـ نغمةً هادئة متأملة. وقد هدأ احتراسه، وتكلم في تواترٍ بطيء، يختار كلماته بحرصٍ فيما يتحدث عن يسوع.

بدأ تمبلتون كلامه: «كان يسوع أعظم إنسان عاش على الإطلاق. كان عبقرية أخلاقية. وكان حسه الأخلاقي فريداً. وفي الواقع كان أحكم إنسان قابلته في حياتي أو في قراءاتي. كان تكريسه كلياً، وهو ما أدى إلى موته ـ في الغالب لضرر العالم. ماذا يمكن للمرء أن يقول عنه إلا إن ذلك كان نوعاً من العظمة؟»

فاندهشتُ قائلاً: «تبدو وكأنك مهتم به حقاً.»

فأجابني: «حسناً، نعم، فهو أهم شئ في حياتي.» وتمتم باحثاً

عن الكلمة المناسبة قائلاً: «أنا... أنا... أنا... أعرفُ أن هذا قد يبدو غريباً، ولكن عليَّ أن أقول... أنا مُعجبٌ به!»

لم أدرِ كيف أجيبه، فقلتُ: «تقول هذا بنوعٍ من الحميمية.»

فقال: «حسناً، نعم. فكل شئ حسن أعرفه، وكل شئ جليل أعرفه، وكل شئ نقي أعرفه، قد تعلمته من يسوع. نعم... نعم! وبقوة! أنظر فقط إلى يسوع. لقد وبخ الشعب، وكان غاضباً. الناس لا تفكر فيه هكذا، فهم لا يقرأون الكتاب المقدس. لقد كان لديه غضبٌ مقدس. اهتمَ بالمسحوقين وبالمظلومين. ولا جدال أنه كان لديه المستوى الأخلاقي الأعظم، والازدواجية الأقل، والتعاطف الأعظم من أي إنسانٍ في التاريخ. كانت هناك الكثير من الشخصيات الرائعة – لكن يسوع هو يسوع.

«وهكذا سيفعل العالم حسناً كي يتمثَّلوا به؟»

«يا إلهي، نعم! لقد حاولتُ – وما زلتُ أحاول بكل جديةٍ – أن أتصرفَ كما آمنتُ أنه سيتصرف بالمثل. وهذا ليس معناه أنه يمكنني قراءة أفكاره، لأن أحد أروع الأمور عنه هو أنه كان غالباً ما يفعل عكس ما تتوقع.»

وفجأة قطع تمبلتون كلامه. كانت هناك وقفةٌ قصيرة، فغالباً ما شعر أنه غير متأكد من الاستمرار.

قال ببطء: «آه... ولكن... لا، إنه الأكثر...» توَقف تمبلتون، ثم بدأ من جديد مُصرِّحاً: «من وجهة نظري، يسوع هو أهم إنسان وُجِدَ على الإطلاق.»

حينما نطق تمبلتون هذه الكلمات، لم أكن أتوَقع أبداً أن أسمعها منه. فقد قال بينما كان صوته قد بدأ في الخفوت: «ولو جاز لي التعبير، فأنا... أفتقده!»

وبهذه الكلمات غمرتْ الدموع عينيه، وحوَّل رأسه ونظر للأسفل، رافعاً يده اليسرى كي تحجب وجهه عني. وكان كتفاه يتحركان فيما كان يبكي.

ماذا كان يجري؟ هل كانت هذه لمحة صريحة داخل نفسه؟ لقد

شعرتُ نحوه بالتعاطف، وأردتُ أن أعزيه. وفي نفس الوقت، فإن روح الصحفي التي بداخلي أرادت أن تكتشف جذور رد الفعل هذا. لماذا افتقده؟ وكيف افتقده؟

فسألته بصوتٍ رقيق: «كيف؟»

فجاهد تمبلتون كي يُعبر عن نفسه. وأكد أنه لم يكن ليفقد السيطرة على نفسه أمام شخص غريب. تنهد بعمقٍ ومسح دمعةً من دموعه. وبعد لحظاتٍ حرجة قليلة، أشار بيده ليّ بالانصراف. وأخيراً أصرَّ بهدوء، بل بصلابة، قائلاً: «كفى هذا.»

مدَّ يده للأمام لالتقاط قهوته، وأخذ رشفةً ماسكاً الكوب بقوةٍ بين يديه كما لو كان يلتمس منه الدفئ كان من الواضح أنه أراد أن يَدَّعي أن هذه النظرة الصريحة داخل نفسه لم تحدث أبداً.

لكني لم استطع أن أتجاهل ذلك، ولم أتجاهل اعتراضاته المركزة القلبية حول الله.

في الواقع، كانت هذه الاعتراضات تحتاج إجابة. له، ولي أنا أيضاً.

إلى طريق الاجابات

«١,٦ مليار [مسيحي] من الممكن أن يكونوا على خطأ .. ودليلي ببساطة ... هو أن الناس العقلانيين يجب أن يهجروا هذه المعتقدات.» مايكل مارتن، ملحد [1]

«اليوم يبدو لي أنه ليس هناك سببٌ مقنع يمكن أن يتبناه إنسانٌ ذكي لقبول خداع الإلحاد أو اللاأدرية وارتكاب نفس الأخطاء العقلية التي ارتكبتها أنا. أتمنى ... لو عرفتُ آنذاك ما أعرفه الآن.» باتريك جلين – ملحد صار مسيحياً [2]

بعد فترة وجيزة من اللقاء مع تشارلز تمبلتون، بدأتُ مع زوجتي ليزلي في العودة إلى شيكاغو، وقد أمضينا غالبية المسافة في مناقشةٍ حيوية عن مواجهتي الغامضة مع المُبشِّر السابق.

بصراحة كنتُ في حاجةٍ لبعض الوقت لمعالجة هذا الاختبار. لقد كان لقاء غير عادي، إذ إنه يتضمن التحول الرهيب من الرفض المُطلق لله إلى رغبةٍ حميمية لإعادة التواصل مع يسوع الذي اعتاد على عبادته. أشارت ليزلي لإحدى نقاط مناقشتنا قائلة:

«يبدو أنك تحب تمبلتون حقاً».

فقلتُ لها: «بالطبع أحبه».

الحق أن قلبي قد انجذب إليه.

إنه يتعطش للإيمان، وقد تنازل كثيراً. وكإنسانٍ يواجه الموت، فهو لديه كل الدوافع التي يريدها كي يؤمن بالله. هناك جاذبية لا يمكن إنكارها تجاه يسوع تنبع بوضوح من أعماقه، لكن في نفس الوقت هناك أيضاً تلك الحواجز العقلية الهائلة التي تقف بشدة في

طريقه.

كما هو الحال مع تمبلتون، كنتُ على الدوام إنساناً يتصارع مع الأسئلة. ففي دوري السابق، إذ عملتُ محرراً للشئون القانونية في صحيفة شيكاغو تريبيون، كنتُ معروفاً بإثارة ما أسميته باعتراضات «نعم، ولكن Yes, but objections ». نعم يمكنني أن أفهم أن الدليل في تجربةٍ ما كان يشير لرأي معين، ولكن ماذا عن هذا التضارب، أو ذاك النقص، أو تلك الوصلة الضعيفة؟ نعم، يمكن أن يكون المُدّعي قد قدَّم دفاعاً مقنعاً عن جريمة مُوَكله، ولكن ماذا عن إدعائه بوجوده في مكانٍ آخر أثناء الجريمة؛ أو عدم توافر البصمات؟

وقد كان نفس الشئ حقيقيّ بالنسبة لتحرياتي الشخصية عن يسوع. فقد انطلقتُ كملحدٍ، مقتنعاً تماماً أن الله لم يخلق البشر، بل أن البشر هم الذين خلقوا الله بمجهودٍ يائس لشرح المجهول ومعالجة خوفهم الشديد من الموت. لقد وصف كتابي السابق «القضية .. المسيح» اختباري الذي أخذ ما يقرب من عامين للدليل التاريخي الذي أشار لي بالحكم أن الله موجودٌ حقاً، وأن يسوع هو ابنه الوحيد بالفعل. (لمخلص هذه الاكتشافات أرجو أن تنظر إلى الملحق بهذا الكتاب).

ولكن هذا لم يكن كافياً في حد ذاته لتسوية الأمر تماماً بالنسبة لي. فقد كانت تلك الاعتراضات المؤرقة لا تزال موجودة. نعم، يمكنني أن أفهم كيف أن الدليل التاريخي لقيامة يسوع يمكنه أن يُدَّعم حكماً أنه إله، ولكن ماذا عن التتابع المتصاعد للمشكلات؟ لقد أطلقتُ على هذه الألغاز لقب «الثمانية العنيدة The Big Eight».

• بما أن هناك إلهاً محباً، فلماذا يئن هذا العالم المسحوق بالألم بالكثير من المعاناة والشر؟

• بما أن معجزات الله تعارض العلم، فكيف يمكن لأي إنسانٍ عقلاني أن يؤمن أنها حقيقية؟

• لو كان الله قد خلق الكون حقاً، فلماذا يجبر الدليل المقنع للعلم الكثيرين جداً لاستنتاج أن عملية التطور الغير مُوَجهة

تَفسر الحياة؟

- بما أن الله طاهر أخلاقياً، فكيف يُصَّدق على ذبح الأطفال الأبرياء كما يقول العهد القديم؟
- لو كان يسوع هو الطريق الوحيد إلى السماء، فماذا إذاً عن ملايين الناس الذين لم يسمعوا عنه؟
- لو كان الله يهتم بالناس الذين خلقهم، فكيف أمكنه أن يُسلِّم كثيرين جداً منهم لعذابٍ أبدي في الجحيم لمجرد أنهم لم يؤمنوا بالأمور الصحيحةَ عنه؟
- لو كان الله هو راعي الكنيسة الأعظم، فلماذا كانت حافلة بالرياء والقسوة عبر العصور؟
- بما إنني مصاب بالشكوك، فهل من الممكن أن أظل مسيحياً؟

هذه بعض الأسئلة المُثارة حول الله بشكلٍ عام. في الواقع كانت هذه بعض الموضوعات التي ناقشها تشارلز تمبلتون في لقائي معه وفي كتابه. وكما كانت مع تمبلتون، فقد وقفتْ هذه العقبات بصلابةٍ بيني وبين الإيمان أيضاً.

قهر الاعتراضات

بينما استطعتُ أن أروي الكثير من الاعتراضات التي أثارها تمبلتون، إلا إنني في نفس الوقت لم أكن ساذجاً لقبول كل منها على محمل الجدية. كان من الواضح أن بعض عقباته في طريق الإيمان يجب ألا تكون معوقات على الإطلاق.

فمثلاً كان تمبلتون مخطئاً بوضوح بخصوص يسوع وهو يعتبره مجرد إنسان. فحتى لو عدنا للمعلومات المبكرة والأكثر أصالةً عنه – تلك البيانات التي لا يمكن أن تكون قد تبدَّلت بالتطور الأسطوري – فسوف نجد أن يسوع قد عبرَّ عن نفسه دون شكٍ بتعبيراتٍ مسيانية، إلهية، سامية. (٣)

في الواقع توجد هنا مفارقة، فالوثائق التاريخية نفسها التي اعتمد

عليها تمبلتون للحصول على معلوماته عن حياة يسوع الأخلاقية المثيرة هي في الواقع نفس السجلات الدقيقة التي تؤكد ألوهيته على الدوام. ولذلك لو كان تمبلتون مستعداً لقبول دقتها بخصوص شخصية يسوع، فعليه أن يعتبرها جديرة بالثقة أيضاً حينما يؤكد أن يسوع نادى أنه إلهاً ثم أيدَّ هذا التأكيد بقيامته من الأموات.

بالإضافة إلى ذلك، فإن قيامة يسوع لا يمكن اعتبارها أسطورة كما ادَّعى تمبلتون. فالرسول بولس حافظ على قانون إيمان الكنيسة الأولى الذي وُضع على تقارير شهود العيان عن قيام يسوع من الأموات، تلك التي أرجعَ كثير من الدارسين تاريخها إلى ما بعد موت يسوع بحوالي ٢٤ ـ ٣٦ أسبوعاً. (٤)

وهذا الأمر سريعٌ جداً بالنسبة لعلم الأساطير حتى يكون قد زيفٍ السجلات. الحق هو أن لا إنسان كان قادراً أن يُبيِّن مثالاً واحداً عبر التاريخ لأسطورةٍ تنمو بهذه السرعة وتمحو صميم الحق التاريخي. (٥)

بينما وثُقت بانتظام في كتاب «القضية .. المسيح»، فإن برهان شهود العيان، والبرهان المؤيد، والبرهان النفسي، وبرهان «بصمة الأصابع»، أو البرهان النبوي، والبيانات التاريخية الأخرى تشير بقوةٍ لاستنتاج أن يسوع هو ابن الله الوحيد حقاً.

نعم، ولكن ...

ماذا عن تلك الموضوعات المريبة التي تمنع من قبول الإيمان الذي يرغبه باعترافه الشخصي كثيراً؟ لقد انتابتني. وقد كانت هي نفس الموضوعات التي أربكتني ذات مرةٍ – وبينما كنتُ أقود السيارة مع ليزلي بين ولايتين تجاه البيت، بدأتْ بعضها تنتابني من جديد.

على نفس الطريق

هدأتُ أنا و ليزلي لبعض الوقت. نظرتُ خارج النافذة إلى المروج المتموجة من الريف الكندي. وأخيراً قالت ليزلي: «يبدو أن لقاءك قد انتهى على نحوٍ مفاجئ. ماذا قال تمبلتون قبل أن تغادره؟»

فقلتُ لها: «في الواقع كان دافئاً جداً. حتى إنه أخذني في جولةٍ عبر شقته. وكان يبدو كما لو لم يرِد أن أغادره، ولكن بغض النظر عن محاولاتي، لم أستطع أن أقنعه بالاستمرار في مناقشة مشاعره عن يسوع.»

فكرتُ للحظاتٍ قبل الاستمرار. لقد قال شيئاً آخر أدهشني. فبينما كنتُ مستعداً لمغادرته، نظر إليَّ بمنتهى العطف، وصافح يدي وقال باخلاصٍ عظيم: «لقد كنا على نفس الطريق».

فاومأتْ ليزلي قائلة: «لقد كنتما كذلك. فكلاكما كاتب، وكلاكما كان متشكك.» ثم أضافت مبتسمةً: «وكلاكما عنيد لدرجة أنكما لا تقبلان الإيمان حتى تتأكدا من أنه ليس مليئاً بالثقوب.»

لقد كانت على حق. فقلتُ لها: «ولكن بدا أن عقله مغلقاً جداً. فلقد أصَر أنه لا يمكن أن يكونٍ هناك إلهٌ محب. ومع ذلك في نفس الوقت، بدا أن قلبه منفتحٌ جداً. بطريقةٍ ما أعتقدُ أنه يريد يسوع بنفس الأسلوب الذي يريده به الناس الذين كانوا في انديانابوليس. إنه فقط لا يمكنه أن يملكه. وعلى الأقل لا يعتقد ذلك. وليس باعتراضاته.»

قضيتُ الليلة مع ليزلي في أحد فنادق ميتشجان، وفي النهاية وصلنا قُبيل ظهيرة اليوم التالي. سحبتُ حقيبتنا إلى السلم وألقيتها على الفراش، فقامتْ ليزلي بفتحها، وبدأتْ في إخراج الملابس منها.

وأشارتْ قائلة: «على الأقل وصلنا البيت في وقت قصير.»

فقلتُ: «حسناً، ليس تماماً.»

لم استطع أن أنسى أسئلة تمبلتون، فقد تردَّد صداها بعمق شديد مع أسئلتي الخاصة. ولذلك قرَّرتُ أن أبدأ من جديد، وأتوسَّع في رحلتي الروحية في اتجاه مختلف عما سلكته حينما كتبتُ كتاب «القضية .. المسيح» الذي كان تحرياً عن الدليل التاريخي عن حياة، وموت، وقيامة يسوع المسيح.

أردتُ أن أقرّر من جديد ما إذا كانت هناك استجابات مُرضية للنفس حينما تُواجه المسيحية بأصعب وأقسى أسئلة الحياة التي تبعث شكوكاً مؤرقة في قلوبنا وعقولنا. هل يمكن للإيمان أن يواجه العقل حقاً؟ أم أن الفحص العقلي الصارم سيطارد الله؟

عزمتُ أن أتتبع أشهر وأمهر المدافعين عن المسيحية. ولم يكن هدفي هو أن أتخذ مدخلاً ساخراً أو مُنافساً كي أضايقهم بأسئلة محيرة، أو كي أرى ما إذا كنتُ سأدفعهم لوضعهم في موقفٍ مُحرجٍ. لم تكن هذه هي لعبتي.

لقد كنتُ مهتماً بأمانة بتحديد ما إذا كانت لديهم إجابات عقلية عن الأسئلة «الثمانية العنيدة The Big Eight»، أردتُ أن أمنحهم فرصة مواتية لتوضيح فكرهم ودليلهم بالتفصيل حتى يمكنني في النهاية تقييم ما إذا كانت نظرياتهم تفي بالمعنى أم لا. على العموم، أردتُ أن أكتشف ما إذا كان الله يقول الحق حين قال: «وَتَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ.» (إر ٢٩: ١٣).

رفعتُ سماعة الهاتف. آن أوان تخطيط طريق البحث عن الإجابات.

لم يكن تمبلتون يتوقع أقل من ذلك.

١

الاعتراض الأول

بما أن الشر موجود والمعاناة موجودة، فلا يمكن أن يوجد إله محب

«إما أن الله يريد أن يمحو الشر ولا يستطيع، أو إنه يستطيع لكنه لا يريد، أو إنه لا يستطيع ولا يريد. فلو كان يريد ولا يستطيع، فهو عاجز. ولو كان يستطيع ولا يريد، فهو شرير. ولكن لو كان الله يستطيع ويريد، فما تفسير وجود الشر في العالم؟»

أبيقور، فيلسوف

«إن حقيقة المعاناة تُشكِّل بلا شكٍ التحدي الأعظم الوحيد للإيمان المسيحي، وقد كانت هكذا في كل جيل. إن توزيعها ودرجتها تبدو أنها عشوائية تماماً، ومن ثم غير عادلة، فالأرواح الحساسة تتساءل ما إذا كان يمكن أن تتوافق مع عدالة الله ومحبته.»

جون ستوت، لاهوتي [1]

بصفتي محرراً شاباً يسعى للمثالية تخرَّج حديثاً من كلية الصحافة، كان أحد أول ما طلب مني في صحيفة شيكاغو تريبيون هو أن أكتب سلسلة مكونة من ٣٠ جزءاً أصوِّر فيها العائلات المُعدمة التي تعيش في المدينة. وبما إنني نشأتُ في الضواحي المتجانسة، التي يُطلق فيها على مَنْ يمتلك سيارة كاديلاك واحدة «إنساناً معوزاً»، سرعان ما وجدتُ نفسي غارقاً في دوامة أكثر

مناطق شيكاغو المُعرَّضة للحرمان ولليأس. بطريقةٍ ما، كانت خبرتي مماثلة لرد فعل تمبلتون لصورة المرأة الإفريقية مع طفلها الميت.

على بُعد مسافة قصيرة من Chicago Magnificent Mile، حيث يجاور برج تريبيون الحكومي stately Tribune Tower متاجر الموضة الفخمة والفنادق الفاخرة، دخلتُ الكوخ الضيق المظلم الفارغ الذي تتشاركه بيرفكتا Perfecta de Jesus البالغة من عمرها الستين عاماً مع حفيدتيها.

لقد عشن هناك ما يقربُ من شهر، ومنذ ذلك الحين تعرَّض مسكنهن السابق المستعمر بالصراصير للحريق.

كانت بيرفكتا – وهي ضعيفة سقيمة – قد نفذتْ نقودها قبل أسابيع، وقد تلقت كميةً صغيرة من معونات أغذية الطوارئ. كانت تمد فترة الطعام بتقديم مجرد الأرز والفاصوليا مع قطع من اللحوم وجبةً بعد الأخرى. وسرعان ما نفذتْ اللحوم، ثم الفاصوليا، وكان كل ما تبقى حفنة من الأرز. وحينما جاءت أخيراً المعونة الحكومية المتأخرة، سُرعان ما نفذتْ بدفع الايجار وفواتير الخدمات العامة، وعادتْ الأسرة من حيث بدأت.

كانت الشقة خالية تماماً تقريباً؛ بلا أثاثٍ، أو أجهزة، أو سجاد. كانت الكلمات تتردَّد صداها خارج الجدران الباهتة والأرضية الخشبية الباردة. حينما انطلقتْ حفيدتها ليديا البالغة من العمر ١١ عاماً في مسيرة نصف ميل إلى المدرسة في الصباح الشتوي القارص، كانت ترتدي مجرد سويتر رمادي خفيف فوق فستانها الملون ذي الأكمام القصيرة. وفي منتصف طريقها إلى المدرسة، كانت تعطي هذا السويتر لأختها جيني المرتعشة من البرد، والبالغة من عمرها ١٣ عاماً، التي ترتدي فستاناً بلا أكمام، وكانت جيني تلف السويتر حول جسدها لبقية الطريق. كانت هذه هي كل الملابس التي يملكنها.

شرحتْ لي بيرفكتا بالإسبانية: «أحاول أن أعتني بالبنات بقدر ما أستطيع؛ فهن طيبات ولا يتذمرن». [٢]

بعد ساعاتٍ، وبعد أن عدتُ بأمانٍ إلى شقتي الفاخرة المُطلة على البحيرة برؤية مثيرة لأغنى ضواحي شيكاغو، شعرتُ بالذهول التناقض. لو كان هناك الله، فلماذا يشعر الناس الطيبون اللطفاء مثل بير فكتا وحفيدتيها بالبرد وبالجوع وسط واحدة من أعظم مدن العالم؟ يوماً بعد يوم بينما توليتُ البحث من أجل سلسلة مقالاتي، قابلتُ أناساً في ظروفٍ مشابهة أو أسوأ من ذلك. وكانت استجابتي هي أن أتعمق في إلحادي.

كان غذائي اليومي كصفحي المصاعب، والمعاناة، والحسرة، وقسوة الإنسان لأخيه الإنسان. وكان هذا لا يظهر في صور المجلات من أماكن بعيدة، لكنه كان ألم الحياة اليومية بصورة شخصية.

نظرتُ في عيني أم شابة كانت قد أُخبرت حالاً أن ابنتها الوحيدة قد تعرّضت للتحرش والتشويه والقتل. أصغيتُ لشهادة المحكمة وهي تصف الأهوال المرعبة التي اُرتكبت ضد الضحايا الأبرياء. زرتُ السجون الفوضوية المُفعمة بالضجيج، وعشوائيات المجتمع، والحضانات ذات الميزانية المنخفضة حيث كبار السن يتحسرون أن أحباءهم قد تركوهم، وعنابر مستشفيات الأطفال حيث الأطفال الضعفاء يحاربون دون جدوى ضد النمو العنيد للسرطان، والمدن الداخلية المشوّشة بالجريمة حيث تجارة المخدرات وإطلاق النار أمور عادية تماماً.

ولكن لم يصدمني شئ بقدر ما صدمتني زيارة لضواحي بومباي، الهند. فعلى طول جانبي الشوارع المزعجة القذرة المزدحمة، على مرمى البصر، كانت هناك أكواخ صغيرة من الخيش والكرتون. وكانت على يمين الطريق أتوبيسات وسيارات تُطلق عوادمها وأدخنتها. كان الأطفال العرايا يلعبون في خنادق الصرف الممتدة عبر المنطقة. وكان الناس ذوى الأعضاء أو الأجسام المفقودة الذين تلتويهم التشوهات يجلسون في التراب في سلبية. كانت الحشرات تطنّ في كل مكان. لقد كان هذا منظراً مرعباً؛ ففي مكانٍ ما قال لي سائق تاكسي إن الناس يولدون على جانبي الطريق، ويعيشون حياتهم بأكملها على جانبي الطريق، ثم

يموتون قبل الأوان على جانبي الطريق.

ثم قابلتُ وجهاً لوجه صبياً في العاشرة من عمره، تقريباً في نفس عمر ابني كايل في ذلك الوقت. كان الطفل الهندي هزيلاً سئ التغذية، وكان شعره متسخاً متلبداً. كانت إحدى عيناه مريضة ونصف مُغلقة، وكانت الأخرى تُحملق بلا تعبيرات. كان الدم ينبثق من الضروس التي في وجهه. مدَّ يده وتلعثم بكلمةٍ بالهندية، بدا أنه يستعطف بها نقوداً. لكن صوته كان نغمة كئيبة لا حياةً فيها، كما لو كان لا يتوقع أية استجابة، وكما لو كان قد فقد كل رجاء.

أين الله من تلك البقعة الفاسدة من الجحيم؟ لو كانت لديه القوة الفورية لشفاء ذلك الصغير، فلماذا امتنع عن ذلك؟ لو كان يُحب هؤلاء الناس، فلماذا لم يُظهر لهم ذلك بإنقاذهم؟ وتساءلتُ قائلاً: «هل هذا هو السبب الحقيقي: أن وجود مثل هذه المعاناة المرعبة التي تسحق القلب تبرهن فعلاً على عدم وجود أب محب صالح؟»

فهم المعاناة

كل إنسان واجه الألم والحزن. فمرض القلب أدى لوفاة أبي حينما كان يجب أن يعيش سنوات طويلة كي يرى حفاده يكبرون. وأنا سهرتُ في وحدة العناية المركزة للمواليد حيث كانت ابنتي الجديدة تصارع مرضاً غامضاً هدَّد حياتها وأزعج أطباءها. هرعتُ للمستشفى بعد مكالمةٍ أليمة من صديق قام سائق سكير بضرب ابنته، وكنتُ أمسك أيديهم في تلك اللّحظة التي فاضتْ فيها روح الصغيرة. اضطررتُ أن أعلن الأخبار لطفلين صغيرين من أبناء إحدى صديقاتي، وهو أن أمهما قد انتحرت. رأيتُ رفاق الطفولة يستسلمون للسرطان، ولمرض Lou Gehrig، ولأمراض القلب، ولحوادث السيارات. رأيتُ الزهايمر وهو يسلب ذهن أحد الأطباء. إني متأكد أنه يمكنك أن تحكي قصصاً مشابهة من الألم الشخصي.

لقد انطلقنا مؤخراً من قرنٍ غير مسبوقٍ بقسوته ووحشيته، حيث ضحايا الطغاة كهتلر، وستالين، وبول بوت، وماوتسي- تانج يُقدَّرون بعشرات الملايين. إن ضخامة القسوة تُخَدر أذهاننا، لكننا عادةً ما نُقابل قصة تُشخِّص الرعب وتجعلنا نرتعد من جديد.

مثال ذلك التقرير الذي كنتُ أقرأه مؤخراً عن صحفي إيطالي خلال الحرب العالمية الثانية كان يزور بافيليك، قائد كرواتيا الموالي للنازية. فعرض له بافيليك متفاخراً سلةً فيها ما يشبه المحار. وقال إنها كانت هدية من قواته – ٤٠ رطلاً من العيون البشرية. تذكار بسيط من مذبحتهم للعرب، واليهود، والغجر. [٣]

نقرأ قصصاً مثل هذه – الشرور المرعبة كالهولوكوست، حقول كمبوديا القاتلة، الإبادة الجماعية في راوندا، وغرف التعذيب في أمريكا الجنوبية – ولا يسعنا إلا التساؤل: أين الله؟ نشاهد التغطية التليفزيونية للزلازل والأعاصير التي يموت فيها الآلاف، ونتساءل: لماذا لم يمنع الله هذا؟ نقرأ احصائية أن ألف مليون إنسان في العالم يفتقدون احتياجات الحياة الرئيسية، ونتساءل: لماذا لا يهتم الله؟ ربما نعاني بأنفسنا من ألم متواصل أو خسارةٍ مؤلمة أو ظروفٍ يائسة على ما يبدو، ونتساءل: لماذا لا يساعدنا الله؟ لو كان الله محباً، ولو كان كُلّي القدرة، ولو كان صالحاً، فكل هذه المعاناة لن توجد بالتأكيد. ومع ذلك فهي موجودة.

والأسوأ من ذلك، أن الأبرياء غالباً ما يكونوا الضحايا. كتب اللاأدري الذي صار مسيحياً شيلدون فانوكين: «لو كان الأشرار فقط هم الذين يُصابون بآلام الظهر وبالسرطان، ولو كان الغشاشون والملتوون هم فقط الذين يُصابون بمرض شلل الرعاش، لرأينا نوعاً من العدالة السماوية في الكون.»

> ولكن، كما هو الحال، نرى طفلاً جميلاً متزناً يحتضر من ورم في المخ، وزوجةً شابة سعيدة ترى زوجها وطفلها يقتلهما سائق سكير أمام عينيها، و ... نصرخ من الأعماق إلى النجوم: «لماذا؟ لماذا؟» ولا يساعدنا ذكر الله – أو إرادة الله. كيف يمكن لإلهٍ صالح، إلهٍ محب، أن يفعل ذلك؟

> كيف يمكنه أن يسمح حتى بحدوثه؟ ولا إجابة تأتينا من النجوم اللامبالية. [٤]

يفتتح الكاتب المسيحي فيليب يانسى كتابه الشهير عن المعاناة بفصلٍ له عنوان مناسب: «مشكلة لن ترحل بعيداً» [٥] ليس هذا مجرد موضوع معرفي للمناقشة في الساحات الأكاديمية العقيمة، لكنه أمرٌ شخصي تماماً يمكنه أن يربط عواطفنا، ويتركنا في دوار روحي – مرتبكين، مرتعبين، وغاضبين. أشار كاتب لمشكلة الألم بأنها «علامة الاستفهام التي أصبحت كالخُطّاف في القلب البشري» [٦]

في الواقع، هذه هي أكبر عقبة وحيدة أمام الباحثين الروحيين. لقد فوَّضتْ جورج بارنا – مستطلع الرأي العام – أن يقوم بعمل استفتاء محلي سأل فيه قطاعاً عريضاً من البالغين المختارين بطريقة علمية: «لو أتيحَ لك أن تسأل الله سؤالاً واحداً، وعرفتَ أنه سيرُد عليك، فماذا ستسأله؟» وكانت أعلى استجابة قدمها ١٧٪ ممن قالوا إن لديهم سؤالاً: هي: «لماذا يوجد الألم والمعاناة في العالم؟» [٧]

تشارلز تمبلتون أيضاً طالب بإجابة هذا السؤال. وقد بدأ انسحابه من الإيمان إثر صورة تلك المرأة الإفريقية – المنشورة في مجلة لايف – وهي تحمل طفلها الميت بسبب نقص بسيط في المطر. في كتابه الذي يستنكر المسيحية، يسرد تمبلتون سلسلة من المآسي من التاريخ القديم والحديث، ثم يُعلن:

> «إلهٌ محب» لا يمكنه أن يكون مصدر الأهوال التي كنا نصفها – الأهوال التي تستمر كل يوم، قد تواصلتْ منذ بدأ الزمان، وسوف تستمر على مدى الحياة. إنها حكاية لا يمكن تصوّرها عن المعاناة والموت. والآن الحكاية حقيقية، أي تُمثّل في الواقع تاريخ العالم، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يوجد إلهٌ محب». [٨]

لا يمكن؟ هل وجود المعاناة يعني بالضرورة غياب الله؟ هل عقبة الإيمان هذه لا تُقهر؟ لكي أؤمن من أعماق القلب بأبٍ محب

كُلي القدرة، هل يلزمني أن أتجاهل حقيقة الشر والألم من حولي؟ كصحفي، لم يكن هناك اختيار. اضطررتُ أن أهتم بكل الحقائق، وكل الأدلة، دون أن أقلّل من شأن شئ.

كنتُ أناقش هذه الموضوعات مع ليزلي في فترةٍ حساسة من حياتها. كان عمها قد مات حالاً، وعمتها قد شخص لها إصابتها بالزهايمر وبالسرطان المتأخر. وفيما كانت قد تأثرت بهذا الاضطراب، كانت متيقظة لأي إنسانٍ يحاول أن يعطيها إجابات سهلة.

فحذرتْ قائلة: «لو اعتقد أي إنسانٍ أن بإمكانه أن يضع كل الأمور في شكل منظم بسيط، ويُغلّفه بتفسيرٍ لاهوتي جميل، فليذهب لمكانٍ آخر.»

علمتُ أنها كانت على حق. ولهذا رتبتُ مكالمةً هاتفية لكلية بوسطن وطلبتُ تحديد ميعاد مع مؤلف كتاب «فهم المعاناة» - وهو كتاب كان عنوانه يُلخص تماماً ما كنتُ أسعى إليه.

اللقاء الأول: بيتر جون كريفت- دكتوراه في الفلسفة

أودُ أن أشير إلى بيتر كريفت باعتباره «اللافيلسوف». وهذا ليس معناه أنه ليس بفيلسوف، فهو في الحقيقة فيلسوف مفكر من الدرجة الأولى، إذ يحمل شهادة دكتوراه من جامعة فوردهام، ودراسات عليا في جامعة ييل، ولديه خبرة مدة ٣٨ عاماً كأستاذ فلسفة في جامعة فيلانوفا، وجامعة بوسطن (منذ العام ١٩٦٥). لقد حاضر مثل هذه المحاضرات كالميتافيزيقا، والأخلاق، والتصوف، والجنس، والفلسفة الشرقية، واليونانية، والمعاصرة، وفلسفة العصور الوسطى. وحصل على الكثير من الامتيازات كعضوية وودرو ويلسون، وييل-ستيرلنج.

ومع ذلك، فلو كنتَ بصدد أن تستحضر لذهنك صورةً عقلية لفيلسوفٍ تقليدي، فمن المحتمل ألا يخطر كريفت على بالك. فالفلاسفة يتخيلهم الآخرون بشكلٍ عام على أنهم مملين قليلاً، ويتكلمون في جملٍ غامضة معقدة، ساكنين في الأبراج الأكاديمية

العاجية المنعزلة، وحادين لدرجة العناد.

على النقيض من ذلك، يعطي كريفت إجابات واقعية حقيقية بأسلوبٍ مُلفت وممتع، وهو يتواصل بوضوح، غالباً بتكرارٍ مشهورٍ لجملةٍ معينة، ويتمتع بابتسامةٍ عريضة، ولا يمكنه أنْ يمنع نفسه من إلقاء النكات حتى عن أقدس الموضوعات. ورغم إنه في الثانية والستين من عمره، إلا إنه يمكنه أن يوجد باستمرار على أي شاطئ وهو يمارس هواية التجذيف (في كتابٍ لاحقٍ له، سيكون أحد عناوين فصوله «أنا أجذف، إذاً أنا موجودٌ).

كتب كريفت – وهو كاثوليكي يقرأه البروتستانت أيضاً على نطاقٍ واسع – أكثر من ٤٠ كتاباً بما فيها «الحب أقوى من الموت»؛ السماء: أعمق اشتياقات القلب؛ الصلاة: الحوار العظيم؛ دحض النسبية الأخلاقية؛ دليل الدفاع المسيحي (مع رونالد تاسيللي). إن خياله النافذ واضحٌ بشكلٍ خاص في كتابه «بين السماء والجحيم» الذي يُصوِّر سي إس لويس، و جون ف. كينيدي، ألدوس هكسلي بعد الموت يتجادلون حول المسيح، وفي كتابه «سقراط يقابل يسوع» الذي يصير فيه المفكر القديم مسيحياً في كلية لاهوت هارفارد.

لمستُ روح دعابة كريفت غير العادية حتى قبل أن أدخل مكتبه. فبينما كانت أبواب المكاتب الستة عشرة الأخرى قاتمة اللون، والممر خافت الإضاءة غير مجهولة المعالم، كان مكتب كريفت مزيناً بكارتون دونسبيري & ديلبرت وتذكارات أخرى فكاهية – رسم ثور مطعون بضربة، صورة ألبرت أينشتين وهو يُخرج لسانه في مرح، كرتون فيه يُحيي الشيطان الناس في الجحيم قائلاً: «ستجدون أنهُ لا يوجد صواب أو خطأ هنا – فقط ما يُناسبكم.»

كان ما جذبني إلى كريفت هو كتابه النافذ عن المعاناة، والذي ينسج فيه بمهارة رحلة استكشافية من خلال سقراط، وأفلاطون، وأرسطو؛ ومن خلال أغسطينوس، وكيركيجارد، وديستوفسكي؛ ومن خلال سلسلة أفلام رحلة عبر النجوم Star Trek، وقصة الأطفال «الأرنب المخملي The Velveteen Rabbit، وهاملت؛

ومن خلال موسى، وأيوب، وإرمياء. وطوال الطريق هناك مفاتيح الحل التي تلتقي أخيراً وحتماً عند يسوع ودموع الله.

وصلتُ مبكراً وانتظرته في المدخل. وسرعان ما وصل منتعشاً من اجتماع فلسفي كان قد عُقدَ في مكانٍ ما في بوسطن. كان معطفه البنيّ الصوفي، ونظارته السميكة، وشعره الرمادي الأسمر المُرَتب قد منحاه مظهراً أبوياً. جلس خلف مكتبه (وأمامه لوحة تقول: «لا للكآبة»، وبدأنا بالثرثرة العادية حول فريقه المحبوب بوسطن ريد سوكس- وهو موضوعٌ مناسب لموضوعنا عن المعاناة!

لكني آنذاك غيرتُ مساري. فلم يكن هناك مدخلٌ آخر إلا أن أواجه كريفت باعتراضات تمبلتون الحادة ضد المسيحية المُتمثلة في تلك الصورة المنشورة في مجلة لايف Life؛ والتي تُصوِّر أماً متحسرة تحمل طفلها الميت في إفريقيا المنكوبة بالجفاف.

دب، و فخ، و صياد، و الله

بمواجهة كريفت بنفس الحدة الانفعالية التي صوَّرها لي تمبلتون، وصفتُ له الصورة، ثم اقتبستُ كلمات المُبشر السابق كلمةً كلمة:

> فكرتُ قائلاً: «هل من الممكن أن أؤمن بوجود خالق محب أو مهتم بينما كان كل ما تحتاجه هذه المرأة هو المطر؟ كيف يمكن لإلهٍ محب أن يفعل هذا لتلك المرأة؟ مَنْ يُجري المطر؟ لا أنا، ولا أنت. بل هو – أو هذا ما كنتُ أعتقده. لكنني حينما رأيتُ هذه الصورة، عرفتُ على الفورِ أنه من غير الممكن أن يحدث هذا طالما أن هناك إلهاً محباً. لم تكن هناك طريقة. مَنْ سوى عدو يمكنه أن يفني طفلاً ويقتل أمه بالعذاب – بينما كل المطلوب هو المطر؟... ثم بدأتُ أنا ... مُفكراً في الأمراض التي تحصد أجزاءً واسعة من كوكب الأرض وفي النهاية تقتل بلا تمييز ... وقد أصبح من الواضح جداً بالنسبة لي أنه من غير الممكن لإنسانٍ

ذكي أن يؤمن أن هناك إلهاً يُحب.

تطلعتُ من بين مذكراتي. فتثبتتْ عينا البروفيسور عليَّ. وفيما واجهته بقوةٍ، منحنياً للأمام وأنا في مقعدى باحثاً عن تأكيدٍ، قلتُ في نغمةٍ أشد اتهاماً: «د. كريفت، أنت إنسانٌ عالم وتؤمن بإلهٍ يحب. فكيف ترد على تمبلتون؟»

سعلَ كريفت لتنقية صوته. وبدأ قائلاً: «أولاً سأُركز على كلماته التي تقول: «من غير الممكن»، فحتى ديفيد هيوم – أحد أشهر المتشككين في التاريخ – قال إنه من الممكن أن يكون الله موجوداً بالكاد. وهذا على الأقل وضعٌ عقلاني نوعاً ما – أن نقول إن هناك إمكانية بسيطة على الأقل. ولكن أن نقول لا إمكانية لوجود إله محب يعرف أكثر جداً مما نعرف، بما فيه مستقبلنا، يمكن أن يتساهل مع مثل ذاك الشر الذي يراه تمبلتون في إفريقيا – حسناً، فهذا سيشير إلى أنني متكبراً معرفياً.»

صدمني هذا. فسألته: «حقاً؟» كيف هذا؟»

فسألني: «كيف يمكن لمجرد إنسانٍ محدود أن يتأكد أن الحكمة اللامحدودة لا تسمح بشرورٍ معينة قصيرة المدى في سبيل خيرات طويلة المدى لم نستطع أن نتنبأ بها؟

استطعتُ أن أفهم ما يقصده، لكني أردتُ مثالاً. فالتمستُ قائلاً: «وضِّح قليلاً.»

فكر كريفت للحظةٍ وقال: «فكر في الأمر هكذا، هل توافق بأن الاختلاف بيننا وبين الله أعظم من الاختلاف بيننا وبين الدب مثلاً؟

فأومأتُ رأسي موافقاً. فقال: «حسناً إذاً، تخيل دباً واقعاً في فخ، وهناك صيادٌ - من واقع شفقته – يريد أن يُحرّره. يحاول الصياد أن يكسب ثقة الدب، لكنه لا يستطيع، ولهذا يضطر أن يصطاده بمادة مخدرة. ومع ذلك فإن الدب يحسب أن هذا هجوماً عليه، وأن الصياد يحاول قتله. ولا يدرك أن هذا كله بدافع الشفقة.

«ولذلك، لكي يُخرج الصياد الدب من الفخ، عليه أن يدفعه أكثر

داخل الفخ حتى يخفف من توتر الدب المتحفز. لو كان الدب واعياً وعياً متوسطاً في تلك المرحلة، فسوف يكون أكثر اقتناعاً أن الصياد هو عدوه الذي انطلق ليسبب له المعاناة والألم.

ولكن الدب سيكون على خطأ. فهو يصل لذلك الاستنتاج الخاطئ لأنه ليس إنساناً.

سمح كريفت أن يتردد صدى المثال للحظات. واستنتج قائلاً: «والآن، كيف يمكن لأي إنسانٍ أن يكون متأكداً أن هذا ليس تشابهاً جزئياً بيننا وبين الله؟ أؤمن أن الله يفعل نفس الشئ لنا أحياناً، ونحن لا نفهم لماذا يفعل ذلك - كالدب الذي لا يفهم دوافع الصياد. فكما كان للدب يمكنه أن يثق بالصياد، هكذا يمكننا نحن أن نثق بالله».

الإيمان والتحيز

توقفتُ لأفكر في فكرة كريفت، لكنه واصل حديثه قبل أن أجيب.

فقال: «ومع ذلك، فأنا لا أريد بالطبع أن أحط من قدر تمبلتون. فهو سيستجيب بأسلوب أمين جداً ومُفعم بالمشاعر لحقيقة أن هناك شيئاً يُحسب ضد الله. فالإيمان يمكنه أن يوجد فقط في عالم يكون فيه الإيمان صعباً. أنا لا أؤمن بأن ٢ + ٢ = ٤ أو بشمسٍ الظهيرة؛ فهذه أمور خارج المناقشة. لكن الكتاب المقدس يصف الله كإله مُحتجب. عليك أن تقوم بمجهود إيمان حتى تجده. وهناك مفاتيح يمكنك أن تتبعها.

«ولو لم تكن الأمور هكذا، لو كان هناك شئٌ أكبر أو أقل من مفاتيح الحل، فمن الصعب بالنسبة لي أن أفهم كيف يمكننا حقاً أن نحرز لعمل اختيار بخصوصه. لو كان لدينا دليلٌ قاطع بدلاً من مفاتيح الحل، فلا يمكنك فيما بعد أن تنكر الله أكثر من إنكارك الشمس. ولو لم يكن لدينا دليلٌ على الإطلاق، فلن تصل أبداً. الله يعطينا مجرد الدليل الكافي حتى أن الذين يريدونه يكون لهم. أولئك الذين يريدون اتباع مفاتيح الحل سيفعلون ذلك.

يقول الكتاب المقدس: «اطلبوا تجدوا» [٩] إنه لا يقول إن كل إنسان سيجده، ولا يقول إنه لن يجده إنسان. بل البعض سيجدون. فمَنْ هم؟ مَنْ يطلبون. أولئك الذين قلوبهم مُكرَّسة للعثور عليه، وأولئك الذين يتبعون مفاتيح الحل».

فقلتُ فجأةً: «مهلاً، فمنذ قليلٍ صَرَّحتَ أن «هناك شيئاً يُحسب ضد الله»، وأن الشر والمعاناة أدلة ضده. ألا تُسلِّم إذاً أن الشر يبرهن على عدم وجود الله؟» ضربتُ يدي على مكتبه، وصرختُ بسخرية الانتصار قائلاً: «انتهت القضية!»

فتراجع كريفت قليلاً إثر ثورتي وصمم قائلاً وهو يهز رأسه: «لا، لا، أولاً لا يمكن أن يكون الدليل بالضرورة مؤكداً أو حاسماً. فأنا أقول إن هناك دليلاً ضد الله ودليلاً مع الله. أغسطينوس عبرَّ عن ذلك بمنتهى البساطة: «لو لم يكن هناك الله، فلماذا هناك الكثير جداً من الخير؟ ولو كان هناك الله، فلماذا يوجد الكثير جداً من الشر؟»

«لا جدال أن وجود الشر حُجة ضد الله، لكنني في أحد كتبي ألخص ٢٠ حجة تشير بإقناع في الإتجاه الآخر، في صالح وجود الله. [١٠] لا بدَّ على الملحدين أن يردوا على البشرية الحجج كلها، وعلى المؤمنين أن يردوا على حجةٍ واحدة فقط. ومع ذلك، فكل منا عليه أن يُدلي بصوته. الإيمان عامل يتطلب استجابة. وعلى عكس العقلانية التي تنحني في خضوعٍ للدليل، فإن الإيمان متحيز.»

أثارتني هذه الكلمة الأخيرة، فسألته: «ماذا تعني بـ «متحيز؟»»

فأجابني: «افترض أن رجال شرطة دخلوا هذه الغرفة وقالوا إنهم قد أمسكوا للتو زوجتي وهي تقتل ١٣ فرداً من الجيران بقطع رءوسهم، وأن لديهم شهوداً. يمكنني أن أسخر منه قائلاً: «لا، لا يمكن أن يكون هذا. أنت لا تعرفها كما أعرفها أنا.» فيقول: «أين دليلك؟» فأجيبه «إنه دليل من نوع مختلف عن دليلك أنت. ولكن هناك دليل أن هذا لا يمكن أن يكون قد حدث». وهكذا فأنا متحيز.

«ومع ذلك، فإن تحيزي هو تحيزٌ معقول لأنه مبني على الدليل

الذي حصلته من نفس خبرتي الواقعية. ولذلك فإن من يعرف الله يملك الدليل – ومن ثم يتحيز بناءً على هذا الدليل الذي لا يملكه من لا يعرف الله».

الشر كدليل في صالح الله

توقف كريفت لعدة ثوانٍ قبل إضافة تلك الإشارة غير المتوقعة والمضادة للحدس: «بالإضافة إلى ذلك، فإن دليل الشر والمعاناة يمكنه أن يسير في كلا الاتجاهين – ففي الواقع يمكنه أن يُستخدم في صالح الله».

انتصبتُ في جلوسي وتساءلتُ: «هل هذا معقول؟»

فقال كريفت: «فكر في هذا: لو كان تمبلتون على حق بالاستجابة لهذه الأحداث بثورة، فسوف تكون تلك الافتراضات المُسبقة حقاً اختلاف بين الخير والشر. إن حقيقة أنه يستخدم معيار الخير للحكم على الشر - أي حقيقة أنه يقول بكل حق إن هذه المعاناة المرعبة ليست ما يجب أن يكون – معناها أن لديه مفهوماً عما يجب أن يكون، وأن هذا المفهوم يقابل شيئاً واقعياً؛ وهذه حقيقة اسمها الخير الأسمي. حسناً، إنها اسماً آخر لله Supreme Good.»

بدا هذا الكلام وكأنه براعة فلسفية. وفي حرص لخصتُ فكرة كريفت كي أرى ما إن إذا كنتُ قد فهمتها. وسألته: «هل تقصد أن تمبلتون من الممكن أنه يشهد – دون أن يدري – عن حقيقة الله، لأنه بتعريف الشر يفترض بالتالي أن هناك معياراً موضوعياً يبني عليه؟»

فأجابني: «هذا صحيح. فلو أعطيتُ طالباً ٩٠ درجة وآخر ٨٠، فهذا يفترض مسبقاً أن المائة درجة هي معيار حقيقي. وهذه فكرتي: لو لم يكن هناك الله، فمن أين جئنا بمعيار الخير الذي يُحكم به على الشر بأنه شر؟» والأهم – كما قال سي إس لويس – لو كان الكون رديئاً جداً ... فكيف يمكن للبشر من نسب ذلك لعمل خالق حكيم صالح؟» وبأسلوب آخر، فإن وجود هذه الأفكار نفسها في عقولنا – مثل فكرة الشر، والأفكار الخاصة بالخير،

والله كمصدر ومعيار الخير – تحتاج تفسيراً».

قلتُ متأملاً: «ضربة مضادة جيدة». وسألته: «هل هناك أية طرق أخرى تؤمن بها أن الشر يعمل ضد الإلحاد؟»

فأجابني قائلاً: «نعم، لو لم يكن هناك الخالق، ومن ثم لا توجد لحظة خلق، يكون كل شئ نتيجة التطور. لو لم تكن هناك بداية أو عَلة أولى، فلا بدَّ أن يكون الكون قد وُجِدَ على الدوام. وهذا معناه أن الكون كان يتطور لمدة لانهائية من الزمان – وبهذه الخطة يكون كل شئ مكتملاً تماماً. وكانت ستكون هناك الوفرة من الوقت للتطور. ولكن ما زال الشر والمعاناة والنقص موجوداً – وهذا برهان أن الملحد مخطئ بخصوص الكون».

فقلتُ: «إذاً الإلحاد ليس إجابة كافية لمشكلة الشر؟»

فقال: «ربما يكون إجابة سهلة، ولو جاز التعبير، إجابة رخيصة. فالإلحاد رخيص بالنسبة للناس، لأنه يقول باستعلاء إن تسعة من عشرة أشخاص عبر التاريخ كانوا مخطئين بخصوص الله وكانت لديهم أكذوبة في أعماق قلوبهم.

فكر في الأمر. كيف يمكن أن ٩٠٪ من كل البشر الذين عاشوا عبر العصور – أحياناً في ظروفٍ أشد ألماً من ظروفنا نحن – استطاعوا أن يؤمنوا بالله؟ إن الدليل الموضوعي، أي مجرد النظر إلى معيار المتعة والمعاناةِ في العالم، لا يبدو أنه يُبرِّر الإيمان بإلهٍ صالح تماماً. لكن هذا ما أؤمن به على مستوى العالم تقريباً.

«هل كلهم مجانين؟ حسناً، أعتقد أنه يمكنك أن تؤمن بذلك لو كنتَ من الصفوة نوعاً ما. ولكن ربما – مثل ليو تولستوي – يكون علينا أن نتعلم من الفلاحين. ففي سيرته الذاتية، يتصارع مع مشكلة الشر. لقد رأى أن الحياة فيها من المعاناة أكثر من المتعة، وفيها من الشرِ أكثر من الخير؛ ومن ثم فقد كانت تبدو بلا معنى. كان يائساً جداً حتى إنه حاول أن يقتل نفسه. وقال إنه لم يعرف كيف يمكنه تحمُلَ ذلك.

ثم قال: «مهلاً، فمعظم الناس يحتملون حقاً. معظم الناس

يعيشون حياةً أشد قسوة من حياتي، ومع ذلك يجدونها رائعة. كيف يمكنهم ذلك؟ لا بتفاسير، بل الإيمان.» لقد سمع من الفلاحين ووجد الإيمان والرجاء. [١١]

لذلك فالإلحاد يعامل البشر بأسلوب رخيص. وهو أيضاً يسلب المعنى من الموت. فلو كان الموت بلا معنى، فكيف يكون للحياة أخيراً معنى؟ إن الإلحاد يُرّخص كل ما يلمسه. أنظر إلى نتائج الشيوعية - أقوى صور الإلحاد الموجودة على الأرض.

وفي النهاية، حينما يموت الملحد ويقابل الله بدلاً من العدم الذي كان يتوقعه، فسوف يعرف أن الإلحاد كان إجابة رخيصة لأنه رفض الشئ الوحيد الغير رخيص – إله القيمة اللانهائية.»

مشكلة منطق

لقد أطلق كريفت بعض النقاط المبدئية الشيقة، لكننا كنا نتأرجح حول الموضوع قليلاً، وقد آن أوان تسوية الأمور. باستخراج بعض النقاط التي كتبتها في عجالةٍ في الطائرة، تحديتُ كريفت بسؤال بلّور المناظرة.

قلت: «المسيحيون يؤمنون بخمسة أمورٍ: أولاً أن الله موجود؛ ثانياً أن الله كُلي الصلاح؛ ثالثاً: أن الله كُلي القدرة؛ رابعاً أن الله كلي الحكمة؛ وخامساً أن الشر موجود. والآن، كيف يمكن أن تكون كل هذه الأمور صحيحة في نفس الوقت؟»

ارتسمتْ ابتسامة غامضة على وجه كريفت، وقال: «يبدو أنها لا يمكن أن تكون كذلك. أتذكر واعظاً متحرِّرا حاول مرة أن يثنيني عن متابعة الأصوليين. وقال لي: «توجد مشكلة منطقية هنا – فأنت يمكنك أن تكون ذكياً، أو شريفاً، أو أصولياً، أو أي اثنين من الثلاثة، ولكن ليس الثلاثة معاً. وقال صديقي الأصولي: سأقول لك، يمكنك أن تكون شريفاً، أو ذكياً، أو متحرراً، أو أي من الاثنين، ولكن ليس الثلاثة كلها».

ضحكتُ بسماع القصة، وقلت: «لدينا نفس نوع المشكلة

المنطقية».

فقال: «نعم، يبدو أنه عليك أن تطرح جانباً أحد هذه المعتقدات. فلو كان الله كُلي القدرة، فهو يمكنه كل شئ. ولو كان كُلي الصلاح، فهو يريد الخير وحده. ولو كان كُلي الحكمة، فهو يعرف ما هو الخير. وهكذا لو كانت كل هذه المعتقدات صحيحة ــ وأن المسيحيون يؤمنون بصحتها - فيبدو أن النتيجة هي أن الشر لا يمكنه أن يوجد.»

فقلتُ: «لكن الشر موجود حقاً، أليس من المنطقي إذن أن نفترض أن مثل هذا الإله غير موجود؟»

فقال: «لا، فسوف أقولُ لك إما أن تكون إحدى هذه المعتقدات عنه خاطئة، أو أننا لا بدَّ أننا لا نفهمها بالطريقة الصحيحة».

آن أوان الاستكشاف؛ فدعوتُ كريفت بسرعة لفحص هذه الصفات الإلهية الثلاث: الله كُلي القدرة، كُلي الصلاح، وكُلي المعرفة ــ واحدة في كل مرة في ضوء وجود الشر.

الصفة الأولى: الله كُلِّي القدرة

تساءل كريفت: «ماذا نقصد حينما نقول إن الله كُلِّي القدرة؟» ثم أجاب: «هذا معناه أنه يمكنه أن يفعل كل شئ له معنى، كل شئ ممكن، كل شئ يُشكِّل معنى بوجه عام. الله لا يمكنه أن يجعل نفسه يتوقف عن الوجود. ولا يمكنه أن يجعل الخير شراً.»

فقلتُ: «لذلك فهناك بعض الأشياء التي لا يمكن أن يقوم بها الله رغم إنه كلي القدرة.»

فأجاب: «في وضوح، لأن الله كُلِّي القدرة، لا يمكنه القيام ببعض الأشياء. لا يمكنه ارتكاب الأخطاء. فالكائنات الغبية الضعيفة فقط هي التي تخطئ. وأحد هذه الأخطاء هو محاولة خلق معارضة ذاتية، مثل ٢+٢ = ٥ أو عمل مربع دائري.

«والآن، فإن الدفاع الكلاسيكي عن الله ضد مشكلة الشر هو إنه من غير الممكن منطقياً أن تكون لدينا حرية الإرادة وعدم

إمكانية الشر الأخلاقي. وبأسلوب آخر، ذات مرة اختار الله أن يخلق البشر بحرية إرادة، فكان الاختيار يعود إليهم أكثر مما يعود إلى الله فيما يخص وجود الخطية من عدمه. هذا هو معنى حرية الإرادة. إن فرصة الشر، ومن ثم المعاناة الناتجة عن ذلك، مبنية في موقف الله وهو يقرر أن يخلق البشر».

«إذاً الله هو خالق الشر؟»

«لا، لقد خلق الله إمكانية الشر، والناس قاموا بتفعيل هذه الإمكانية. مصدر الشر ليس قوة الله بل حرية البشر. فحتى الله كلي القدرة لم يمكنه أن يخلق عالماً تكون فيه للناس حرية أصلية، ومن ثم لا تكون هناك أية إمكانية للخطية؛ وذلك لأن حريتنا تتضمن إمكانية الخطية بمعناها الطبيعي. إنها معارضة ذاتية – عدم العدم – أن يكون هناك عالم يكون فيه اختيار حقيقي بينما لا تكون فيه - في نفس الوقت - إمكانية اختيار الشر. وأن تسأل لماذا لم يخلق الله مثل هذا العالم هو أن تسأل لماذا لم يخلق الله لوناً لا لون له، أو لماذا لم يخلق مربعات دائرية».

«إذن لماذا لم يخلق الله عالماً بلا حرية إنسانية؟»

«لأن هذا سيكون عالماً بلا بشر. هل يمكن وجود مكان بلا كراهية؟ نعم. مكان بلا معاناة؟ نعم. ولكنه سيكون أيضاً مكاناً بلا محبة، التي هي أعلى قيمة في الكون. الخير الأسمى لا يكون قد اختبر أصلاً. والمحبة الحقيقية – محبتنا لله ومحبتنا لبعضنا البعض – لا بدَّ أن تتضمن اختياراً. ولكن بمنح هذا الاختيار، تأتي إمكانية أن الناس يختارون أن يكرهوا بدلاً من ذلك.»

قلت له: «ولكن أُنظر إلى سفر التكوين؛ فالله خلق عالماً كان فيه الناس أحرار ومع ذلك لم تكن هناك خطية.»

قال كريفت: «هذا تماماً ما قاله. فبعد الخلق، أعلن أن العالم كان «حسن». كان الناس أحراراً لاختيار أن يحبوا الله أو يتحولوا عنه. ومع ذلك، فمثل هذا العالم هو بالضرورة مكان تكون فيه الخطية ممكنة بصورة حرة. وفي الواقع فهذه الإمكانية لارتكاب الخطية لم يفعّلها الله، بل البشر. وأخيراً فإن اللوم يقع علينا. الله قام

بما عليه تماماً، ونحن الذين أخطأنا.»

فأشرتُ قائلاً: «إن الحاخام هارولد كاشنر يصل إلى خاتمةٍ مختلفة في كتابه الأكثر مبيعاً «عندما تحدث الأشياء السيئة للأخيار»؛ فهو يقول «إن الله ليس كُلِّي القدرة بعد كل هذا – وأنه يريد أن يساعد، لكنه ليس قادراً على حل كل المشكلات في العالم. وقال «حتى الله لديه وقت عصيب يتحكم فيه في الفوضى.» (١٢)

فرفع كريفت حاجبه قائلاً: «بالنسبة للحاخام، هذا الأمر يصعب فهمه، لأن المفهوم اليهودي المميز حول الله هو عكس ذلك. والأمرٍ المثير ضد الدليل يبدو هوٍ أن اليهود قد صمموا أن هناك إلهاً كُلِّي القدرة، ومع ذلك ليس كُلِّي الصلاح.

«لا يبدو أنِ الأمر الآن مُقنعاً كالوثنية التي تقول إنه لو كان الشر مقصوداً في العالم، فلا بدَّ أن تكوِن هناك آلهة عديدة، كل منها أقل من كونها كلية القدرة، بعضِها صالح، وبعضها شرير، ولو كان هناك إلهٌ واحد، فهو يواجه قوى لا يمكنه أن يتحكم فيها تماماً. وقد كانت هذه فلسفة شائعة جداً حتى إعلان اليهودية عن الإله الحقيقي.»

فقلتُ مُوَّجهاً كلامي كجملة أكثر منها سؤال: «أنت لا تؤمن كثيراً بإله كوشنر.»

فأجابني وهو يهز كتفيه: «بصراحة، هذا الإله يصعب استحقاق الإيمان به. فهل يكون لديّ أخ أكبر يفعل ما يستطيع ولكن ليس كثيراً؟ حسناً، من يهتم؟» في واقع الأمر هذا هو نفس معنى الإلحاد. اعتمد على نفسك أولاً وبعد ذلك يمكن أن يكون هناك الله أو لا يكون.

«لا، فالدليل هو أن الله كُلِّي القدرة. وما يجب أن نتذكره هو أن خلق عالم تكون فيه حرية الإرادة وعدم إمكانية الخطية هو معارضة ذاتية – وهذا يفتح الباب للناس لاختيار الشر بدلاً من الله، وتكون المعاناة هي النتيجة. إن الأغلبية الساحقة من الألم المستشري في العالم سببه اختياراتنا للقتل، والتشهير، والأنانية، والجموح الجنسي، وكسر وعودنا، والتهور.»

الصفة الثانية: الله هو كُلِّي المعرفة

طلبتُ من كريفت أن ينتقل للصفة الإلهية التالية – كلية معرفة الله. فضبط جلسته للشعور بمزيد من الراحة، وإتجه ببصره إلى الجانب كما لو كان يستجمع أفكاره من جديد.

وقال: «لنبدأ هكذا: بما أن الله كُلِّي الحكمة، فهو يعرف لا الحاضر فقط، بل المستقبل أيضاً. ولا يعرف خير وشر الحاضر فقط بل خير وشر المستقبل أيضاً. وبما أن حكمته تسبق حكمتنا كثيراً - كما أن حكمة الصياد تسبق حكمة الدب - يكون من الممكن على الأقل، وعلى خلاف تحليل تمبلتون، أن يتساهل إله محب صامتاً مع الأمور المرعبة كالمجاعة لأنه يرى أنه على المدى الطويل سيكون المزيد من الناس أفضل وأسعد مما لو كان قد تم التدخل في الأمر بصورةٍ معجزية. هذا ممكن عقلياً على الأقل.

قلتُ وأنا أهز رأسي: «لا يزال هذا صعب القبول، فهو يبدو كمراوغة بالنسبة لي.»

فردّ كريفت قائلاً: «حسناً، إذاً، لنختبر هذا. أنت تعلم أن الله قد بيّن لنا بكل وضوح وبشكلٍ خاص كيف يمكن أن يعمل هذا. وشرح لنا كيف أن أسوأ شئ حدث في تاريخ العالم قد انتهى بأفضل شئ حدث أيضاً في تاريخ العالم.»

«ماذا تقصد؟»

فأجابني: «أُشير إلى موت الله dei-cide؛ أي موت الله نفسه على الصليب. في نفس الوقت لم ير إنسان كيف يمكن أن ينتج شيئاً طيباً من هذه المأساة. ومع ذلك فقد رأى الله مسبقاً أن النتيجة ستكون انفتاح السماء للبشر. وهكذا فإن أسوأ مأساة في التاريخ جاءت بأمجد حدث في التاريخ. وبما أن هذا قد حدث من قبل - بما أن منتهى الشر يمكنه أن ينتج منتهى الخير – يمكنه أن يحدث أيضاً في مكانٍ آخر، حتى في حياتنا الشخصية. وهنا يرفع الله

الستار ويدعونا كي نراه. وفي مكانٍ آخر يقول ببساطة: «آمنوا بي.»

«كل هذا معناه أن الحياة الإنسانية درامية بصورةٍ لا تُصدَّق، مثل قصة لا تعرف نهايتها بأكثر من صيغة علمية. في الواقع، لنتبع خط هذه القصة الدرامية لمدةٍ قصيرة.

«افترض أنك الشيطان. أنت عدو الله وتريد أن تقتله، لكنك لا تستطيع. ومع ذلك، فهو لديه نقطة الضعف السخيفة هذه لخلق ومحبة البشر – أولئك الذين تستطيع أن تسيطر عليهم. آها! الآن حصلت على رهائن! وهكذا تنزل ببساطة إلى العالم، وتُفسد الجنس البشري، وتسحب بعضاً منهم إلى الجحيم. وعندما يرسل الله الأنبياء لتنويرهم، فأنت تقتل الأنبياء.

«ثم يقوم الله بعمل أكثر الأمور حماقةً على الإطلاق – يرسل ابنه الوحيد ويتلاعب بقواعد العالم. تقول لنفسك: «لا يمكنني أن أؤمن أنه بمثل هذا الغباء! لقد أفسدتْ المحبة عقله! كل ما عليّ هو أن ألهم بعضاً من عملائي – هيرودس، وبيلاطس، وقيافا، والجنود والرومان – وأجعله يُصلب». وهذا ما تريده.

«وهكذا يُعلَّق هناك على الصليب – متروكاً من الإنسان ومتروكاً – كما يبدو – من الله، ينزف حتى الموت، ويصرخ قائلاً: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» ماذا تشعر الآن باعتبارك الشيطان؟ تشعر بالانتصار وتبرئة ساحتك! لكنك بالطبع لم يكن من الممكن أنت تكون أكثر خطأ. فهذا هو أعظم انتصاراته وأقسى هزائمك. لقد سحق عقبه في فمك، وأنت تراهن أن هذا الدم قد حطمك.

«والآن، لو لم يكن هذا حدث استثنائي، بل نموذجاً للموقف البشري، إذاً عندما ننزف نحن أو نعاني – كما عانى المسيح – فمن المحتمل أن يكون نفس الشئ هو الذي يحدث. ربما تكون هذه هي طريقة الله لهزيمة الشيطان.

«في وقت الصلب، لم يقدر التلاميذ أن يروا كيف يمكن أن ينتج أي شئ صالح. وهكذا عندما نواجه الصراعات والتجارب والمعاناة، لا يمكننا أن نتخيل أحياناً ظهور الخير. لكننا رأينا كيف

كان ذلك في حالة يسوع، ويمكننا أن نؤمن بحدوث ذلك في حالتنا أيضاً. على سبيل المثال، يبدو أن أعظم المسيحيين في التاريخ يقولون إن معاناتهم قد انتهت بجلعهم أكثر اقتراباً إلى الله – ولذلك فهذا هو أفضل شئ يمكن أن يحدث، وليس أسوأ شئ.»

الصفة الثالثة: الله كُلي الصلاح

وصلنا بذلك إلى صفة صلاح الله.

بدأ كريفت: «الصلاح» كلمة يُساء فهمها بشكل كبير، لأنه حتى في العلاقات البشرية هناك مثل هذا المدى الواسع للمعنى. لكن الفرق – مرةً أخرى – بيننا وبين الله أعظم حقاً من الفرق بيننا وبين الحيوانات، وحيث إن الصلاح يتنوع بشكلٍ كبير بيننا وبين الحيوانات، فلا بدَّ أنه يتنوع بشكلٍ أكبر بيننا وبين الله.»

قلتُ: «موافق، لكنني لو بقيتُ ساكناً ولم أفعل شيئاً بينما طفلي قد دهمته شاحنة، لا أكون صالحاً بأي معنى للكلمة. سأكون أباً شريراً لو فعلتُ هذا. والله يفعل مرادف ذلك. فهو يبقى ساكناً ويرفض أداء المعجزات لإنقاذنا من الأخطاء التي هي أقسى حتى من مجرد إصابة شاحنة. لذلك لماذا لا يكون شريراً؟»

فأومأ كريفت قائلاً: «يبدو إنه كذلك، لكن حقيقة أن الله يسمح لنا بأشياءٍ معينة – التي لو سمحنا نحن بها لحوّلتنا إلى وحوش – لا تُحسب بالضرورة ضد الله.

لم أفهم حجته، فقلتُ له: «ستضطر لشرح ذلك.»

فأجابني: «حسناً، لأقل لك تشابهاً لذلك في العلاقات البشرية: لو قلتُ لأخي الذي يقارب عمري: يمكنني أن أنقذك من مشكلة، ولكني لن أنقذك، فمن المحتمل أن أكون بذلك متساهلاً وربما شريراً. لكننا نفعل هذا مع أطفالنا طوال الوقت. فنحن لا نقوم بعمل الواجب لهم. ولا نحاول أن نحميهم من كل أذى.

«أتذكر حينما كانت إحدى بناتي في الرابعة أو الخامسة، وكانت تحاول أن تضع خيطاً في إبرة وهي في جمعية الكشافة Brown-

ies. كان هذا صعب للغاية بالنسبة لها؛ فقد حاولتُ طوال الوقت، وجرحتْ اصبعها، ونزفتْ مرتين. وكنتُ أراقبها، لكنها لم تراني. لقد حاولتْ مراراً.

«كانت غريزتي الأولى هي أن أذهب وأفعل ذلك من أجلها لأنني رأيتُ قطرةً من الدم. لكنني بحكمةٍ تراجعتُ لأني قلتُ لنفسي: «يمكنها أن تفعل ذلك.» وبعد حوالي خمس دقائق، فعلتْ ذلك أخيراً. فنهضتْ من مكان اختبائي وقالتْ لي: «أبي، أبي، أنظر ما فعلته! أنظر ما فعلته!» كانتْ فخورة جداً أنها وضعتْ الخيط في الإبرة حتى إنها قد نسيتْ كل الألم.

«في ذاك الوقت كان الألم جيداً بالنسبة لها. لقد كنتُ حكيماً لدرجة إنني تنبأتُ أنه سيكون جيداً لها. والآن بالتأكيد فإن الله أكثر حكمة مما كنتُ أنا مع ابنتي. وهكذا من الممكن على الأقل أن يكون الله حكيماً لدرجة أنه يتنبأ أننا بحاجة لبعض الألم لأسباب ربما لا نفهمها، لكنه يرى أنها ضرورية للخير أخيراً. وهكذا لا يكون الله شريراً عندما يسمح بوجود هذا الألم.

«إن أطباء الأسنان، والمدربين الرياضيين، والمعلمين، والآباء يعرفون جميعاً أنه أحياناً ما يكون الشئ الصالح ليس رقيقاً. فبالطبع هناك أوقاتٌ يسمح فيها الله بالمعاناة ويحرمنا من أقل مقدار من المتعة كي يصل بنا إلى أعظم مقدار للتعليم الروحي والأخلاقي. وحتى اليونانيون القدماء آمنوا أن الآلهة علمتهم الحكمة من خلال المعاناة. فقد كتب أسخيلوس:

«يوم وراء يوم، ساعة وراء ساعة
يقطر الألم على الفؤاد
تماماً كما تأتي «الحكمة» من نعمة الله المرهبة
على خلاف إرادتنا، وحتى في كراهيتنا.»

«نحن نعرف أن الشخصية الأخلاقية تتشكّل من خلال المشقات، والتغلب على العقبات، واحتمال المصاعب المؤذية. فالشجاعة مثلاً ستكون مستحيلة في عالم بلا ألم. وقد شهد الرسول بولس عن خاصية التنقية تلك التي تقوّم بها المعاناة عندما كتب: «نَفْتَخِرُ

أيضاً فِي الضِّيقَاتِ عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْراً وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً» [١٣]

«لنواجه الأمر: نحن نتعلم من الأخطاء التي نصنعها والمعاناة التي تجلبها. إن الكون آلة صانعة للنفس، وجزء من هذه العملية هي التعلم والنضج، والنمو من خلال الخبرات المؤلمة الصعبة المثيرة للتحدي. وهدف حياتنا في هذا العالم ليس الراحة، بل التدرب والاستعداد للأبدية. يقول لنا الكتاب المقدس إن يسوع نفسه «مَعَ كَوْنِهِ ابْناً تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ.» [١٤] – وإن كان هذا حقيقي بالنسبة له، فلماذا لا يكون أكثر حقيقة بالنسبة لنا؟»

لقد جعل كريفت السؤال يتردد في الهواء للحظات بينما نشطت ملكاته العقلية، ثم إستطرد قائلاً: «افترض أنه لم تكن لدينا معاناة على الإطلاق. افترض أنه كانت لدينا عقاقير لكل ألم، ومتعة حرة، وحب حر – كل شئ ماعدا الألم. لا شكسبير، ولا بيتهوفن، ولا بوسطن ريد سوكس، ولا موت – ولا معنى، فسوف نصير أطفالاً صغاراً مُدَللين بشكلٍ رهيب.

ويكون الأمر مثل ذاك العرض التليفزيوني القديم Twilight Zone، حيث تُطلق النيران على عصابة من سارقي البنوك، وواحد منها ينهض ماشياً على سحب رقيقة عند البوابة الذهبية لمدينة سماوية. ويُقدِّم له إنسانٌ رقيق لابساً رداءً أبيض كل ما يريده. لكن سرعان ما يمل من الذهب، حيث أن كل شئ مجاني. وسرعان ما يمل من الفتيات الجميلات، اللاتي يضحكن فقط عندما يحاول إيذائهن، لأن لديه نزعة سادية.

وهكذا يستدعي صورة القديس بطرس.

«لا بدَّ أن هناك خطأ ما.»

«لا، فنحن لا نخطئ هنا.»

«ألا يمكنك أن تعيدني إلى الأرض؟»

«بالطبع لا، فأنت ميت.»

«حسناً، إذاً، لا بدَّ أن أتبع أصدقائي في المكان الآخر. أرسلني

إلى هناك.»

«أوه، لا، لا يمكننا ذلك، فأنت تعرف القواعد.»

«ما هو هذا المكان على أي حال؟»

«هذا هو المكان الذي تحصل فيه على كل ما تريده.»

«ولكنني اعتقدت أنني أريد السماء.»

«السماء؟ من قال شيئاً عن السماء؟ فالسماء هي المكان الآخر.»

الفكرة من وراء هذا هي أن عالماً بلا معاناة يبدو كالجحيم أكثر منه كالسماء.»

فسألته قائلاً: «هذا يبدو مبالغاً فيه. هل تؤمن بذلك حقاً؟»

«نعم أؤمن، ففي الحقيقة – لو لم تؤمن بذلك – فتظاهر إذاً أنك أنت الله، وحاول أن تخلق عالماً أفضل في خيالك. حاول أن تخلق المدينة الفاضلة. لكن عليك أن تفكر في نتائج كل شئ تحاول أن تُحسّنه. فكل مرة تستخدم فيها القوة لمنع الشر، فأنت تسحب الحرية. ولكي تمنع كل الشر، لا بدَّ أن تُزيل كل الحرية وتُحوِّل البشر إلى دمي، وهذا معناه أنهم سيفتقدون القدرة لاختيار الحب طوعاً.

«يمكنك أن تختتم الأمر بخلق عالم من الدقة يمكن أن يحبه مهندس – ربما. ولكن هناك شئ أكيد: فسوف تفقد نوع العالم الذي يريده «الآب.»»

بوق الألم

دليل بدليل، كان كريفت يُلقي المزيد والمزيد من الضوء على سر المعاناة. لكن كل فكرة جديدة بدتْ أنها تثير أسئلةً جديدة.

فقلتُ: «الأشرار يفلتون من عقاب إيذاء الآخرين طوال الوقت. وبالطبع لا يعتبر الله ذلك عدلاً. فكيف يمكنه أن ينهض ويراقب كل

هذا؟ لماذا لا يتدخل ويتعامل مع كل الشر الموجود في العالم؟»

فأصرَّ كريفت قائلاً: «الأشرار لا يفلتون من العقاب. فتأخر العدالة ليس معناه بالضرورة امتناع العدالة. سيأتي يوم يطالب في الله حساباً، ويكون فيه الناس مسئولين عن الشر الذي ارتكبوه والمعاناة التي سبَّبوها. ونقد الله لأنه لا يفعل ذلك حالاً مثل قراءة نصف رواية ونقد مؤلفها لأنه لم يحل حبكتها الدرامية. الله سيُسَوى الحسابات في الوقت المناسب. ففي الواقع يقول الكتاب المقدس سبباً واحداً وهو أنه يتأخر لأن بعض الناس مازالوا يتبعون الأدلة ومازال عليهم أن يجدوها. (١٥) فالله يُمهل حقاً اختتام التاريخ بسبب محبته العظمى لهم.»

فسألته: «ولكن في نفس الوقت، ألا يزعجك مقدار المعاناة الرهيب في العالم؟ ألا يمكن لله أن يُقلل على الأقل بعضاً من الشرور الأكثر ترويعاً؟ صاغ فيلسوف حُجةً ضد الله هكذا: «أولاً، ليس هناك سببٌ يُبرِّر سماح الله بالكثير جداً من الشر. ثانياً، لو كان الله موجوداً، فلا بدَّ أن يكون هناك سبب. وثالثاً، الله غير موجود.»

فتعاطف كريفت مع المشكلة، لكنه لم يكن ليقبل هذا الحل. وقال: «هذا يشبه القول إنه من المعقول أن نؤمن بالله لو مات ٦ من اليهود في مذبحة وليس ٧، أو لو مات ٦٠٠٠٠ وليس ٦٠٠٠٠ وواحد. أو لو مات ٦ مليون إلا واحد وليس ٦ مليونا. عندما تترجم الجملة العامة «كثيراً جداً» إلى أمثلة خاصة مثل هذا، فإنها تُبين كم هي سخيفة. لا يمكن أن يكون هناك حد فاصل.

حقيقي أن هناك بعض الحالات تصير فيها الكمية كيفية. على سبيل المثال غليان الماء: فحالما تصل درجة الحرارة إلى ٢١٢ درجة، تصل لمرحلة جديدة وهي الغاز؛ ومن هنا تنطبق قوانين الغاز، لا قوانين السائل. لكن المعاناة ليست هكذا. ففي أية نقطة تمنع فيها المعاناة برهان وجود الله؟ لا توجد مثل هذه النقطة. وبالإضافة إلى ذلك، لأننا نحن لسنا الله، فنحن لا يمكننا أن نقول كم مقدار المعاناة المراد. فربما يكون كل عنصر منفرد من الألم

في الكون ضرورياً. كيف نعرف؟»

فضحكتُ ضحكةً خافتة قائلاً: «افترض أنٍ شخصاً سيقول: «بما إنني أتعرض للألم، فهذه معاناة كثيرة جداً في العالم!»

فضحك كريفت متعجباً: «آه بالطبع! هذه هي المقولة الشخصية «كثير جداً». هذه حالة كلاسيكية من التشبيهية. فلو كنتُ أنا الله، لما سمحتُ بهذا الألم الكثير، الله لا يمكنه أن يتفق معي، الله سمح بهذا الألم، ومن هنا لا يوجد الله.»

فقلتُ: «لقد قلتَ منذ لحظاتٍ إن بعض الألم يمكنه أن يكون ضرورياً. وهذا يشير إلى أن هناك معنى للمعاناة، فلو كان الأمر كذلك، فما هو؟

فقال: «كان أحد أغراض المعاناة في التاريخ هو أنها تقود إلى التوبة. فبعد المعاناة فقط، وبعد الكارثة فقط، رجع شعب اسرائيل في العهد القديم، وترجع الأمم ويرجع الأفراد إلى الله. مرةً أخرى لنواجه الأمر: نحن نتعلم بالطريقة الصعبة. يقول سي إس لويس: «الله يهمس لنا في مسراتنا، ويتكلم في ضميرنا، لكنه يصرخ في آلامنا. فالألم هو بوق الله لإيقاظ عالم أصم.» [١٦] وبالطبع فإن التوبة تقود إلى شئ رائع – وهو البركة، لأن الله هو مصدر كل الفرح وكل الحياة. وتكون النتيجة هي الخير – في الواقع ما هو أفضل من الخير.

ببساطة، أؤمن أن المعاناة منسجمة مع محبة الله، لو كانت علاجية شافية ضرورية، وهذا لو كنا مرضى تماماً ونحتاج علاجاً بدرجةٍ شديدة. وهذا هو موقفنا. قال يسوع: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى .. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ.» [١٧]

فأشرتُ قائلاً: «لكن الصالحين يعانون بنفسِ المقدار – أو أحياناً بمقدارٍ أكبر من الأشرار. هذا هو المثير تماماً حول عنوان كتاب كوتشنر «عندما تحدث الأشياء السيئة للأبرار». فكيف يكون هذا عدلاً؟»

فأجاب كريفت: «حسناً، إجابة هذا هو أنه لا يوجد أناس صالحون؟»

«فماذا إذاً عن ذاك القول القديم: «هل يعمل الله أي شيء بلا جدوى؟»

«نعم، نحن صالحون وجودياً – فنحن ما زلنا نحمل صورة الله – لكننا لسنا صالحين أخلاقياً. فقد تشوَّهت صورةُ الله فينا. قال النبي إرمياء: «لأَنَّهُمْ مِنْ صَغِيرِهِمْ إِلَى كَبِيرِهِمْ كُلُّ وَاحِدٍ مُولَعٌ بِالرِّبْحِ.» (١٨)، وقال النبي إشعياء: «وَقَدْ صِرْنَا كُلُّنَا كَنَجِسٍ وَكَثَوْبِ عِدَّةٍ كل أَعْمَالِ بِرِّنَا وَقَدْ ذَبُلْنَا كَوَرَقَةٍ وَآثَامُنَا كَرِيحٍ تَحْمِلُنَا.» (١٩). إن أعمالنا الصالحة مُلطخة بالمصلحة الذاتية، ومطالبنا للعدالة مختلطة بالشهوة للانتقام. والمفارقة هي أن هؤلاء هم أقل الناس الأكثر استعداداً لمعرفة نقائصهم وخطاياهم والاعتراف بها.

«نحن أخيار وقد صرنا أشرار، تحفةٌ مشوهة، طفلٌ متمرد. أشار لويس إلى أننا لسنا مجرد شعب ناقص يحتاج النمو، بل متمردين نحتاج أن نخفض أذرعنا. الألم والمعاناة غالباً ما تكون الوسائل التي نصير بها متحفزين للخضوع النهائي لله وطلب علاج المسيح.

«هذا هو ما نحتاجه بالأكثر. وهذا هو ما سيأتي لنا بالفرح الأسمى لمعرفة يسوع. فأية معاناة جديرة بهذه النتيجة، وعظماء المسيحيين عبر التاريخ سيقولون لك هذا».

احتمال الألم

ضبطتُ جلستي في المقعد وتأملت فيما قاله كريفت حتى الآن. كانت بعض حُججه أقوى من الأخرى، لكنه على الأقل لم يكن يقدِّم مجرد تفاسير مُغلفة؛ فقد كان يبدو أن مفاتيح الحل تقود إلى مكانٍ ما.

قرَّرتُ أن أسأله عن قولٍ لأغسطينوس يقول: «بما أن الله هو الخير الأسمى، فإنه لا يسمح بأي شرٍ أن يوجد في أعماله إن لم

تكن كلية قدرته وصلاحه في سبيل أن تأتي بالخير حتى من قلب الشر.» وبعد أن قرأتُ له هذه الكلمات تساءلتُ: «هل هذا معناه أن المعاناة والشر يحتويان على الإمكانية لعمل الخير؟»

فأجابني: «نعم، فأنا أؤمن أن كل معاناة تحتوي على الأقل على فرصة عمل الخير، لكن ليس كل إنسان يُفعّل هذه الإمكانية. ليس كل منا يتعلم ويستفيد من المعاناة، ومن هنا تأتي حرية الإرادة. سجينٌ في أحد معسكرات الأشغال الشاقة سيتصرف باختلافٍ تام عن آخر، بسبب الاختيار الذي يقوم به كل منهما للاستجابة للبيئة المحيطة.

«ولكن حالما يمكن لأي إنسانٍ أن يتأمل في ماضيه ويقول: «لقد تعلمتُ من هذه المشقة. لمْ أعتقد أنني سأتعلم ذلك حالياً، لكنني إنسانٌ أكبر وأفضل لأنني احتملتُ ذلك وبقيتُ». وحتى الناس الذين بلا إيمان سيكونون واعين بهذا البُعد من المعاناة. ولو استطعنا أن نأتي بالخير من الشر حتى دون أن نُدخل الله في الموضوع، فيمكنك أن تتخيل كم بالأحرى – لمعونة الله – يمكن أن يعمل الشر لصالح الخير الأعظم.»

ومع ذلك، فقد أثارَ إدخال الله إلى الموضوع قضيةً أخرى: «لو كان الله يحب البشر، فكيف يتساهل عاطفياً مع الهجوم المتواصل للألم والمعاناة؟ ألا يسحقه هذا؟ سحبتُ كتاب تمبلتون وقرأت لكريفت هذا الجزء:

> قال يسوع: «أليس خمسة عصافير تباع بفلس ولا أحد منسياً أمام الله؟ أنتم أفضل من عصافير كثيرة؟» لكن إن كان الله يحزن لموت عصفور، فكيف تحتمل روحه الأبدية المرض، والمعاناة، وموت الملايين المضاعفة من الرجال والنساء والأطفال والحيوانات والطيور والمخلوقات الحسية الأخرى، في كل بقعة من العالم، وفي كل قرن منذ بدأ الزمان؟ (٢٠)

فقال كريفت: «أعتقد أن السيد تمبلتون يُشّبه الله بقول: «لم أكن أتخيل كيف يمكن لأي كائن ذكي أن يحتمل هذا.» نعم، إنه

على حق – فنحن لا يمكننا أن نتخيل هذا. لكننا نستطيع أن نؤمن به. والله في الحقيقة يبكي على كل عصفور ويحزن على كل شر وكل معاناة. ولذلك فإن المعاناة التي احتملها المسيح على الصليب لا يمكن تخيلها حرفياً. فهي ليست مجرد ما اختبرته أنت أو أنا في أقصى عذاباتنا البشرية، جسدياً كان أو عقلياً، لكن كل معاناة العالم كانت هناك.

«لنعود إلى صورة تمبلتون عن المرأة المكلومة في إفريقيا بينما كان كل ما تحتاجه هو المطر. أين الله؟ لقد كان يدخل في عذابها، لا عذابها الجسدي فقط، بل أيضاً عذابها الأخلاقي. أين الله؟ لماذا لا يرسل المطر؟ وإجابة الله هي التجسد. لقد دخل بنفسه قلب هذا العذاب كله، واحتمل بنفسه كل ألم هذا العالم، وهذا أمر لا يمكن تصوره، وهو أكثر تأثيراً من القوة الإلهية التي خلقت العالم في المقام الأول.

«تخيل فقط أن كل ألم منفرد في تاريخ العالم، قد تجمع معاً في شكل كرة، وقد أكلها الله، وهضمها، وذاقها تماما إلى الأبد. في فعل خلق العالم، لم يقل الله «لتكن إشراقات، وزهور، وأرانب صغيرة جميلة فحسب، بل قال أيضاً: «لتكن دماء، وأحشاء، وذباب يطنّ حول الصليب. بمعنى ما تمبلتون على حق. فالله أساساً متداخل في خلق عالم من المعاناة. لكنه لم يفعل ذلك – بل نحن – ومع ذلك فقد قال: «ليكن هذا العالم.»

«ولو كان قد فعل ذلك ثم استراح قائلاً: «حسناً، إنه خطأكم على أي حال» – ورغم أنه سيكون له الحق تماما بفعل ذلك – فلا أرى كيف يمكننا أن نحبه. إن حقيقة أنه انطلق فيما وراء العدالة وبشكلٍ لا يُصدَّق تماماً آخذاً كل المعاناة على نفسه تجعله رائعاً لدرجة أن إجابة المعاناة ستكون – تفحصتْ عينا كريفت أنحاء الغرفة كما لو كان يبحث عن الكلمات المناسبة، فقال «لدرجة أن إجابة المعاناة ستكونٍ ... كيف لا تحب مَنْ ذهب الميل الثاني، مَنْ مارس أكثر مما بشّر، مَنْ دخل عالمنا، من عانى آلامنا، من يقدّم لنا نفسه في وسط أحزاننا؟ ماذا يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك؟»

«فقلتُ: «بصراحة، فإن إجابة سؤال تمبلتون عن كيف يحتمل الله كل هذه المعاناة هي – لقد عانى هو.»

فهتفَ كريفت: «لقد عانى هو! إن إجابة الله لمشكلة المعاناة هي إنه جاز بنفسه المعاناة. فكثيرٌ من المسيحيين يحاولون أن يُخرجوا الله من موضوع المعاناة، أما الله فقد جاز بنفسه المعاناة على الصليب. ومن هنا فإن الخاتمة العملية هي إنه لو أردنا أن نكون مع الله، فعلينا أن نكون مع المعاناة، وعلينا ألا نتجنب الصليب، لا بالفكر ولا بالفعل. لا بدَّ أن نذهب حيثما يوجد الله، والصليب هو أحد الأماكن التي يوجد عندها الله. وحينما يرسل لنا الله الشروق، فنحن نشكره عليه. وعندما يرسل لنا الغروب، والموت، والمعاناة، والصليب، فنحن نشكره عليه أيضاً.»

فانتصبتُ قائلاً: «هل هذا معقول حقاً أن نشكر الله على الألم الذي يصيبنا؟»

«نعم، ففي السماء سنفعل ذلك تماماً. سنقول لله: «شكراً جزيلاً من أجل هذا الألم البسيط الذي لم أفهمه في أوانه، ومن أجل ذاك الألم البسيط الذي لم أفهمه في أوانه، فالآن أفهم أن هذه كانت أثمن الأشياء في حياتي.»

«وحتى لو لم أجد نفسي قادراً شعورياً أن أفعل ذلك الآن، حتى لو لم أقدر بأمانة أن أقول لله في وسط الألم: «يا الله، أشكرك من أجل هذا الألم»، بل أقول بدلاً من ذلك: «نجني من الشر»، فهذا حسنٌ تماماً وأمينٌ تماماً – لكني أؤمن أن هذه ليست هي الكلمة الأخيرة. فالكلمات الأخيرة من الصلاة الربانية ليست «نجنا من الشرير»، لكنها «لك القوة والمجد.»

«أعتقد أن أي مسيحي ناضج يمكنه أن ينظر إلى حياته، ويُحدِّد بعض لحظات المعاناة التي جعلته أكثر قرباً إلى الله مما كان يعتقد. وقبل أن يحدث هذا، كان يقول: «لا أرى حقاً كيف يحقق هذا أي خير على الإطلاق، لكن بعدما يخرج من المعاناة يقول: «هذا مدهشٌ. لقد تعلمتُ شيئاً لم أكن أتصور أنني كنتُ سأتعلمه. لم أعتقد أن إرادتي المتمردة الضعيفة ستكون قادرة بمثل هذه

القوة، لكن الله ـ بنعمته ـ أعطاني القوة. فلولا المعاناة، لما كان ذلك ممكناً.»

«الاقتراب إلى الله، التشبه بالله، التلائُم مع الله، لا مجرد الشعور بالاقتراب لله، بل الاقتراب الوجودي الحقيقي إلى الله، تشبه النفس بالله ـ كل هذا ينتج عن المعاناة بفعاليةٍ ملحوظة.»

فقلتُ: «لقد ذكرتَ السماء، والكتاب المقدس يتحدث عن معاناتنا في هذا العالم بأنها خفيفة ووقتية مقارنةً بما سيختبره تابعو الله في السماء. فكيف تلعب السماء دورها في هذه القصة كلها؟»

اتسعتْ عينا كريفت وقال: «لو لم يكن الأمر هكذا، لكان من الصعب وجود قصة. تجاهل كل الإشارات التي تدل على السماء من العهد الجديد، وسوف ترى القليل جداً من المتبقي. قالت القديسة تريزا Saint Teresa: «في نور السماء، فإن أسوأ معاناة على الأرض، وحياة مليئة بأقسى العذابات على الأرض، سوف تُرى وكأنها ليست أخطر من ليلةٍ واحدة في فندق غير مريح.» هذه جملة تثير التحدي أو حتى الخيال! لكنها لم تتكلم من إطار حياة فارغة يعيش فيها الكثيرون جداً منا، لكنها تكلمتْ من إطار حياة مليئة بالمعاناة.

«يستخدم الرسول بولس كلمة مفرطة أخرى في سياقٍ مشابه حينما يقارن المسرات الأرضية بمسرة معرفة المسيح. فقد قال إن امتيازات المواطنة الرومانية، وأن تكون فريسياً ابن فريسي، وأن تكون متعلماً جيداً، ومن جهة الناموس بلا لوم ـ كل هذا «نفاية» مقارنةً بمعرفة المسيح ـ [21]. وهذه كلمة صريحة جداً!

وبالمثل، فمقارنةً مع معرفة الله أبدياً، ومقارنةً مع الأُلفة مع الله التي يدعوها الكتاب المقدس زواجاً روحياً، فلا شيئ آخر يهم. لو كان الطريق إلى ذلك هو من خلال العذاب، حسناً، فالعذاب لا شيئ مقارنةً بذلك. نعم، إنه شنيع في حد ذاته، لكنه لا شيئ مقارنةً بذلك.

«ولذلك فإن إجابة تمبلتون هي: نعم، أنت على حق تماماً عندما تقول إن صورة تلك المرأة الإفريقية لا تُطاق. فنقص المطر هذا،

وتلك المجاعة لا تُطاق حقاً في حد ذاتها. وبمعنى ما، فإن الإجابة ليست أن نحلها، لكن الإجابة هي أن ننظر في وجه الله ونقارن هذين الشيئين.

«على الجانب الأول من الميزان هذا العذاب أو كل عذابات العالم، وعلى الجانب الآخر وجه الله، الله الموجود لكل من يطلبه وسط ألمهم. إن خير الله، وفرح الله سيفوق أخيراً كل معاناة، وحتى أفراح هذا العالم.»

قوة حضور الله

سعدتُ أن كريفت قد أعاد الحوار حول المرأة صاحبة صورة تمبلتون. لم أرد أن يبتعد عنها اللقاء كثيراً. فلقد شخصّتْ هذه المرأة قضية المعاناة، وهي تقف كممثلةٍ إدعاء قوية عن محرومي العالم البالغ عددهم مليار إنسان.

قلتُ لكريفت: «لو كانت هذه المرأة هنا حالياً، فماذا كنتَ ستقول لها؟»

فقال ببساطة دون تردد: «لا شئ».

فنظرتُ مندهشاً دون أن أُصدق: «لا شئ؟»

فقال: «لا شئ في البداية على أي حال. سأدعوها أن تتحدث إليّ. فمؤسس إحدى منظمات المعوقين يقول إنه يعمل مع المعاقين لسبب أناني للغاية: وهو أنهم يعلمونه شيئاً أقيم بكثيرٍ جداً مما يمكنه أن يعلمهم إياه – وهذا الشئ هو من يكون هو. هذا يبدو عاطفياً، لكنه حقيقي.

«إن واحدة من أطفالي الأربعة معاقةً بدرجةٍ متوسطة، وقد تعلمتُ منها أكثر مما تعلمته من الثلاثة الآخرين. تعلمتُ أنني معاقٌ بدوري، وأننا جميعاً معاقين، والإصغاء إليها يساعدني أن أفهم نفسي.

«وهكذا فإن الشئ الأول الذي نحتاج أن نقوم به مع هذه المرأة

هو أن نستمع إليها. أن نكون واعين بها. أن نرى ألمها. أن نشعر بألمها. نحن نعيش في وضع نسبي من الراحة، وننظر إلى الألم كشئ مراقب، كلغز فلسفي، أو كمشكلة لاهوتية. وهذه هي الطريقة الخاطئة في النظر إلى الألم. الشئ المطلوب مع الألم هو اجتيازه، والتوحد معه، ومن ثم التعلم منه.

هذه ظاهرة لاحظها كثير من الكتاب. فبعد بحث طويل في موضوع المعاناة كتب فيليب يانسي قائلاً: «فيما زرتُ أناساً فاق ألمهم ألمي بمراحل ... اندهشتُ لتأثيراته.» (٢٢) وقال اللاهوتي الاسكتلندي جيمس ستيوارت: «إن المتفرجين الذين يراقبون المأساة من الخارج هم الذين يخرج منهم المتشككون، وليس من الذين هم حقاً في ساحة المعاناة ويعرفونها من الداخل. حقاً، فإن الحقيقة هي أن أعظم من عانوا في العالم هم الذين قدَّموا بأنفسهم أروع أمثلة الإيمان الذي لا يُقهر.» (٢٣)

فسألتُ كريفت: «لماذا؟»

فكانت إجابته واضحة: «حرية الإرادة». هناك قصة عن حاخامين في معسكر اعتقال. أحدهما فقد إيمانه وقال لا إله، والآخر حفظ إيمانه وقال «الله سيخلصنا.» وكان الاثنان في صف المثول للموت. نظر المؤمن حوله وقال: «الله سيخلصنا» ولكن حين جاء موعد موته، كانت كلماته الأخيرة هي «لا إله».

ثم دخل الحاخام الملحد الذي ضايق إيمان الآخر كثيراً غرفة الغاز، وصلاة «اسمع يا اسرائيل Shema Israel» على شفتيه. لقد أصبح مؤمناً. حرية الإرادة تسلك في كلا المسارين. لماذا يصير البعض في إفريقيا الجائعة أو معسكرات الاعتقال مؤمنين ويفقد آخرون إيمانهم، هذا هو لغز عدم التنبؤ بالسلوك الإنساني.»

فأجبتُ: «لنرجع إلى المرأة. لقد قلتَ إنه علينا أن نستمع إليها ونتفاعل معها، وهذا يبدو شيئاً جيداً. ولكن لا بدَّ أن يكون هناك المزيد.»

فقال: نعم، علينا أن نُمثّل يسوع بالنسبة لها، أن نخدمها ونحبها ونريحها، ونحتضنها، ونبكي معها. ويجب أن تثيرنا محبتنا – التي

هي انعكاس محبة الله – لمساعدتها مع الآخرين المتألمين.»

أومأ كريفت نحو المدخل، وقال: «على بابي يوجد كارتون لسلحفتين. تقول الواحدة: «أحياناً ما أحب أن أتساءل لماذا يسمح الله بالفقر والمجاعة والظلم بينما يمكنه أن يفعل شيئاً حيال ذلك.» فتقول الأخرى: «أخشى أن يسألني الله نفس السؤال.» أولئك الذين لديهم قلب يسوع نحو المتألمين يحتاجون أن يعيشوا إيمانهم بتخفيف المعاناة على قدر استطاعتهم، بعمل اختلاف، بتجسيد حبه بطرق عملية.»

فعلّقتُ قائلاً: «هذا الكارتون يُذكرني بالطريقة التي يحب بها الله أن يقلب الأسئلة.»

«نعم، هذا دائماً ما يفعله. وقد حدث هذا مع أيوب. فقد كان أيوب يتساءل من هو الله، لأن الله بدا وكأنه سادي كوني. وفي نهاية سفر أيوب – كلاسيكية جميع العصور حول مشكلة المعاناة – يظهر الله أخيراً بالإجابة، وتكون الإجابة على شكل سؤال.

«فهو يقول لأيوب: «من أنت؟ هل أنت الله؟ هل كتبتَ هذا السفر؟ أين كنتَ عندما وضعتُ أساسات الأرض؟» ويدرك أيوب أن الإجابة بالنفي. ثم يشعر بالرضا. لماذا؟ لأنه يرى الله! الله لا يكتب له كتاباً، فقد كان يمكنه كتابة أعظم كتاب حول مشكلة الشر في العالم، ولكن بدلاً من ذلك يُظهر نفسه لأيوب.»

«وقد أرضاه هذا –»

«نعم! لا بدَّ أن يُرضيه – فهذا ما سيُرضينا إلى الأبد في السماء. أعتقد أن أيوب يحصل على حالة مسبقة عن السماء في نهاية سفر أيوب لأنه يقابل الله. فلو كان الله قد أعطاه مجرد كلمات، لكان معنى ذلك أن أيوب كان عليه أن يتحاور معه ويسأله سؤالاً آخر ثم يجيبه الله إجابة صريحة، ثم يسأله أيوب سؤالاً ثالثاً في اليوم التالي والتالي، لأن أيوب كان فيلسوفاً ملحاً للغاية، ولكان هذا الوضع قد استمر طويلاً بلا نهاية. فماذا سيُنهي هذا؟ حضور الله!

«لقد سمح الله بمعاناة أيوب، لا لأن الله يفتقد المحبة، بل لأنه قد

أحب، حتى يأتي بأيوب إلى نقطة لقاء الله وجهاً لوجه» وهذه هي سعادة الإنسانية العظمى. لقد حفرت معاناة أيوب فراغاً كبيراً في داخله حتى يمكن أن يملأه الله والفرح.

«بينما ننظر للعلاقات البشرية، فإن ما نراه هو أن المحبين لا يريدون شروحات، بل حضوراً. والله أساساً هو حضور – فقانون الثالوث يقول إن الله ثلاثة أقانيم حاضرة لبعضها البعض في معرفةٍ تامة ومحبةٍ تامة. ولهذا فإن الله هو الفرح اللانهائي. وبقدر ما يمكننا أن نشترك في هذا الحضور، يكون لدينا نحن أيضاً الفرح اللانهائي.

وهذا ما اختبره أيوب – رغم ضيقه الشديد، وقبل حتى أن يستعيد ممتلكاته العالمية – حالما رأى الله وجهاً لوجه.

«وكما قلتُ إن هذا له معناه حتى بين البشر. لنقل إن روميو وجولييت كان لديهما حبٌ أكثر نضجاً وأكثر عمقاً مما في مسرحية شكسبير. ولنقل إن ما يريده روميو بالأكثر في العالم كله هو جولييت. ولنقل إنه قد فقد جميع أصدقائه وممتلكاته، وإنه ينزف ويعتقد أن جولييت قد ماتت.

«ثم يرى جولييت تنهض وتقول: «روميو، أين أنت؟ أنا لستُ ميتة»، فهل يكون روميو في منتهى السعادة؟ نعم. في منتهى السعادة؟ نعم. أيمانع على الإطلاق أن ينزف ويلبس الملابس الرثة ويكون فقيراً؟ لا على الإطلاق! سيُفَضِّل كثيراً أن يكون محباً في برونكس الجنوبية عن أن يكون مُطلَقاً في هونولولو.»

كل دمعة، هي دمعته

كنا ننتقل بوضوح نحو ذروة مناقشتنا؛ فمفاتيح الحل التي ذكرها كريفت في بداية لقاءنا كانت تتقارب، واستطعتُ أن أشعر في صوته بعاطفةٍ وبإقناع متزايد. أردتُ أن أرى مزيداً من أعماق قلبه، ولن أصاب بخيبة الأمل.

فقلتُ محاولاً تلخيص ما توَّصلنا إليه: «إجابة المعاناة إذاً ليست

إجابة على الإطلاق.»

فقال وهو يتكئ كما لو كان يدافع عن آرائه مؤكداً: «هذا صحيح. إنها المُجاوب. يسوع نفسه. لا مجموعة كلمات، بل «الكلمة» ذاتها. لا حجة فلسفية منسوجة جيداً، بل أقنوم. الأقنوم. إجابة المعاناة لا يمكن أن تكون مجرد فكرة مجردة، لأن هذا ليس موضوعٌ مجرد، لكنه موضوعٌ شخصي. ومن ثم فهو يتطلب إجابة شخصية. والإجابة لا بدَّ أن تكون شخصاً، لا شيئاً، لأن الموضوع يتضمن شخصاً، وهو الله، أين أنت؟»

تردد صدى هذا السؤال في مكتبة الصغير. فقد كان يتطلب إجابة. بالنسبة لكريفت، هناك إجابة – إجابة واقعية جداً. «الحي».

قال كريفت: «يسوع هناك، جالسٌ بجوارنا في أسوأ فترات حياتها. هل نحن منكسرون؟ لقد كُسر عنا كالخبز. هل نحن محتقرون؟ لقد احتقر ورُفض من الناس. هل نصرخ حتى لا نُصاب بالمزيد؟ لقد كان رجل أوجاع ومختبر الحزن. هل يخدعنا الناس؟ لقد بَيع بنفسه. هل تتكسر أرق علاقاتنا؟ لقد أحب هو أيضاً ورُفض. هل يتحول الناس عنا؟ لقد ستروا عنه وجوههم كما عن أبرص.

هل ينزل إلى جحيم كل منا؟ نعم. من أعماق أحد معسكرات الموت النازية، كتبتْ كورى تن بووم: «مهما كان عمق ظلامنا، فهو لا يزال أعمق بكثير.» إنه لم يقم فقط من الأموات، بل غيَّر معنى الموت؛ ومن ثم غيَّر معنى كل معنى صغير – المعاناة التي تتوقع الموت وتجعله جزءاً منها.

«يُسمَّم بالغاز في أوشفتز[1] Auschwitz. ويُسخرَ منه في سويتو[2] Soweto. ويُهزأ به في ايرلندا الشمالية. ويُستعبد في السودان. إنه الواحد الذي نحبه حتى الكراهية، ومع ذلك فقد اختار أن يُبادلنا

---

١ أكبر معسكرات الأشغال الشاقة النازية. كان يحتوي على ثلاثة معسكرات رئيسية تضم في ثناياها ٤٠ – ٥٠ معسكراً فرعياً – المترجم

٢ احدى مدن جنوب إفريقيا. كانت مسرحاً لأحداث شغب عنيفة في العام ١٩٧٦ – المترجم

بالمحبة. كل دمعة نسكبها تصبح دمعته. ربما لا يمسح هذه الدموع الآن، لكنه سيمسحها فيما بعد.»

توَّقفَ قائلاً بهدوء وحشرجة في صوته – وقد تحولت نغمته الواثقة إلى نغمة مؤقتة: «في النهاية، أعطانا الله تفسيرات جزئية. وربما يكون سبب هذا هو أنه رأى أن التفسير الأفضل أن يكون جيداً بالنسبة لنا. لا أعرف لماذا. كفيلسوف أنا فضولي جداً. وكإنسان، أتمنى لو كان قد أعطانا مزيداً من المعلومات.»

وبهذه الكلمات، تطلَّع إليَّ بنظرةٍ فاحصة.

وقال بحزم: «لكنه عرف أن يسوع كان أكثر من مجرد تفسير. فهو ما نحتاجه حقاً. لو كان صديقك مريضاً يحتضر، فالشئ الأهم الذي يحتاجه ليس تفسير، بل يحتاج أن تجلس معه. إنه مرتعب أن يبقى وحيداً أكثر من أي شئٍ آخر. ولذلك لم يتركنا الله وحدنا.»

ضبط كريفت جلسته واسترخى، وكان هناك شئٌ واحد أراد لي أن أعرفه.

فقال: «ولذلك فأنا أحبه».

انتزاع الخير من الشر

بعد أقل من ساعة، كان كل شئ هادئاً في السيارة حيث تسللتُ خلال شوارع بوسطن المنزلقة بالأمطار في طريق العودة إلى المطار. تطوع صديقي مارك هارينجر – أحد سكان بوسطن لمدة طويلة – بأن يقودني إلى ومن مكتب كريفت. نظرتُ خارج النافذة إلى لا شئ تحديداً. كنتُ أسترجع في ذهني اللقاء. وعلى أي حال، كنتُ أتساءل كيف كانت تلك المرأة الإفريقية ستتجاوب مع كلمات الفيلسوف الجادة.

كان مارك يجلس أثناء اللقاء وهو يُصغى عن كثب من مقعدٍ خشبي مسنوداً على جدار. ولم يكن هذا بمثابة موضوع تأمل تافه بالنسبة له.

قطع مارك الصمت في السيارة وقال: «هذا حقيقي.»

فسألته: «وما هو؟»

فقال: «ما قاله كريفت حقيقي. فأنا أعرف ذلك، وقد اختبرته.»

منذ سنواتٍ ماضية، كان مارك يجرف الثلج عن طريق قيادته عندما قالت زوجته إنها ستُحرّك السيارة، وطلبتْ منه أن يُراقب ابنتهما الصغيرة. وبينما انطلقتْ السيارة، اندفعا فجأةً إلى أسوأ كابوس يمكن أن يتصوره أبوان: فقد دُهستْ الصغيرة تحت عجلة السيارة.

وكالمرأة الإفريقية، عرف مارك معنى أن يمسك طفلاً ميتاً بين ذراعيه. وبينما لم أكن قادراً على التكلم مع تلك الأم الحزينة، استطعتُ أن أتكلم معه هو.

كان يأس مارك المبدني عميقٌ جداً حتى إنه اضطر أن يطلب من الله أن يساعده على التنفس، والأكل، والتصرف الطبيعي، وإلا لأصيبَ بالشلل من جراء الألم الشعوري. لكنه شعر بشكلٍ متزايد بحضور الله، ونعمته، ودفئه، وتعزيته، وبدأتْ جروحه تُشفى بمنتهى البطء عبر الأيام.

مختبراً الله عند نقطة أشد احتياجاته، خرج مارك من هذا الأتون رجلاً جديداً، تاركاً موقعه في العمل لحضور معهد ديني. من خلال معاناته – رغم إنه لم يخترها على الإطلاق، ورغم إنها كانت مؤلمة للغاية، ورغم إنها كانت مُحطمة للحياة في ذاك الوقت – تحول مارك إلى إنسانٍ يكرّس راحة الحياة لتقديم عطف الله للآخرين الوحيدين في يأسهم.

وعلى المنبر للمرة الأولى استطاع مارك أن يعتمد على اختباراته الشخصية مع الله في أعماق الحزن. كان الناس متأثرين لأن خسارته الشخصية قد وهبته تأملات خاصة، وتعاطفاً، ومصداقية. وفي النهاية استجاب العشرات منهم قائلين: إنهم يريدون أيضاً أن يروا يسوع هذا – إله الدموع. والآن كانت هناك قلوبٌ أخرى تُشفى لأن قلب مارك كان قد انفطر. من يأس زوجين يأتي رجاءٌ

جديد لكثيرين.

قال مارك: «أحياناً ما يسخر المتشككون من الكتاب المقدس قائلين إن الله يمكنه أن يجعل الخير يخرج من ألمنا لو لجأنا إليه بدلاً من ابتعادنا عنه، لكني رأيتُ هذا يحدث في حياتي الخاصة. لقد اختبرتُ صلاح الله من خلال الألم العميق، ولا يوجد متشكك يمكنه أن يفند هذا. فالله الذي ينكره المتشكك هو نفس الإله الذي أمسك أيادينا في الأماكن المظلمة العميقة، ودعَّم زواجنا، وعمَّق إيماننا، وأكثرَ من اعتمادنا عليه، وأعطانا طفلين آخرين، وأثرى حياتنا بهدفٍ جديد وبمعنى جديد حتى يمكننا أن نُشكل اختلافاً لآخرين.»

فسألته في رفق: «هل تتمنى أن تكون لديك إجابات أكثر عن لماذا تحدث المعاناة في المقام الأول؟»

«نحن نعيش في عالم قلق، فقد كان يسوع أميناً لدرجة إنه أخبرنا بأننا سنتعرض لضيقاتٍ وتجارب. [٢٤]

بالطبع، أود أن أفهم أكثر لماذا يحدث هذا. لكن خاتمة كريفت كانت صحيحة – فالإجابة النهائية هي حضور يسوع. هذا يبدو ساذجاً كما أعرف. ولكن مهلاً، فعندما يهتز عالمك، فأنت لا تحتاج الفلسفة أو علم اللاهوت بقدر ما تحتاج حقيقة المسيح. لقد كان المسيح هو الإجابة بالنسبة لي. وكان هو الإجابة التي كنا نحتاجها.»

إن وجود الألم والمعاناة اتهامات قوية ضد الله. ومع ذلك فالسؤال هو ما إذا كان الدليل يُتبع بإدانته. لقد اعتقدتُ أن تحليل وتمثيل كريفت الأنيق قد ذهب بعيداً نحو تقويض تلك العقبة الرهيبة في سبيل الإيمان، لكن كثيرٌ من الاعتراضات الأخرى بقتْ. كانت هذه مجرد بداية رحلة طويلة من الاستكشاف، وقد قررتُ أن أحجب حكمي الأخير حتى تُواجه كل عقبات الإيمان وتظهر كل الحقائق.

في نفس الوقت، وصل القس البريطاني اللامع جون ستوت الذي أقرَّ بأن المعاناة هي «أعظم تحدٍ منفرد للإيمان المسيحي»

إلى خاتمته الشخصية:

لم يكن من الممكن أن أؤمن بالله شخصياً لولا الصليب .... ففي عالم الألم الواقعي، كيف يمكن لإنسان أن يعبد إلهاً مستثنى من الألم؟ لقد دخلتُ الكثير من المعابد البوذية في دولٍ آسيوية مختلفة، ووقفتُ باحترام أمام تمثال بوذا، الجالس القرفصاء، وذراعاه مثنيتان، وعيناه مغلقتان، وشبح ابتسامة يرتسم حول فمه، ونظرة بعيدة على وجهه، بعيدة عن عذابات العالم. وبعد ذلك اضطررتُ في كل مرةٍ أن أذهب بعيداً. وفي الخيال اتجهتُ بدلاً من ذلك إلى ذاك المصلوب المُعذب، المتألم، الوحيد على الصليب، حيث المسامير في يديه وقدميه، والظهر مضروب بالسياط، والأطراف ملتوية، والحاجب ينزف من وخز الأشواك، والفم جاف وظمآن بلا رحمة، وهو مطمورٌ في ظلمة الله المنسية. هذا هو الله بالنسبة لي! لقد طرح جانباً حصانته ضد الألم. ودخل عالمنا جسداً ودماً، ودموعاً وموتاً. عانى عنا. ومعاناتنا تصير أكثر سهولةً في ضوء معاناته هو. ومازالت هناك علامة استفهام ضد المعاناة البشرية، بل عليها نضع بجرأة علامة أخرى، الصليب الذي يمثل المعاناة الإلهية! صليب المسيح ... هو تبرير الله الوحيد عن ذاته في عالمنا. (٢٥)

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• كيف شكلّت الصعاب والتحديات وحتى الآلام شخصيتك وقيمك؟ كيف تختلف اليوم نتيجة المشكلات التي واجهتها في الحياة؟ هل يمكنك أن تتخيل أبداً شكر الله يوماً لطريقة تشكيل المعاناة لك؟ قال كريفت: «أؤمن أن كل المعاناة تحتوى على الأقل على الفرصة لصالح الخير.» هل كان هذا صحيحاً في حالتك؟

• ماذا كانت أقوى نقاط كريفت؟ وماذا كانت أضعفها؟ لو أتيحت لك الفرصة لسؤاله، فماذا ستسأله؟ بناءً على ملحوظاته الأخرى، كيف تعتقد أن سيجيب على سؤالك؟

• لو كنتَ أنت الله، فكيف كنتَ ستُشكّل العالم بشكل مختلف؟ بينما تزيل المعاناة أو الشر، وتُعدّل حرية إرادة البشر، فكر في النتائج التي يمكن أن تكون. كيف سيشكل الناس الشخصية في مدينتك الفاضلة؟ هل سيتحفزون لطلب الله وسط مسراتهم؟ لقد تدَّخلت بقوة تفوق الطبيعة لإزالة الشر، فمن أين ستبدأ ــ لمنع القتل؟ سوء استغلال الأطفال؟ السرقة؟ التشهير؟ الأفكار الشريرة التي يمكنها أن تؤدى لأفعالٍ شريرة؟ في أية نقطة يتحول فيها الناس إلى دمي يفتقدون حرية الإرادة، ومن ثم لا يمكنهم التعبير عن المحّبة حقاً؟

• لو أُتيح لمارك أن يجلس مع المرأة صاحبة صورة مجلة لايف Life، فما هي الأمور الثلاثة التي تعتقد أنه سيقولها لها؟ كيف تعتقد أنها ستجيبه؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Peter Kreeft. Making Sense Out of Suffering. Ann Arbor، Mich.: Servant, 1986.

• Philip Yancey. Where Is God When It Hurts? Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1990.

• Joni Eareckson Tada and Steven Estes. When Good Weeps. Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1997.

• Luis Palau. Where Is God When Bad Things Happen? New York: Doubleday, 1999.

٢

الاعتراض الثاني

بما أن المعجزات تعارض العلم، فلا يمكن أن تكون حقيقية

«الميلاد العذراوي، والقيامة، وإقامة لعازر، وحتى معجزات العهد القديم، كلها مستخدمة تماماً للدعاية الدينية، وهي مؤثرة جداً داخل مجتمع من السُذج والأطفال.»

ريتشارد داوكنز – مُلحد [١]

«ليس من قبيل الدعاية المثيرة أن الله قد تدَّخل في التاريخ، لكنها حقيقة تستحق اقتناعنا العقلي. فمعجزات المسيحية ليست مصدر ارتباكٍ بالنسبة للنظرة الكونية المسيحية، لكنها بالأحرى شهادة لعطف الله على الجنس البشري الذي داهمته الخطية والواقع. جاري هابيرماس – مسيحي [٢]

رأيت متهمين مذنبين يرتبكون ويعرقون على منصة الشهادة بينما يشعرون بحبل العدالة يلتف ببطء حول رقابهم. إنهم يحاولون التخلص من مأزقهم. يُلفقون قصصاً غير معقولة في مجهودٍ عقيم لتقديم دليل يُبرئ ساحتهم. يختلقون إدعاءات زائفة، يُلقون باللوم على الأبرياء، يحاولون رفض تصديق الشرطة والمدعين، يعيدون كتابة التاريخ، ينكرون، ويُشوّشون، ويحاولون خداع القاضي والمحلفين.

لكن هناك استراتيجية لم أرها على الإطلاق. متهم يدَّعي أن

سبب ظهور بصمات أصابعه على أداة الجريمة هو – نوعاً ما، ولسببٍ لا يمكن تفسيره – هو عمل الله. وهو حدثٌ غامض، غير متكررٍ، فوق الطبيعة جعل بصمات أصابعه تظهر فجأة في مكانٍ ما لم يلمسه على الإطلاق.

ذات مرةٍ، جرب متهم تقديم دفاع مكشوف بزعمه المشكوك فيه بأن مستويات السكر المتزايدة لديه هي المسئولة عن سلوكه الإجرامي، ولكن لم يحاول حتى أجرأ المتهمين أن يُقدِّم «دفاعاً إعجازياً.»

لماذا؟ لأن لا أحد سيصدقه! فبوجهٍ عام، نحن أُناس متحضرون علميون نعيش في الألفية الثالثة. فنحن لا نؤيد الخرافة، أو السحر، أو التدَّخل المباشر من أي مصدرٍ إلهي غير مرئي. إن الإدعاء بحدوث معجزة سيكون أمراً سخيفاً بشكلٍ صارخ لدرجة أن أيأس متهم لا يمكنه حتى أن يلجأ لهذه الاستراتيجية.

ذات مرة رأيت بن وتيلر، الساحرين الكوميديين، يختاران صبياً في العاشرة من عمره اسمه إشعياء من بين الجمهور، ويعرضان عليه شريطاً طويلاً من البوليستر. كانا ينويان أن يعقداه ويقطعاه في المنتصف، وبعد ذلك، بنجاحٍ باهر، قاما بهز الشريط، وعجباً، صار قطعةً واحدة من جديد!

فسأل بن إشعياء الصغير: «ماذا تعتقد، هل كانت هذه معجزة أم خدعة سحرية؟»

فلم يتردد إشعياء وأجاب بثقة «خدعة سحرية».

إنه مجرد طفل – كما يبدو – ذكيّ بدرجةٍ تكفيه لمعرفة أنه حينما لا يمكننا أن نفهم تماماً ما الذي يمكن أن يكون قد سبّب حدثاً غامضاً، فلا يزال هناك دون شكٍ تفسيرٌ معقول خارج إطار المعجزات.

عرفتُ من حديثي مع اللا أدري تشارلز تمبلتون أنه كان قد أوقف إيمانه بالمعجزات منذ سنواتٍ طويلة. فقد كتب قائلاً: «لقد بحث أسلافنا الأوائل داخل حدود اختبارهم لتفسير أمور الحياة

الغير موزونة، وعادةً ما كانوا ينسبون الأمور الغير مُفسرَة لتدخل إله أو أكثر من آلهتهم، أو أنصاف آلهة، أو أرواح شريرة. لكن بالتأكيد ... آن الأوان للتخلص من التأمل البدائي والخرافة، والتطلع إلى الحياة بمصطلحاتٍ عقلانية.» (٣)

هناك علماء يوافقون، مُتنبئين أن مسيرة المعرفة ستسحق في النهاية الإيمان بالأحداث التي تفوق الطبيعة. في العام ١٩٣٧ قال الفيزيائي الألماني ماكس بلانك: «الإيمان بالمعجزات لا بدَّ أن يستسلم - خطوة خطوة – قبل التقدم الثابت الواثق لقوات العلم، وسوف تكون هزيمته الكلية بالتأكيد مجرد مسألة وقت». (٤)

يعتقد الملحد ريتشارد داوكنز، أستاذ التفاهم العام للعلم في جامعة أوكسفورد، ومؤلف «الجين الأناني *The selfish Gene*»، أن الوقت آتٍ سريعاً. وقال في لقاءٍ تليفزيزني: «نحن نعمل لإيجاد ... تفاهم متكامل للكون وكل ما فيه.» (٥)

وهذا معناه «عجباً!» كما في الشريط الذي استعاده بن وتيلر سحرياً، ولن تكون هناك حاجة لالتماس رجل المعجزات لتفسير ما كان محجوباً من قبل في صورة ألغاز.

ولكن هل يمكن لإنسانٍ أن يكون متفلسفاً علمياً ولا يزال يؤمن بإمكانية المعجزات؟ قالَ الفيزيائي النووي هيو سيفكين «إيماني يمكنه أن يتلخص في هذه المقابلة الواحدة: أنا أؤمن بالعلم، وأؤمن بالله. وأنوي أن أستمر شاهداً عن كليهما.» (٦)

فهو يرى مع كثير من العلماء الآخرين عدم وجود صراع ملازم بين مهنتهم واستنتاجهم أن الله صانع المعجزات مسئول عن خلق وتدعيم الكون.

هل هذا أحد أشكال الإنكار المحترف؟ هل يمكن لإنسانٍ أن يحذف الجينات باعتبارها خيالية، وفي نفس الوقت يقبل المنّ من السماء، والميلاد العذراوي، والقيامة باعتبارها أحداثاً مُصدَّقة من التاريخ؟ لو كانت المعجزات اختراقات مباشرة للقوانين الطبيعية، فكيف يؤمن إنسانٌ عاقل بحدوثها؟

عرفتُ أن ويليام لين كريج إنسان عقلاني، وأنه استخدم مهاراته العقلية البارعة للدفاع عن فكرة أن الله قد تدَّخل – ويتدَّخل – في العالم من خلال الأعمال الإعجازية. هاتفته وطلبتُ منه ما إذا كان مستعداً أن أسأله حول هذا الموضوع.

فقال لي: «بالطبع، هيا».

كتبتُ قائمةً طويلة من التحديات، وحجزتُ تذكرة طيران إلى أتلانتا. في الطائرة، تأملتُ في أن السكان الأصليين من المحتمل أن يكونوا قد اعتبروا السفر بالطائرة معجزة. فكيف يمكن لخمسين طناً من المعدن أن تبقى مرتفعة في تحدٍ واضح لقانون الجاذبية؟ لا بدَّ أن يد الله الغير مرئية متداخلة في ذلك.

الناس اليوم يعرفون أفضل. فهم يفهمون الديناميكا الهوائية ودفع الطائرة. ولكن هل معرفتنا بالعلوم والتكنولوجيا قد جعلت حقاً كل الإيمان بالمعجزات مُهملاً؟ أم أن كريج سيكونٍ قادراً على تقديم الدليل المقنع أن الإنسان يمكنه أن يكون عاقلاً ومميزاً بينما في نفس الوقت محافظاً على صحة المعجزات؟

اللقاء الثاني: ويليام لين كريج – دكتوراه في الفلسفة

كان رد فعلي المبدئي لرؤية كريج هو عدم التصديق. فلحيته التي أكسبته مظهراً أكاديمياً جاداً لمدة ٢٣ عاماً كانت قد اختفت. ولا بدَّ أن وجهي قد سجل صدمتي.

فشرح الأمر قائلاً: «لقد أصبحتُ في الخمسين، لذلك احتفلت بحلق لحيتي.»

قادني كريج للأسفل بضع درجاتٍ إلى مكتبه، وقد كان غرفة منظمة جيداً يسودها مكتب داكن وأرفف كتب من الأرضية إلى السقف مع صفوفٍ مرتبة من الكتب والدوريات الدراسية. جلستُ على مقعد مريح بينما جلس كريج خلف المكتب، مستنداً إلى الخلف في مقعد جلدي.

لقد كتب كريج باستفاضة عن المعجزات، ولا سيما عن قيامة

يسوع. وتتضمن كتبه: «الإيمان المعقول؛ معرفة الحق عن القيامة؛ الحجة التاريخية لقيامة يسوع؛ تحديد برهان العهد الجديد لتاريخية قيامة يسوع. وساهم في كتابة «دفاعاً عن المعجزات؛ هل الله موجود؟؛ يسوع تحت الهجوم؛ والمثقفون يتحدثون عن الله.

يحمل كريج شهادات دكتوراه في الفلسفة من جامعة بيرمنجهام، انجلترا، وشهادة دكتوراه في اللاهوت من جامعة ميونخ. ويعمل حالياً أستاذاً باحثاً للفلسفة في كلية لاهوت تالبوت. ويُمَثِّل عضواً من تسعة تجمعات متخصصة تتضمن الأكاديمية الأمريكية للدين، وجمعية الأدب الكتابي، والجمعية الفلسفية الأمريكية. وقد كتب لكل من دراسات العهد الجديد؛ دورية دراسة العهد الجديد؛ دورية الزمالة العلمية الأمريكية؛ ومفاهيم الإنجيل، والفلسفة، والمطبوعات الدراسية الأخرى.

بدون لحية، ومرتدياً الجينز الأزرق، بدا كريج أصغر من سنه بعقدٍ من السنين، بعينين زرقاوين نافذتين، وشعر بني مُرَتَّب على الجانب، وضحكة سريعة حماسية. داعب ذقنه – ربما كأنه لا شعورياً يفتقد لحيته – بينما استمع عن كثبٍ لسؤالي الأول الذي أعترفُ أنه جاء بمنتهى التحدي.

بدأتُ قائلاً: حسناً، دكتور كريج، أنت رجل متعلم ومثقف. اخبرني، كيف يمكن لإنسانٍ عقلاني معاصر أن يبقى مؤمناً بأطفالٍ يولدون من عذارى، وأناسٍ يمشون على المياه، وجثثٍ تقوم من القبور؟»

فابتسم كريج قائلاً: «من الممتع أن تسأل تحديداً عن الميلاد العذراوي، لأن هذا كان حجر عثرة في طريقي كي أصير مسيحياً. لقد اعتقدتُ أنه كان أمراً سخيفاً تماماً».

فسألته: «حقاً؟ ماذا حدث؟»

«عندما أُعلنتْ لي البشارة المسيحية للمرة الأولى بينما كنتُ مراهقاً، كنتُ قد درستُ أصلاً علم الأحياء. وعرفتُ أنه كي يكون الميلاد العذراوي حقيقياً، فلا بدَّ أن يُخلق كروموسوم Y من العدم

في مبيض العذراء مريم، لأن مريم لم تكن لديها المادة الجنينية لولادة طفلٍ ذكر. وبالنسبة لي، كان هذا أمر خياليٌ تماماً؛ فلم يكن الأمر يُشكل أدنى معنى.»

فأشرتُ قائلاً: «لستَ وحدك؛ فهناك متشككون كثيرون لديهم مشكلات حول ذلك أيضاً. كيف واصلتَ؟»

فتأمل كريج للحظاتٍ وقال: «حسناً، لقد تصرفتُ أن ألقيتُ هذا الموضوع جانباً وصرت مسيحياً على أي حالٍ، رغم إنني لم أؤمن حقاً بالميلاد العذراوي. ولكن آنذاك، بعدما صرتُ مسيحياً، حدث لي أن اقتنعتُ أنه لو آمنتَ حقاً بإلهٍ قد خلق الكون، فسوف يكون خلق كروموسوم Y مجرد لعبة طفل بالنسبة له!»

فقلتِ لكريج إنني اعتبرت هذا ممتعاً أن يكون قد صار مسيحياً رغم الشكوك المُثارة حول عقيدة في مثل أهمية الميلاد العذراوي.

فأجابني: «أعتقد أن أصالة شخص يسوع وحق رسالته كانا في منتهى القوة، لدرجة أنهما قد سحقا ببساطةٍ أية شكوكٍ باقية لديّ.»

ففاجئته بالسؤال: «ألم تكن تتقدم للأمام نحو شيءٍ ما لم تقبله تماماً؟»

فقال: «لا، أعتقد أن هذا يمكنه أن يكون إجراءً حسناً. فأنت لست بحاجةٍ لمعرفة حلول كل أسئلتك حتى تأتي إلى الإيمان. ولكن عليك فقط أن تقولٍ «ثقل الدليل يبدو أنه يُبين أن هذا صحيح، ولذلك رغم إنني لا أملك إجابات لكل أسئلتي، فسوف أؤمن وأرجو الحصول على الإجابات على المدى البعيد. وهذا ما حدث معي.»

«هل على الإنسان أن يُرجئ حكمها النقدي حتى يؤمن بشيءٍ بعيد الاحتمال كالمعجزات؟

انتصب كريج في جلسته ورفع إصبعه السبابة كما لو كان سيؤكد على كلامه: «فقط لو آمنتَ أن الله غير موجود! فحينها سوف أوافق أن المعجزات ستكون سخيفة. ولكن بما أن هناك

خالقاً صمم الكون وأبدعه، ذاك الذي يُدَّعم وجوده لحظة بلحظة، والمسئول عن القوانين الطبيعية التي تحكم العالم المادي، فبالتأكيد يكون من المنطق أن أؤمن بإمكانية المعجزات».

المعجزات ضد العلم

كنا بالحقيقة نتقدم في الحوار، لكننا لم نتوقف بعد حتى نُعرِّف مصطلحاتنا. وقبل التقدم إلى أبعد من ذلك، عرفتُ أنه من المهم أن نستقر على معنى «المعجزة».

فقلتُ: «نحن نتعامل مع هذه الكلمة كيفما اتفق». وفيما استدعيتُ الماضي أضفتُ: «على سبيل المثال يمكنني أن أقول «لقد كانت معجزة أن أواصل رحلتي إلى أتلانتا» أو «لقد كانت معجزة أنني وجدتُ بيتك» فهل هذا غير مرتبط بالكلمة؟».

فقال: «نعم، أعتقد أنه من سوء الاستخدام أن نتكلم عن هذه الأمور كمعجزات، فهي أحداث طبيعية واضحة لها نتائج طبيعية.»

«فكيف تُعرِّف المصطلح إذاً؟»

فقال كريج تعريفه بدقة: «بالمعنى العام، المعجزة هي حدث لا تُنتجه المُسببات الطبيعية التي تعمل في نفس زمان ومكان وقوع الحدث.»

وفيما قاله: رددتُ في صمتٍ هذا التعريف حتى يترَّسخ في عقلي. وواصلتُ ذلك لعدة لحظاتٍ قبل مواصلة ما اعتبرته السؤال المنطقي التالي.

فتساءلتُ: «ألا يوجد إذاً تعارضٌ بين العلم والمعجزات؟» فقد قال الفيلسوف الملحد مايكل روز: «المؤمنون بالخلق يؤمنون أن العالم بدأ بطريقة إعجازية. لكن المعجزات تقع خارج إطار العلم الذي يتعامل – وفقاً للتعريف - مع الطبيعي، والمتكرر، ومع ما يحكمه القانون.» (٧)

فأشار كريج قائلاً: «لاحظ أن روز لا يقول إن المعجزات

مناقضة للعلم، بل يقول إن المعجزات تقع خارج إطار العلم، وهناك فرقٌ شاسع. أعتقد أن المسيحي المؤمن بالمعجزات يمكنه أن يوافقه في ذلك. فيمكنه أن يقول إن المعجزات تقع خارج نطاق العلم – ولكن ليس معنى ذلك أنها تناقض العلم.»

حاولتُ هضم التمييز، فتساءلتُ «هل يمكنك تقديم مثال آخر عن شيء مثل هذا؟»

ففكر كريج للحظاتٍ قبل الإجابة، وقال: «حسناً، الأخلاق مثلاً تقع خارج نطاق العلم. فالعلم لا يُقدِّم أحكاماً أخلاقية. ولذلك لستُ أعترض بالضرورة على وصف روز. فهو يقول إن هدف العلم هو البحث عن تفسيراتٍ طبيعية، ومن هنا فإن المعجزات تقع خارج إطار المملكة العلمية.»

وقبل أن أسأل سؤالاً جديداً، رفع كريج صوته قائلاً: «يجب أن أضيف رغم ذلك أنه يمكنك أن تنتج صيغة إيمانية من العلم. فمثلاً هناك حركة كاملة من الناس - مثل الرياضي ويليام ديمبسكي، وعالم الكيمياء الحيوية مايكل بيهي- تستدل بوسائل ذات مبادئ أن هناك مصمماً ذكياً Intelligent Designer للكون وللعالم البيولوجي.(٨) وهؤلاء ليسوا كيفيين – من المنظور العلمي والعقلاني – لكنهم يستنتجون من الدليل أنه لا بدّ أن يكون هناك خالق ذكي.»

فقلتُ: أنت تعارض إذاً المتشكك الشهير ديفيد هيوم الذي عرَّفَ المعجزات بأنها اختراقات لقوانين الطبيعة».

«بالتأكيد. فهذا فهمٌ غير مناسب للمعجزات. فالقوانين الطبيعية تحوي شروطاً ضمنية ceteris paribus تكون فيها كل الأمور الأخرى متساوية. وبأسلوبٍ آخر، فإن القوانين الطبيعية تفترض عدم تدخل أية عوامل طبيعية أو فوق طبيعية أخرى في العملية التي يصفها القانون.

«هل يمكنك تقديم مثال على هذا؟»

«تفحصتْ عينا كريج أرجاء الغرفة بحثاً عن شرحٍ، وأخيراً

استقر على شرحٍ قريب قرب جسده.

«حسناً، من قوانين الطبيعة أن الأكسجين والبوتاسيوم يحترقان عندما يتحدان. لكن جسدي يحوي أكسجيناً وبوتاسيوم، ومع ذلك لا أشتعل. فهل هذا معناه أن ذلك معجزة وأنني أخترق قوانين الطبيعة؟ لا، لأن القانون يُقرّر فقط ما يحدث تحت شروطٍ مثالية، دون أن يزعم بتدخل أية عوامل أخرى. ومع ذلك، ففي هذه الحالة، هناك عوامل أخرى تتدخل مع الاحتراق، ومن هنا لا يحدث الاحتراق. وهذا ليس اختراق للقانون.

وبصورةٍ مشابهة، لو كان هناك عامل فوق الطبيعة يعمل في العالم الطبيعي، فإن الشروط المثالية الموصوفة من قبل القانون تصبح عديمة التأثير. فالقانون لا يخترق لأن القانون لديه هذا الاستعداد الضمني أن ليس هناك شيّ يعبث بالشروط».

فقلتُ لكريج إن تفسيره ذكرني بحوارٍ أجريته منذ عدة سنوات مع جي. بي. مورلاند الفيلسوف الشهير الذي كتب «المسيحية وطبيعة العلم. فلقد استخدم تفسيراً لقانون الجاذبية يقول إنك لو أسقطتَ شيئاً، فسوق يقع على الأرض، ولكن لو سقطتْ تفاحة من شجرة، ومددتَ يدك لتمسكها قبل أن تلمس الأرض، فأنت بذلك لا تخترق أو تنفي قانون الجاذبية، بل أنك تتدخل فحسب.

فقال كريج: «نعم، هذه هي فكرة الشروط الضمنية التي طرحتها. فقانون الجاذبية يُقرِّر ما سيحدث تحت شروطٍ معينة دون تدَخل عوامل طبيعية أو فوق طبيعية. فإمساك التفاحة لا يقلب قانون الجاذبية أو يتطلَّب صياغة قانون جديد، فقط بل تدَخل إنسان بإرادة حرة يتجاهل المُسبَبات الطبيعية العاملة في ذلك الظرف الخاص. وهذا أساساً ما يفعله الله عندما يُسبّب حدوث معجزة.

بدا أن هذا يُشكِّل معنى بالنسبة لي. ومع ذلك فقد عرفتُ أن بعض العلماء سيعتبرون المعجزات كمجرد خرافات، فقرِّرت أن أتتّبع تلك السلسلة من الأسئلة فيما بعد.

أعمال الله الحقيقية

سألتُ كريج عن رأيه في تنبؤ الفيزياني ماكس بلانك أن الإيمان بالمعجزات سيبطل بلا شك أمام تقدم العلم، وملحوظة البيولوجي ريتشارد داوكنز أن العلماء سيفهمون يوماً أعمال الكون، ومن ثم ستخمد الحاجة للتفسيرات الإعجازية. فاندهشتُ لرد فعل كريج.

فقد صرَّح قائلاً: «أعتقد أنهم على حق.»

تطلَّعتُ من بين أوراقي معتقداً أنه ربما يكون قد أساء فهم سؤالي. فقلت: «عفواً؟»

فأصرَّ قائلاً: حقاً، أعتقد أنهم على حق بقدر ما يقوم بعض المؤمنين بالخرافات باستخدام المعجزات كعذر للجهل وكنوع من الرهان لله كلما لا يمكنهم تفسير شئ. أعتقدُ أنه من الجيد أن يعصر العلم ذاك النوع من التفكير الساذج.

«لكني لم أكن أتكلم عن ذاك النوع من المعجزات، بل أشير إلى الأحداث التي يمكنك بها – بأسلوب منظم – أن تستدل منطقياً إلى أنه كان هناك عامل فوق الطبيعة يتدخل في العملية. فهذه المعجزات – أعمال الله الحقيقية – لن يُقضى عليها بتقدم العلم لأنها ليست مؤسسة على التجاء للجهل. لكنها مُدَّعمة بثقل الدليل العلمي والتاريخي.

«مايكل بيهى يفعل ذلك في كتابه "صندوق دارون الأسود"، حيث يستكشف بيهي «التعقيد المتعذر اختزاله» في الطبيعة – الكائنات الحية التي لم يمكنها التطور خطوةً بخطوة عن طريق الطريقة الدارونية التدريجية من الاختيار الطبيعي والتغير الوراثي. والآن لا يقول إن هذا لا يتعذر شرحه علمياً فحسب، بل إنه يعطي إشارةً ذات مبدأ إلى المصمم الذكي بناءً على ما توَّضحه الأدلة. هذا أمرٌ عقلاني؛ فاستنتاجاته مبنية على التحليل العلمي الجاد.»

أثارتني مناقشة كريج حول أدلة المعجزات لأسأله عن نقطة أخرى أشار إليها هيوم - المتشكك الاسكتلندي في القرن الثامن

عشر، وأشهر متشككي التاريخ بخصوص المعجزات. فأشرتُ قائلاً: «قال هيوم إن دليل اتساق الطبيعة حاسمٌ تماماً لدرجة أنٍ أي دليل في صالح المعجزات لن يكون قادراً أبداً أن يقهره. فمثلاً أنظر إلى القيامة. لدينا آلاف السنين من البرهان الإتساقي أن الموتى ببساطة لا يعودون من الموت. ولذلك فإن هيوم يقول إنه لن تكون هناك براهين قادرة لفهم ذلك الادعاء الهائل».

فهز كريج رأسه قائلاً: «ليس هناك تعارض بين الإيمان أن الناس يبقون عامة في قبورهم وأن يسوع الناصري قد قام من الأموات. ففي الحقيقة يؤمن المسيحيون بكلا الأمرين. فعبارة أن يسوع قام من الأموات ليس عكسها أن كل الآخرين قد بقوا في قبورهم، بل أن يسوع الناصري بقى في قبره.

«وللجدال ضد برهان القيامة، عليك أن تقدم البرهان ضد القيامة نفسها، وليس البرهان أن كل إنسان آخر قد بقى على الدوام في قبره. ولهذا أعتقد أن حجته ببساطة زائفة. «الآن سأتفق مع هيوم أن قيامة يسوع الطبيعية من الموت دون أي تدخل بشري غير محتملة تماماً. لكن ليست هذه هي الفرضية. فالفرضية هي أن الله قد أقام يسوع من الأموات. وهذا لا يقول أي شئ ضد قوانين الطبيعة التي تقول إن الموتى لا يعودون إلى الحياة بصورة طبيعية».

دليل إستثنائي

بينما استطعتُ أن أفهم فكرة كريج، أردتُ أن أتتبع ذلك أكثر. فقلتُ: «يقول بعض النقاد إن القيامة حدث استثنائي؛ ومن ثم فهي تتطلَّب دليلاً استثنائياً. أليس لهذا التأكيد قدر من القبول؟»

فأجابني: «نعم، هذا يبدو كحسٍ عام، لكنه خاطئ تماماً.

كيف؟»

«لأن هذا المعيار سيمنعك من الإيمان بكل أنواع الأحداث التي نقبلها عقلياً. فمثلاً لن تؤمن بتقرير صحيفة المساء أن الأرقام

التي اُختيرت في يانصيبِ الليلة الماضية كانت ٤، ٢، ٩، ٧، ٨، ٣؛ لأن هذا سيكون حدثاً من اللااحتمالية الاستثنائية. وشؤاذ ذلك ملايين وملايين إلا واحد؛ ومن هنا عليك ألا تؤمن بذلك عندما تعلن الأخبار. لكننا نؤمن بوضوح أننا عقلانيين في استنتاج أن هذا حقيقي. كيف يمكن هذا؟

«حسناً، يقول واضعو نظريات الاحتمالات إنك لا بدَّ أن تزن لااحتمالية حدوث الحدث ضد احتمالية أن يكون الحدث كما هو لو لم يحدث.»

لفظ كريج هذه الجملة بمنتهى السرعة حتى واجهت عقلي مصاعب استيعابها. فقلت رافعاً يدي: «مهلاً، أرجو أن تهدأ وتقدِّم مثالاً لي.»

فقال: «حسناً، تأمل في ذلك هكذا. لو كانت أنباء المساء فيها احتمالية عالية جداً من الدقة، فمن غير المحتمل بدرجةٍ كبيرة أن تُعلن الأرقام المختارة في اليانصيب بدون دقة. فهذا يوازن أية عدم احتمالية في اختيار تلك الأرقام، ومن هنا تكون عقلانياً تماماً أن تؤمن بهذا الحدث الغير محتمل بدرجة كبيرة.

«بنفس الطريقة، أية عدم احتمالية تظن أنها موجودة في قيامة يسوع هي متوازنة بعدم احتمالية القبر الفارغ، فظهورات قيامة يسوع، والتغير المفاجئ في التلاميذ الأوائل الحادث لو لم يكن هناك حدث مثل قيامة يسوع. أتفهم ما أقصده؟»

فقلتُ: «نعم. لقد أوضح هذا التفسير فكرته، فكما أنَّ القيامة تبدو غير محتملة بالنسبة للمتشككين، فلا بدَّ أن يُقابل هذا بكم عدم احتمال أن تكون لديك كل الأدلة التاريخية المتنوعة لحدوثها لو لم تحدث بالفعل.

فاستنتج كريج قائلاً: «لذلك يصبح من العقلاني جداً أن نؤمن بحدث مثل قيامة يسوع المعجزية. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أنظر إلى ذلك هكذا: «بما أن الله موجود حقاً، فبأي معنى يكون من غير المحتمل أن يقيم يسوع من الموت؟ لا أجد أي معنى.»

فتساءلتُ: «هل رأيتَ متشككين صاروا مؤمنين بالمسيحية بسبب كم وكيف الأدلة المؤيدة للقيامة؟»

فاتسعتْ عينا كريج وقال: «نعم بالتأكيد! لقد قابلتُ مؤخراً رفيقاً صار مسيحياً من بين الحركة المسماة بـ «الفكر الحر free thought». لقد تأمل في القيامة واستنتج من الأدلة أن الله أقام يسوع من الموت. وبالطبع، فإن رفاقه في هذه الحركة هاجموه بحدة. فقال: «لماذا هم عدوانيين للغاية؟ لقد تبعتُ فحسب تعاليم الفكر الحر، وهذا هو ما قادني إليه الدليل والمنطق!»

فضحكتُ ضحكةً خافتة قائلاً: «هل تقصد أن بعض رفاق «الفكر الحر» ليسوا متحررين فكرياً فيما يخص إيمان الناس؟»

فأجابني: «بصراحة، أعتقد أن كثير من المتشككين يتصرفون بأسلوبٍ منغلق الفكر.»

وكمتشكك سابق بنفسي لاحظتُ نفس الظاهرة، فتساءلتُ: «هل تشير الحقيقة أن بعضهم يتجاهلون حتى إمكانية المعجزات منذ البداية؟»

فأجابني: «بالضبط، فعلماء المنطق لديهم مصطلح «الرجوع للتفسير الأفضل». وهذا معناه أن تكون لديك مجموعة من البيانات للتفسير، ثم تكون لديك مجموعة من اختيارات حيوية أو تفسيرات متنوعة لهذه البيانات. وتكون بحاجة لاختيار أي تفسير من هذه المجموعة – في حالة صحته – يفسر البيانات المطروحة بأفضل صورة.

ومع ذلك فإن بعض المتشككين لن يسمحوا بتفسيرات فوق طبيعية حتى أن تكون ضمن مجموعة الاختيارات الحيوية. ومن ثم لو لم يكن هناك تفسير طبيعي لحدثٍ ما، فإنها تُترك ببساطة في تجاهل.

«وهذا تحيز. فبعيداً عن بعض أدلة الإلحاد، ليس هناك ضمان لاستبعاد التفسيرات الفوق طبيعية من كونها عضوً في مجموعة الاختيارات الحيوية. لو وضعتها في تلك المجموعة، فعليك أن

تكون محققاً أميناً منفتحاً لترى أي التفسيرات هو الأفضل لأي حدثٍ مطروح».

معجزات يسوع

قلتُ: «لنقل إنك محققاً أميناً تُسلسل أفكارك، فما الذي ستبحث عنه كي تقتنع بحدوث شئ إعجازي؟

«أن يكون لديك عدد من المعايير. عليك أن تتحرى كي ترى ما إذا كان هناك شئ لا يمكن الاهتمام به بخصوص القوى الطبيعية التي كانت تجرى في ذاك المكان والزمان. وسوف تبحث عن سياقٍ تاريخي ديني.

أردتُ أن أتتبع فكرة السياق هذه. فلقد قال هيوم إنه لو اتفق المؤرخون باتساقٍ أن ملكةَ إنجلترا قد ماتت ثم ظهرت حية بعد شهر، فسوف يميلُ لقبول أي تفسير عدا أن يكون الله قد أجرى معجزة. وسألتُ كريج عن رد فعله إزاء ذلك.

فأجابني: «أوافق أن المعجزة دون سياق غامضة أصلاً. فسياق المعجزة يمكنه أن يساعدنا في تحديد ما إذا كانت من الله أم لا. فمثلاً إعادة إحياء الملكة سيفتقد أي سياق ديني وسيكون أساساً شذوذ صريح بلا تفسير».

«ولكن ليس هذا هو الحال مع يسوع. فأعماله التي تفوق الطبيعة حدثت في سياقٍ يتميز بالأهمية الدينية لأنه أجرى معجزاته وأعاجيبه كعلاماتٍ لبزوغ ملكوت الله داخل التاريخ الانساني، وقد كانت قيامته بمثابة تصديق على رسالته. وتأتي قيامته كذروة حياته التي لا تُضاهي وتصريحاته الجذرية بالسلطان الإلهي وخدمته التي أدت إلى صلبه. ولهذا تجعلنا القيامة نتوقف للتأمل، بينما عودة الملكة ستُربكنا. ومن هنا فإن السياق التاريخي الديني أمرٌ حاسم لفهم الأحداث الإعجازية.»

لكني واصلتُ الحديث: «هل أجرى يسوع المعجزات؟ وماذا يقنعك أنه قام بذلك؟»

«الحقيقة أن معظم نقاد العهد الجديد اليوم يُصرّحون أن يسوع أجرى ما يمكن أن نسميه معجزات. وبقبول ذلك، ربما لا يؤمنون جميعاً أنها كانت معجزات أصلية، لكن فكرة يسوع الناصري كرجل معجزات وأعاجيب جزء من فكرة يسوع التاريخي المقبولة من قِبل النقاد اليوم بوجه عام.»

وعند ذلك، أدار كريج كرسيه وسحب ملفاً من الدرج خلف مكتبه. قلّب بعض الصفحات حتى وصل لما يريده، ثم قال: «لأقرأ لك اقتباساً من رودولف بولتمان، الذي يعد أحد أشهر نقاد العهد الجديد المتشككين في القرن العشرين:

كانت الجماعة المسيحية مقتنعة أن يسوع قد أجرى المعجزات، وقد رووا كثيراً من القصص حول المعجزات عنه. ولكن معظم هذه القصص التي تحتويها الأناجيل أسطورية أو على الأقل مُغلّفة بأسطورة. ولكن لا شك أن يسوع قد قام بهذه الأشياء التي كانت تعتبر في نظره، وفي نظر معاصريه، معجزات؛ أي أحداث كانت نتيجة السببية الإلهية الفوق طبيعية. فلا ريب أنه شفى المرضى وطرد الشياطين. [٩]

أغلق كريج الملف وقال: «حتى بولتمان يقول إن المعجزات والأعاجيب تنتمي ليسوع التاريخي. والآن، كانت هذه القصص في أيام بولتمان تعتبر أسطورية بسبب التأثير المفترض لعلم الأساطير الروماني – اليوناني على الأناجيل، لكن الدارسون اليوم يدركون أن هذا التأثير كان أصلاً لا شيء. إنهم يؤمنون الآن أن دور يسوع كصانع معجزات لا بدَّ أن يُفهم مقابل الستارة الخلفية لليهودية الفلسطينية في القرن الأول التي يناسبها هذا الأمر تماماً.

واستنتج قائلاً: «في الحقيقة، فإن السبب الوحيد كي تتشكك من أن هذه المعجزات كانت معجزات أصلية أكثر منها حالات شفاء جسدية نفسية سيكون سبباً فلسفياً – فهل تؤمن أن مثل هذه الأحداث يمكنها أن تحدث أم لا؟ إن تاريخية الأحداث ليست مُعرَّضة للشك.»

المعجزات والأساطير

كانت استنتاجات هؤلاء الدارسين نافعة، لكني أردتُ المزيد. فتساءلتُ: «ما هو الدليل المحدد أن يسوع أجرى المعجزات؟»

فقال: «جزءٌ من هذا الدليل هو أن هذه الأحداث موجودة في كل مراحل مصادر الانجيل. فمثلاً معجزة إشباع الخمسة آلاف موجودة في كل الأناجيل، ومن هنا لديك شهادة مستقلة ومتعددة لهذه الأحداث. ولا توجد أية إشارة إلى يسوع ناصري بلا معجزات في أي من المصادر. ومن هنا يكون من المعقول أن هذا ينتمي ليسوعَ التاريخي. والأكثر أن هذا يناسب البيئة اليهودية تماماً. فقد كان هناك رجال أعاجيب ومعجزات يهود سبقوا يسوع».

لم يكن هذا كافياً بالنسبة لي. فقلتُ: «إن قول كثيرين بحدوث شئ استثنائي – مثل إشباع الخمسة آلاف – لا يعني بالضرورة أنه حقيقي.»

فأجابني: «بمعنى ما، هذا سؤالٌ شخصي جداً لما ستجده مقنعاً بالنسبة لك. أعتقد أنه يمكننا أن نقول بثقةٍ إنه لا يوجد أي سبب يثير الشك بخصوص هذه الروايات ماعدا الأسباب الفلسفية. وبكلماتٍ أخرى، لو آمنتَ بوجود الله، فليس هناك سبب مقنع يدعوك للتشكك بخصوص هذه الأحداث.

«ومع ذلك، دعني أُضيف هذا: بخصوصِ معجزة العهد الجديد الرئيسية – القيامة – هناك دفاعٌ رائع جداً يُستنتج منه بثقةٍ أن القيامة حقاً أحد أحداث التاريخ. إن براهين القيامة أقوى بكثير من براهين أن يسوع قد أجرى معجزة شفاء الأعمي في يوحنا الإصحاح ٩. فأنت لديك كنز من البيانات حول القبر الفارغ، وظهورات القيامة، وأصل إيمان التلاميذ بالقيامة».

فتساءلتُ: «أليس من المحتمل أن تقارير معجزات يسوع قد كانت حقاً أساطير تطورت بعد سنواتٍ من حياته؟» فالملحد جورج سميث يقول: «بينما ينتقل المرء من الأناجيل المبكرة للأناجيل المتأخرة، فإن بعض المعجزات تصبح أكثر مبالغةً». (١٠)

«إنه يشرح التطور الأسطوري هذا بمقارنة مرقس الإصحاح ١ الذي يقول:. «وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى الْبَابِ. فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً.» مع متى الإصحاح ٨ الذي يقول« وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ مَجَانِينَ كَثِيرِينَ فَأَخْرَجَ الأَرْوَاحَ بِكَلِمَةٍ وَجَمِيعَ الْمَرْضَى شَفَاهُمْ» مع لوقا الإصحاح ٤ الذي يقول: «وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانَ عِنْدَهُمْ سُقَمَاءُ بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدَّمُوهُمْ إِلَيْهِ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَشَفَاهُمْ.» وقد قال المؤرخ أركيبولد روبرتسون: «نحن نشهد النمو المتزايد لأسطورة؟» [١١]

فنظر كريج نظرة حادة، وقال: «هذه الحُجة خيالية تماماً حقاً لأن كُتَّاب الأناجيل لا يستخدمون كلمتي «كل» و«بعض» كما تستخدمها تقارير الشرطة.»

دفع جانباً ملف بولتمان على مكتبه ومدَّ يده لكتابه المقدس، وفتحه على العهد الجديد، ومر بإصبعه على صفحة. وجد مرقس ١: ٥، وقرأ الآية بصوت عال: «وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمِيعُ كُورَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَأَهْلُ أُورُشَلِيمَ وَاعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْرِ الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.»

فقال: «حسناً، فكِّر في ذلك. إنه يقول إن يوحنا المعمدان كان يعمد كل اليهودية وكل أورشليم. حقاً؟ كل اليهودية؟ وكل أورشليم؟» قالها كريج وصوته يتصاعد بدهشةٍ ساخرة. «المنطقة كلها أخلت من الناس وذهبوا لنهر الأردن وتعمدوا جميعاً – كل الأطفال، وكل الشيوخ، حسناً، بالطبع لا. لم يكن هذا هو التعبير المقصود أن يُقرأ بسذاجة كتقارير الشرطة.

والآن عودةً إلى التقارير التي ذكرتها مبكراً – ما هي الفكرة الرئيسية التي تُقدِّمها؟ بشكلٍ واضح، أن الجموع كانت تذهب إلى يسوع للشفاء والمعجزات، وهذا ما هو مشهوداً عنه جيداً. والحقيقة هي أن كل هذه التقارير تتوافق تماماً بأنه كانت هناك معجزات يُجريها يسوع، وأن هذا كان يتضمن وجود الكثير من الناس».

وأضاف نقطةً أخرى: «من المهم أن نتذكر أنه بالنسبة للمعجزة

العظمى – القيامة - فنحن نعرف من البحث التاريخي أنه لم يكن هناك وقتٌ كاف بأي شكلٍ كي تتطور أسطورة معينة لتزيل أساساً راسخاً من الحق التاريخي.»

«معجزات» محمد

بافتراض وجود الدليل التاريخي أن يسوع قد أجرى أعمالاً اعتبرها شهود العيان إعجازية، فماذا عن المعجزات في الديانات الأخرى؟ وفقاً للناقد هيوم، فإن المعجزات من الديانات الأخرى تُعارض الواحدة الأخرى باعتبارها دليلاً في طريق الحق.

فمثلاً، يقول التقليد الإسلامي إن محمداً صعد إلى السماء على بُراق؛ وإنه شفى الساق المكسورة لصديق؛ وإنه أطعم مجموعات كبيرة من الناس بطعامٍ قليل؛ وإنه حوَّل فرع شجرة إلى سيف صلب؛ وإنه كان مسئولاً عن إنجازات أخرى فوق طبيعية.

قلتُ لكريج: «بما أن محمداً ويسوع قد أجريا معجزات متشابهة، ألا يُضعف هذا فرادة يسوع وينفي كون المعجزات دليلاً لحقه؟»

فجعد كريج حاجباه، وقال بلهجةٍ مُلَطفة قليلاً: «أعتقدُ أن هذا مبني على سوء فهم الإسلام. صَوّبني إن أخطأتُ، ولكني فيما أقرأ القرآن، فليست هناك أساساً أية معجزات، بغض النظر عما يُسمى بمعجزة القرآن فقط.»

فأجبتُ: «موافق، باستثناء فقرات قليلة موضع نقاش، أعتقدُ أن الدارسين يفسرون القرآن هكذا بشكلٍ عام. لكنني قلتُ إن هذه المعجزات مُسجلة في التقليد الإسلامي، حيث تكون فيه متكاثرة حقاً.» (١٢)

بحث كريج في ذهنه ثم استغرق في الموضوع، وقال: «آه، نعم، تماماً، فالمعجزات مذكورة فيما يُسمى بالحديث. وهاك المهم، فهذا التقليد الإسلامي دُوِّن بعد مئات السنين من حياة محمد، ومن هنا فإنه لا يُقارن بالأناجيل التي كُتبتْ خلال الجيل الأول حين كان شهود العيان لا يزالون أحياءً.

مثلاً، في ١ كورنثوس الإصحاح ١٥، فإن تقارير ظهورات قيامة يسوع تعود إلى الفترة الواقعة خلال السنوات الخمس الأولى بعد الحدث. ومن ثم تكون هذه بيانات مُستحدثة لا يمكن أن تكون نتيجة التطور الأسطوري. وهذا ببساطة لا يُقارن مع هذه القصص الاسطورية حول محمد التي تراكمتْ بعد سنوات كثيرة جداً في التقليد الإسلامي.»

«هل تعتقد أنه من المهم أن القرآن نفسه لا يؤكد معجزات محمد بنفس الطريقة التي يؤكد بها الكتاب المقدس معجزات يسوع؟»

«ربما بمعنى أن الحديث قد بدا فيما بعد أنه وجد من الضروري أن يختلق معجزات لمحمد. إنه لم يؤكد لنفسه أي شئ. وبشكلٍ أساسي، فإن هذه القصص تشرح كيف أن التقاير الغيرٌ تاريخيةً تنشأ من التأثيرات الأسطورية عبر قرون من الزمان، وهذا على خلاف الأناجيل، حيث تقارير المعجزة جزء من أول مراحل المصادر.»

شعرتُ بوجود تناقض. فلو كانت فورية تقرير المعجزات مهمة، فمن المؤكد أن كتاب المورمون يجتاز هذا الاختبار. وأشرتُ قائلاً: «من هنا تكون لديك تأكيدات عن المعجزات المُسجلة بسرعة بعدما تكون قد حدثت افتراضاً، ومع ذلك لا تقبل صحتها.»

في هذه الحالة يكون ما لديك الدجل الواضح لجوزيف سميث مؤسس المورمونية. من الممتع أن سميث وأبيه، عندما عاشا في نيويورك، كانت تستحوذ عليهما فكرة العثور على ذهب كابتن كيد Captain Kidd المدفون. وبعدها ماذا يدَّعي سميث العثور عليه؟ إطباق ذهبية من الملاك مارون، وبعدها يختفيان ويُزعم أنهما أُخذا إلى السماء ولم يُريا فيما بعد.

«ما لديك هنا خدعة واضحة مقارنةً بالأناجيل ذات الأمانة الواضحة لمن كانوا يسجلون الأحداث. إن مشكلة المارونية أساساً هي مشكلة مصداقية بسبب عدم الوثوق في جوزيف سميث، والافتقاد الصارخ للتوثيق. وعلى خلاف الأناجيل - التي تعززت مصداقيتها بدرجة هائلة من قِبل علم الآثار - فإن الاكشافات

الاثرية فشلتْ مراراً في تدعيم كتاب المورمون.»

الجانب الشخصي للمعجزات

كانت مناقشتي مع كريج مُحفزة حتى الآن، لكنها بقتْ بشكلٍ خاص في مستوىً عقلي. أردتُ أن أكون أكثر اقتراباً، أن أتفحص شخصية كريج الدراسية، وأربط موضوع المعجزات بحياته الشخصية، لكنني ترددتُ.

فمن خلال سنوات تعارفي مع بيل كريج، لاحظتُ بعض الإعاقات الجسدية التي كان يواجهها. فمثلاً يمكنني أن أحكي عندما تصافحنا الأيدي، كانت يده اليمنى مُشوَّهة قليلاً. ولاحترامي الشخصي، لم أثر الموضوع معه على الإطلاق. والآن - فيما استكشفنا هذا الموضوع – فقد آثار مرضه الظاهر سؤالاً مربكاً لم أستطع تجاهله فيما بعد: فلو كان الله يمكنه إجراء المعجزات، فلماذا لم يشفي إنساناً مكرساً له كبيل كريج؟

بدأتُ ببطء: «أُنظر، يا بيل، أنت تؤمن أن الله مازال يُجري المعجزات، أليس كذلك؟»

فقال كريج: «لا أنكر أن المعجزات يمكنها أن تحدث اليوم. وأضيفُ رغم ذلك أنه ليس هناك سبب يمنعها من أن تكون متكررة وواضحة كما كانت مع يسوع. والمعجزات تميل إلى أن تتجمع حول لحظاتٍ عظمى في تاريخ الخلاص، كخروج بني اسرائيل أو خدمة يسوع، الذي اعتبر معجزاته كعلاماتٍ للشعب لبزوغ ملكوت الله، وأعاجيبه كعلامات قدرته على تدمير قوات الظلمة.»

فقلتُ برفق: «قل لي، إذا كان الله يحبك ولديه القوة لشفاءك، فلماذا لا يجعل أتعابك الجسدية تختفي؟»

بدا أن كريج لم يكن يتوقع مواجهة هذا السؤال. فتنقل في جلسته واستند للأمام، وتحولتْ نبرة صوته من نغمة أستاذية إلى نغمة أكثر فردية وأكثر رقة.

بدأ كريج: «كان بولس الرسول يعاني مما أسماه «شوكة في الجسد» حتى طلب من الله أن يزيلها ثلاث مرات، وكانت إجابة الله أن نعمته تكفيه لأن قوته في الضعف تُكمل. وقد ظلت هذه الفقرة عزاءً لي طوال حياتي.»

نظرَ إلى الجانب، ربما مقرراً ماذا سيقول بعد ذلك. وعندما أعاد النظر إليّ، كانت حدة عينيه الزرقاوين الفولاذية الحادة قد تحولت إلى إخلاصٍ حساس.

وقال: «أعتقد أنني لا أناقش هذا كثيراً بشكلٍ عام، لكني أعاني من مرض خلقي عصبي عضلي يُسبّب ضموراً متزايداً في الأطراف. وفي حالتي هذه يكون هذا الضمور خفيفاً نوعاً ما. كثيرٌ من المصابين بهذا التزامن عليهم ارتداء دعامات، ولقد كنتُ محظوظاً حقاً أن حالتي لم تكن سيئة للغاية.»

فسألته: «هل طلبتَ معجزة؟»

فأومأ قائلاً: «كمسيحي شاب صليتُ أن يشفيني الله، لكنه لم يشفني».

ورغم أنني استطعتُ أن أفهم من نبرة صوته الواقعية أنه لم يكن يطلب الشفقة، إلا أن قلبي قد انجذب اليه. فقلتُ له: «أنت خائب الأمل»، وقد انطلقتْ كلماتي كملاحظة أكثر منها كسؤال.

فارتسمتْ ابتسامة صغيرة على وجهه. وسألني بمعنى واضح من الاندهاشِ: لي Lee، أتعرف ماذا أدهشني؟ بينما أنظرُ إلى حياتي، أدركُ أن الله قد استخدم هذا المرض بطرقٍ ملحوظة جداً كي يُشكّلني ويشكّل شخصيتي. فلأنني لم أستطع ممارسة الألعاب الرياضية حتى أنجح في شئ ما، وُجهتُ إلى الأكاديميات. وحقاً أدينُ بوجودي كدارسٍ لهذا المرض، فهو الذي أجبرني لدخول حياة العقل.

«وأيضاً أثر عليّ نفسياً بإعطائي دفعةً هائلة للنجاح. فلقد أسهم أن يكون لي إنجاز وإتجاه للهدف، وهذا ما ساعدني لعملِ الكثير في الحياة. وهكذا فهمتُ في النهاية حقاً بأسلوبٍ خاص جداً ما قاله

بولس: قوته في الضعف تُكمل».

فسألته: «لو كنتَ قد شُفيتَ، فهل كنتَ تريد ذلك؟»

فأطلقَ ضحكته وقال: «حسناً، الآن ربما يكون الأمر لطيفاً، حيث تعلمتُ الدروس!»

ثم قال إجابةً أكثر جدية رددتْ صدى تعليقات بيتر كريفت المبكرة حول المعاناة: «من الناحية الأخرى، أصبحتُ معتاداً على ذلك. ففيما أذكرُ الماضي، يمكنني القول بأمانة إنني سعيد بهذه الطريقة التي قاد بها الله حياتي. فالله يمكنه حقاً أن يستخدم أمور الحياة السيئة كي يُنجح مقاصده وأغراضه النهائية.

«وهذا ليس معناه أن هذه الأمور ليست سيئة - فهي سيئة حقاً. ولكنها جميعاً داخل إطار سلطان الله. فحتى الخير يمكنه أن يأتي من الشر».

الإيمان بإله معجزات

بيل كريج ليس أسقفاً يحيا في برج عاجي، لكنه إنسان تُجسّد حياته اليومية فلسفته المسيحية. فحتى حينما نتصارع مع موضوع مرضه الواقعي جداً، فهو يخرج بتأكيد أن معتقداته راسخة تماماً. كل شئ مُدَّعم بثقةٍ سامية في عقلانية المسيحية؛ تلك الديانة التي دعامتها معجزة من الإتساقات الغير مسبوقة.

قلتُ: «لقد أسميتَ أحد أشهر كتبك بعنوان الإيمان المعقول، لكن هناك متشككون ربما يدعون هذا جمعاً لكلمتين متناقضتين.»

مددتُ يدي لحقيبتي وسحبتُ كتاباً عنوانه «مقالات نقد الله»، وانتقلتُ لفصلٍ عنوانه «الدين والعقلانية» كتبه الملحد ريتشارد روبنسون، فيلسوف تعلم في جامعتي أكسفورد و كورنيل. قرأتُ اقتباساً لكريج كنتُ قد حددته من قبل:

«الإيمان المسيحي ليس هو مجرد الإيمان أن هناك إلهاً. لكنه الإيمان أن هناك إلهاً بغض النظر عن الدليل المطروح. فمصطلح

«ليكن لك ايمان» في المعنى المسيحي معناه «آمن أن هناك إلهاً دون إشارة للدليل.» (١٣)

أغلقتُ الكتاب، ونظرتُ إلى كريج متسائلاً: «كيف ترى هذا التفاعل بين الإيمان والعقل؟ هل الاثنان متعارضان كما يؤكد على ذلك النقاد؟»

فبدأ كريج بتعريف: «الإيمان هو الثقة أو التكريس لما تعتقد أنه حقيقي.» فأسباب اعتبار الإنسان صحة المسيحية يمكن أن تختلف من فرد لآخر. فبالنسبة للواحد ربما يكون السبب هو أن الله يتحدث إلى قلبه ويؤكد في داخله إقناعاً أن هذا حقيقي. وأنا أؤمن بالتأكيد بصحة هذا.

«ومع ذلك فبالنسبة لآخر، ربما يكون استكشافاً معرفياً عملياً للدليل المؤدي به إلى نفس الخاتمة. ولكن كلاهما لا يأتي إلى الإيمان حتى يقوما بفعل الثقة أو التكريس لما يظنناه. حقيقياً. عندما تفهم الإيمان في ظل هذه التصنيفات، يمكنك أن تفهم أنه منسجماً تماماً مع العقل.»

عندما طلبتُ من كريج أن يتوَسع في شرحه، فكر للحظاتٍ ثم قدَّم تفسيراً من خبرته الشخصية. بدأ قائلاً: «كانت لديَّ جراحة زرع أعضاءٍ في القرنية منذ فترةٍ ما، وبينما فارقتْ الكلمات لسانه، ضحكَ. وقد بدتْ مشكلةٌ طبية أخرى وكأنها «ارتشاف حبات الدواء»، في ضوء مناقشتنا السابقة حول صحته. هزَّ كريج كتفيه وقال ضاحكاً: «زوجتي تقول إنني كارثة طبية، ومع ذلك الإنسان الأوفر صحة التي تعرفه!

عموماً، قبل استعدادي للسماح بأي إنسانٍ لإجراء جراحة على عيني، قامت جان وأنا ببحثٍ شامل للعثور على أفضل جراح قرنية في البلاد. عملنا بحثاً، ونظرنا إلى الدليل، واتصلنا به، وتحدثنا معه، وأخيراً بعدما اقتنعنا على أساس الدليل أنه الأفضل، وثقتُ به وسمحتُ له بإجراء الجراحة على عيني. كان إيماني أو ثقتي به مؤسس على الدليل الجيد الذي كان لديّ بالنسبة لمؤهلاته ومصداقيته.

بنفس الحال – وفيما يتعلق بالإيمان بالله أو بالمعجزات – فإن كثيراً من الناس يقومون بالثقة أو التكريس بعدما يكونوا قد اقتنعوا بدليل صحة المسيحية. وليس كل إنسان يسلك هذا الطريق، لكن هناك أناسٌ بالطبع يفعلون ذلك. وهذا مدخل منطقي عقلاني يستخدم العقل أكثر مما ينفيه.»

لقد فتح موضوع الدليل الباب لموضوع جوهري كان بحاجة لاستكشافه. فوقتاً بعد الآخر، أشار كريج إلى حقيقة أن الله موجود، ومن هنا يكون من المعقول أن نؤمن أن المعجزة ممكنة. وبينما يُشكل هذا الأمر معنى، فبالنسبة لكثيرين يتوقف على علامة «لو» كبيرة جداً.

تساءلتُ: «ما الدليل التأكيدي الذي يُقنعك أن مثل عمل المعجزات هذا موجود؟ أيمكنك أن تُقدّم لي بعض الأسباب المقنعة للإيمان بخالق إلهي وبصحة المسيحية؟»

كان كريج يومئ طوال فترة السؤال. وأجابني قائلاً: «في العام ١٩٨٦ سمعتُ محاضرة قدم فيها ألفين بلانتنجا ٢٤ سبباً للإيمان بالله. وهو الفيلسوف المسيحي البارز اليوم، وقد كان عرضاً مدهشاً لحجج إيمانية. [١٤]

نظرتُ في ساعتي واقترحتُ قائلاً: «ماذا عن إعلان خمس حجج رئيسية؟»

فقال: «حسناً، سأُناقش مجموعة من الحجج المؤيدة لله والتي تُدّعم وتؤكد كل واحدة.» [١٥]

رفع كريج أكمام قميصه، واستقر في كرسيه. وكمؤلف «وجود الله وبداية الكون»؛ والمؤلف المشترك لـ «الإيمان، والإلحاد، وكوزمولوجيا الانفجار العظيم» الذي نشرته مطبعة جامعة أكسفورد، بدأ كريج حججه من حيث يتوقع المرء تماماً:

السبب الأول: الله يَفْهَمُ أصل الكون

قال كريج: «فلسفياً وعملياً، يمكنني أن أؤمن أن الكون والزمان

نفسه كانت له بداية في نقطةٍ معينة في الماضي. ولكن بما أن شيئاً لا يمكنه أن يأتي من العدم، فلا بدَّ أن تكون هناك عَلة عليا خارج إطار المكان والزمان أظهرت الكون».

فتساءلتُ: «والكون ظهر بما سمى بما سُمي بالانفجار العظيم؟»

فقال: بالضبط، كما قال ستيفن هوكنغ: «كل إنسان يؤمن الآن أن الكون والزمان نفسه، كانت لهما بداية في الانفجار العظيم»(١٦) وهذا ما يشير إليه الدليل العلمي الساحق – إلى حدثٍ يرجع تاريخه إلى ٤ مليار سنة مضت تقريباً. والآن يثير هذا مشكلة رئيسية للمتشككين. يقول أنتوني كيني من جامعة أكسفورد: «إن مؤيد نظرية الانفجار العظيم، على الأقل لو كان ملحداً، لا بدَّ أن يؤمن أن ... الكون قد جاء من العدم ومن خلال العدم.» (١٧)

فضحك كريج قائلاً: «بالطبع شئ قادم من العدم لا يُشكِّل معنى! لي Lee، لقد كنتَ تقتبس كلمات المتشكك الشهير ديفيد هيوم قليلاً في لقاءاتنا. حسناً، فقد قال: «ولكن اسمحوا لي أن أخبركم أنني لم أؤكد أبداً على أي اقتراحٍ سخيف مثل أن أي شئ يمكنه أن ينشأ دون علة» (١٨)

«الملحدون يدركون هذا. فمثلاً قال أحد أشهر ملحدي الفلسفة المعاصرة – كاي نيلسن - ذات مرة: «افترض أنك سمعت فجأة ضجةً عالية ... وسألتني: «ماذا سبَّبَ هذه الضجة؟»، فأجبتك: «لا شئ، لقد حدثتْ فحسب»، فلن تقبل مني هذا.» (١٩)

وهو على حق تماماً. ولكن فكر في ذلك: لو كان لا بدَّ أن يكون هناك سبب لضجة بسيطة، ألا يكون من المعقول أيضاً أن يكون هناك سبب لانفجار عظيم؟»

كان هذا سؤالٌ يبدو أنه لا يحتاج إجابة. فسألته: «فكيف تلخص إذاً هذه الحجة المبدئية؟»

بينما جهز كل نقطة، بدأ كريج في عدها على إصبعه: «أولاً، كل شئ يبدأ أن يكون له علة. ثانياً، الكون بدأ أن يكون. وثالثاً:

من هنا يكون الكون له علة. وهذا ما كتبه العالم الشهير سير آرثر أدينجتون: «البداية يبدو أنها تُقدِّم صعوبات لا تُقهر ما لم نتفق أن ننظر إليها كأنها بصراحة فوق الطبيعة.» (٢٠)

فقاطعته قائلاً: «حسناً، هذا يشير إلى خالق، ولكن هل تقول لنا الكثير عنه؟»

فأجابني: «نعم بالطبع. فنحن نعرف أن هذه العلة الفوق طبيعية لا بدَّ أن تكون كيان موجود بذاته، غير متغير أزلي، وغير مادي.»

ما أسباب استنتاجاتك؟»

«لا بدَّ أن يكون موجوداً بذاته لأننا نعرف أنه لا يمكن أن يوجد نُكوص مُطلق من العلل. ولا بدَّ أن يكون أزلياً ومن ثم غير متغير، على الأقل بدون الكون، لأنه كان خالق الزمان. وبالإضافة إلى ذلك لأنه أيضا خلق المكان، فلا بدَّ أن يسمو فوق المكان، ومن هنا يصير غير مادي عن كونه مادي في الطبيعة.»

كان هناك سؤال واضح لا بدَّ من طرحه، فقلتُ: «لو كان لا بدَّ على كل إنسانٍ أن تكون لديه علة، فمن أو ماذا علّل الله؟»

فأجابني كريج: «مهلاً، فأنا لم أقل إن كل شئ لا بدَّ أن تكون له علة، فالمقدمة المنطقية تقول إن كل ما يبدأ أن يكون لا بدَّ أن تكون له علة. وبأسلوب آخر فإن «الوجود»، لا يمكنه أن يأتي من «عدم الوجود»، وحيثُ أن الله لم يبدأ أبداً أن يكون، فهو لا يتطلب علة. فالله لم يأتَ أبداً إلى الوجود.»

قلتُ له إن ذلك قد بدا بلا شك وكأنه يستثنى الله بشكلٍ خاص.

فأجابني: «الملحدون بأنفسهم تعودوا أن يكونوا مكتفين تماماً بتقرير أن الكون أبدي قائم بذاته. والمشكلة أنهم لا يحملون فيما بعد هذا الوضع بسبب الدليل الحديث أن الكون قد بدأ بالانفجار العظيم. ومن هنا فهم لا يمكنهم الاعتراض شرعياً عندما أستخدمُ نفس الكلام حول الله – فالله أبديٌ قائم بذاته.»

السبب الثاني: الله يفهم تعقيد الكون

قال كريج: «في السنوات الخمس والثلاثية الأخيرة، ذهل العلماء لاكتشاف أن الانفجار العظيم لم يكن حدثاً بدائياً فوضوياً، بل بالأحرى حدثاً مرتباً بشكلٍ فائق الدقّة حتى إنه تطلب قدراً هائلاً من المعلومات. في الواقع، منذ لحظة استهلاله، كان على الكون أن يكون متحولاً تماماً fine-tuned إلى دقةٍ غير مفهومة لوجود حياة كحياتنا نحن. وهذا يشير بطريقة مؤكدة جداً إلى وجود مصمم ذكي.»

فأشرتُ قائلاً: «إن مصطلح «متحولاً تماماً» مصطلح ذاتي يمكنه أن يعني كثيراً من الأشياء. فماذا تقصد به؟

فقال: «لأضع الأمر هكذا: علمياً، من المحتمل جداً أن يوجد كون معارضاً للحياة أكثر من كونٍ داعم للحياة. فالحياة تُقاس في وضعٍ حساس للغاية.

وكمثالٍ، تلا كلمات هاوكنز، وقال كريج: «لقد حسب أنه لو كان معدل اتساع الكون بعد الانفجار العظيم بثانية واحدة أقل حتى من جزء واحد من مائة ألف مليون مليون، لكان الكون قد انهار إلى كرةٍ من نار.» (٢١)

وباختصار تقدم كريج لذكر قائمة من بعض الإحصائيات الأخرى المذهلة للعقل لتدعيم استنتاجه. (٢٢) ومنها:

- استنتج الفيزيائي البريطاني ديفيز P.C.W. Davies أن شواذ الظروف المبدئية المناسبة لتكوين النجوم – وهي ضرورية للكواكب ومن ثم الحياة – هي واحد متبوعة على الأقل بألف مليار مليار صفراً. (٢٣)
- حسب ديفيز أيضاً أنه لو كانت شدة الجاذبية أو شدة القوة الضعيفة قد تغيرت بجزءٍ واحد فقط من عشرة متبوعة بمائة صفر، لما كانت الحياة قد تطورت تماماً. (٢٤)
- هناك حوالي خمسين من الثوابت والكميات – مثلا كمية

الطاقة المستخدمة في الكون، فرق الكتلة بين البروتونات والنيوترونات، نسبة القوى الرئيسية في الطبيعة، ونسبة المادة بالنسبة للمادة – لا بدَّ أن تقاس على درجة دقيقة حسابياً لإمكان وجود أية حياة. (٢٥)

قال كريج: «كل هذا يُدَّعم باسهاب استنتاج أن هناك ذكاءً وراء الخلق. في الحقيقة، فإن التفسيرات البديلة لا تضيف جديداً.

فمثلاً هناك نظرية اسمها «الضرورة الطبيعية *natural neces-sity* » معناها وجود نظرية «كل شئ» *Theory of Everything* مجهولة تفسر نظام الكون. بأسلوب آخر، هناك شئ في الطبيعة جعل من الضروري أن تظهر الأشياء بهذا الشكل.

ومع ذلك فإن هذا المفهوم يتهاوى عندما تدرسه بعمق. أولاً، أي من يدَّعي أن الكون لا بدَّ أن يكون شامخاً بالحياة يُقدِّم زعماً جذرياً يتطلب الدليل القوي، لكن هذا البديل هو مجرد تأكيد. ثانياً، هناك أشكال أخرى للكون مختلفة عن أشكالنا نحن؛ فبالنسبة للكون لا بدَّ أنه كان مختلفاً. وثالثاً، حتى لو كانت قوانين الطبيعة ضرورية، فما زال عليك أن تكون لديك شروط مبدأية مُسلّم بها في البداية يمكن أن تجري عليها هذه القوانين.»

لكن هذا لم يكن البديل الممكن الوحيد. فسألته مقاطعاً لإثارة سيناريو مختلف بدا أنه معقولاً على السطح: «ماذا عن احتمالية أن التحول التام للكون هو نتيجة الصدفة البحتة؟» فربما يكون الأمر كله مجرد حادثاً كونياً كبيراً – أي مثلاً تدحرج هائل للنرد.»

فتنهد ريج قائلاً: «لي Lee، سأقولُ لك هذا: إن الدقة رائعة تماماً، مثيرة للغاية حسابياً، لدرجة إنه من الحماقة الواضحة أن تفكر أن الأمر كان حادثٌ. وخاصة لأننا لا نتكلم عن الشواذ البسيطة فحسب، بل عما يدعوه واضعو النظريات «الاحتمال المحدد، الذي يستثنى الصدفة خارج إطار الشك المعقول».

لم أكن مستعداً لترك اختيار الصدفة. فتساءلتُ: «وماذا لو كان هناك عددٌ غير محدود من الأكوان الأخرى الموجودة بعيداً عن كوننا؟ حينها ستكون الشواذ أن أحداً منهم ستكون له الشروط

الصحيحة لتدعيم الحياة – وهذا هو الواحد الذي نجد فيه أنفسنا الآن.»

كان كريج قد سمع هذه النظرية من قبل فقال: «هذه تدعى فرضية العوالم الكثيرة *The Many World Hypothesis*. لقد تحدث هاوكنغ عن هذا المفهوم. وهنا تكمن المشكلة: فهذه الأكوان النظرية الأخرى غير متاحة لنا؛ ومن ثم فليس هناك طريق ممكن لتقديم أي دليلٍ بصحة ذلك. إنها مجرد مفهوم، فكرة، بلا دليلٍ علمي. العالمِ واللاهوتي البريطاني اللامع جون بولكينجهورن دعا ذلك علماً زائفاً، و»تخميناً ميتافيزيقياً.» [٢٦]

«فكرٍ في هذا: لو كان هذا حقيقياً، لجعل السلوك العقلاني للحياة مستحيلاً لأنك يمكنك أن تُفسّرَ أي شئ – مهما كان غير محتمل – بافتراض رقم لا محدود من الأكوان الأخرى.»

لم أكن أتبع تماماً ذاك الإتجاه من التفكير، فتساءلتُ: «ماذا تقصد بذلك؟»

«مثلاً؛ لو كنتَ توزع الأوراق في لعبة البوكر، وكلما وزعتَ لنفسك أربعة آسات، لا يمكن أن تُتهم بالغش، مهما كانت عدم احتمالية الموقف.

يمكنك فقط أن تشير إلى أنه في مجموعة غير محدودة من الأكوان سيحدث أن كوناً كلما يوزع فيه إنسان الأوراق، فإنه يوزع لنفسه أربعة آسات ومن ثم – فيا لحظي! – فأنا أتمنى ان أكون في ذاك الكون!

«أُنظر، هذه ميتافيزيقا خالصة. ليس هناك سبباً حقيقياً للإيمان بوجود مثل هذه العوامل المتوازنة. فحقيقة أن المتشككين عليهم أن يطلعوا بمثل هذه النظرية الغريبة هي أن التحول التام للكون يشير بقوة إلى مصمم ذكي – وأن بعض الناس سيفترضون أي شئ لتجنب الوصول لذلك الاستنتاج».

عرفتُ أن توازن الكون الدقيق بشكلٍ مدهش هذا كان أحد العوامل الرئيسية التي قادت باتريك جلين - الذي تعلم في

هارفارد، والمدير المساعد، والباحث المقيم في معهد جامعة جورج واشنطون لدراسات سياسة التواصل - لترك الإلحاد إلى المسيحية. ففي كتابه «الله: الدليل *God: The Evidence*، يفند مثل تلك النظريات البديلة الأخرى كميكانيكات الكم و«الأكوان الصغيرة baby universes»، متقدماً إلى هذا الاستنتاج:

إن البيانات الملموسة اليوم تشير بقوة في إتجاه فرضية الله ... فأولئك الذين يرغبون معارضتها ليست لديهم نظرية قابلة للاختبار لتنظيمها، بل مجرد تخمينات عن أكوانٍ أخرى نابعة من الخيال العلمي المثمر ... والمثير للسخرية، فإن صورة الكون المُهداة لنا من علم القرن العشرين الأكثر تقدُّما أقرب في الروح من الصورة المقدَّمة في سفر التكوين من أي شئ آخر قدَّمه لنا العلم منذ كوبرنيكوس. [٢٧]

السبب الثالث: الله يفهم القيم الأخلاقية الموضوعية

لخص كريج نقطته التالية ببلاغة في البداية: «العامل الثالث الذي يشير إلى الله هو وجود القيم الأخلاقية الموضوعية في الكون. لو كان الله غير موجود، فلا وجود إذاً للقيم الأخلاقية الموضوعية».

وقد أثار ذلك بالطبع سؤالٍ ماذا يقصد بالقيم «الموضوعية». كان كريج سريعاً لإضافة كلاً من التعريف والتفسير.

شرح قائلاً: «القيم الأخلاقية الموضوعية صالحة ومتماسكة بشكلٍ مستقل سواء آمن بها أحد أو لا. مثلاً، أن تشير إلى الهولوكوست باعتبارها خطأ موضوعياً هو أن تقول إنه كان من الخطأ حتى لو كان النازيون يعتقدون أنهم على حق. ويمكن أن يستمر الأمر خاطئا حتى لو كان النازيون قد ربحوا الحرب العالمية الثانية، ونجحوا في غسل عقول أو إبادة كل من كان يعارضهم. والآن، لو كان الله غير موجود، تكون القيم الأخلاقية موضوعية بهذه الطريقة».

كنتُ أهز رأسي، فتعجبتُ قائلاً: «مهلاً، لو كنتَ تقول إن الملحد

لا يمكن أن تكون لديه القيم الأخلاقية أو يحيا حياةً أخلاقية أساساً، فأنا لدي مشكلة بخصوص ذلك.

لديَّ صديقٌ لا يؤمن بالله، وهو إنسانٌ رقيق ومهتم ككثير من المسيحيين الذين أعرفهم.

«لا، أنا لا أقول إن الإنسان لا بدَّ أن يؤمن بالله كي يحيا حياة أخلاقية. لكن السؤال هو: «لو لم يكن الله موجوداً، فهل تكون القيم الأخلاقية الموضوعية موجودة؟ والإجابة هي: لا».

«لماذا لا؟»

«لأنه إن لم يكن هناك الله، تكون القيم الأخلاقية مجرد نتاج التطور البيولوجي الاجتماعي. وفي الحقيقة هذا ما يعتقده كثير من الملحدين. فطبقاً للفيلسوف مايكل روز: «الأخلاقية هي توافق بيولوجي ليس أقل من أيادٍ وأرجلٍ وأسنان. والأخلاقية هي مجرد وسيلة للنجاة والتوالد .. وأي معنى أعمق هو معنى وهمي.» [٢٨]

«وإن لم يكن هناك الله، تكون الأخلاقية مجرد مسألة تذوق شخصي، قريبة من جمل مثل «القرنبيط مذاقه جيد». حسناً، فهو مذاقه جيد بالنسبة للبعض، لكنه رديء بالنسبة للبعض الآخر. ليس هناك أي حقٍ موضوعي بخصوص ذلك، لكنه مسألة تذوق شخصية. وللتعبير عن أن قتل الأطفال الأبرياء خطأ، يجب أن يكون مجرد تعبير عن الذوق قائلين: «لا أحب قتل الأطفال الأبرياء».

مثل روز، والملحد برتراند رسل، لا أرى أي سببٍ يدعوني للتفكير أنه في غيابِ الله، تكون الأخلاقية التي وضعها الإنسان موضوعية. وعموماً، لو لم يكن الله موجوداً، فماذا سيكون الأمر المثير حول البشر؟ إنهم مجرد نتاجات ثانوية عرضية من الطبيعة تطورت مؤخراً على بقعة ضيقة من التراب المفقود في مكانٍ ما في كونٍ غبي، ومحكوم عليها بالفناء إلى الأبد في فترةٍ قصيرة نسبياً من الوقت.

من وجهة النظر الإلحادية، فإن بعض الأفعال، كالاغتصاب

يمكنها ألا تكون مفيدة اجتماعياً، ومن ثم صارت ممنوعة في مجرى التطور البشري. ولكن هذا لا يبرهن أن الاغتصاب خطأ حقاً. ففي الحقيقة من المتصور أن الاغتصاب كان من الممكن أن يتطور كشئ ضروري لبقاء الأنواع. وبهذا، بدون الله لا يوجد صواب وخطأ مُطلق يفرض نفسه على ضمائرنا.

ومع ذلك، فكلنا يعرف تماماً أن القيم الأخلاقية موجودة حقاً. فكل ما علينا لرؤية ذلك هو أن نسأل أنفسنا ببساطة: «هل تعذيب طفل من أجل المتعة هو عمل محايد أخلاقياً حقاً؟ يقيني أنك ستقول: «لا؛ فهذا عمل غير محايد أخلاقياً، فمن الخطأ حقاً أن تفعل ذلك». وسوف تقول ذلك في إدراكٍ كامل لنظرية تطور دارون وبقية ذلك.

هناك تفسيرٌ جيد لهذا، وهو خطاب لجمع تبرعات أرسله في العام ١٩٩١ جون هيلي – المدير التنفيذي لمنظمة العفو الدولية قال فيه: «أكتبُ لكم اليوم لأنني أعتقد أنكم ستشاركوني إيماني العميق أن هناك بالحقيقة بعض الحقائق الأخلاقية المطلقة. عندما يصل الأمر إلى التعذيب، إلى القتل الذي تعاقب عليه الحكومة، إلى الاختفاءات، ... فهذه تعديات ضد كل منا.» [٢٩]

«إن أفعالاً كالاغتصاب وسوء استغلال الطفل ليست مجرد سلوكيات تحدث حتى لا تُقبل اجتماعياً – لكنها رجاسات أخلاقية بصورةٍ واضحة. فهي خاطئة موضوعياً. ومثل هذه الأمور كالحب، والمساواة، والتضحية بالذات مميزة حقاً بمعنى موضوعي. ونحن جميعاً نعرف هذه الأمور بشكلٍ عميق:

«وحيث أن هذه القيم الأخلاقية الموضوعية لا يمكنها أن توجد بدون الله، وهي أصلاً موجودة دون جدالٍ، يكون من المنطقي والبديهي أن الله موجود.»

السبب الرابع: الله يفهم القيامة

مع هذه النقطة، قال كريج إنه سيضبط جلسته قليلاً. قال: «لقد كنا نقول إنه لو كانت لدينا أسبابٌ مقنعة للإيمان بالله، يمكننا أن نؤمن بالمعجزات. كنتُ أقدم أسباباً تؤيد وجود الله. لكن المعجزات نفسها يمثلها أن تكون جزءاً من الراحة المتزايدة بالنسبة لله.

هذا حقيقي بالنسبة للقيامة، على سبيل المثال، فلو كان يسوع الناصري قد عاد حقاً من الموت، تكون لدينا معجزة إلهية بين أيادينا، وبهذا يكون لدينا الدليل لوجود الله.»

طلبتُ من كريج أن يلخص لماذا يؤمن بالبرهان التاريخي المؤدي لذلك الاستنتاج، وصممتُ قائلاً: «ولكن لا تفترض أن العهد الجديد هو كلمة الله الموحي بها. فوافق أن تعتبر إجابته أن العهد الجديد مجرد مجموعة من وثائق القرن الأول اليونانية التي يمكن إخضاعها للتحليل كأية سجلاتٍ قديمة أخرى.

بدأ كريج: «هناك على الأقل أربع حقائق على مصير يسوع مقبولة على نطاقٍ واسع من قِبل مؤرخي العهد الجديد من قطاع عريض. الحقيقةُ الأولى هي أنه بعد صلب يسوع، دفنه يوسفُ الرامي في مقبرة. هذا أمر مهم لأن معناه أن مكان القبر كان يعرفه اليهود والمسيحيون والرومان على حدٍ سواء». فسألته: «ما دليل ذلك؟»

«دفن يسوع مُسَجل في البيانات القديمة جداً لدرجة أن بولس قد ذكره في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس. [٣٠] وهذه المعلومات يمكن أن يرجع تاريخها إلى حوالي خمس سنوات بعد موت يسوع، لذلك لم تكن أسطورية. والأهم هو أن قصة الدفن جزء من مادة قديمة جداً استخدمها مرقس في كتابة إنجيله، وقصته تفتقد علامات التطور الأسطوري. ليست هناك تتبعات لأية قصة دفن منافسة. والأهم هو أنه سيكون أمراً متعذر تفسيره لأي إنسانٍ أن يُقرِّر قرار يوسف الرامي، حيث كان عضواً في السنهدريم الذي أدان يسوع.

«الحقيقة الثانية هي أنه في الأحد بعد الصليب، وُجدَ قبر يسوع فارغاً من قِبَل مجموعة من النساء التابعات. وهذا ما أكده تقرير بولس المُبكِّرَ إلى الكورنثيين الذي يتضمن القبر الفارغ، وأكدته مادة مرقس الأصلية القديمة جداً. وهكذا يكون لدينا البرهان المستقل المبكر.

«ولدينا المزيد أيضاً. فعلى سبيل المثال، قصة القبر الفارغ تفتقر علامات الزخرفة الأسطورية، وأول استجابة يهودية معروفة لإعلان قيامة يسوع تفترض مسبقاً أن قبره كان فارغاً. بالإضافة إلى ذلك، فإنه مُسجلٍ أن النسوة قد اكتشفن القبر فارغاً. والآن، فإن شهادة النسوة قد اُعتبرت غير موثوق بها تماماً لدرجة إنهن لم يكن يمكنهن الشهادة في المحاكم اليهوديةً. والسبب الوحيد لتضمن التفاصيل المثيرة للغاية أن النسوة قد اكتشفن القبر الفارغ هو أن كُتَّاب الأناجيل كانوا يسجلون بأمانة ما حدث بالفعل.

الحقيقة الثالثة هي أنه في مناسباتٍ عدة وتحت ظروفٍ متنوعة، اختبر أفراد مختلفون ومجموعات من الناس ظهورات يسوع حياً من الموت. وهذا مُعترف به على نطاقٍ كوني من قِبل دارسي العهد الجديد لعدة أسباب.

«فمثلاً قائمة شهود عيان قيامة يسوع التي أهداها بولس إلى الكورنثيين تضمن أن مثل هذه الظهورات قد حدثت. ومع تقديم التاريخ المبكر للبيانات، وتعارف بولس الشخصي مع الأشخاص المشتركين، لا يمكن اعتبار ذلك أسطورياً.

«وأيضاً يقدم رواة الظهور في الأناجيل براهين متعددة مستقلة عن الظهورات. فحتى ناقد العهد الجديد المتشكك جيرد لودمان استنتج قائلاً: «يمكن أن يكون من المؤكد تاريخياً أن بطرس والتلاميذ كانت لديهم اختبارات بعد موت يسوع ظهر لهم فيها يسوع كالمسيح القائم.» (٣١)

«الحقيقة الرابعة هي أن التلاميذ الأصليين آمنوا فجأةً وبإخلاص أن يسوع قد قام من الأموات رغم ميلهم السابق لعكس ذلك. لقد أعاقتْ المعتقدات اليهودية قيام أي إنسانٍ من الأموات قبل القيامة

العامة في نهاية العالم. ومع ذلك، فإن التلاميذ الأصليين قد آمنوا فجأة وبمنتهى القوة أن الله قد أقام يسوع حتى صاروا مستعدين أن يموتوا دفاعاً عن هذا الإيمان. قال دارس العهد الجديد لوقا جونسون: «لا بدَّ من الاختبار التحولي القوي لإنتاج ذاك النوع من الحركة التي كانت عليها المسيحية المبكرة». (٣٢)

فقلتُ: «حسناً إذاً، في رأيك ما هو أفضل شرح لهذه الحقائق الأربع؟»

فأجابني: «بصراحةٍ، لا يوجد بالقطع تفسيرٌ طبيعيٌ مناسبٌ. فجميع النظرياتِ القديمة مثل «التلاميذ سرقوا الجسد»، أو «يسوع لم يكن ميتاً حقاً»، قد رفضتها الثقافة الحديثة رفضاً عالمياً.

«شخصياً، أعتقدُ أن أفضل شرح هو نفس الذي قدَّمه شهود العيان: أن الله قد أقام يسوع من الأموات. في الواقع، هذه الفرضية تجتاز بسهولة ستة اختبارات يستخدمها المؤرخون لتحديد ما هو أفضل تفسير لأمرٍ معين من الحقائق التاريخية». (٣٣)

السبب الخامس: الله يمكنه أن يُختبر على الفور

قال كريج إن هذه النقطة الأخيرة لم تكن بمثابة حُجة دامغة لوجود الله، «بل بالأحرى الدليل الذي يمكنك أن تعرف به أن الله موجودٌ تماماً بعيداً عن الحجج كونك تملك اختباراً فورياً عنه. ويطلق الفلاسفة على ذلك «إيمان أساسي خالص».

نظر كريج إليَّ مباشرة وقال: «لي Lee، دعني أشرح هذا المفهوم بسؤال: «هل تؤمن بوجود العالم الخارجي؟»

أدهشني هذا السؤال، وفكرتُ فيه للحظات، ولم أستطع أن أخرج بسياقٍ منطقي من الحجج يمكنها أن تؤسس إجابة لا جدال فيها. فأعلنتُ قائلاً: «لستُ متأكداً كيف أتيقن من ذلك.»

فأجابني: «هذا صحيح. فإيمانك بحقيقة العالم الخارجي أساسي بدقة، فلا يمكنك أن تبرهن أن العالم الخارجي موجود. ورغم ذلك يمكنك أن تكون عقلاً في وعاءٍ يُعالَج بالأقطاب الكهربائية من

قبل عالم مجنون حتى إنك تعتقد أنك ترى عالماً خارجياً، لكنك ستكون مجنوناً إن اعتقدتَ بذلك. وهكذا فإن الاعتقاد الأساسي الدقيق بالعالم الخارجي هو اعتقاد عقلاني تماماً. وبكلماتٍ أخرى نقول إنه متأصل بصورة ملائمة في اختبارنا.

«وبنفس الطريقة، في سياق خبرة فورية عن الله، يكون من العقلانية أن نؤمن بالله بأسلوبٍ أساسي دقيق. وقد اجتزتُ مثل هذا الاختبار. فالله غزا حياتي بينما كنتُ في السادسة عشرة من عمري، ولمدة أكثر من ٣٠ عاماً سلكتُ معه يوماً فيوماً، عاماً فعامً، كحقيقةٍ حية في اختباري.

«في غياب الحُجج القوية المؤيدة للإلحاد، يبدو لي أنه من العقلانية تماماً أن أستمر في الإيمان بحقيقة هذا الاختبار: فهذه هي الطريقة التي عرف بها الناس الله أيام الكتاب المقدس. وهذا ما كتبه جون هيك John Hick: «بالنسبة لهم، لم يكن الله افتراضاً يُكمّل القياس المنطقي، أو فكرة يتبناها العقل، بل الحقيقة المُختبرة التي أعطت المعنى لحياتهم.» (٣٤)

فقاطعته قائلاً: «ولكن ماذا لو قال ملحد نفس الشئ – أن لديه إيماناً أساسياً بدقة، بغياب الله؟ فأنت ههنا في ورطة».

فأجاب كريج: «يقول الفيلسوف ويليام ألستون إنه في تلك الحالة، يجب على المسيحي أن يفعل كل ما هو معقول للعثور على الخلفية العامة – كالحقائق المنطقية أو التجريبية – لتوضح رؤية من هي الصحيحة بأسلوبٍ مباشر. (٣٥)

وهذا ما حاولتُ أن أفعله في هذه الحُجج الأربع الأخرى. فأنا أعرفُ أن الله موجود بطريقةٍ أساسية دقيقة، وقد حاولتُ أن أفصح أنه يوجد بالحقائق العامة للعلم والأخلاق والتاريخ والفلسفة. فبتجميعها معاً تُشكل برهاناً قوياً مؤيداً لله وللمسيحية.»

طرقة على الباب

بينما كنتُ أُراقب كريج وهو يذكر أسباب إيمانه بالله، لاحظتُ أنه أظهر ثقةً هادئة فيما كان يقوله. قبل أن ينتهي، أردتُ أن أستكشف أعماق ما كان ينتج ذاك الاقتناع.

فتساءلتُ: «فيما تجلس هنا الآن، متعمقاً في نفسك، هل تعرف سبب صحة المسيحية؟»

فأجابني بلا تردد: «نعم».

«كيف تتأكد؟»

«إن الطريقة التي يعرف بها المسيحي أن المسيحية حقيقية هي من خلال شهادة النفس الأصيلة عن روح الله. فالروح القدس يهمس لأرواحنا أننا ننتمي إلى الله.[٣٦] وهذا أحد أدواره. والأدلة الأخرى - رغم أنها لا تزال صالحة - إلا أنها تأكيدية أساساً.»

فكر كريج للحظاتٍ ثم تساءل: «أنت تعرف بيتر جرانت، أليس كذلك؟» فأجبته بالإيجاب، حيث كنتُ صديقاً لقس أتلانتا. فقال كريج: «حسناً، لقد طلع علينا بتفسيرٍ رائع عن كيف يعمل هذا.

«لنقل إنك ذاهب إلى المكتب لرؤية ما إذا كان رئيسك موجوداً. ترى سيارته في ساحة الانتظار. وتسأل السكرتيرة ما إذا كان بالداخل، فتقول لك: «نعم، لقد تحدثتُ معه للتو. ترى النور من تحت باب مكتبه. وتسمع صوته في الهاتف. فعلى أساس كل هذه الأدلة، تكون لديك أساسيات جيدة لاستنتاج أن رئيسك داخل مكتبه.

«ولكن يمكنك عمل شئ مختلف تماماً. يمكنك أن تذهب إلى الباب وتطرق عليه وتقابل رئيسك وجهاً لوجه. في هذه النقطة، تكون أدلة وجود السيارة في ساحة الانتظار، وشهادة السكرتيرة، والنور المنطلق من تحت الباب، والصوت المسموع في الهاتف - وكل الأدلة التي لا زالت صالحة - لها دور ثانويً لأنك الآن قد تقابلتَ مع الرئيس وجهاً لوجه.

«وبنفس الطريقة، عندما قابلنا الله – لنفترض – وجهاً لوجه، فإن كل الحجج والأدلة لوجوده – رغم أنها ما زالت صالحة تماماً – يكون لها دورٌ ثانويٌ. لقد صارت الآن مؤكدة لما أظهره الله بنفسه لنا بطريقةٍ فوق طبيعة – من خلال شهادة الروح القدس في قلوبنا.»

«وهذا الاختبار الفوري لله متاح لكل من يطلبه؟»

«بالطبع، فالكتاب المقدس يقول إن الله يقرع على باب حياتنا، ولو فتحنا له سنقابله وسنختبره شخصياً. يقول في رؤيا ٣: ٢٠ «هَنَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي.»

نظر كريج إلى الكاسيت الذي كان يُسجّل حوارنا، وقال في الختام: «لقد تحدثنا كثيراً عن المعجزات اليوم. وليس من المبالغة أن أقول إن معرفة الله شخصياً ورؤيته وهو يغير الحياة هي أعظم المعجزات على الإطلاق.»

مددتُ يدي وأطفأتُ التسجيل. فبسبب اختباري الشخصي عن الله بعد سنواتٍ من الحياة في مستنقع اللاأخلاقية كملحد، عرفتُ أنه كان على حق.

فمن خلال كيف حوَّل الله حياتي، واتجاهاتي، وعلاقاتي، ودوافعي، وزواجي، وأولوياتي بحضوره المستمر الواقعي جداً في حياتي، أدركتُ في تلك اللحظة أن المعجزات كالمن من السماء، والميلاد العُذري، والقيامة تبقى في النهاية بمثابة لعبة طفلٍ بالنسبة لإلهٍ مثل هذا.

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• بعد قراءة هذا اللقاء، هل تؤمن أن المعجزات ممكنة؟ ماذا سيُقنعك أن شيئاً إعجازياً قد حدث؟ هل تؤمن أن برهان التاريخ يُدَّعم أن قيادة يسوع المعجزية قد حدثت فعلاً؟ لماذا، أو لماذا لا؟

• أي من حُجج كريج لوجود الله كانت الأكثر إقناعاً لك؟ لماذا؟ هل هذه النقاط الخمس مجتمعةً تُقنعك أنه من العقلاني أن تؤمن بوجود إله صانع معجزات؟ لو كان لا، فكيف تعتبر أيضاً هذه التطبيقات الخمسة من البراهين؟

• صلى كريج لله كي يشفي حالته المرضية، لكنه لم يشفيه. ماذا تعتقد في رد فعله تجاه ذلك؟ هل صليتَ إلى الله أن يتدَّخل بمعجزةٍ في حياتك؟ ماذا حدث؟ كيف أثر ذلك في إتجاهك نحو الله؟ بأية طريقة كانت استجابة كريج لموقفه مشجعة أو غير مشجعة بالنسبة لك؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• William Lane Craig. "The Problem of Miracles." In Reasonable Faith, 127–155. Wheaton, III.: Crossway, 1994

• R. Douglas Geivett and Gary R. Habermas, eds. In Defense of Miracles. Downers Grove, III.: Intervarsity Press, 1997.

• C. S. Lewis. Miracles: A Preliminary Study. New York: Macmillan, 1947.

• J. A. Cover. "Miracles and Christian Theism." In Reason for the Hope Within, ed. Michael J. Murray, 345-374. Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1999.

• Norman L. Geisler. Miracles and the Modern Mind. Grand Rapids، Mich.: Baker, 1992.



الاعتراض الثالث

نظرية التطور تُفسِّر الحياة: لذا فالله ليس مطلوباً

«لم يرد تشارلز دارون أن يقتل الله وهو يصيغ نظرية التطور، لكنه قتله.»
مجلة تايم Time [1]

«مازالت نظرية التطور، وكما كانت في زمن دارون، فرضية تأملية على درجةٍ عالية دون دعم واقعي مباشر وبعيد جداً عن تلك الحقيقة البديهية في ذاتها، والتي قد يجعلنا بعض مؤيديها الأكثر تعصباً نصدقها.»
مايكل دينتون، متخصص في البيولوجيا الجزيئية [2]

كان المحققون يبحثون في حالة من اليأس عن دليل مادي لربط المشتبه به رونالد كيث وليامسون بإحدى جرائم الذبح التي عكرَّت صفو مجتمع آدا Ada، أوكلاهوما الهادئ، قبل ذلك بثلاث سنوات.

لقد قضوا وقتاً عصيباً في بناء قضية قوية ضد ويليامسون الذي أنكر بشدة ذبح ديبرا سو كارتر البالغة من العمر ٢١ عاماً. احتوى دليلهم الوحيد إلى حدٍ بعيد على أحد الشهود، رأى وليامسون يتحدث مع ديبرا مبكراً في المساء الذي ذُبحت فيه؛ واعتراف من قبل وليامسون بأنه حلم ذات مرةٍ أنه قتلها؛ وشهادة إحدى واشيات السجن التي ادَّعت أنها سمعته يتكلم عن الجريمة. ومن الواضح

أن الشرطة احتاجت إلى أدلة أكثر إذا أرادت أن تدينه.

وأخيراً أتى المحققون بالبرهان الحاسم. لقد أخذ أحد الخبراء أربع شعرات وُجدتْ على جثة الضحية وفي مكانٍ آخر بمسرح الجريمة، وتمَّ فحصها تحت ميكروسكوب، وانتهى إلى أنها كانت «متوافقة» مع العينات التي تم أخذها من وليامسون، وفقاً لتقرير الصحافة. ولأن قضيتهم دُعمت ببرهان علمي، فقد قبض المحققون على وليامسون وقدموه للمحاكمة.

لم يمض وقت طويل على هيئة المحلفين حتى أدانت المُتهم الأول بالذبح وتحويله إلى المحكوم عليهم بالإعدام. وبعد حل الجريمة الشيطانية أخيراً تنفس شعب آدا الصعداء، فقد تحققت العدالة، والمجرم ماض ليدفع حياته ثمناً.

ورغم ذلك كانت هناك مشكلة كبيرة؛ وهي أن ويليامسون كان يقول الحقيقة بشأن براءته. فبعد أن فترت همته في السجن لمدة ١٢ عاماً - ٩ منها في انتظار الإعدام - أثبت تحليل ال DNA في مسرح الجريمة أن شخصاً آخر هو الذي ارتكب جريمة القتل. وفي ١٥ أبريل من العام ١٩٩٩ تم أخيراً إطلاق سراح وليامسون. [٣]

ولكن مهلاً؛ ماذا عن دليل مقارنة الشعر المُشار إليه تجاه إثم وليامسون؟ فإذا كان قد تم إيجاد شعره في مسرح الجريمة، أفلا يورطه هذا في الجريمة؟ الإجابة مُحبطة: إن دليل الشعر غالباً ما يوهم بأنه يبرهن على أكثر مما يقدم في الواقع.

لقد تجاهل التقرير الصحفي بعض الإلماحات الهامة. فالشعر الذي من مسرح الجريمة لم «يتوافق» في الواقع مع شعر وليامسون. وقد استنتج أحد الباحثين في الجريمة بمجرد أنها كانت «متوافقة» مع بعضها البعض. ومن ناحيةٍ أخرى فإن لونها وشكلها ومادتها بدت متشابهة. وهكذا يمكن أن تكون قد جاءت من وليامسون – أو ربما تكون قد جاءت من شخصٍ آخر.

لقد أُطلق على تحليل الشعر «علماً كاذباً pseudo-science» من قِبل محللين قانونيين وذلك بعيداً عن تورطها في الجريمة مثل آثار الأصابع. غالباً ما يسمع أعضاء هيئة المحلفين شهادة مؤثرة

بشأن ما يظهر وكأنه برهان واضح علمياً، وختموا – بشكلٍ غير صحيح – بأنها تثبت إثم المدعي عليه. وعُرف بعض القضاة في الوطأة بأنهم حتى لا يميزوا أو يبالغوا في قيمة تحليل الشعر أثناء مناظراتهم الختامية. [٤]

وفي قضية وليامسون أطلق أحد القضاة الفيدراليين على دليل الشعر بأنه «غير جدير بالاعتماد عليه علمياً». وقال إنه كان لا يجب أبداً استخدامه ضد المدعي عليه. والأكثر صعوبة هو أن دليل الشعر قد تم استخدامه ضد ١٨ سجيناً محكوم عليهم بالإعدام، وقد تم إعلان براءتهم فيما بعد في ربع القرن الأخير. [٥]

تعد قضية رونالد كيث ويليامسون مثالاً واضحاً على إنحراف العدالة. فإدانته غير المبررة تُظهر مدى سهولة أن يصور المحلفون خاتمات جارفة لا تبررها الحقائق العلمية الواقعية في الحقيقة. وإلى حدٍ ما، فإن قصة وليامسون ضارعت تحقيقي لأحد الأجزاء الأكثر إقناعاً للدليل العلمي الذي يُستخدم عادة ضد وجود الله.

إنجاز داروين

رغم وجود الكثير من الأشياء التي قادتني للإيمان، إلا إنني أعتقدُ أنك يمكن أن تقول إنني فقدتُ البقايا الأخيرة لإيماني بالله أثناء حصة الأحياء في المدرسة. لقد كانت التجربة شديدة جداً حتى إنني أستطيع أن أرجع بك إلى المقعد الذي كنتُ أجلس عليه عندما كنتُ أتعلم لأول مرة أن نظرية التطور تفسر أصل وتطور الحياة. وكانت المتضمنات واضحة: لقد أزالت نظرية تشارلز داروين الحاجة إلى خالق خارق للطبيعة بتوضيح كيف يمكن لعملية طبيعية أن تكون سبباً في زيادة تعقد وتنوع الكائنات الحية.

لم تكن تجربتي غير عادية؛ وقد وصف الباحث باتريك جلين كيف سلك سبيلاً مشابهاً انتهى به إلى الإلحاد:

> اعتنقتُ مذهب الشك في عمر مبكر، عندما تعلمت أولاً عن نظرية داروين الخاصة بالتطور في المدرسة الكاثوليكية. انتابني في الحال فكر بأنه إما أن نظرية داروين صحيحة

> أو أن قصة الخليقة في سفر التكوين صحيحة. لا يمكن لكليهما أن تكونا صحيحتين. ووقفتُ في الفصل وأخبرتُ الراهبة المسكينة أيضاً. وهكذا بدأت ملحمة طويلة بعيدة عن الإيمان والممارسة الدينية التقية التي ميزت طفولتي تجاه نظرة مادية وواقعية على نحو متزايد. (٦)

في الثقافة الشائعة تعتبر القضية المتعلقة بالتطور مُغلقة بوجه عام. لقد صرَّحت مجلة تايم Time في خلاصتها في الألفية الثانية بأن «الداروينية تظل إحدى أكثر النظريات العلمية الناجحة المُعلنة على الدوام.» (٧) بالنسبة لتشارلز تمبلتون فإن عبارة «كل الحياة هي نتيجة قوى تطورية سرمدية» (٨) لا تقبل الخلاف.

قال عالم البيولوجيا فرانسيسكو أيالا إن «أعظم إنجازات» داروين هو الطريقة التي أوضح بها أن تطور الحياة هو «نتيجة عملية طبيعية، اختيار طبيعي، دون أية حاجة للجوء إلى خالق.» (٩) وقد وافق مايكل دينتون، عالم البيولوجيا الجزينية الأسترالي والفيزيائي، أن الداروينية «قطعت علاقة الإنسان بالله» ونتيجة لذلك «وضعته تحت رحمة الرياح تجرفه في العالم حيث تشاء دون هدف.» (١٠) وأضاف قائلاً:

> بقدر ما كانت المسيحية مهتمة، فلقد كان ورود نظرية التطور ... فاجعاً ... فمن المحتمل أنه يمكن للانحدار في الإيمان الديني أن يُنسب أكثر إلى النشر والتأييد من قِبل المجتمع الفكري والعلمي للتفسير الداروني للتطور أكثر من أي عامل آخر. (١١)

كما يصرح كتاب البيولوجيا التطورية *Evolutionary Biology*: «أنه بازدواج التنوع الغير مباشر الذي بلا هدف بالعملية العمياء الغير حريصة للاختيار الطبيعي، جعل داروين تفسيرات لاهوتية أو روحية لعمليات الحياة غير ضرورية.» (١٢) كان المتخصص البيولوجي البريطاني ريتشارد داوكينز يتحدث للكثيرين عندما قال إن داروين «جعل من الممكن أن تكون أحد الملحدين المُحققين فكرياً.» (١٣)

وفي الحقيقة فقد سلّم وليام بروفين المؤمن البارز بمذهب النشوء بجامعة كورنيل على نحوٍ صريح أنه إذا ما كانت الداروينية صحيحة؛ إذاً فهناك خمسةُ متضمنات لا يمكن الهروب منها: لا يوجد دليل في صالح الله؛ لا توجد حياة بعد الموت؛ لا يوجد معيار مطلق للصحيح والخطأ؛ لا يوجد معنى نهائي للحياة؛ ولا يملك الناس بالفعل إرداة حرة. (١٤)

ولكن هل الداروينية صحيحة؟ لقد ابتعدتُ عن تعليمي المنهجي وأنا مقتنع بأنها صحيحة. ورغم ذلك، عندما بدأت رحلتي الروحية تأخذني إلى دنيا العلم بدأ ينتابني شعور قلق على نحو متزايد. وكما هو الحال مع دليل مقارنة الشعر في قضية ولياسون، هل كان المقصود من الدليل على التطور بأنه يبرهن على أكثر مما يبرهن عليه في الواقع؟

كلما تحققتُ من القضية أكثر، كلما رأيتُ أكثر كيف تجنبتُ إلماحات ذات مغزى بشكلٍ متسرع في الحكم، متذكراً محاكمة جريمة قتل أوكلاهوما. وعندما فحصتُ الموضوع بشكلٍ شامل، بدأتُ أتساءل ما إذا ما كانت الخاتمات الجارفة لمؤيدي الداروينية تبررها بالفعل الحقائق العلمية العسرة. [ساعدت رحلة مشابهة – على نحو إتفاقي- على اهتداء جلين إلى الإيمان بالله مرة أخرى.]

اكتشفتُ بعدها بوقتٍ قصير أن هذه ليست قضية الدين مقابل العلم؛ بل بالأحرى هذه قضية العلم مقابل العلم. لقد أثار الكثير والكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وباحثون آخرون - ليس فقط المسيحيين- اعتراضات شديدة على نظرية التطور في السنوات الأخيرة، مُدّعين أن استدلالاتها الواسعة ترتكز أحياناً على معلومات واهية، وناقصة، أو معيبة.

وبتعبيرٍ آخر، فإن ما يبدو في البداية مثل قضية علمية مُحكمة للتطور يبدأ في الانحلال بالفحصِ الأكثر إحكاماً. لقد أثارت اكتشافات حديثة أثناء الثلاثين عاماً الماضية عدداً متزايداً من العلماء يناقضون دارون بالوصول إلى أنه كان يوجد مُصصم

ذكي وراء خلق وتطور الحياة.

قال عالم الكيمياء الحيوية مايكل بيهي من جامعة ليهاي في نقده الشديد للداروينية: «إن نتيجة هذه الجهود المتراكمة لفحص الخلية - لفحص الحياة على المستوى الجزيئي - هي صرخة مدوية واضحة خارقة للـ'تصميم!'» [١٥] واستطرد قائلاً:

> تتدفق خاتمة التصميم الذكي بشكل عام من المعلومات ذاتها - وليس من الكتب الدينية أو المعتقدات الطائفي ... إن معارضة العلم لاعتناق خاتمة التصميم الذكي ... ليس له أساس مبرر ... لا يريد الكثير من الناس، ومن بينهم الكثير من العلماء الهامين والذين لهم مكانة سامية، أن يكون هناك أي شئ بعيداً عن الطبيعة. [١٦]

لقد وصفتني تلك الجملة الأخيرة، وكنتُ سعيداً جداً للتعلق بالداروينية كمبرر لنبذ فكرة وجود الله؛ لذلك يمكنني بلا ارتباك تتبع برنامجي الخاص في الحياة دون قيودٍ أخلاقية.

ومع ذلك فذات مرة وصفني أحد الأشخاص الذين يعرفونني جيداً كـ «غافل عن الحقيقة». [١٧] إن تدريبي في الصحافة والقانون يجبرني على أن أتعمق في الرأي، والتأمل، والنظريات إلى أن أجد عمق الحقائق الراسخة، وأحاول كما لو أنني لم أستطع أن أدير ظهري للشكوى من التعارضات التي كانت تشوه أساس نظرية دارون.

قصة بوليسية أساسية

يسلِّم الجميع بأن نظرية التطور صحيحة إلى حدٍ ما؛ فلا يمكن إنكار وجود تباين في أنواع الحيوانات والنباتات، والذي يفسر السبب لوجود أكثر من ٢٠٠ نوع مختلف من الكلاب، والبقر يمكن تربيته للحصول على إنتاج متحسن من اللبن، والبكتريا يمكن أن تهيئ وتطور مناعة المضادات الحيوية. وهذا ما يُعرف باسم التطور المجهري «*micro-evolution*»

لكن نظرية دارون تمضي بعيداً عن هذا جداً مُدعيةً أن الحياة بدأت منذ ملايين السنين بكائنات بسيطة أحادية الخلية، وتطورت عبر التوالد والاختيار الطبيعي إلى العدد الهائل من الحياة النباتية والحيوانية التي أهلت الكوكب بالسكان. وجاء البشر إلى مسرح الوجود من نفس السلف الشائع مثل القرد، ويطلق العلماء على هذه النظرية الأكثر جدلاً «*macro-evolution*».

وبشكل مبدأي كانت قلة برهان الحفريات للتحولات إلى أنواع مختلفة من الحيوانات مصدر قلق لي. فحتى دارون سلم بأن نقص هذه الحفريات «ربما هو أوضح وأقوى اعتراض» على هذه النظرية، رغم أنه تنبأ بثقة بأن الاكتشافات المستقبلية سوف تبرئه.

بالتقدم للأمام سريعاً إلى العام ١٩٧٩ قال ديفيد إم روب، أمين المتحف الميداني للتاريخ الطبيعي في شيكاغو:

> نحن الآن على مقربة من ١٢٠ عاماً بعد نظرية دارون، وقد امتدت معرفة السجل الحفري بشكل كبير. ولدينا ربع مليون نوع من الحفريات، لكن الموقف لم يتغير كثيراً ... وأيضاً لدينا عدد من أمثلة التحول التطوري أقل مما كان لدينا في زمن دارون. [١٨]

إن ما يبينه السجل الحفري هو أنه في الصخور التي يرجع تاريخها إلى ٥٧٠ مليون سنة يوجد الظهور المفاجئ لكل تصنيفات الحيوانات تقريباً، وتظهر متشكلة على نحو تام «دون تتبع الأسلاف التطورية التي يتطلبها مؤيدو دارون.» [١٩] إنها ظاهرة تشير بسهولة إلى وجود خالق أكثر منها إلى الداروينية.

ليس هذا هو الاعتراض الوحيد على نظرية التطور، ففي كتابه أصل الأنواع *Origin of Species*؛ اعترف دارون أيضاً أنه: «إذا ما كان يمكن توضيح وجود أي أصل معقد والذي لا يمكن أن يتشكل بتعديلات متعددة ناجحة قوية، إذاً فإن نظريتي تتحطم بشكل جذري.» [٢٠] وبأخذ ذلك التحدي فقد أظهر كتاب بيهي الأشهر: صندوق دارون الأسود *Darwin Black Box* كيف

وجدت الاكتشافات الكيميائية الحيوية أمثلة متعددة لهذا النوع من «التعقيد المتعذر تحويله.»

ومع ذلك كنتُ مهتماً على نحو خاص بقضية أكثر جوهريةً؛ فالتطور البيولوجي يمكن أن يحدث فقط بعد أن يكون هناك نوع من الكائنات الحية التي يمكن أن تضاعف ذاتها ثم تنمو إلى شكل معقد عبر التغير الأحيائي وبقاء الأصلح. لقد أردتُ أن أرجع أكثر أيضاً وأن أطرح السؤال الأساسي للوجود البشري: أين بدأت الحياة في المقام الأول؟

لقد خدع أصل الحياة كلاً من اللاهوتيين والعلماء لعدة قرون. قال عالم الكونيات ألان سانداج: «إن أكثر شئ مدهش بالنسبة لي هو الوجود ذاته. كيف يمكن لذلك الشئ، الغير حي، أن ينظم ذاته ويتدبر أمره؟» (٢١)

كيف حقاً؟ تفترض نظرية دارون أنه يمكن لمواد كيميائية غير حية - إذا توفر لها الوقت والظروف الكافية - أن تطور نفسها إلى كائنات حية. بلا شك أن تلك النظرة قد نالت قبولا واسعاً على مدار السنين. ولكن هل هناك أية معلومات علمية لتأييد ذلك المعتقد؟ أو - مثل دليل مقارنة الشعر في مُحاكمة جريمة قتل أوكلاهوما - هل ذلك التحليل طويل في التأمل لكن قصير في الحقائق الراسخة؟

لقد عرفتُ أنه إذا ما استطاع العلماء أن يوضحوا بشكل مقنع كيف يمكن أن تبرز الحياة على نحو غير مَشوب، عبر عمليات كيميائية طبيعية، فليست هناك حاجة إلى الله. ومن ناحية أخرى إذا ما كان الدليل يشير في الإتجاه الآخر إلى مصمم ذكي، فسوف تنهار جميع حيثيات نظرية دارون في التطور.

أخذتني هذه القصة البوليسية الأساسية في رحلة إلى هوستون بولاية تكساس، حيث استأجرتُ سيارة وقمت بقيادتها عبر الريف ومزارع الماشية إلى مقر سكن College Station، وهو مقر جامعة Texas A&M Univ.. أدنى مجموعة مباني من الجامعة، وفي منزل متواضع مطوق، طرقتُ باب أحد الخبراء الأكثر تأثيراً في كيفية نشؤ الحياة على كوكب الأرض البدائي.

اللقاء الثالث: والتر برادلي- دكتوراه في الفلسفة

أحدثَ والتر إل برادلي ضجة في العام ١٩٨٤ عندما شارك في تأليف الكتاب المنوي لغزِ أصل الحياة *The Mystery of Life Origin* الذي كان يمثل تحليلاً مُدمراً للنظريات حول الطريقة التي خُلقت بها الكائنات الحية. لقد ارتفعت الأنظار مندهشة لأن مقدمة الكتاب كتبها العالم البيولوجي دين كينيون، من جامعة ولاية سان فرانسيسكو، الذي جادل كتابه القضاء والقدر البيولوجي سابقاً بأن المواد الكيميائية لها قدرة متأصلة لإنشاء خلايا حية تحت الظروف الملائمة. ومع تسمية كتاب برادلي «المقنع، والأصلي، والمفروض» ختم كينيون: «يؤمن المؤلفون، وأنا الآن أتفق معهم، بأنه يوجد خلل أساسي في كل النظريات الحالية المتعلقة بالأصول الكيميائية للحياة.» (٢٢)

منذ ذلك الحين كتب برادلي وتحدث على نطاق واسع عن موضوع كيف بدأت الحياة. لقد ساهم في كتابة *Mere Creation*؛ *Three Views of Creation and Evolution*، بينما كتب هو والكيميائي تشارلز بي ثاكستون جزء «المعلومات وأصل الحياة» لكتاب فرضية الخليقة *The Creation Hypothesis*. وتتضمن مقالاته التقنية المشاركة في تأليف «*A Stastistical Examination of Self-Ordering of Amino Acids in Proteins*"، المنشور في كتاب *Origins of Life and Evolution of the Biosphere*، الذي يعكس بحثه الشخصي في ميدان أصل الحياة.

تسلم برادلي درجة الدكتوراه في علم المواد من جامعة تكساس في أوستين، وكان أستاذاً جامعياً للهندسة الميكانيكية في جامعة Texas A&M لمدة ٢٤ عاماً، عاملاً كرئيس القسم لمدة أربعة أعوام. ولما كان برادلي خبيراً في البوليمرات والديناميكية الحرارية، واللذان كلاهما يمثلان أهمية شديدة في مناظرة أصل الحياة، فقد كان مديراً لمركز تكنولوجيا البلمرة في Texas A&M، وتسلم منحاً بحثية تقدر بمبلغ ٤ مليون دولاراً.

كان مستشاراً لنقابات مثل *Dou Chemical*؛ *M 3*؛ *B. F. Go-*

odrich؛ General Dynamics؛ Boeing؛ Shell، وكان شاهداً خبيراً في حوالي ٧٥ قضية قانونية. بالإضافة إلى أنه زميل لمركز معهد الاكتشاف لتجدد العلم والثقافة، وقد تم انتخابه زميلاً للجمعية الأمريكية للمواد، والإتحاد العلمي الأمريكي.

برادلي المتحدث الرقيق الذي يمحو ذاته بعيداً عن الأضواء، ويتحدث على مهل، رجل أسري قوي. إن طفليه وأحفاده الخمسة يعيشون جميعاً قرب بعضهم البعض في مدينة College Station، ويجتمعون معاً مراراً. في الحقيقة، انضمت إلينا زوجته آن وابنته شارون، والأحفاد راشيل و دانيال واليزابيث لتناول وجبة الغذاء في متجر محلي لبيع الأطعمة المعلبة بعد مقابلتنا.

وبرادلي كعالم مهتم بالدقة يجيب على أسئلة بعبارات حريصة وكاملة، مؤكداً على معرفة الفروق الطفيفة وعدم المغالاة في استنتاجاته. إنه يتحدث بطريقة محترمة عن المؤمنين بمذهب النشوء الذين أجريتُ معهم مناظرات على مدار السنين، بما في ذلك أستاذ الكيمياء الشهير روبرت شابيرو من جامعة نيويورك، الذي أطلق على كتاب لغز أصل الحياة «إسهام مهم» ... «يجمع الجدالات العلمية الأساسية التي توضح عدم كفاية النظريات الحالية.» (٢٣)

بعد تقاعده من Texas A&M بثلاثة شهور فقط، كان برادلي الذي يبلغ من العمر ٥٦ عاماً أنيساً ولطيفاً بينما كنا نجلس على مائدة حجرة تناول الطعام. وكان يرتدي على نحو فضفاض قميصاً رياضياً ذات لون أزرق خفيف، وبنطلون جينز أزرق، وجورب أبيض بدون حذاء. كان من الواضح من المظهر الخارجي أنه جاء مستعداً لمناقشتنا. كانت كومة من أوراق البحث تتكدس بشكل منظم بالقرب منه. وكعالم، أراد أن يكون قادراً على دعم كل شئ كان يقوله.

ولكي أضع أساساً، بدأتُ محادثتنا بالرجوع إلى دارون نفسه؛ فقلتُ: «سعت نظريته في التطور لتوضيح كيف يمكن لأشكال الحياة البسيطة أن تتطور عبر فترات طويلة من الزمن إلى

مخلوقات معقدة على نحو متزايد، لكن ذلك يهمل القضية الهامة الخاصة بكيف نشأت الحياة في المقام الأول. ماذا كانت نظرية داروين بشأن ذلك؟

التقط برادلي كتاباً بينما بدأ في الإجابة، وقال وهو يرتدي نظارته ذات الإطار الذهبي التي يستخدمها في القراءة: «حسناً، لم تكن لديه بالفعل فكرة جيدة بشأن كيف نشأت الحياة. في العام ١٨٧١ كتب رسالة قام فيها ببعض التأمل - لم تكن افتراضاً، بل مجرد خاطر بالبال.» بعد ذلك قرأ برادلي كلمات داروين:

> يُقال غالباً إن كل الظروف للإنتاج الأول للكائن الحي موجودة الآن؛ والتي كان يمكن أن تكون موجودة دائماً. ولكن (ويا له من افتراض كبير!) إذا كان يمكننا أن نتصوَّر في إحدى البرك الصغيرة الدافئة، وفي ظل وجود كل أنواع النشادر والأملاح الفسفورية والضوء والحرارة والكهرباء .. إلخ، أن مركب البروتين قد تكّون كيميائياً بشكل يجعله مستعداً للمرور بتغيرات أخرى أكثر تعقيداً، فإنه في الأيام الحالية سيتبدد هذا الأمر في الحال أو يتشتت، وهذا ما كان سيمثل القضية قبل أن تتشكل المخلوقات الحية.[٢٤]

أغلق برادلي الكتاب وقال: «لذلك كان داروين أول من يضع نظرية بأن الحياة نشأت من مواد كيميائية متفاعلة في إحدى البرك الدافئة الصغيرة.»

علَّقت قائلاً: «إنه يجعل الأمر يبدو سهلاً إلى حدٍ ما.»

فأجاب قائلاً: «ربما قلل داروين من تقدير المشكلة لأنه ظُن كثيراً في الماضي أن الحياة تتطور بشكل طبيعي في كل مكان. اعتقد الناس أن اليرقات يمكن أن تتطور تلقائياً من لحمة محللة. لكن قبل نشر كتاب داروين «أصل الأنواع» بمائتي عام، أوضح فرانسيسكو ريدي أن اللحمة التي تم حفظها بعيداً عن الذباب لا تُنتج يرقات أبداً. وفيما بعد أظهر لويس باستير أن الهواء يحتوي على كائنات دقيقة يمكن أن تتضاعف في الماء، مبرهناً على سراب النشوء التلقائي للحياة. لقد أعلن في جامعة السوربون

بباريس أنه «لن يشفى مذهب الجيل التلقائي من الضربة القاضية لهذه التجربة البسيطة.» (٢٥)

سمح برادلي بهذا التسجيل الشامل معي قبل الاستمرار. «لكن فيما بعد في العشرينيات قال بعض العلماء إنهم وافقوا باستير على أن التكوين التلقائي لا يحدث في إطار مدة قصيرة، لكنهم وضعوا نظرية بأن – إذا كان عمرك مليارات ومليارات من السنين ـ كما كان الفلكي الراحل كارل ساجان يود أن يقول ـ إذاً فقد يحدث هذا رغم كل شئ.»

فاستنتجتُ قائلاً: «وذلك هو أساس فكرة أنه لا يمكن للمواد الكيميائية الغير حية أن تتحد مع خلايا حية إذا ما أتيح لها الوقت الكافي.» فأجاب قائلاً: «ذلك صحيح تماماً.»

بناء قوالب الحياة

أخبرتُ برادلي إنني في المدرسة الثانوية والكلية تعلمت أن الأرض البدائية كانت مغطاة ببرك مواد كيميائية وكان لها غلاف جوي يساعد على تشكيل الحياة. ففي ظل الطاقة التي يمد بها الضوء ارتبطت المواد الكيميائية في هذا «الحساء السابق للحياة *prebiotic soup*» - خلال فترة تمتد لمليارات السنين ـ معاً ونشأ شكل بسيط من الحياة. ومن هنا بدأ التطور.

سألتُ «من الذي أعطى مفهوماً لذلك السيناريو؟»

أجابني قائلاً: «اقترح عالم الكيمياء الحيوية الروسي ألكسندر أوفارين *Alexander Oparin* في العام ١٩٢٤ أن ترتيبات ووظائف جزيئية معقدة للكائن الحي نشأت من جزيئيات أبسط كانت موجودة سابقاً على الأرض المبكرة. ثم في العام ١٩٢٨ وضع العالم البيولوجي البريطاني هالدين J. B. S. Haldane نظرية أن الأشعة الفوق البنفسجية التي كانت في الغلاف الحيوي البدائي للأرض تسبَّبت في ترَكز السكريات والأحماض الأمينية في المحيطات، ثم نشأت الحياة في النهاية من هذا الحساء البدائي *primordial broth*.

«اقترح هارولد يوري، الحائز على جائزة نوبل مؤخراً، أن الغلاف الجوي البدائي للأرض جعل من المواتي أن تنشأ المركبات العضوية. كان يوري استشاري الدكتوراة الفلسفية لستانلي ميلر في جامعة شيكاغو، وميلر هو الذي قرر أن يختبر هذا تجريبياً.»

لقد أصبح لاسم ميلر صدى كبيراً. إنني أتذكر تعليمي في المدرسة عن تجربته المميزة التي أعاد فيها خلق الغلاف الحيوي للأرض البدائية في معمل، وسلط ضوءاً عليه ليحفز تأثيرات الإضاءة. وقبل مرور فترة طويلة وجد أن الأحماض الأمينية - القوالب البنائية للحياة - قد خُلقت. يمكنني أن أتذكر معلمي في الأحياء وهو يسرد التجربة بحماس شديد، مقترحاً أنها برهنت بشكلٍ حاسم أن الحياة يمكن أن تنشأ من مواد كيميائية غير حية.

فتساءلتُ: «أكان ينادى بهذه التجربة كإنجاز هائل في ذلك الوقت، أليس كذلك؟»

فأعلن برادلي قائلاً: «آوه، بالقطع! فقد أطلق عليها ساجان الخطوة الفريدة الأهم في إقناع الكثير من العلماء بأن الحياة من المرجح أن تكون متناغمة إلى حدٍ كبير. [٢٦] وقال الكيميائي ويليام دي إن إن التجربة أظهرت أن الخطوة الأولى في خليقة الحياة لم تكن حادثاً اتفاقياً، لكنها كانت حتمية. [٢٧] وقال عالم الفلك هارلو شابلي إن ميلر برهن على أن مظهر الحياة هو في الأساس تطور بيوكيميائي ذاتي يأتي بشكل طبيعي عندما تكون الظروف ملائمة.» [٢٨]

كان هذا مثيراً بالتأكيد. سألتُ أيضاً: «هل هذا أنهى القضية؟»

فأجاب برادلي: «بالكاد لا، فقد ظلَّ المؤمنون بالتطور النشوئي نشطين لفترة، لكن كانت هناك مشكلة رئيسية في التجربة والتي أضعفت نتائجها.»

لم أتعلم أبداً أي شئ في المدرسة عن أن تجربة ميلر معيبة بشكلٍ يُهدّد صحتها، فسألتُ «ماذا كانت المشكلة؟»

«لم يكن لدى ميلر و أوفارين أي دليلٍ حقيقي على أن الغلاف الحيوي المبكر للأرض كان مكوناً من النشادر والميثان والهيدروجين التي استخدمها ميلر في تجربته. لقد ركزا نظريتهما على الكيمياء الطبيعية. أرادا أن يحصلا على تفاعلٍ كيميائي سيكون مواتياً، واقترحا أن الغلاف الجوي كان غنياً بتلك الغازات. لقد كان أوبارين ذكياً بدرجةٍ كافية لأن يعرف أنه إذا بدأت بغازات خاملة مثل ثاني أكسيد النيتروجين والكربون، فإنها لن تتفاعل.»

اتسعتُ نظرتي. كان هذا نقدٌ مدمرٌ لتجربة ميلر، فسألتُ بصوتٍ يحمل نبرة شك: «هل تقول إن كل شئ كان مرتباً مُسَّبقاً حتى يحصلا على النتائج التي يرغبانها؟»

فأجابني: «في الأساس نعم.»

وتساءلتُ أيضاً: «ماذا كانت تبدو البيئة الحقيقية للأرض المبكرة؟» فقال لي: «منذ العام ١٩٨٠ فصاعداً، أظهر علماء ناسا NASA أن الأرض البدائية لم يكن بها أبداً مقدار يُذكر من الميثان أو النشادر أو الهيدروجين. لكنها كانت تتكون من الماء وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين - وأنت بلا ريب لا يمكنك أن تحصل على نفس النتائج التجريبية بذلك الخليط. إنه ببساطة لن ينجح. وقد أكدت تجارب مؤخرة أكثر أن هذا هو الحقيقة الواقعية.»

أسندت ظهري للخلف على الكرسي مندهشاً من متضمنات ما كشفه برادلي، ورجعتُ بذاكرتي إلى معلمي في الأحياء الذي كان يبدو واثقاً تماماً من أن تجربة ميلر أثبتت النشوء الكيميائي للحياة. بالتأكيد كان ذلك هو الفكر السائد في عصره، لكن الاكتشافات الحديثة غيرت الآن كل شئ - ومع ذلك هناك أجيال من التلاميذ السابقين الذين مازالوا يعيشون تحت انطباع أن قضية أصل الحياة قد تم حلها.

بدأتُ أقول - حاثاً برادلي على إنهاء عبارتي: «لذلك فإن المغزى العلمي لتجربة ميلر اليوم ...»

فقال: «... معدوم. عندما تقدم الكتب المدرسية تجربة ميلر، يجب أن تكون صادقة بدرجةٍ كافية لأن تقول إنها كانت ممتعة

تاريخياً، لكنها ليست متصلة بشدة بالطريقة التي تطورت بها الحياة بالفعل.» (٢٩)

أطلقتُ صافرة منخفضة الصوت. لقد كان التشابه الجزئي لمحاكمة جريمة قتل أوكلاهوما يبرهن على أنه أدق حتى مما كنت أظن.

تجميع خلية

قبل أن نمضي في الحديث أكثر، اعتقدتُ أنه من المهم فهم بعض الأمور الأساسية عن الكائن الحي لتحديد ما إذا كان من المعقول تصديق أنه كان يمكن أن يكون نتاج تفاعلات كيميائية غير موجهة.

فقلتُ لبرادلي: «دعنا نبدأ بتعريف الفرق بين النظام الحي والنظام الغير حي.» فأجابني: «النظام الحي لا بدَّ أن يقوم على الأقل بثلاثة أشياء: وهي إنتاج طاقة، وتخزين معلومات، والتضاعف. كل الكائنات الحية تفعل ذلك. البشر يقومون بهذه الوظائف الثلاث رغم أن البكتريا تقوم بها بطريقة أسرع وأكثر فاعلية إلى حدٍ بعيد. أما الأشياء الغير حية فلا تفعل أياً من هذه الأشياء.»

سألتُ مرةً أخرى، عائداً بذاكرتي إلى عصر دارون: «هل اعتبر دارون أحد الكائنات الحية الأساسية - وليكن على سبيل المثال كائن حي يتكون من خلية واحدة - أنه بسيط إلى حد ما؟»

فأجابني: «نعم، بلا شك، فمن المحتمل أن دارون لم يعتقد أنه سيكون من الصعب جداً أن يخلق حياة من دون حياة لأن الفجوة بين الاثنين لم تظهر كبيرة جداً له. في العام ١٩٠٥ وصف ايرنست هايكل الخلايا الحية كمجرد «كريات صغيرة متجانسة من البلازما.»(٣٠) في تلك الأيام لم تكن لديهم أية طريقة لرؤية التعقيد الموجود في غشاء الخلية. لكن الحقيقة هي أن الكائن الحي الذي يتكون من خلية واحدة أكثر تعقيداً من أي شئ كنا قادرين على إعادة خلقه من خلال الحاسبات الآلية المتفوقة super computers.

«وصف أحد الأشخاص على نحو مبدع جداً - لكن دقيق تماماً - الكائن الحي الذي يتكون من خلية واحدة كمصنع عالي التكنولوجيا، كامل بلغات متكلفة وأنظمة مشفرة؛ وبنوك ذاكرة مركزية تخزن وتسترجع كميات هائلة من المعلومات؛ أنظمة تحكم دقيقة تنظم التجمع الذاتي للمكونات؛ تقنيات التحكم في تصحيح التجارب الطباعية والجودة التي تحمي من الأخطاء؛ أنظمة تجميعية تستخدم مبادىء الصنع المقدم وبناء مركب؛ ونظام تكرار كامل يسمح للكائن الحي أن يضاعف ذاته بسرعات مذهلة.»

فقلتُ: «هذا مذهل للغاية، لكن ربما تكون الكائنات التي تحتوي على خلية واحدة أكثر تعقيداً اليوم نظراً لحقيقة أنها تطورت ونشأت على مدار دهور. ربما كانت الخلايا الأولى المُنتجة على الأرض البدائية أكثر أساسية في تكوينها إلى حدٍ بعيد ومن ثم أسهل في خلقها.»

فجاء رد برادلي: «دعنا نقبل تلك النظرية. لكن حتى عندما تحاول أن تتخيل ماذا كان سيبدو شكل الخلية الحية الأدنى، فإن هذا مازال غير بسيط على الإطلاق.»

سألتُ قائلاً: «ماذا يسهم لعملية بناء كائنٍ حي؟» ثم أضفتُ سريعاً قبل أن يجيب برادلي: «ويحفظه أساسياً.»

فأجابنيّ: «حسناً، في الأساس أنت بدأت بالأحماض الأمينية. إنها تأتي في ثمانية نماذج مختلفة، لكن هناك عشرون فقط منها في الكائنات الحية. البراعة إذاً هي أن تعزل الأحماض الأمينية الصحيحة فقط، ثم ينبغي أن تتحد الأحماض الأمينية الصحيحة معاً في التسلسل الصحيح لإنتاج المركبات البروتينية. تصوَّر تلك السلاسل المتلاصقة معا التي يلعب بها الأطفال - ينبغي أن تجمع الأحماض الأمينية الصحيحة بالطريقة الصحيحة لكي تحصل في النهاية على الوظيفة البيولوجية.»

إن تخيل الأطفال يلعبون بدمى من البلاستيك جعل العملية تبدو مثل لعب الطفل. فقلتُ: «هذا لا يبدو صعباً.»

«ما كان سيحدث هذا إذا كنت تطبق ذكاءك على المشكلة

وتختار وتجمع على نحو متعمد الأحماض الأمينية واحد في كل مرة. لكن تذكر أن هذا نشوء كيميائي سيكون غير موجه من أية مساعدة خارجية، ويوجد العديد من العوامل الأخرى المعقدة التي يجب أخذها في الاعتبار.»

«مثل ماذا؟»

«على سبيل المثال، تميل تركيبات أخرى إلى أن تتفاعل مع الأحماض الأمينية بأكثر يسرٍ عما تتفاعل الأحماض الأمينية مع بعضها البعض. أنت الآن تواجه مشكلة كيفية إزالة هذه التركيبات الدخيلة. حتى في تجربة ميلر، فإن ٢٪ فقط من المادة التي أنتجها كانت مركبة من الأحماض الأمينية؛ لذلك ستكون لديك العديد من المود الكيميائية الأخرى التي تعوق العملية.

«يوجد تعقيدٌ آخر؛ وهو أن هناك عدداً مساوياً من الأحماض الأمينية اليمينية واليسارية، واليسارية فقط هي التي تعمل في الكائن الحي. ينبغي عليك الآن أن تحصل فقط على هذه الأحماض المختارة لتتحد معاً في التسلسل الصحيح، وتحتاج أيضاً النوع الصحيح من الروابط الكيميائية - أي روابط الببتيد peptide bonds - في الأماكن الصحيحة حتي يمكن للبروتين أن ينطوي بطريقة خاصة ثلاثية الأبعاد، وإلا فلن توظف.

«إنها تشبه آلة طابعة تأخذ حروفاً من سلة وتضع النماذج بالطريقة التي تعودوا أن يضعوها بها يدوياً. إذا كنتَ توجهها بذكائك، فلا توجد مشكلة. لكن إذا كنتَ تختار الحروف بطريقة عشوائية وتجمعها معاً كيفما اتفق - بما في ذلك الأوضاع المقلوبة والخلفية - إذاً فما هي الفرص التي ستحصل بها على كلماتٍ وجمل وفقرات معقولة؟ إنها غير محتملة للغاية.

«بنفس الطريقة ربما يجب وضع مائة حمض أميني معاً بالطريقة الصحيحة لصنع مركب بروتين. وتذكر أن ذلك هو مجرد الخطوة الأولى. فخلق مركب بروتين واحد لا يعني أنك خلقت حياة. ينبغي عليك الآن أن تجمع مجموعة من مركبات البروتين - ربما ٢٠٠ منها - بالوظائف الصحيحة فقط للحصول

على خلية حية نموذجية.»

واو! بدأتُ الآن أن أرى ضخامة التحدي. وحتى إذا كان ميلر على حق بشأن السهولة التي يمكن بها إنتاج الأحماض الأمينية في الغلاف الجوي البدائي للأرض، ومع ذلك فإن عملية جمعها معاً في مركبات بروتين ثم جمع تلك في خلية وظيفية سيكون مخلاً للذهن.

استمر برادلي: «في الأنظمة الحية فإن التوجيه المطلوب لجمع كل شئ يأتي من مركب DNA ، فكل خلية لكل نبات وحيوان ينبغي أن يكون بها مركب DNA. فكر فيه كميكرو بروسيسور صغير ينظم كل شئ. يعمل حمض DNA بشكلٍ حميم مع RNA لتوجيه التسلسل الصحيح للأحماض الأمينية. يمكن أن يفعل ذلك عبر تعليمات بيوكيميائية - أي المعلومات المشفرة على الـ DNA.»

أثار ذلك القضية الواضحة، فسألتُ: «من أين أتى الـ DNA؟»

فأجاب: «إن صنع الـ DNA و الـ RNA مشكلة أكبر من خلق البروتين. إنها تمثل تعقيداً أكبر بكثير، وهناك الكثير من لمشاكل العلمية. فعلى سبيل المثال، لا يمكن عمل تركيب القوالب البنائية الرئيسية للـ DNA والـ RNA بنجاح إلا تحت ظروف غير معقولة إلى حدٍ كبير بدون أي تشابه لتلك الخاصة بالأرض المبكرة. أقرَّ كلوس دوز Klaus Dose - من معهد الكيمياء الحيوية في ماينز Mainz بألمانيا بأن الصعوبات في تركيب الـ DNA والـ RNA «ليست في الحاضر بعيدة عن خيالنا.» [٣١]

«بصراحة، فإن أصل هذا النظام المعقد الغني في المعلومات والقادر أيضاً على إعادة إنتاج ذاته بلا شك أحبط علماء أصل الحياة. وكما قال الحائز على جائزة نوبل سير فرانسيس كريك: «يبدو أن أصل الحياة معجزة تقريباً، لذلك فظروف كثيرة كان سينبغي إرضائها لجعلها تستمر.» [٣٢]

وبرغم ذلك حاول العلماء أن يأتوا بنظرياتٍ خلاقة لمحاولة توضيح كيف صارت التبلمرات الحيوية (كالبروتينات) متجمعة

مع القوالب البنائية الصحيحة فقط (الأحماض الأمينية) وارتبطت المركبات الكيميائية المتجازئة الصحيحة فقط (الأحماض الأمينية اليسارية) مع روابط الببتيد الصحيحة فقط في التسلسل الصحيح فقط. قرَّرت أن أسأل برادلي عن تحليله لأكثر الافتراضات الشائعة التي اقترحها العلماء في السنوات الأخيرة.

النظرية الأولى: الإتفاق العشوائي *Random Chance*

تعلمتُ في المدرسة أنه إذا كانت المواد الكيميائية قد استغرقت وقتاً طويلاً للتفاعل في «البرك الصغيرة الدافئة» الخاصة بالأرض المبكرة، فإن الغير محتمل سيصبر محتملاً في النهاية، وسوف تنشأ الحياة. ورغم ذلك، مع قبول وصف برادلي لما كان سينبغي أن يحدث، يمكنني أن أفهم لماذا فقدت هذه النظرية التأييد في السنوات الأخيرة.

قال برادلي: «لقد آمن العلماء ذات مرة بفكرة أن الإتفاق العشوائي والوقت أيضاً يهبان الحياة، لأنهم آمنوا أيضاً بنظرية العالم الذي في حالة ثابتة. كان هذا معناه أن العالم كان قديماً على نحو مطلق، ومن الذي يعرف ما كان يمكن أن يحدث إذا ما كان لديكَ مقدار غير متناه من الوقت؟ لكن مع اكتشاف الإشعاع الخلفي في العام ١٩٦٥، جاءت نظرية الانفجار العظيم Big Bang لتسود في علم الكونيات. كانت الأخبار السيئة للتطور أن هذا معناه أن العالم عمره حوالي ١٤ مليار عاماً. وقد أثبت العمل المؤخر أن عمر الأرض من المحتمل أن يكون أقل من ٥ مليار عاماً.

قاطعته قائلاً: «هذا وقتٌ طويلٌ؛ فأشياء كثيرة يمكن أن تحدث في ٥ مليار عاماً.»

«في الواقع ليست هذه فترة طويلة كما تعتقد، فالأرض قضت وقتاً طويلاً لتخفيض درجة الحرارة حيث يمكن أن توفر الحياة. وبناءً على أساس اكتشاف الحفريات الدقيقة قيَّم العلماء أن فجوة الوقت بين وصول الأرض لدرجة الحرارة الملائمة والنشوء الأول للحياة كانت حوالي ٤ مليار عاماً فقط. وهذا ليس وقتٌ طويل

لحدوث التطور الكيميائي. ففي الحقيقة اقترح سيريل بونامبروما Cyril Ponnamperuma من جامعة ماريلاند، وكارل ويز من جامعة إلينوي أن الحياة قد يكون عمرها مساوٍ لعمر الأرض، وأن أصلها قد تزامن في النهاية مع ميلاد الكوكب. (٣٣)

«لم يكن الوقت فقط قصير جداً، لكن الاحتمالات الإحصائية لجمع كائن حي هائلة جداً حتى إنه لا يؤمن بأن الإتفاق العشوائي هو السبب في أصل الحياة. وحتى إذا جعلتَ الظروف متفائلة، فإن هذا لن ينجح. فإذا ما أخذتَ كل الكربون الموجود في العالم ووضعته في وجه الأرض، وسمحتَ له أن يتفاعل كيميائياً بأقصى معدل سرعة ممكن، وتركته مليار عاماً، فإن احتمالات خلق مركب بروتين وظيفي واحد فقط ستكون فرصة واحدة من ١٠ وأمامها ٦٠ صفراً.»

تعد تلك الاحتمالات متناهية الصغر حتى إن الذهن البشري لا يقدر أن يشملها. فسخرتُ قائلاً: «هذا يجعل الفوز باليانصيب يبدو كشئ مضمون.»

«بالقطع؛ فقد قال بيهي إن احتمالية جمع ١٠٠ حمض أميني فقط لخلق مركب بروتين واحد إتفاقاً سيكون كرجل معصوب العينين يجد حبة رمل واحدة مميزة في مكانٍ ما في الصحراء الكبرى – وعمل ذلك ليس مجرد مرة بل ثلاث مرات مختلفة. (٣٤) لقد أوضح ذلك سير فريدريك هويل بشدة عندما قال إن هذا السيناريو محتمل مثل إعصار يهب في فناء به خردوات ويجمع إتفاقاً طائرة بوينج ٧٤٧ العظيمة بشكلٍ كامل وظيفياً.

«وبأسلوبٍ أخر، فإن احتمالات الأغراض العملية هي صفر. وهذا هو السببُ في أنه بالرغم من أن بعض الناس الغير متعلمين في هذا المجال ما زالوا يؤمنون بإن الحياة نشأتْ إتفاقاً، إلا أن العلماء لا يعودوا يؤمنون بهذا تماماً بعد الآن.»

النظرية الثانية: الإتحاد الكيميائي *Chemical Affinity*

في ظل رفض الإتفاق العشوائي كتفسير لأصل الحياة، تحوَّل

العلماء لنظرية أخرى: وهي أنه لا بدَّ أن هناك انجذاباً متأصلاً يجعل الأحماض الأمينية تتحد تلقائياً في التسلسل الصحيح لخلق مركبات بروتينية تنتج منها الخلايا الحية. انتشرت هذه الفكرة في كتاب صدر في العام ١٩٦٩ شارك في تأليفه كينيون، والذي ناقش أن نشوء الحياة ربما يكون «قد قُدِّر سلفاً على نحو بيوكيميائي» في الواقع بسبب هذه الأفضليات الكيميائية المرتبطة.[٣٥]

في الحقيقة درس الباحثون أصل تسلسل البروتين والبناء لتحديد ما إذا كانت هناك أحماض أمينية معينة على نحوٍ مفضل تضع ذاتها بالقرب من مجاور خاص. لقد فحصوا عشرة بروتينات، وقاموا بتجربة مدعمة بدت وكأنها تقترح وجود فائدة في هذا الافتراض.

فقلتُ لبرادلي: «هذا يبدو تفسيراً معقولاً، فما الخطأ فيه؟»

رغم أنني لم أعرف في ذات الوقت، إلا أنني كنتُ أسأل العالم الذي كان جزءاً من فريق فنَّد ذلك الاعتراض في العام ١٩٨٦.

أجاب برادلي: «لقد كتبنا برنامج كمبيوتر لنُحلّل ليس فقط عشرة بروتينات، ولكن كل واحد من الـ ٢٥٠ بروتيناً في الأطلس. وأوضحت النتائج على نحوٍ قاصر أن التسلسل لم يكن له علاقة بالأفضليات الكيميائية. ونتيجة ذلك فشلت تلك النظرية.[٣٦] وحتى كينيون – أحد كبار مؤيديها – أنكر هذه الفكرة.

النظرية الثالثة: الميل إلى الترتيب الذاتي *Self-Ordering Tendencies*

تقدم هذه النظرية عنواناً مرعباً «ديناميات حرارية غير متوازنة». تقول هذه الفكرة في الأساس إنه تحت ظروف معينة إذا مرَّت الطاقة من خلال نظام عند معدل مرتفع إلى حدٍ ما، فإن النظام سيصير غير مستقر، وسوف يرتب ذاته ثانيةً في الواقع إلى بديل وشكل أثر تعقيداً إلى حدٍ ما.

مثال ذلك المياه التي تتصرف خارج حوض الاستحمام، في

البداية تسقط مركبات المياه بشكل عشوائي فقط أسفل المصرف، لكن بالقرب من النهاية، يصير التصريف مرتباً أكثر إلى حدٍ كبير بينما تُشكل المركبات دوامة تلقائياً.

قلتُ لبرادلي: «بعض العلماء اقترحوا أن هذا الميل للمركبات كي تصير أكثر أكثر ترتيباً يمكن أن يكون تشابهاً جزئياً للطريقة التي تنظم بها الطبيعة ذاتها تلقائياً تحت ظروفٍ معينة.»

لقد كان حسن الإطلاع تماماً على هذه الفرضية. المشكلة هي أن مستوى التنظيم الذي تتحدث عنه منخفض جداً، وحتى إيليا بريجوجين Ilya Prigogine المتخصص في الديناميكا الحرارية الذي تأمل في هذه النظرية، أقر مؤخراً أنه «ما زالت هناك فجوة بين البنيات الأكثر تعقيداً التي يمكننا أن ننتجها في المواضع الغير متوازنة في الكيمياء، والتعقيد الذي نجده في البيولوجيا.» [٣٧]

«إنه على حق. قارن الدوامة التي في حوض الاستحمام للخلل الذهني الذي وصفته في خلق كائن حي، وسوف ترى أنها فجوة كبيرة بشكل لا يُصدَق.»

قدَّم علماء آخرون «ديناميات حرارية متزنة equilibrium thermodynamics» كحلٍ آخر محتمل. وكمثالٍ، إذا تم تبريد الماء، فإنها تتحول إلى ثلج، والمركبات في الثلج أكثر ترتيباً من المركبات العشوائية للماء. أشار البعض إلى هذا كطريقة أخرى تنظم بها الطبيعة ذاتها.

لكن برادلي برهن على خطأ هذه النظرية لسبب مشابه. فقال: «مرةً أخرى لديك مستوى منخفضً جداً من المعلومات مطلوباً لخلق بللورات الثلج مقارنةً بالمستوى العالي من المعلومات المطلوب لترتيب الأحماض الأمينية لخلق مركبات البروتين. وهذا هو السبب في أن هذه النظرية تم نقدها أيضاً.»

قال برادلي إن هناك اختلاف جوهري بين «الترتيب order» الموجود في بعض الأشياء الغير حية، و»التعقيد الخاص specified complexity» للخلايا الحية.

«كرات الثلج بها مقدار معين من الترتيب، لكنه مقدار بسيط ومتكرر، وبها مقدار قليل من المعلومات تشبه ملء كتاب فيه كلمات «أحبك، أحبك، أحبك» مرات ومرات. وعلى النقيض من ذلك، فإن نوع التعقيد الذي نراه في الكائن الحي به محتوى معلومات كثيرة تحدد كيف يجب جمع الأحماض الأمينية في التسلسل الصحيح، مثل كتاب مملوء بعبارات لها معنى تنقل قصة.

«بلا شك، يمكن للطاقة أن تخلق نماذج من الترتيب البسيط، فعلى سبيل المثال يمكنك أن ترِى التموجات فوق الرمال على أحد الشواطئ، وتعرف أنها تشكلت بفعل الأمواج، ولكن إذا رأيتَ الكلمات «جون يحب ماري»، وهناك قلب مرسوم يخرِج منه سهم في الرمال، فسوف تعرف أن الطاقة وحدها لم تُشكل ذلك. وهذا سبب أن واضع نظريات المعلومات البارز يوكي H. P. Yockey قال: «لا بدَّ من النظر إلى محاولات ربط فكرة الترتيب ... بالتنظيم البيولوجي ... كتلاعب بالكلمات لا يمكنه أن يواجه الفحص الحريص.» [٣٨]

النظرية الرابعة: النشوء من الفضاء *Seeding from Space*

نظراً لإحباط بعض العلماء - ومنهم كريك المساعد في اكتشاف الـ DNA - من العوائق التي تبدو وكأنها لا تُقهر للتطور الكيميائي على الأرض، اقترحوا أن القوالب البنائية للحياة تأتي من مكانٍ آخر في الفضاء. تأمل هويل، و ويكراما سنغ Wickramasing-he في أن الجسيمات التي في حجم الخلايا الحية يمكن أن تصل الأرض بدون أن تتحول إلى رماد بواسطة الغلاف الجوي. بينما في الفضاء يمكن أن تحميها طبقة رقيقة من غبار الجرافيت من الأشعة المدمرة للأشعة الفوق بنفسجية.

تم تأييد هذه النظرية باستكشاف أحماض أمينية في الحجر النيزكي مارشيزون Murchison المشهور الذي سقط في أستراليا في العام ١٩٦٩، وحجر نيزكي آخر سقط عمودياً على أنتاركتيكا

منذ حوالي ٣,٨ مليار عاماً. (٣٩)

لقد ذهب كريك و ليزلي أورجيل إلى أبعد من ذلك أيضاً باقتراح أن جراثيم الحياة ربما أرسلتْ عمداً إلى الأرض من قبل حضارة سابقة – ربما بغرض جعل الأرض منطقة برية أو حديقة حيوان أو كآبة كونية كما تأمل البعض. (٤٠)

قلتُ لبرادلي: «كل هذا يبدو غريباً إلى حدٍ ما، لكن فيما بعد، ربما لا يكون غريباً مثل فكرة أن الله قد خلق كل شئ.»

ثمَّ وجه برادلي عن نفوره لهذا المنهاج، فقال: «حقيقة أن العلماء قد جاءوا بهذه الأنواع من الاقتراحات الغريبة تُوَّضح أنهم لا يمكنهم أن يتخيلوا كم من الممكن أن تتطور الحياة طبيعياً على الأرض، ولهم الحق في ذلك. أحب الطريقة التي يصيغها فيليب جونسون: «عندما يشعر عالم في مكانة كريك أنه مضطر للاستشهاد برجال فضاء لا يمكن اكتشافهم، يكون قد حان وقت التفكير فيما إذا كان مجال تطور ما قبل البيولوجي قد وصل إلى نهاية مسدودة.» (٤١)

أوضح برادلي قائلاً: «إن الخلل الأكبر في هذه النظرية هو أنها لا تحل مشكلة أصل الحياة. فكر في هذا: إذا كنتَ تقول إن الحياة نشأتْ في مكانٍ آخر، فإن هذا ينقل المشكلة إلى مكانٍ آخر فقط! بينما العوائق لا تزال موجودة.»

رغم أن ذلك كان صحيحاً بالتأكيد، رأيتُ احتمالاً آخر، فاقترحتُ قائلاً: «ربما سيكون في كوكب آخر غلافاً جوياً من النشادر، والميثان، والهيدروجين، والذي سيكون أكثر مساعدةً على إنتاج القوالب البناءة للحياة.»

فأجاب قائلاً: «حتى إذا كانت تلك هي القضية، فكيف تجمعت هذه الأحماض الأمينية والبروتينات إلى كائن حي؟ هذه مشكلة معلومات – كيف ترَّتب في تسلسل الذرات بالطريقة الصحيحة – وتلك المشكلة مستقلة عما يمثله الغلاف الجوي. وحتى إذا ألقت أحجار النيزكي أحماضاً أمينية إلى الأرض، فلا تزال أمامك مشكلة التجميع.

«كما قال دوفيلييه A. Dauvillier في كتاب «الأصل الكيميائي الضوئي للحياة *The Photochemical Origin of Life*» إن هذه النظرية «افتراض سطحي، وحيلة تسعى لتجنب المشكلة الأساسية لأصل الحياة.» (٤٢) وحتى ستانلي ميلر ليس لديه استخدام لهذه النظرية، فقد أوردَ لمجلة Discover أن «العضويات من الفضاء الخارجي تعد نفايات – حقاً نفايات» (٤٣)

التقط برادلي تقريراً حول مؤتمر دولي لعلماء أصل الحياة في يوليو من العام ١٩٩٩، وقرأ لي جزءاً: «قبل نهاية اليوم الثاني من المؤتمر، كان لا بدَّ على الباحثين أن يوافقوا على أن الإلقاء الكائن خارج الأرض لم يقدر أن يُقدِّم كل المركبات القبل حيوية.» (٤٤) مضى التقرير ليقول إن المؤمن بنظرية النشوء شابيرو قد درس الجمر النيزكي مارشيسون، و»أظهر أن التفاعلات الجانبية ستمنع بشكلٍ فعال أية مركبات قبل حيوية في حجر النيزكي من تكوين جزيئات حيوية بشكلٍ تلقائي أبداً.» (٤٥)

وأضاف برادلي: «في نفس الوقت قال كريستوفر شيبا – عالم كواكب من ناسا – إنه رغم أن سفينة الفضاء قد أكدَّت وجود بعض المركبات العضوية في المذنبات في الفضاء وعند هذه السرعات – على الأقل ١٠ – ١٥ ميلاً/ثانية – فإن درجات الحرارة التي تصل إلى تأثيرها عالية جداً حتى ينتهي بك الأمر أنك تُقلى مثل أي شئ.» (٤٦) هذا بالإضافة إلى أنهم إذا طبقوا هذا على الأرض، فإنك ما زلتَ تواجه كيف ستتجمع إلى كائن حي.»

النظرية الخامسة: فجوات في المحيط *Vents in the Ocean*

في العام ١٩٧٧ اكتشف علماء على متن الغواصة الاستكشافية ألفين Alvin – تحت سطح الغرب الأطلسي للاكوادور بنصف ميل – فجوات مياه حارة غريبة على سطح البحر. كانت الديدان الأنبوبية، والرخويات، والبكتريا التي يعد مصدرها الأول للطاقة هو مركبات الكبريت من هذه الفجوات تزدهر بالقرب منها. ومنذ ذلك الحين تم العثور على عشرات الفجوات الأخرى في مواقع

مختلفة تحت سطح البحر.

قاد هذا جاك كورليس – بيولوجي بحري يعمل الآن في مركز طيران الفضاء جودارد Goddard التابع لناسا – إلى أن يقترح أن هذه الفجوات ربما تكون قد وفرت بيئة حيث نشأت بداية الحياة.

أورد لمجلة Discover: «الأمر الخاص بالينابيع الساخنة هو أنها توفر عملية لطيفة آمنة مستمرة يمكنك بها أن تسير كل الطريق من المركبات البسيطة جداً إلى الخلايا الحية والبكتريا البدائية.» [٤٧]

عززَّت بعض الفترات الدورية الشائعة الطويلة في التأمل، لكن قصيدة الأمور المحددة هذا المفهوم، ورَغم ذلك عندما سأل كاتب العلم بيتر راديتكي باحث أصل الحياة ميلر عنه، حصل على عداء غير مخفٍ، فقد أخبره الغاضب ميلر أن «فرضية الفجوة خسارة حقيقية. فأنا لا أفهم لماذا يجب حتى أن نناقشها.» [٤٨]

كان برادلي أيضاً شكاكاً عندما قدَّمتُ هذه النظرية، فقال: «افترض أن الفجوات ربما توفر مصدر طاقة غير عادي يمكن أن يُحفز بعض المواد الكيميائية علي أن تصير متفاعلة، لكنها لا تخاطب حتى مشكلة التجمع مطلقاً. هذه النظرية لا تقدم شيئاً لحل مشكلة طريقة جمع القوالب البناءة للحياة بالتسلسل الصحيح وبالروابط الصحيحة.»

وقال إن ما هو أكثر هو أن التجارب التي أجراها ميلر وجيفري بادا في جامعة كاليفورنيا في سان دييجو اقترحت أن درجات الحرارة المرتفعة لهذه الفجوات الشديدة السخونة سوف تدمر بدلاً من أن تخلق مركبات عضوية معقدة.

أوضح برادلي قائلاً: «يُعتقد الآن أن كل المياه في المحيط يُعاد انتشارها دورياً من خلال هذه الفجوات. إذا كنتَ تحصل في النهاية على بعض المركباتِ التي تبدأ في الكبر وتصبح أكثر تعقداً، فسوف تكون هشة جداً حتى إنها ستدمر بفعل الحرارة عندما يُعاد انتشارها. وهذا معناه أن مقياس الوقت للتطور الكيميائي سيتضاءل بشكلٍ مثير، والفجوات ستجعلك تعود وتبدأ من جديد عند فواصل

قصيرة إلى حدٍ ما – وهذا سيعمل ضد تطور الحياة.»

النظرية السادسة: الحياة من الطين *Life from Clay*

شاعت فرضيى أخرى من قَبل وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة، وهو اقتراح الكيميائي الاسكتلندي كايرنز سميث A. G. Cairns-Smith بأن الحياة نشأت بطريقةٍ ما من الطين الذي يحتوي بناؤه البللوري على تعقيدٍ كافٍ لتشجيع المواد الكيميائية القبل حيوية على التجمع معاً بطريقةٍ ما. [٤٩]

فسألتُ برادلي: «ماذا عن ذاك المنهاج؟»

فأجابني: «ربما يساعد الطين لأن المركبات لا تميل للتفاعل في الماء، وربما يعطيها سطح الطين بيئة أقل رطوبة.

«ولكن كيف سيكون الطفل قادراً على نقل المعلومات المطلوبة لنقل المواد الكيميائية بالطريقة الصحيحية؟ أفضل شئ يمكن أن يقوم به الطين البللوري هو الإمداد بمعلومات تسلسلية منخفضة جداً جداً، وستكون تكرارية إلى حدٍ كبير. إنها تُشبه الكتاب الذي تحدثتُ عنه منذ لحظات الممتلئ بعبارة «أنا أحبك، أنا أحبك، أنا أحبك» عدة مرات. هل هو مرتب؟ نعم. هل يحتوي على معلومات كثيرة؟ لا. هذا ما تُمثّله البللورة - لا شئ أكثر من معلومات مطولة، إنها قصيرة جداً عن التعقيد المفصل الذي يحتاجه الكائن الحي.

حتى كايرنز- سميث Cairns-Smith أدرك المشكلات المتعلقة بفكرته؛ فقد أقرَّ في العام ١٩٩١ أن أحداً لم يكن قادراً أن يُشكِّل الطين إلى شئ يشبه التطور في أحد المعامل، ولم يجد أحد أي شئ يشبه كائن حي أساسه الطين في الطبيعة.» [٥٠]

الاستنتاج الأكثر عقلانية

غالباً ما كان علماء أصل الحياة وقتاً بعد الآخر يفشلون في محاولة وضع نظرية للطريقة التي يمكن بها أن تتطور المواد الكيميائية إلى كائن حي. وقد استخدم البعض مؤخراً نماذج من الحاسب الآلي لمحاولة إظهار كيف ربما حدثت تفاعلات كيميائية على الأرض البدائية، لكن هذه السيناريوهات تنجح فقط إذا كان الحاسب الآلي مبرمجاً على إزلة بعض العوائق التي لا تُقهر، والتي كانت ستواجهها المواد الكيميائية بالفعل في العالم الواقعي.

عندما علّق أحد العلماء في معهد سانتا في Santa Fe – حيث تمت إدراة بعض الأشياء الزائفة الخاصة بالحاسب الآلي – علّق خبير أصل الحياة جون هورجان قائلاً: «إذا كان دارون لديه حاسباً آلياً على مكتبه، فمن يعلم ما كان يمكن أن يكتشفه. ماذا حقاً؟ ربما اكتشف تشارلز دارون مقداراً كبيراً من الحاسبات الآلية، ومقداراً قليلاً جداً عن الطبيعة.» [٥١]

في ظل تبَخر نظريات كثيرة جداً تحت الفحص الشامل الدقيق، طلبتُ من برادلي مساعدته الشخصية لحالة البحث في كيفية نشأة الحياة.

فأجاب: « لا يوجد أدنى شك في أن العلم - على الأقل في الوقت الحالي - في نهاية مسدودة. إن تفائل الخمسينيات يتحطم، وقد وُصفتْ الحالة في مؤتمر العام ١٩٩٩ الدولي على أصل الحياة بأنها مقيتة، مليئة بالإحباط والتشاؤم واليأس. [٥٢] لا أحد يدَّعي أي بديل يمد بسبيل معقول للطريقة التي مرَّت بها الحياة دون توجيه من المواد الكيميائية البسيطة إلى البروتينات إلى أشكال الحياة الأساسية.»

وصل برادلي إلى كتاب، وحدَّد سريعاً الاقتباس الذي كان يتعقبه. وقال قارئاً كلماته: «أوجز كلوس دوز- الكيميائي الحيوي الذي يعتبر أحد الخبراء الرئيسيين في هذا المجال - الموقف بطريقة جيدة إلى حدٍ ما:

أكثر من ٣٠ عاماً من التجريب على أصل الحياة في حقول التطور الكيميائي والمركب أدت إلى إدراكٍ أفضل لمناعة مشكلة أصل الحياة على الأرض أكثر مما أدت إلى حلها. وفي الوقت الحالي، فإن كل المناقشات حول تجارب ونظريات أساسية في هذا المجال إما أن تنتهي بمأزق أو باعتراف بالجهل. (٥٣)

واصل برادلي: « يجادل شابيرو بقوة بأن كل النظريات الحالية مُفلسة. (٥٤) وعبرَّ كِريك عن الإحباط قائلاً: «كلما أكتبُ ورقةً عن أصل الحياة، أقسمُ بأنني لن أكتبَ ورقةً أخرى أبداً، لأن هناك الكثير جداً من التأملِ الذي يتعقَّب حقائق قليلة جداً.» (٥٥) وحتى ميلر – بعد ٤٠ عاماً من تجربته الشهيرة – في فهم عظيم لكتاب «الأمريكي العلمي *Scientific American*»: «تَحوَّلت مشكلة أصل الحياة إلى أكثر صعوبة إلى حدٍ كبير مما تصوَّرت أنا ومعظم الناس الآخرين.» (٥٦)

وبالتزامن، في نفس الوقت تقريباً لمقابلتي مع برادلي، طُلِبَ من ستيفن جي جولد النشوئي المتحدث باسم جامعة هارفارد أن يكتب مقالاً لمجلة تايم Time على ما إذا كان العلماء سوف يستنتجون كيف بدأت الحياة في أي وقت. كانت النتيجة قطعة غامضة ومراوغة تردّدت وتلعثمت، لكنها لم تقترب أبداً من اقتراح فرضٍ واحد لكيف تمكنت الحياة من النشوء من عدم الحياة. (٥٧)

«ماذا يفعل المرء إزاء هذا المأزق العلمي؟»

هذا يعتمد كثيراً على ميتافيزيقا الإنسان. يقول شابيرو الذي أحترمه بشدة إنه لا بدَّ أن تكون هناك بعض القوانين الفيزيائية التي لم نكتشفها بعد تبين لنا في النهاية كيف نشأت الحياة بشكل طبيعي. لكن لا يوجد شي في العلم يضمن تفسيراً طبيعياً لكيفية بداية الحياة. العلم محايد فيما يتعلق بالنتيجة. من الصعب أن تتخيل قوانين طبيعية جديدة؛ لأنه سيكون لها صفات تتوافق مع القوانين الموجودة.»

فقلت: « إذاً ماذا، هل افتراضك هو الأفضل؟»

لم يجب برادلي في الحال، بل حدَّق بصره على مجموعة أوراق الأبحاث، متوانيا للحظة قبل أن ينظر إليّ مرة أخرى. وعندما التقتْ عينانا واصل كلامه قائلاً:

«إذا لم يكن هناك تفسير طبيعي ولا تبدو هناك إمكانية اكتشاف تفسير، فأنا أومن أنه من الملائم أن ننظر إلى تفسير خارق للطبيعة. أعتقد أن ذلك هو الاستنتاج الأكثر منطقية المبني على البرهان.»

بدا ذلك وكأنه امتياز كبير لشخص مدرب في العلم. فتساءلتُ: «ألا ترى مشكلة في قول إن أفضل تفسير هو أنه يبدو أن هناك مصمماً ذكياً»

«بالقطع لا. أعتقدُ أن الناس الذين يؤمنون بأن الحياة نشأت بشكلٍ طبيعي يجب أن يكون لديهم إيمان عظيم أكبر من الناس الذين يستنتجون أن هناك مصمماً ذكياً.»

«ماذا يمنع العلماء أكثر من تصوّر تلك الخاتمة؟»

كثيرون وصلوا إلى تلك الخاتمة، لكن بالنسبة للبعض تقف فلسفتهم عقبةً في الطريق. إذا كانوا مقتنعين في وقتٍ سابق بأنه لا يوجد إله، فلا يهم إذاً مدى فرض البرهان، فإنهم سيقولون دائماً: «انتظروا، وسوف نكتشف شيئاً أفضل في المستقبل.» لكن ذلك يعتبر جدالاً ميتافيزيقياً؛ فالعلماء ليسوا أكثر موضوعية من أي إنسانٍ آخر. إنهم جميعاً يصلون إلى أسئلة مثل هذه بأفكارهم المُتصوَّرة سلفاً.»

فقاطعته سريعاً وقلتُ: «نعم، لكنكَ أتيتَ بفكرة مُتصورة سلفاً بأن هناك الله.»

فأومأ برادلي برأسه وقال: «بالتأكيد، ولقد اندهشتُ مسروراً لأن مستوى أقل من البرهان كان من الممكن أن يرضيني. لكن ما وجدته هو دليل غامر بلا ريب، والذي يشير إلى أن هناك مصمماً ذكياً.»

«لذلك فأنت تعتقد أن الحقائق تشير بشكلٍ مقنع لوجود خالق؟»

«بشكل مُقنع تعبير ضعيف للغاية. البرهان قوي. فكلمة مُقنع convincing تقترح أرجحية أكثر قليلاً من لا النفي، أما «مفروض compelling» تقول إنه لا بدَّ أن تعمل بجد للوصول إلى تلك الخاتمة.»

فقلتُ: «ولكن هذا يبدو ...»، متعثراً قليلاً في البحث عن الكلمة الصحيحة، «غير علمي»

فأجاب برادلي: «على النقيض، إنه يبدو علمياً جداً. فعلى مدار الـ ١٥٠ عاماً الماضية استخدم العلماء جدالات مبنية على تشابهات جزئية لأشياء نفهمها لصياغة افتراضات جديدة في نشوء حقول للعمل العلمي، وذلك هو موضوع هذا.»

إعمال العقل بواسطة التماثل

وُصفتْ العملية التماثلية في القرن الثامن عشر بواسطة عالم الفلك جون هيرشيل John F. W. Herschel الذي كتب: «إذا كان التشابه الجزئي بين زهرتين مقارباً جداً ولافتاً للنظر بينهما، وفي نفس الوقت سبب أحدهما واضحاً جداً، فإنه يصبح من المحتمل على نحو نادر أن نرفض الاعتراف بتأثير سبب مشابه في الأخرى رغم أنها غير واضحة جداً في حد ذاتها.» [٥٨]

«كيف ينطبق هذا على قضية أصل الحياة؟»

«إذا كان الوقت الوحيد الذي نرى فيه المعلومات المكتوبة - سواء منقوشة على جدار كهف أو قصة من على شبكة الانترنت - هو عندما يكون هناك ذكاء ورائها، إذاً فهل ذلك سيكون منطبقاً على الطبيعة ذاتها؟»

«وبتعبير آخر ما هو مُشفّر على الـ DNA داخل كل خلية لكل كائن حي هو معلومات مكتوبة بشكل صرف وبسيط. إننا نستخدم في الإنجليزية ٢٦ حرفاً؛ وفي الـ DNA هناك أبجدية كيميائية تتكون من أربعة حروف، والتي ترتبط حروفها في تسلسلات متنوعة كي تُكوّن كلمات، وجُملاً، وفقرات. وتشمل هذه كل

التعليمات المطلوبة لتوجيه توظيف الخلية. إنها توضح في شكل مُشفَّر تعليمات بالطريقة التي تصنع بها الخلية البروتينات. إنها تعمل مثل الطريقة التي تعمل بها تسلسلات الحروف الأبجدية في لغتنا.

«والآن، عندما نرى لغة مكتوبة، يمكننا أن نستنتج - بناءً على خبرتنا - أنها تحمل عَلة ذكية، ويمكننا أن نستخدم بشكلٍ صحيح منطقاً مشابهاً لننتهي إلى أن تسلسل المعلومات اللافت للنظر في الـ DNA كان يحمل أيضاً عَلة ذكية. ومن ثم فهذا معناه أن الحياة على الأرض نشأتْ من فاعل عاقل «who»، بدلاً من شئ غير عاقل «what».

وبشكلٍ لا يمكن إنكاره، كان هذا برهانٌ قويٌ ومقنعٌ كما أن برادلي يتأمل فيه للحظات قليلة قبل عرض تفسير يحسم قصده.

«هل شاهدت فيلم «Contact»؟

«بالتأكيد، لقد كان مبنياً على كتاب كارل ساجان.»

«هذا صحيح. في هذا الفيلم يفحص العلماء الدموات لأجل علامات للحياة الذكية فى الفضاء. وتتلقى تلسكوباتهم اللاسلكية مجرد أصوات وتشويشات عشوائية من الفضاء. ومن المنطق افتراض أنه لا يوجد ذكاء وراء ذلك. وبعد ذلك بدأ ذات يوم في تلقى انتقال لأعداد أولية، وهى أعداد قابلة للقسمة على ذاتها وعلى رقم ١ فقط.

«يستدل العلماء على أنه من غير المحتمل للغاية حتى أنه سيكون هناك سبب طبيعي وراء سلسلة من الأعداد مثل تلك. لم يكن هذا شواشٌ غير منظمٌ فقط بل كان معلومات – رسالة لها محتوى. ومن ذلك انتهوا إلى أنه كان يوجد مبرر ذكى وراءها. وكما قال ساجان بنفسه ذات مرة: « إن تلقى رسالة واحدة من الفضاء سيكون كافياً لمعرفة أن هناك ذكاء.(٥٩) ذلك استنتاج بواسطة التشابه الجزئي – إننا نعرف أنه حيثما يوجد اتصال ذكى، فهناك سبب ذكى.»

شخصتُ إلى عيني برادلى بينما لفظ كلماته الأخيرة وهو يرتفع بصوته مؤكداً: «وإذا كانت رسالة واحدة من الفضاء كافية لنا كي نستنتج أن هناك ذكاء وراءها، فماذا إذاً عن الكميات الهائلة للمعلومات التي تحتويها الـ DNA لكل نبات وحيوان حي؟»

«تحتوى كل خلية في الجسم على معلومات أكثر من تلك الموجودة في المجلدات الثلاثين في الموسوعة البريطانية. من المنطقي بشكلٍ مؤكد استنتاج أن هذا ليس هو الإنتاج العشوائي للطبيعة الغير مُوَّجهة، بل إنه العلامة الغير قابلة للخطأ على وجود مصمم ذكى.»

لقد كان برهان بدون إجابة. قلتُ: «إذاً فأصل الحياة ضعف مصيري للتطور.»

«هذا صحيح، كما قال فيليب جونسون:» إذاً كان ينبغي على أتباع دارون أن يبعدوا الخالق عن الصورة، فينبغي أن يُقدّموا تفسيراً طبيعياً لأصل الحياة.» (٦٠)

«إنهم لم يكونوا قادرين على القيام بهذا. ورغم كل جهودهم، إلا أنهم حتى لم يأتوا باحتمالٍ واحد معقول، ولو على نحو ضئيل، ولا يوجد توّقع بأنهم سيأتون به. في الحقيقة يشير كل شيء إلى الطريق الآخر في الإتجاه الذي لا يحتمل الخطأ لله. في الوقت الحالي لكي تكون عالماً أميناً ملحداً، فهذا يتطلب إيمانا كبيراً.»

«أنا أبني جزيئات»

أنهى عالم الوحدات جيمس تور - أستاذ بقسم الكيمياء بجامعة رايس *Rice*؛ *Center for Nanoscale Science and Technology*، بالصدفة بالقرب من مدينة هوستون مؤخراً إلقاء حديث.

يحمل تور شهادة دكتوراه في الكيمياء العضوية من جامعة بـوردو، وعمل بعد الدكتوراه بجامعة ستانفورد، وجامعة ويسكونسون. وهو في المرحلة الأكثر تقدماً للبحث في عالم الجزيئيات. لقد كتب أكثر من ١٤٠ مقالاً بحثياً تقنياً ويحمل ١٧

براءة اختراع أمريكي.

قال في تقديم نفسه: «إنني أبنى جزيئات لما يتعلق بالأحياء، ولا يمكنني أن أبدأ بإخباركم بمدى صعوبة تلك المهمة.»

لم يكن الهدف من حديثه إبهار الجمهور بمواصفات آخر جهوده التكنولوجية العالية لتخزين كميات هائلة من المعلومات على مقياس ميكروسكوب مستبدلاً رقائق السليكون الكبيرة والغير عملية بالمقارنة لكنه كان لوصف شيء آخر وجد أنه كلما تحقق أكثر وأكثر في عجائب مستوى المركب المثيرة : بصمات أصابع المصمم الذكي.

قال: «إنني أقف في مخافة الله بسبب ما قام به من خلال خليقته. المبتدىء فقط الذي لا يعرف شيئاً عن العلم سيقول إن العلم بعيد عن الإيمان أما إذا كنت حقاً تدرس العلم، فإنه سيقربك من الله.» (٦١)

اعتقدتُ أنه أمر ساخر، فذات مرة دفعني فهم بدائي لعلم التطور تجاه الإلحاد، والآن يعزز فهم أعمق للعلم الجزيئى ثقتي في الله. لقد كان حكمي الأول مثل قضية قتل أوكلاهوما مبنية على دليل خاطىء تسبّب في خاتمة خاطئة.

إن الاعتقاد بأن عمليات غير موجهة يمكن أن تكون مسئولة بطريقة ما عن تحويل المواد الكيميائية الجامدة إلى كل تعقيد الكائنات الحية هي بالتأكيد – كما لاحظ عالم الأحياء المجرى دينتون «ليست أكثر ولا أقل من أسطورة أصل الكون العظيمة» لأزمنتنا. (٦٢)

لقد كانت مجلة تايم Time مخطئة، فدارون لم يقتل الله، بل هناك ببساطة الكثير جداً من مفاتيح الحل القوية – خاصةً في التعقيد المذهل للذرات الغير مرئية، واللغة الكيميائية المُشفرّة على اللولب المزدوج للـ DNA – لتقرير أن الخالق حي.

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• صف التعليم الدراسي الذي تلقيته حول نظرية التطور. كيف أثر على نظرتك لله؟

• قبل قراءة هذا اللقاء مع برادلي، كيف كنتَ تؤمن أساساً بنشأة الحياة على الأرض؟ هل غيرت المناظرة رؤيتك؟ كيف.. ولماذا؟

• بناءً على الدليل، هل تؤمن أنه من المعقول أن تؤيد وجود مصمم ذكي؟ لماذا؟ لماذا لا؟ في ضوء الحقائق، هل تؤمن أن الأمر سيتطلّب إيماناً أكثر لتصديق أن الحياة قد نشأت طبيعياً أم من خلال علة ذكية؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Charles B. Thaxton, Walter L. Bradley, and Roger L. Olsen. The Mystery of Life Origin Dallas: Lewis and Stanley, 1984.

• Philip E. Johnson, Darwin on Trial, 2d ed. Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1993.

• William A. Dembski, ed. Mere Creation. Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1998.

• J. P. Moreland, ed. The Creation Hypothesis. Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1994.

• Michael J. Behe. Darwin Black Box. New York: The Free Press, 1996.

• Michael Denton. Evolution: A Theory in Crisis. Chevy Chase, Md.: Adler & Adler, 1986.

• Hank Hanegraaff. The Face that Demonstrates the Farce of Evolution. Nashville: Word, 1998.

٤

الاعتراض الرابع

الله لا يستحق العبادة طالما أنه يقتل الأطفال الأبرياء

«يقول لنا الكتاب المقدس أن نكون مثل الله، ثم يصف لنا صفحةً بعد الأخرى الله كقاتلٍ شامل.»

روبرت ويلسون (١)

«أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ.» الملك داود (٢)

بينما كنت أسيرُ بين المحققين وأمرُّ بالحراس المنتظمين، استطعتُ أن أشعر باتجاهٍ خفي من التوَجس في البيت الأبيض. فرغم جهود إظهار ملامح عمل الحياة اليومية، إلا إنه كان من الواضح أن شيئاً كبيراً يدور خلف الستار. كانت فضيحة مونيكا لوينسكي تتصاعد، وكان الضغط يتزايد على الرئيس كلينتون للظهور بريئاً قبل أن يُصدر المدعي الخاص كينيث ستار تقريره الذي طال انتظاره.

وصل كلينتون متأخراً عن الإفطار بنصف الساعة، وجلس أمامي تماماً. كان وجهه شاحباً، وعيناه متعبتان منتفختان. وفيما كنتُ مهتماً بصحته سألته عما كان يشعر.

فأجابني في همسٍ أجش: «لقد كنتُ مستيقظاً حتى الثالثة صباحاً.»

تزاحم الطاقم الصحفي في ضوضاء لشغل أماكنهم عند مؤخرة الغرفة، وإذ بالكاميرات تئز بالأفلام والمذكرات قد تجهزتْ. وقف كلينتون، وخطا خطوات قليلة نحو منضدة. ساد الغرفة سكون. لقد انتهتْ عفويته المعتادة.

«قال للجمع الصغير من القادة الدينيين: «ربما لا أكونُ سلساً في كلماتي اليوم كما كنتُ في سنواتي الماضية. لقد بقيتُ لوقتٍ متأخر تماماً الليلة الماضية وأنا أفكر وأصلي عما يجب أن أقوله اليوم».

سحبَ نظارته حتى يمكنه قراءة ما كتبه على ورقة. وكانت كلماته هي أكثر تصريحاته عاطفيةً ودرامية منذ كشفتْ وسائل الإعلام عن علاقته.

قال وعيناه دامعتان ووجهه متألم: «لا أعتقد أن هناك طريقة ساحرة لقول إنني قد أخطأت. من المهم لي أن كل من جُرح يعرف أن الأسى الذي أشعر به هو أسى حقيقي – أولاً والأهم أسرتي، وأصدقائي، وطاقم عملي، ومجلس وزرائي، ومونيكا لوينسكي وأسرتها، والشعب الأمريكي كله. لقد طلبتُ من الجميع الغفران. لقد تبتُ ... فلا بدَّ أن تكون لديَّ معونة الله كي أكون ذاك الإنسان الذي أريده أن يكون.»

ها هو أقوى إنسان في العالم يقول إنه كان يملك «قلباً منسحقاً» إزاء تصرفه اللاأخلاقي الجسيم مع المتدربة السابقة مونيكا لوينسكي. لقد تلاشتْ تدريجياً كل مبادراته الاقتصادية، وكل جهود سياسته الدولية وبرامجه الاجتماعية. وكان اتخاذ المرحلة الوسطى هو الشرارة والموضوع الذي يدين الشخصية.

من المتوقع أن يُشكّل السياسيون صورة عامة إيجابية، ويلمعونها حتى يظهر لمعاناً متألقاً من خلال الإصدارات الصحفية المأجورة، والدعاية الزائفة البارعة، لكن شخصيتهم الحقيقية غالباً ما تتكشف من خلال اختياراتهم الشخصية البعيدة عن الأضواء.

إن قرارات إنسان الأخلاقية فيما وراء الستار - ومصداقيته الزوجية وأمانته الرئيسية في علاقته - لهي بالتأكيد ذات علاقة

بكيف سيدير عمل الشعب. وأخيراً تكشف عن جوهر الإنسان الحقيقي.

عندما كنتُ ملحداً، اعتقدتُ أن المسيحيين بإمكانهم تعليم السياسيين بعض خطط خلق صورة عامة إيجابية. فالمسيحيون يركزون بقوة على ملامح بديعة معينة من شخصية الله - محبته، ونعمته، وغفرانه، وعطفه، ورحمته - لكنهم يُقللون من شأن أو يتجاهلون الفقرات الكتابية التي يبدو أنها تكشف ملامح أكثر إزعاجا من شخصيته.

عندما يتركز الاهتمام على القصص نادرة الذكر حول مذابح ومجازر العهد القديم، يُرى الله فجأة في شكلٍ مختلف. ومثل كلينتون - الذي سقطتْ شخصيته العامة البارعة بحرص حالما أعلنت قصص موثقة حول عبثه خارج الزواج - فإن صورة الله كإلهٍ محب متعاطف تناقش بقصص السلوك الانتقامي والقاسي على ما يبدو. هل هذه التقارير الوحشية تكشف شخصية الله الحقيقية؟ ولو كانت كذلك، فهل الله يستحق العبادة؟

تشارلز تمبلتون له رأيه الخاص: «إن إله العهد القديم يختلف تماماً عن الإله الذي يؤمن به معظم المسيحيين الممارسين. فعدالته - طبقاً للمقاييس الحديثة - لا تُطاق ... فهو متحيز، وكثير الشكوى، ومنتقم، وغيور على مختاريه.» [٣]

ويوافقه الرأي الملحد جورج سميث قائلاً: لقد جمع إله العهد القديم قائمةً مؤثرة من الأفعال الوحشية. فلقد كان يهوه نفسه مُغرماً بإفناء أعداد كبيرة من البشر تماماً، عادةً من خلال الوبأ أو المجاعة، وغالباً بسبب أخطاء غير عادية.» [٤] ويحب سميث أن يقتبس كلمات الرئيس الأسبق توماس جيفرسون وهو يقول إن سجلات العهد القديم تكشف الله «قاسياً، منتقماً، متقلباً، وظالما.»[٥]

هذا الموضوع مُحير تماماً، ولكن بالإضافة إلى ذلك، هناك أمرٌ إضافي يتطلب استكشافه. ففي تقييم شخصية الله، يستشهد كلٌ من النقاد والمسيحيين بالكتاب المقدس كمصدر معلوماتهم. ولكن هل

هو حقاً كتاباً جديراً بالثقة؟ أليس الكتاب المقدس مليئاً بالتناقضات وعدم الإتفاقات التي تُقوّض مصداقيته؟ ألم يناقش علم الآثار الحديث إشاراته التاريخية؟ أليس هو أكثر من مجرد مجموعة من الأساطير الخيالية عن كونه وصفاً دقيقاً لخالق الكون؟

هذان الموضوعان - شخصية الله ومصداقية الكتاب الذي يُوهمنا أنه يكلمنا عنه - كانا عقبتان رئيسيتان حينما كنتُ باحثاً روحياً. ففي ذلك الوقت، أغرقتُ نفسي في الكتب والمقالات لمحاولة الوصول لبعض الاستنتاجات المعقولة. وأتمنى أن أكون قد قمتُ حينها بما سأفعله الآن: أن أجلس لمحاورة دارس يُعدُّ من أشهر المدافعين عن المسيحية ومن أكثرهم تأثيراً في أنحاء العالم.

اللقاء الرابع: نورمان جيسلر ، - دكتوراه في الفلسفة

نورمان جيسلر يمكنه أن يكون مُناظراً عنيداً متماسكاً عندما ينظم الشواهد الكتابية، والاستنتاجات الأثرية، والاستكشافات العلمية، والأحداث التاريخية لدحض من يميل للتشكيك في المسيحية. فذاكرته الموسوعية وأداؤه سريع القلق قد أسر في الكثير من النقاد عبر السنين.

بيد أن جيسلر كان لطيف الحديث والمتصرف كالجد هو الذي دعاني لمكتبه المتواضع المريح في المعهد الإنجيلي الجنوبي في شارلوت، كارولينا الشمالية، حيث يشغل منصب رئيس المعهد. بينما كان يرتدي سويتر متعدد الألوان فوق قميص أزرق بـالأزرار، كان يتمتع بابتسامة سلسة وروح دعابة صريحة. وسرعان ما وجدته يركز بحدة شديدة في التحديات التي جئتُ بها عبر البلاد لمناقشتها معه. قام جيسلر – وهو مؤلف مذهل حاصل على جوائز – بكتابة والمشاركة في كتابة، وتحرير أكثر من ٢٥ كتاباً منها مقدمة عامة للكتاب المقدس *General Introduction to the Bible*، العصمة *Inerrancy*، مقدمة للفلسفة *Introduction to Philosophy*، فلسفة الدين *Philosophy of Religion*، عندما يسأل المتشككون *When Skeptics Ask*، عندما يسأل النقاد *When*

Critics Ask، عندما يسأل الطائفيين *When Cultists Ask*. وأحد أحدث إصداراته موسوعة بيكر لعلم الدفاعيات المسيحي*Baker Encyclopedia of Christian Apologetics* – وهي الموسوعة الطموحة المكونة من ٨٤١ صفحة، وتناقش بانتظام موضوعات تتدرج من «الحق المطلق» إلى «البوذية الزينية»*Zen Bud-dhism*.

تعلم جيسلر في كلية ويتون؛ وجامعة ديترويت Detroit؛ وجامعة وين ستيت Wayne State؛ وكلية ويليام تيندال Wil-liam Tyndale؛ وجامعة نورث ويسترن، وحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لويولا Loyola في شيكاغو. كان يشغل منصب الرئيس السابق لفلسفة الدين في مدرسة ترينتي اللاهوتية الانجيلية في ديرفيلد، إلينوى، وأستاذ اللاهوت النظامي في معهد دالاس اللاهوتي. وتشمل عضوياته للجمعية الفلسفية الأمريكية، و الجمعية العلمية الأمريكية، والأكاديمية الأمريكية للدين.

كانت رحلات جيسلر على نطاق واسع – عبر الولايات الخمسين كلها، و ٥٥ دولة في ست قارات – يُحاضر مُقدِّماً البراهين المؤيدة للمسيحية، ويُناظر متشككين مشهورين من أمثال الإنساني بول كيرتز. وهكذا عرفتُ أن هناك فرصة ضئيلة لمحاورته. ومع ذلك فقد جئتُ مُسلحاً ببعض أصعب الموضوعات على الإطلاق.

فيما جلسنا مواجهةً على كراسي جلدية حمراء داكنة، سحبتُ ورقة سجلتُ فيها الكلمات الساخرة لوطني أمريكي مشهور يعد نقده للمسيحية أسطوري.

بدأتُ قائلاً: «في العام ١٧٩٤ كتب توماس باين في «عصر العقلانية *The Age of Reason*: «بينما نقرأ القصص الفاحشة، والرجاسات الشهوانية، وأحكام الإعدام الوحشية التعذيبية، والانتقامات الرهيبة التي يمتلئ بها أكثر من نصف الكتاب المقدس، يكون من التناغم أن ندعوه عمل شيطان أكثر من أن يكون كلمة الله.» [٦]

تطلّعتُ إلى جيسلر كي أرى ما إذا كان قد ارتعب بلدغة كلمات

باين، وقلتُ: «هذا تحد ساخر، كيف تجيبه لو كان جالساً هنا اليوم؟»

ضبط جيسلر نظارته الذهبية الإطار، ثم أشار ضاحكاً: «أولاً يؤسفني أن أقول إنه لم يكن لديه كتابٌ مقدسٌ. فعندما كتب توماس الجزء الأول من «عصر العقل»، لم يكن لديه كتاب مقدس. ولكن بغض النظر عن ذلك، أعتقد أنه يُثير أمرين: ما يسجله الكتاب المقدس، وما يوافق عليه الكتاب المقدس.»

فقلتُ له: «أعطني بعض الأمثلة للاختلاف.»

فشرح: «مثلاً، يُسجل الكتاب المقدس أكاذيب الشيطان، وخطية داود، لكنه لا يوافق عليهما. حقيقي أن هناك الكثير من القصص الرخيصة في الكتاب المقدس. فسفر القضاة يقرر اغتصاب امرأة ثم قطعها إلى ١٢ قطعة وإرسال كل قطعة إلى كل سبط من أسباط اسرائيل. (٧) لكن الكتاب المقدس لا يوافق بالطبع على ذلك. ثانياً، أعتقد أن باين مخطئاً حقاً. فالكتاب المقدس لا يسجل أية أحكام إعدام تعذيبية أو وحشية أمر بها الله.»

فرفعتُ يدي للاعتراض مشيراً: «لقد دُعي داود رجلاً حسب قلب الله، ومع ذلك يقول الكتاب المقدس إنه عذّب أعداءه. ويقول إنه «أَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِي فِيهَا وَوَضَعَهُمْ تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجَ حَدِيدٍ وَفُؤُوسِ حَدِيدٍ وَأَمَرَّهُمْ فِي أَتُونِ الآجُرِّ، وَهكَذَا صَنَعَ بِجَمِيعِ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ.» (٨). وهذا يبدو وحشياً وتعذيبياً بالنسبة لي!»

فحذر جيسلر قائلاً: «ليس بهذه السرعة، فأنت تقتبس من ترجمة KJV، وهي مُعرَّضة لسوء التفسير في هذه الفقرة. فترجمة NIV تُوّضح اللغة العبرية الأصلية وتقول إن داود «أخرج الشعب الذي فيها وعين لهم العمل بمناشير ونوارج حديد فئوس حديد، ودعاهم لصناعة الطوب.». وهذا عمل – وليس تعذيب – وهو أمرٌ إنساني تماماً مقارنةً بالمجازر التي ارتكبها أعداؤه. وبالإضافة إلى ذلك، هناك حالة أخرى يسجل فيها الكتاب المقدس شيئاً وليس بالضرورة يصفح عنها.»

قلتُ لنفسي حسناً. وفيما استجمعتُ أفكاري بسرعة، واصلتُ

قائلاً: «بوضع هذه الفقرة جانباً، لا تزال هنا الكثير من المذابح في العهد القديم. أليس هناك اختلافٌ كبيرٌ بين إله العهد القديم القاسي وإله العهد الجديد المحب؟»

فابتسم جيسلر مجيباً: «من المثير أن تسأل هذا، لأنني قمتُ للتو بعمل دراسة عن كل مرة يستخدم فيها الكتاب المقدس تلك الكلمة التي تترجمها ترجمة KJV إلى كلمة «رحمة». وقد وجدتها تتواتر ٢٦١ مرة في الكتاب المقدس – ٧٢٪ منها موجودٌ في العهد القديم. وهذه نسبة ٣ إلى ١. ثم درستُ كلمةٍ «محبة»، ووجدتها تتواتر ٣٢٢ مرة في الكتاب المقدس مناصفةً تقريباً بين العهدين. ولذلك يكون لديك نفس التأكيد على المحبة في العهدين.

وأضـاف: «من المثير للسخرية، يمكنك برهنة أن الله دياناً بالأكثر في العهد الجديد عنه في العهد القديم. فمثلاً يتكلم العهد القديم القليل جداً عن العذاب الأبدي، أما العهد الجديد فيتكلم عنه بالكثير.»

«أليس هناك تطورٌ في شخصية الله إذاً؟»

«هذا صحيح. ففي الحقيقة يقول الكتاب المقدس: «أنا الرب لا أتغير» [٩] في كلا العهدين يكون لديك الله المتطابق غير المتغير – الله كُلّي القداسة لدرجة أنه لا يمكنه النظر إلى الخطية، ومع ذلك فهو الله الذي يريد قلبه المحب الرحيم الرءوف العطوف أن يسكب الغفران على كل من يتوبون.»

فكرتُ في نفسي قائلاً: عطوف؟ رحوم؟ لقد آن أوان التطرّق لموضوع الشخصية.

أوامر الله بالقتل

تمعنتُ في عيني جيسلر. وقد كشف صوتي عن السخرية فيما أطرح أقسى اعتراض لشخصية الله. قلتُ: «أنت تتكلم عن العطف والرحمة، لكن، هاتان الصفتان يصعب فهمهما عندما نرى الله يأمر بالإبادة الجماعية بإخبار الاسرائيليين في تثنية ٧ أن «يحرم

تماماً» الكنعانيين مع ست أمم أخرى و«لا يُشفق عليهم».

وقد جعلني هذا أبدأ من جديد، فواصلتُ كلامي مُستطرداً بسرعة: «لم يكن هذا حادثٌ منفردٌ، فقد أمر الله بإعدام كل بكر مصري، وجاء بالطوفان على العالم وقتل آلاف لا تُحصى من البشر، وقال للاسرائيليين: «فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جَمَلاً وَحِمَاراً.» [10] وهذا يبدو إلها وحشياً عنيفاً أكثر من كونه إلهاً محباً. كيف يُتوقع من الناس أن يعبدوه طالما أنه يأمر بذبح الأطفال الأبرياء؟»

رغم قوة السؤال احتفظ جيسلر بنغمة هادئة عقلانية وقال: «هذا يوَضح أن شخصية الله كلية القداسة، وأنه كان عليه عقاب الخطية والتمرد. إنه قاض بار، وهذا جزء لا يمكن إنكاره من شخصيته. ولكن شخصيته رحيمة أيضاً. اسمع، لو أراد أي إنسان النجاة، فسوف يُسمح له.»

توقف جيسلر، فقد كانت أسئلتي تتطلَّب بوضوح تفسيراً موسعاً أكثر من هذا، وقال: «لي Lee، لقد أثرتَ مجموعة متكاملة من الموضوعات الجيدة، وهي تستحق إجابة عميقة. هل تمانع في التمعن في هذ الفقرات بحرص أكثر؟ لأننا لو فعلنا ذلك، فأعتقد أننا سنفهم الموضوعات بقدرٍ أكبر.»

تمعنتُ فيه ليستطرد قائلاً: «أرجو أن تتمعن فيها. فأنا أريد أن أفهم حقاً.»

فبدأ قائلاً: «لنبدأ بعماليق. اسمع يا لي Lee، لقد كانوا أبعد من أن يكونوا أبرياء. أبعد من ذلك. لم يكن شعباً رقيقاً. في الواقع كانوا فاسدين تماماً بشكلٍ مطلق.

كانت مهمتهم أن يُدمروا اسرائيل. وبأسلوب آخر، أن يرتكبوا إبادة جماعية. وكما لو كان ذلك ليس شريراً بما فيه الكفاية، ففكرّ فيما كان يكمن خلف الستار. كان الاسرائيليون شعبَ الله المختار الذي سيأتي منه الله بالخلاص للعالم كله عبر يسوع المسيح.»

فتساءلتُ: «هل تقول إنهم كانوا يستحقون أن يُدّمروا؟»

فقال جيسلر: «لقد كان تدمير أمتهم مستلزماً بثقل خطيتهم. فلو كانت قد بقيت بقية، لكانت قد تمكنتْ من مواصلة عدوانها ضد الاسرائيليين وضد خطة الله. لقد كان شعب متحاربٌ قاسي متشبثٌ. ولكي أوضح لك كم كان يستحق الرفض، كان يتبع الاسرائيليين، ويذبح في جبن الأقل مناعة بينهم – الضعفاء، وكبار السن، والمعاقين الذين كانوا يتأخرون في الوراء.»

«لقد أراد عماليق أن يمسح كل إنسان أخير من الاسرائيليين من على وجه الأرض. كان الله يمكنه أن يتعامل معهم بكارثةٍ طبيعية كالطوفان، لكنه بدلاً من ذلك استخدم اسرائيل كأداته للحكم. ولم يفعل ذلك من أجل اسرائيل لوحدها، بل أخيراً من أجل كل إنسان عبر التاريخ سيُمنح خلاصه من خلال المسيا الذي كان سيولد من بينهم».

فاعترضتُ قائلاً: «ولكن الأطفال؛ لماذا كان على الأطفال الأبرياء أن يُقتلوا؟»

فقال: «لنتذكر أنه لا يوجد إنسان برئ بشكلٍ خاص. فالكتاب المقدس يقول في مزمور ٥١ إننا جميعاً مولودين بالخطية، وهذا معناه إننا جميعاً مولودين بالنزعة للتمرد وارتكاب الخطأ. وأيضاً نحن بحاجة أن نتذكر سلطان الله على الحياة. فذات مرة أثار ملحدٌ هذا الموضوع في مناظرةٍ، وأجبتُ عليه قائلاً: «لقد خلق الله الحياة، وله الحق أن يردها. فلو استطعتَ أنت أن تخلق حياة، يمكنك أن يكون لك حق ردها. ولكن إن لم يمكنك خلقها، فلا يكون لك هذا الحق.

فصفق الجمهور إثر ذلك.

«يفترض الناس أن ما هو خطأ بالنسبة لنا، خطأ بالنسبة لله. ومع ذلك من الخطأ بالنسبة لي أن آخذ حياتك، لأنني لم أصنعها ولا أملكها. مثلاً من الخطأ بالنسبة لي أن أقتحم أرضك وأقتلع نباتاتك، وأقطعها، وأميتها، وأزرعها في مكانٍ آخر، وأنقلها. يمكنني أن أفعل ذلك في أرضي، لأني أمتلك النباتات الموجودة في أرضي.

«حسناً، الله له السلطان على كل الحياة، وله حق ردها لو أراد. في الواقع، نحن نميل أن ننسى أن الله يأخذ حياة كل إنسان. وهذا اسمه الموت. والسؤال الوحيد الذي علينا أن نتركه له هو متى وكيف؟

ماذا عن الأطفال

معرفياً، استطعتُ أن أفهم إجابة جيسلر حتى هذه النقطة. ومع ذلك لم أقتنع بها تماماً شعورياً. كنتُ لا أزال غير مستقرّ. فصممت قائلاً: ولكن الأطفال ...».

أما جيسلر - الذي كان بنفسه أب لستة أطفال، وجَدّ لأحفاد - فكان متعاطفاً وأشار قائلاً: «اجتماعياً وجسدياً، كان مصير الأطفال عبر التاريخ على الدوام مع آبائهم، سواء للخير أو للشر.»

«ولكن، يا لي Lee، أنت بحاجة لفهم الموقف مع عماليق. ففي ذاك الشر المستشري، وتلك الثقافة الفاسدة العنيفة، لم يكن هناك رجاء لهؤلاء الأطفال. فهذه الأمة كانت ملوثة تماماً لدرجة أنها كانت بمثابة الغنغرينا التي تُداهم ساق الإنسان، وكان على الله أن يبتر الساق أو الغنغرينا حتى لا يتبقى منها شئ. بمعنى ما كان عمل الله هذا عمل رحمة.»

فتساءلتُ: «رحمة؟ كيف؟»

فأجابني: «طبقاً للكتاب المقدس، كل طفل يموت قبل سن الحساب يذهب للسماء لقضاء الأبدية في حضور الله. والآن لو كانوا قد استمروا في الحياة في ذاك المجتمع المرعب، واجتازوا سن الحساب، فبلا شك أنهم كانوا سيعتبرون فاسدين ومن ثم يضيعوا إلى الأبد.»

فتساءلتُ: «وماذا يجعلك تعتقد أن الأطفال يذهبون إلى السماء عندما يموتون؟

«إشعياء ٧: ١٦ يتحدث عن سن معين قبل أن يصبح الطفل مسئولاً أخلاقياً: «لأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الصَّبِيُّ أَنْ يَرْفُضَ الشَّرَّ

وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ تُخْلَى الأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ خَاشٍ مَنْ مَلِكَيْهَا». وتحدث الملك داود عن الذهاب ليكون مع ابنه الذي مات عند ولادته. وقال يسوع: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ الله.» (١١) هذا يشير إلى أنهم سيذهبون للسماء. وهناك قدرٌ معقول من البراهين الكتابية الأخرى التي تؤيد ذلك أيضاً.

قفزتُ على إثر اختلافٍ ظاهر. وتساءلتُ: «لو كان من الأفضل أخيراً بالنسبة لهؤلاء الأطفال أن يموتوا قبل سن الحساب لأنهم سيذهبون للسماء؛ فلماذا لا ينطبق نفس الأمر على الأطفال الذين يتم إجهاضهم اليوم؟ فبما أنهم مُجهضين، فسوف يذهبون حتماً للسماء، أما إن ولدوا ونموا، فربما سيتمردون على الله وينهون حياتهم في الجحيم. أليست هذه حجة قوية في صالح الإجهاض؟

فجاءتني إجابة جيسلر بسرعة، إذ قال مصمماً: «لا، فهذا تماثلٌ زائف. أولاً، الله لا يأمر أي إنسانٍ اليوم أن يقوم بإجهاض. فالإجهاض في الحقيقة مناقض لتعاليم الكتاب المقدس. تذكر أن الله هو الوحيد الذي يمكنه أن يقرر أن يأخذ الحياة، لأنه الخالق النهائي للحياة. ثانياً، اليوم ليست لدينا ثقافة فاسدة تماماً كما كانت في مجتمع عماليق. ففي تلك الثقافة لم يكن هناك رجاء، أما اليوم فهناك رجاء.»

فقلتُ: «لذلك لا تعتقد أن الله قد كان مبالغاً حين أمر بدمار عماليق؟»

فقال: «عليك أن تتذكر أن هؤلاء الناس قد مُنحوا الكثير من الفرص لتغيير طرقهم وتجنب كل ذلك. ففي الحقيقة، لو أخذت كل الكنعانيين معاً مع عماليق، لكانت أمامهم ٤٠٠ سنة للتوبة. وهذه فترة طويلة جداً. وأخيراً، بعد انتظارٍ قرون لمنحهم فرصة لترك طريقهم المؤدي لتدمير النفس، تطلّبتْ طبيعة الله أن يتعامل مع شرهم العنيد، لكنه بالطبع لم يتصرف معهم باندفاع.

«والآن علينا أن نذكر أن هؤلاء الذين أرادوا التخلص من هذا الموقف قد فعلوا ذلك بالفعل، فلقد كانت أمامهم فرصة مواتية عبر السنين. وبالطبع فإن الذين أرادوا أن يتحرروا من الدمار قد هربوا

ونجوا بحياتهم.

في يشوع ٦، حيث يتحدث الكتاب المقدس عن خراب أريحا والكنعانيين، يكون لديك نفس النموذج. كانت هذه ثقافة في منتهى الشر لدرجة أن الكتاب المقدس يقول إنها أزعجت الله. لقد انخرطوا في الوحشية، والقسوة، وزنا المحارم، والعلاقات الجنسية مع الحيوانات، ودعارة المعابد، وحتى تقديم ذبائح الأطفال. كانوا يمثلون ثقافةً عدوانية أرادت إبادة الاسرائيليين.

«مرةً أخرى يواجهك أناسٌ أشرار يتعرضون للدمار، لكن الأتقياء من وسطهم يخلصون. فمثلاً راحاب التي خبأتْ الجاسوسين الاسرائيليين لم تُدن مع الآخرين. وأنظر لما حدث لسكان مدينة نينوى الفاسدين. كان الله سيدينهم لأنهم كانوا يستحقون ذلك، لكنهم تابوا فخلَّص الله الشعب كله. ومن هنا تكون النتيجة: من آمن كان الله مستعداً لخلاصه. وهذا مهم لتذكره.

«لقد كان قصد الله في تلك الحالات أن يدمر الأمة الفاسدة لأن التركيب العام كان شريراً أصلاً، وليس أن يدمر الناس لو كانوا مستعدين للتوبة. هناك آيات كثيرة تشير إلى أن رغبة الله الأساسية كانت طرد هؤلاء الأشرار من الأرض التي عرفوا بالفعل أنها كانت موعودة منذ زمانٍ طويل لاسرائيل. وبذلك استطاع اسرائيل أن يدخل ويتحرر نسبياً من الفساد الخارجي الذي كان من الممكن أن يدمره كالسرطان. أراد أن يخلق بيئة يأتي منها المسيا لمصلحة الملايين من البشر عبر التاريخ.»

فتساءلتُ: «إذا النموذج هو أن الناس كانت أمامهم الكثير من التحذيرات؟»

فقال: «بالطبع، واعتبر هذا: معظم النساء والأطفال هربوا مقدماً قبل بدء القتال الفعلي، تاركين وراءهم المحاربين لمواجهة الاسرائيليين. وقد كان المحاربون الذين بقوا هم الأكثر قسوة، أولئك الذين رفضوا بعناد أن يرحلوا، وناقلي الثقافة الفاسدة. ولذلك فمن المشكوك فيه حقاً كم عدد النساء والأطفال الذين ربما يكونوا قد تورطوا على أي حال.

«وبالإضافة إلى ذلك، وفقاً لقواعد السلوك التي أعطاها الله للاسرائيليين، كانوا كلما دخلوا مدينة عدو، كان عليهم أولاً أن يعرضوا على الشعب عرضاً بالسلام. وكان على الشعب الاختيار: إما قبول العرض، ومن ثم لا يقتلوا، أو رفض العرض ومن ثم يلقون حتفهم. وهذا مناسب وعادل.»

كان عليّ الاعتراف أن هذه الأفكار قد ألقتْ ضوءاً جديداً على الموقف، ولا سيما تعليقاته حول التحذير التفصيلي الذي قُدم، وأرجحية أن النساء والأطفال كانوا من المحتمل أنهم يخلون المنطقة قبل بدء أي قتال. وكما أن هذه الفقرات مزعجة، فقد ساعدتني أن أعرف أن اسرائيل كانت تعرض السلام قبل التورط في قتال، وأن النموذج الكتابي هو أن التائبين يُمنحون الفرص لتجنب الدينونة.

«إذاً الله لم يكن متقلباً؟»

«الله ليس متقلباً، أو استبدادياً، أو قاسياً. ولكن، يا لي Lee، عليّ أن أقول لك شيئاً: الله عادل بلا شك. فطبيعته تتطلب أن يتعامل مع الفاسدين الذين يُصرون على شرهم في عنادٍ وتصلف. أليس هذا ما يجب أن يفعله؟ وأليس هذا ما نريد أن نفعله حتى تتم العدالة؟ إن أحد الأشياء الرئيسية التي يجب تذكرها هو أنه بالنسبة لمن يتوبون ويرجعون إليه عبر التاريخ، فإنه عطوف، رحيم، حنان، وشفوق. وفي النهاية سنرى كلنا لطفه».

كانت لا تزال هناك حلقةٌ مزعجة أخرى بخصوص الأطفال بدا أنها تتحدى رأي جيسلر أن الله لا يتصرف بتقلب. فهي تتضمن أحد أغرب الحلقات في الكتاب المقدس بأكمله.

إبادة كونية؟

كان النبي إليشع ماشياً في طريق بيت إيل حين قابله بعض الصبيان الصغار أغاظوه ساخرين من صلعته. وبخوه قائلين: «إصعد يا أقرع!» إصعد يا أقرع!». فكان رد فعله هو أنه لعنهم جميعاً باسم الله. ثم، في فعلٍ مفاجئ من العقاب، خرجت دبتان فجأةً من الغابة وافترستا منهم ٤٢ ولداً. (١٢)

فقلتُ: «والآن، د. جيسلر، لقد صمَّمت أن الله ليس متقلباً، لكن هذه تبدو كاستجابةٍ لا تُطاق لإهانة بسيطة حمقاء. فقتل ٤٢ صبياً بريئاً لأنهم سخروا فقط من شخص أصلع أمر قاسي بشكلٍ مرعب.»

كان جيسلر على درايةٍ جيدة بهذا الموضوع، فأجاب: «إن الافتراض المُسبَق لسؤالك افتراض خاطئ. فهؤلاء لم يكونوا صبياناً أبرياء صغاراً.»

وفيما توقعتُ إجابته، كتبتُ نسخةً مصورة من النص ووجهتها ناحيته، مجيباً بنفس الحجة. «لا، لقد كانوا كذلك. أنظر إلى هذا.» قلتُ ذلك مشيراً للكلمات القائلة «صبيان صغار».

فنظر جيسلر في الصفحة في عجالة، وعلى الفور عرف مصدرها. فقال: «لسوء الحظ، فإن ترجمة JV، بها كلمة مختلفة هنا. فالدارسون توَّصلوا إلى أن النسخة العبرية الأصلية تتضمن كلمة «شباباً»، وترجمة NIV تورد كلمة «شباب youths». على أحسن تقدير، كانت هذه جماعة عنيفة من المراهقين الخطرين الذين يُشبهون عصابات الشوارع الحديثة. كانت حياة النبي مُعرّضة للخطر لعددهم الكبير – فلو كان اثنان وأربعون منهم قد افترسوا؛ فمن يعلم كم كان العدد الكلي الذي يهدده؟»

فسألته: «يهدده؟ مهلاً عليَّ! لقد كانوا يسخرون فحسب من صلعه.»

فأجاب جيسلر: «عندما تفهم سياق النص، سترى أن الأمر

كان أكثر خطورةً من ذلك. فقد لاحظ المُعلّقون أن توبيخاتهم كان المقصود منها تحدي إعلان إليشع بأنه نبي. وقد كانوا يقولون أساساً: «لو كنت رجل الله، فلماذا لا تصعد للسماء كما فعل إيليا النبي؟» الأمر الواضح هو أنهم كانوا يسخرون من عمل الله المبكر بأخذ إيليا إلى السماء. وقد كانوا محتقرين في عدم إيمانهم بما فعله الله من خلال النبيين.

«من المحتمل جداً أن ملاحظاتهم الصريحة حول إليشع قد كانت إشارة أن البُرص في تلك الأيام كانوا يحلقون رؤوسهم، وهكذا كانوا يهاجمون إليشع – رجل الكرامة والسلطان كنبي الله – بأنه منبوذ ومحتقر ومرذول. لم يكونوا يلقون بالافتراء على شخصيته فحسب، بل على شخصية الله، لأنه كان يمثل مندوب الله».

فقلتُ: «ومع ذلك، أليست هذه إساءة صغيرة؟»

فقال: «ليس في سياق تلك الأيام. فلقد شعر إليشع مُبرراً أنه مُهدَّداً من قبل العصابة. وكانت حياته في خطر. فقد كانوا في الواقع يهددونه هو والله. وكان ذلك نوعاً من ضربة وقائية لبث الخوف في قلب أي إنسان آخر يفكر في ذلك، لأن هذا كان يمكنه أن يكون حادثة سابقة خطيرة. ولو كانت عصابة متهددة من المراهقين قد أفلتتْ بهذه الإساءة، ولم يتدخل الله دفاعاً عن نبيه، فما عليك إلا أن تفكر في التأثير السلبي الذي سيؤثر على المجتمع. فقد كان يمكن لذلك أن يفتح الباب لمزيدٍ من الهجومات على الأنبياء، ومن ثم الاستخفاف بالرسالة العاجلة التي كانوا يحاولون تقديمها لهم من الله.

في الواقع، كما قال أحد المعلّقين: «بدلاً من استعراض وحشية غاضبة، فإن هجوم الدبتان يُبيّن أن الله يحاول بالتكرار أن يجعل شعبه يعود إليه من خلال دينونات أبسط حتى تتعاظم خطية الشعب جداً، ومن ثم لا بدَّ أن تصير الدينونة رهيبة جداً ... فالسقوط المُدوي للسامرة كان من الممكن تجنبه لو كان الشعب قد تاب بعد هجوم الدببة ذلك.» (١٣)

فأضاف جيسلر: «آخر الأمر، سأقولُ مرةً أخرى إنه علينا

التفكير في سلطان الله. فلم يكن إليشع هو الذي أخذ حياتهم، بل الله الذي خلقهم وأطلق الدبتين.

وبما أن الله قد خلق الحياة، فله كل الحق لردها ثانية. لقد كشف هجوم تلك العصابة على النبي عن اتجاهاتهم الحقيقية تجاه الله، وهذا دائماً طريق محفوف بالمخاطر يؤدي للدمار عندما تسبّ وتعارض الله في عنادٍ وتحدٍ.»

طويتُ النسخة المصورة من تلك الفقرة وقلتُ: «إذاً يكون من سوء فهم قراءة النص الأصلي أن نعتبر هؤلاء مجرد أطفال».

فقال: «هذا صحيح. فالعبريةّ التي كانت مستخدمة لوصفهم تشير إلى أنهم كانوا على الأرجح بين الثانية عشر والثلاثين. في الحقيقة أجد نفس الكلمات العبرية مستخدمة هناك مراراً لوصف الرجال في الجيش.(١٤) وكما ترى، عندما يوضع كل شئ في مكانه الصحيح، فسوف تحصل على صورة مختلفة تماماً عما كان مفترضاً أصلاً.»

حتى الآن، كانت إجابات جيسلر قد أفرغتْ كثيراً من الهجوم ضد شخصية الله بتقديم بعض سياقات النصوص وتوضح قصدها الواضح في تلك المراحل الخلافية. وبينما كانت تلك الفقرات لا تزال نقاطاً مُربكة، فإن رؤية الجانب الآخر قد جعل من الأسهل منح الله فائدة المتشككين، خاصة في ضوء أرجحية الأدلة المؤيدة لعطفه ومحبته.

ومع ذلك فقد كان هناك أيضاً موضوعٌ متعلق بشخصية الله يهم الكثير من الناس هذه الأيام: كيف تعامل الله مع الحيوانات؟ لماذا خلق عالماً تطارد فيه الحيوانات المفترسة الفريسة باستمرار، وحيث الموت العنيف جزءً أساسيً من الحياة؟ والأكثر أهمية، ألا يكشف هذا عن شئ مربك بخصوص اتجاهه؟

ألم الحيوانات

أثار تشارلز تمبلتون موضوع المعاناة في المملكة الحيوانية عندما كتب في كتابه «وداعاً الله»:

«إن الحقيقة المروعة التي لا يمكن الهروب منها هي أن الحياة بأكملها مستندة على الموت. فكل المخلوقات آكلة اللحوم لا بدَّ أن تقتلِ وتبتلع المخلوقات الأخرى ... كيف يمكن لإلهٍ محب كُلي القدرة أن يخلق مثلٍ هذه الأهوال؟ .... بالطبع لن يكونِ أبعد من قدرة إله كُلي المعرفة أن يخلق عالماً حيوانياً يمكنه أن يبقي ويدوم دون المعاناة والموت. (١٥)

سألتُ جيسلر بعد قراءتي له اقتباس تمبلتون: «ماذا عن ذلك؟»

فأجابني: «لقد تضمن الكثير من الحق هنا.»

لم تكن هذه الإجابة هي التي كنتُ أتوقعها. فسألته «هل تعتقد ذلك؟»

فقال: «نعم، ولكن، لسوء الحظ، فإن الأمر بمثابة كوب من الماء الجيد وفيه قطرة من الزرنيخ. هناك ماءٌ جيد، لكنه مسمم.»

«كيف؟»

«الماء الجيد هو: نعم، الله يمكنه أن يخلق تلك الأنـواع من الحيوانات. والحقيقة هي أنه قام بذلك. فالفردوس الأصلي كان فيه تلك الأنواع من الحيوانات، والفردوس الآتي – أي الفردوس المُستعاد – ستكون فيه تلك الأنواع من الحيوانات. في الواقع، نحن نعلم أن الله خلق الحيوانات والبشر أصلاً كي يكونوا آكلي بقول.»

في تلك اللحظة مد جيسلر يده وسحب الكتاب المقدس، وفتح الكتاب على بدايته. فحصتْ عيناه الصفحة حتى توقف بالقرب مِن نهاية الاصحاح الأول الذي يقول: «قَالَ الله: «إِنِّي قَدْ اعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بَزْرا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الارْضِ وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ

شَجَرٍ يُبْزِرُ بَزْرا لَكُمْ يَكُونُ طَعَاما. وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الارْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الارْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ اعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ اخْضَرَ طَعَاما». وَكَانَ كَذَلِكَ. وَرَاى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَاذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْما سَادِسا.» (١٦)

وبعدما أغلق الكتاب، استطرد جيسلر: «لم يقصد الله أن تؤكل الحيوانات في الفردوس، والحيوانات لم تكن تأكل بعضها. فقد قال النبي إشعياء يوماً ما إن الله سوف يخلق «سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةً وَأَرْضاً جَدِيدَةً» حيث «الذِّئْبُ وَالْحَمَلُ يَرْعَيَانِ مَعاً وَالأَسَدُ يَأْكُلُ التِّبْنَ كَالْبَقَرِ.» (١٧) وبأسلوب آخر، لن تكون هناك مثل هذا النوع من القتل الحادث الآن.

«على العموم، كل شئ خلقه الله كان حسناً. لكن الذي غيَّر الأمور هو السقوط. ففي الواقع عندما قيل لله أن ينطلق، فقد فعل ذلك جزئياً. تخبرنا رومية ٨ بأن كل الخليقة تأثرت - وهذا يتضمن الحياة النباتية، والبشر، والحيوانات، وكل شئ. كانت هناك تغيرات جينية رئيسية. فنحن نرى مثلاً كيف أن فترات الحياة قد انخفضت بسرعة بعد السقوط. فلم تكن خطة الله مصممة على هذا الأساس، لكن الأمر صار هكذا بسبب الخطية وحدها. وأخيراً، سوف يتم علاج الموضوع.»

«ولكن ألم يكن الله قاسياً على الحيوانات بتخصيص نظام الذبائح الحيوانية في العهد القديم؟»

«لقد كان الأسلوب المتبع لقتل هذه الحيوانات أسلوب إنسانيٍ تماماً. كان الأسلوب الأقل ألماً للموت. ولم يكن هناك تبديدٌ. فقد كانوا يأكلون اللحم، ويستخدمون الجلد للكساء، ولذلك كانوا يربون ويرعون الحيوانات بشكلٍ أساسي. ولم تكن هذه محاولة لإبادة فصيلة معينة. وبالطبع، كان هناك سببٌ مهم لذبائح الحيوانات - فلقد كانت تُشير رأساً للذبيحة النهائية ليسوع المسيح، حمل الله، على الصليب كثمن خطايانا».

تساءلتُ: «ماذا عن كل الألم الموجود في العالم نتيجة صيد الحيوانات وقتل الحيوانات الأخرى. فمجموع المعاناة الكلي الذي

يسمح به الله في العالم هائل بشكلٍ مطلق.»

فأجابني: «أعتقد أن الافتراض المُسبَق خاطئ بأكمله. فكما قال سي إس لويس إنه لا يوجد مجموع كلي للألم. إنه خطأ تسمية. فلا إنسان أو حيوان يختبر المجموع الكلي للألم. في الواقع، لا إنسان يختبر في وقتٍ واحد المجموع الكلي للألم لفترة حياته كلها. فلو كانت لديك ٣٠ أوقية (كيلو جراماً) من الألم موزعة على ٣٠ عاماً، تكون لديك أوقية واحدة (٣٠ جراماً) كل عام. وجزء من الأوقية كل يوم.

«وبقدر الاهتمام بالحيوانات، علينا أن نتذكر أن الكتاب المقدس يمنع سوء استخدامها بوضوح. فالمسيحيون يجب أن يعارضوا أية سوء معاملة للحيوانات. ومع ذلك، فأنا أتحدى المقدمة المنطقية لحركة حقوق الحيوانات أن الحيوانات لها حقوقٌ أخلاقية، فالحيوانات ليست مخلوقات أخلاقية. والآن، فإن الناس الأخلاقيين يمكنهم أن يقوموا بأمورٍ لا أخلاقية تجاه الحيوانات، لكن الكتاب المقدس يقول: «الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ.» (١٨). فالحيوانات تخدمنا وتساعدنا، ومن الخطأ أخلاقياً أن نقسو عليها.»

هل يمكن الوثوق بالكتاب المقدس؟

كان جيسلر يعتمد على الكتاب المقدس في تحديد شخصية الله. وبما أنه ألف كتاباً حول عصمة الأسفار المقدسة، فقد كان رأي جيسلر عن ذلك معروفاً جيداً: أنه يؤمن أن الكتاب المقدس موحى به تماماً من الله، وهو واقعي في كل ما يعلمه ويقاربه. فهل هناك أي سببٍ عقلاني للإيمان أن الكتاب المقدس يكشف حقاً وبدقة عن الحق حول الله؟

جورج سميث، الفيلسوف الملحد، لا يعتقد ذلك. فقد قال: «الكتاب المقدس لا يبين أية آثار لأي تأثيرٍ فوق الطبيعة. بل العكس تماماً، فمن الواضح أنه نتاج أناسٍ خرافيين كانوا في بعض الأحيان مستعدين لخداع الآخرين لو كان ذلك في سبيل نشر تعاليمهم». (١٩)

ويرفض تمبلتون بكبرياء معظم الكتاب المقدس باعتباره «حكايات شعبية مزينة» مضيفاً أنه «لم يعد من الممكن لإنسان متعلم أن يؤمن أن ... الكتاب المقدس وثيقة موثوق بها ... أو، كما تصمم الكنائس المسيحية، كلمة الله المعصومة.» [٢٠]

خلال سنواتي كملحد، سخرتُ من الحكايات الخيالية والأساطير الصارخة التي آمنتُ أنها لا تؤهل الكتاب المقدس كي يكون كتاباً إلهياً موحى به – وقد أراحني هذا الرأي تماماً من أية حاجة لاتباع أوامره. فرغم أنني لم أدرس تماماً محتوياته، فقد كنتُ سرعان ما أرفض الكتاب المقدس لأطلق لنفسي العنان كي أعيش ذاك النوع من أسلوب الحياة الفاسد الذي كان يتعارض بشدة مع عقائده.

كان وقتي مع جيسلر فرصة نادرة كي أسمع مباشرة لماذا يستنتج الاستنتاج المضاد، ثم يدافع بغيرة عن الكتاب المقدس كونه موثوقاً به. وقفتُ لأمد رَجلي، ماشياً للأمام نحو رف من الكتب، ومتفحصاً العناوين مصادفةً. ثم التفتُ قائلاً: «كل شئ يتوقف على ما إذا كان الكتاب المقدس صحيح. فما هي قاعدتك للإيمان بذلك؟»

فأجاب جيسلر بثقة مميزة: «هناك أكثر من برهان أن الكتاب المقدس مصدرٌ موثوقٌ به أكثر من أي كتاب آخر من العالم القديم.»

ومع ذلك، فقد بدا هذا الأمر بالنسبة لي استنتاجاً أكثر منه برهاناً. فقلتُ وأنا جالس على حافة مقعدي متوقعاً إجابة جيسلر: «سيكون عليك أن تعطيني بعض الحقائق لتدعيم ذلك.»

فبدأ: «هناك الكثير من البراهين التي يمكنني تقديمها. يمكنني أن أتحدث عن وحدة الكتاب المقدس – ٦٦ سفراً مكتوبة بأساليب أدبية مختلفة بواسطة ٤٠ كاتباً مختلفاً مع الأرجح لهم خلفيات متنوعة عبر ١٥٠٠ عاماً. ومع ذلك فالكتاب المقدس يكشف بشكلٍ مدهش دراما مستمرة واحدة برسالة مركزية واحدة. وهذا يشير إلى وجود العقل الإلهي الذي أكد الكتاب أنه أوحى لهم.

«وهنك قوة الكتاب المقدس للتحويل – فمنذ البداية – جدَّد الناس،

ومنحهم الرجاء، والشجاعة، والهدف، والحكمة، والإرشاد، والقوة، وهيأ مرساة لحياتهم. وبينما انتشر الإسلام المبكر بالسيف، انتشرت المسيحية المبكرة بالروح حتى حينما كان المسيحيون يُقتلون بواسطة السيوف الرومانية.

«أؤمن أن أكثر البراهين إقناعاً تندرج في تصنيفين. الأول: التأكيد الأثري لمصداقيته، والثاني: التأكيد الإعجازي لسلطانه الإلهي.»

السبب الأول: تأكيد علم الآثار

بدأ جيسلر مناقشته عن البراهين الأثرية باقتباس كلمات يسوع: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ الأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَاوِيَّاتِ؟» [٢١]

وقال جيسلر: «بالعكس، لو استطعنا أن نثق بالكتاب المقدس عندما يخبرنا عن الأشياء الأرضية المباشرة التي يمكن إثباتها، يمكننا إذاً أن نثق به في المواقف التي لا يمكننا إثباتها مباشرةً بطريقة تجريبية».

فتساءلتُ: «كيف تأيد الكتاب المقدس إذاً؟» ففيما تحريتُ بعض التأكيدات الأثرية للعهد الجديد في كتابي السابق «القضية .. المسيح، كنتُ مهتماً بشكلٍ خاص بعلم الآثار والعهد القديم، ومن هنا طلبتُ من جيسلر أن يبدأ.

«لقد كانت هناك الآلاف – لا المئات – من الاكتشافات الأثرية في الشرق الأوسط تُدَّعِم الصورة المُقدّمة في السجل الكتابي. كان هناك اكتشافٌ حديثٌ يؤكد وجود الملك دواد. كان الآباء - رواة القصص حول إبراهيم، واسحق، ويعقوب – قد اُعتبروا ذات مرة أسطوريين، ولكن فيما صار الكثير معروفاً، فإن هذه القصص تتأيد بشكلٍ متصاعد. لقد كان يُظن أن خراب سدوم وعمورة أمراً أسطورياً حتى انكشفت البراهين أن المدنَ الخمس المذكورة في سفر التكوين قد كانت قائمة كما ذكر العهد القديم تماماً. وبخصوص خرابها، قال عالم الآثار كليفورد ويلسون إن

هناك «برهاناً دائماً لذاك الحريق الهائل الذي حدث في الماضي السحيق.» (٢٢)

وأضاف جيسلر: «والأهم من هذا، أن ملامح متعددة من السبي اليهودي قد تم برهانها. وأيضاً كل إشارة في العهد القديم لملك أشوري تم إثبات صحتها؛ فقد أكدت أحد عمليات الحفر خلال الستينات أن الاسرائيليين كان يمكنهم حقاً دخول أورشليم عن طريق نفق خلال حكم داود. وهناك برهان أن العالم كانت فيه لغة واحدة في وقتٍ من الأوقات كما يقول الكتاب المقدس، وأن موقع هيكل سليمان يتم حفره الآن، والكثير الكثير. في أوقاتٍ عديدة، كان علماء الآثار متشككين بالعهد الجديد حتى تؤيد الاستكشافات الجديدة الوصف الكتابي.

فقلتُ: «مثلاً ...»

فقال: «مثلاً، يقول صموئيل إنه بعد موت شاول وُضعتْ عدته الحربيةَ في معبد عشتاروت التي كانت إلهة الخصوبة لدى الكنعانيين، في بيت شان Bethshan، بينما يقرر سفر الأخبار أن رأسه وضعت في معبد داجون – إله القمح لدى الفلسطينيين. والآن اعتقد علماء الآثار أن هذا لا بدَّ أنه كان خطأ، ومن ثم يكون الكتاب المقدس غير جدير بالتصديق. لم يعتقدوا أن الأعداء كان يمكنهم أن تكون لديهم معابد بنفس الاسم في نفس الوقت.»

فسألته: «وماذا وجد علماء الآثار؟»

«لقد أكدوا من خلال عمليات الحفر أنه كان هناك معبدان في ذلك الموقع أحدهما لكلٍ من داجون وعشتاروت. وكان يفصلهما مدخل. وفيما اتضح، تبنى الفلسطينيون عشتاروت بشكلٍ واضح لتكون واحدة من إلهتهم. وكان الكتاب المقدس صحيحاً في النهاية.

«وقد حدثت مثل تلك الظاهرة مراراً وتكراراً. فالكتاب المقدس يقدم حوالي ٣٦ إشارة إلى الحيثيين، لكن النقاد اعتادوا على الإتهام بعدم وجود برهان بوجود هذا الشعب أبداً. والآن اكتشف علماء الآثار الذين يحفرون في تركيا الحديثة سجلات الحيثيين. فلا

يمكن أن يكون هناك أي شكٍ أن علم الآثار قد أكد على التاريخية الجوهرية لتقليد العهد القديم.» (٢٣)

طلبتُ من جيسلر أن يواصل ملخصاً لماذا يؤمن أن علم الآثار يؤيد العهد الجديد.

فقال: « يوضح المؤرخ الروماني الشهير كولين هيمر Colin J. Hemer في كتابه «*The Book of Acts in the Setting of Hellenistic History*» كيف أن علم الآثار لم يؤكد على عشرات، بل مئات من التفاصيل من التقرير الكتابي عن الكنيسة الأولى. لقد تأيدتْ حتى التفاصيل الصغيرة، مثل أي إتجاه تهب منه الريح، كم أن عمق المياه مسافة معينة من الشاطئ، أي نوع من الأمراض أصيبت به جزيرة معينة، أسماء الموظفين المحليين، إلخ.

«لقد كتب المؤرخ لوقا سفر أعمال الرسل. ويقدم هيمر أكثر من ١٢ سبباً لماذا كان يلزم كتابة سفر الأعمال قبل العام ٦٢ م، أو في خلال حوالي ٣٠ عاماً بعد صلب يسوع. فحتى في فترة مبكرة أكثر، كتب لوقا إنجيله الذي يعتبر أساساً كنفس التقارير الكتابية الأخرى عن حياة يسوع.

«ولذلك لديك هنا مؤرخ معصوم برهنت صحته في مئات التفاصيل ولم يُبرهن أبداً على خطأه، كاتباً تاريخ يسوع وتاريخ الكنيسة الأولى بأكمله. وهو مكتوب خلال جيل واحد بينما كان شهود العيان مازالوا على قيد الحياة كان من الممكن أن يفندوه لو كان مُبالغٌ فيه أو خاطئٌ. وليس لديك أي شئ مثل ذلك من أي كتابٍ ديني آخر من العالم القديم.

فتساءلتُ: «هل يمثل هيمر صوتاً منفرداً بشأن ذلك؟»

فأجابني «يكاد يكون ذلك. فالمؤرخ البارز سير ويليام رامزي انطلق كمتشكك، ولكن بعد دراسة سفر الأعمال استنتج أن «بتفاصيل متنوعة أوضح الراوي الحق المدهش.» [٢٥] وقال مؤرخ جامعة أكسفورد الكلاسيكي العظيم شيروين وايت A.N. Sherwin-White: «بالنسبة لسفر الأعمال، فإن تأكيد التاريخية تأكيد ساحق.» وأن «أية محاولة لرفض تاريخيته الأساسية لا بدَّ

أن تكون الآن سخيفة.» (٢٦)

«في وقت سابق، ذكرتُ عالم الآثار ويليام أولبرايت William F. Albright الذي كان قائداً في المدرسة الأمريكي للبحث الشرقي لمدة ٤٠ عاماً. انطلق كمتحرر، لكنه أصبح أكثر وأكثر محافظة فيما درس السجل الأثري. واستنتج أن نقاد العهد الجديد الجذريين هم ما قبل أثريين pre-archeological، وأن رؤاهم «متعارف عليها تماماً». (٢٧)

رجعتُ للوراء على مقعدي الجلدي فيما تأملتُ وابل جيسلر من الحقائق والاقتباسات. كانت الحُجة قوية: لو كان علم الآثار يُبين أن الكتاب المقدس كان دقيقاً فيما يمكن أن يُفحص، فلماذا يكون أقل دقة في نقاطه الأخرى؟ فهذا يبرهن الكثير جداً.

قلتُ: «حتى لو كان علم الآثار يؤكد أن الكتاب المقدس دقيق تاريخياً، فهذا لا يعني أنه ذو سلطان إلهي.»

فقال جيسلر بوضوح: «هذا صحيح، فالسبب الوحيد الذي يدعو إنسان لقبول الكتاب المقدس كصاحب سلطان إلهي هو التأكيد المعجزي».

السبب الثاني: برهان الأصل الإلهي

تصفح جيسلر كتابه المقدس العتيق متجهاً نحو جملته الافتتاحية ثم وازن الكتاب المفتوح على ركبتيه.

«الأمر كله يعود إلى ما إذا كانت الآية الأولى في الكتاب المقدس صحيحة حينما يقول: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتَ وَالارْضَ». أؤمن أن هناك برهاناً علمياً طاغياً يبرهن صحتها – فكل شئ له بداية له مبتدئ، فالكون كانت له بداية، ومن ثم كان له مبتدئ. والكون كان منسجماً منذ لحظة الخلق لبزوغ الحياة الإنسانية، وهكذا.»

فقاطعته لأخبره أنني قد حاورتُ بالفعل ويليام لين كريج حول البراهين التي تشير للأصل الإلهي للكون.

فقال لي: «آه، حسناً، ما ينساه الناس عادةً هو أنه إن كانت هذه الآية الأولى صادقة، فليست المعجزات ممكنة فحسب، بل فعلية أيضاً، لأن أعظم معجزة قد حدثت فعلاً – خلق شئ من العدم. ما الأصعب: أن يأخذ يسوع الماء ويحوله إلى خمر أم أن يأخذ حفنة من لا شئ ويحولها إلى ماء؟ أن تصنع ماء من العدم أصعب بكثيرٍ من أن تصنع خمراً من الماء.

فقلتُ: «ذات مرة قال لي متشكك: «لا أؤمن بالكتاب المقدس لأن فيه معجزات.» فقلتُ له: «أذكر واحدة»، فقال «تحويل الماء إلى خمر. هل تؤمن بها؟ فقلتُ «نعم» فهي تحدث طوال الوقت، فقال، ماذا تقصد؟» فقلتُ: «حسناً، المطر يتغلغل في كرم العنب، ثم إلى العنب، ثم يتحول العنب إلى خمر. كل ما فعله يسوع هو أنه أسرع بالأمر قليلاً.»

«إن فكرتي هو أن كان لديك إله يمكنه عمل شئ من العدم، فيمكنه إذاً أن يُجري المعجزات. وحينئذ يكون الشئ الوحيد الذي علينا أن ننظر إليه هو أي كتابٍ في العالم تم التأكيد عليه بصورةٍ إعجازية. هناك كتابٌ واحد، وهو الكتاب المقدس.»

فقلتُ: «حسناً، أخبرني كيف.»

فقال رافعاً إصبعين: «طريقتان: الأولى، الكتاب المقدس مؤكد بصورة اعجازية بتحقيق النبوات التنبوية، والثانية، الكتاب المقدس مؤكد بالمعجزات التي أجراها من قالوا إنهم يتحدثون عن الله.»

تأكيد النبوات

بدأ جيسلر بجملةٍ مؤثرة: «الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يحوي تنبؤات محددة دقيقة قيلت قبل حدوثها بمئات السنين وتحققت حرفياً.»

نظر جيسلر إلى أحد الكتب المعلقة في أرففه، وواصل كلامه قائلاً: «بالنسبة لموسوعة بارتون باين للنبوة الكتابية Barton Payne's Encyclopedia of Biblical Prophecy، هناك ١٩١ تنبؤاً في

العهد القديم حول مجئ المسيح تتضمن نسبه، والمدينة التي سيولد فيها، وولادته من عذراء، ووقت موته بالتدقيق، وهكذا.

«في الحقيقة، يقول مزمور ٢٢: ١٦ «ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ.» وتقول آية ١٤ «انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي.» وتقول آية ١٨ «يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ. وزكريا ١٢: ١٠ تقول: «فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ الَّذِي طَعَنُوهُ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ». هذه صورة واضحة عن صلبه – ومع ذلك فقد كتبتْ حتى قبل تنفيذ الصلب كطريقة للإعدام بواسطة الرومان. في ذلك الوقت كان اليهود يرجمون المجرمين حتى الموت.

وبالطبع إشعياء ٥٣: ٢-١٢ ربما تحتوي على أكثر التنبوات دهشةً عن المسيح في العهد القديم بأكمله. فهي تتنبأ بـ ١٢ ملمح من ملامح آلامه التي تحققت تماماً – فسوف يُرفض، وسيكون رجل أوجـاع، وسيعيش حياة معاناة، وسيُحتقر من الآخرين، وسيحمل الحزن، وسيُسحق، وسيُضرب من الله، وسيُطعن عن آثامنا، وسيُجرح عن خطايانا، وسيموت مع الأشرار، وسيكون بلا خطية، وسيصلي من أجل الآخرين»

فرفعت صوتي قائلاً: «مهلاً، فإن تكلمت مع حاخام يهودي، سيقول لك إن هذه الفقرة تشير رمزياً إلى اسرائيل، لا إلى المسيا».

فهز جيسلر رأسه قائلاً: «في أزمنة العهد القديم، كان الحاخامات اليهود يعتبرون تلك نبوة عن المسيا. فهذا هو الرأي المتصل حقاً.

«وفيما بعد، بعد ما أشار المسيحيون إلى أن هذا كان يشير بوضوح إلى يسوع، بدأ اليهود يقولون إنها كانت حقاً عن معاناة الأمة اليهودية. لكن هذا خطأ بوضوح. فإشعياء معتاد على الإشارة للشعب اليهودي بصيغة جمع المتكلم مثل «نا»، أو «نحن»، لكنه دائماً ما يشير للمسيا بصيغة مفرد الغائب مثل «هو» أو «..هـ» – وهذا ما فعله في إشعياء ٥٣. وبالإضافة إلى ذلك، كل من يقرأ ذلك بنفسه سيفهم تماماً أنه يشير إلى يسوع. وربما يكون سبب ذلك

هو أنهم عادةً ما يتغاضون عنها في المجامع هذه الأيام.

«ولذلك تكون لديك ههنا تنبؤات مذهلة تحققت حرفياً في حياة إنسان واحد، رغم إنه لم يكن لديه تحكم على معظمها. فمثلاً، لم يمكنه أن يرتب موضوع نسبه، أو توقيت ميلاده، إلخ. لقد كتبت هذه النبوات مبكراً بـ ٢٠٠ عاماً إلى ٤٠٠ عاماً. ولا يوجد كتاب آخر في العالم يحوي هذا. فالكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد المؤيد هكذا بصورة فوق طبيعية».

تأملتُ في ذلك وقلتُ: «لكن أنبياء العهد القديم لم يكونوا وحدهم في التاريخ من تنبأ تنبؤات تحققت بصورةٍ مدهشة. فمثلاً نوستراداموس الطبيب والمنجم الذي عاش في القرن السادس عشر مشهور بتنبؤات حول المستقبل. ألم يتنبأ بصعود هتلر وألمانيا النازية؟ قلتها كجملة أكثر منها كسؤال. «إن كان واحد يمكنه ذلك، فما الذي يميز نبوات الكتاب المقدس؟»

فأجاب جيسلر: «المشكلة مع نوستراداموس وكثير جداً من الوسطاء المزعومين هي أن تنبؤاتهم كثيراً ما تكون مبهمة غامضة وغير دقيقة.»

فصممتُ قائلاً: «ولكن ماذا عن النبوة حول هتلر؛ فهي دقيقة تماماً».

فأجابني: «في الواقع لم تكن دقيقة على الإطلاق».

وقف جيسلر وتقدم نحو رف الكتب، وسحب أحد كتبه، وفحصه حتى وصل لما كان يريده. ثم قرأ كلمات نبوة نوستراداموس:

> يا تابعي المذاهب، ضيقاتٌ عظيمة تنتظر الرسول. وحشٌ فوق المسرح يتهيأ للمسرحية التصويرية. مخترع ذاك الفعل الشرير سيكون مشهوراً. العالم سيرتبك وسينقسم بالمذاهب ... الوحوش المجنونة بالجوع ستعوم عبر الأنهار. معظم الجيش سيكون ضد الدانوب الأصغر the lower Danube [Hister sera]. العظيم سيُسحب في قفص حديدي عندما لا يلاحظ أخ الطفل [de Germain] شيئاً.(٢٨)

استمر جيسلر: «من الواضح أن هذه ليست إشارة إلى أدولف هتلر. فالكلمة الواردة ليست Hitler بل Hister ، ومن الواضح أنها ليست إنسان بل مكان. فالجملة اللاتينية de Germain يجب تفسيرها إلى «أخ» أو «قريب»، وليس ألمانيا Germany. وهو لا يذكر أية تواريخ أو حتى إطار زمني عام. وبالإضافة إلى ذلك، ماذا يقصد بـ «وحوش»، و»قفص حديدي»؟» من المربك جداً أن النبوة بكاملها ليس لها معنى.

«إن العينة هي أن تنبؤات نوستراداموس غامضة للغاية ويمكن أن تتناسب مع قدر هائل من الأحداث. فتابعوه ليسوا متناغمين في تفسير ما قاله. وبعض نبواته ظهر أنها خاطئة. ففي الحقيقة، لم تتبرهن أصالة نبوة واحدة من نبوات نوستراداموس على الاطلاق.»

فقلت: «سأفترض أن كثيراً من الوسطاء مثل نوستراداموس غامضون في تنبؤاتهم. ولكن عليك الاعتراف أن نفس الشئ ينطبق على بعض النبوات الكتابية.»

فأجابني جيسلر: «موافق، ولكن ليست كل النبوات الكتابية حادة. ومع ذلك، فكثير منها دقيق جداً. فكيف يمكنك أن تحصل على ما هو أكثر تفصيلاً من التنبؤ الدقيق حول موت يسوع كما في دانيال ٩: ٢٤-٢٦؟ فعندما تحل المسألة، فسوف تجد أن هذه الفقرة تشير لموعد دخول يسوع التاريخ البشري. وماذا عن نبوات مكان ميلاده، وكيف سيعاني وسيموت؟ إن التحديد مدهش، وقد تبرهنت حقيقتها بشكل ثابت.»

فقابلته بمثال معاصر حول وسيطة كانت تنبؤاتها مفصلة تماماً في الغالب. «في العام ١٩٥٦ تنبأت جين ديكسون[1] بفوز رئيس ديمقراطي بالانتخابات الرئاسية للعام ١٩٦٠ ثم اغتياله في المكتب. وقد تحقق ذلك في جون كينيدي – وهذه نبوة دقيقة تماماً.»

---

١ وسيطة أمريكية وُلدت في العام ١٩١٨ وتوفت في العام ١٩٩٧ إثر أزمة قلبية – المترجم

فلم يتأثر جيسلر وقال: «لقد تنبأتُ أيضاً أن انتخابات ١٩٦٠ سيكسبها العمال، وهذا ما لم يحدث. وبعدها راهنت بفوز ريتشارد نيكسون، وهكذا كانت هناك فرصة ١٠٠٪ أن تتحقق واحدة من هذه التنبؤات. وفيما يخص الاغتيالات، فقد مات ثلاثة من الرؤساء العشرة في القرن العشرين في المكتب، وكان اثنان آخران مريضان جداً في نهاية خدمتهما. لم تفلح محاولاتها.

وبالإضافة إلى ذلك، على خلاف الأنبياء الكتابيين، فقد قالت تنبؤات كثيرة جداً إتضح خطأها - أن الصين الحمراء ستدفع العالم إلى الحرب ضد كوموى Quemoy وماتسو Matsu في العام ١٩٥٨؛ وأن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ في العام ١٩٥٤؛ وأن كاسترو سيُنفى من كوبا في العام ١٩٧٠. وأفضل تنبؤاتها المحببة لي هي أنها تنبأت بأن جاكلين كيندي لن تتزوج ثانية – وفي اليوم التالي مباشرةً تزوجت أرسطو أوناسيس!» قالها بضحكة خافتة.

«أوضحت دراسة قام بها الوسطاء عن النبوات في العام ١٩٧٩ بما فيها نبوات ديكسون أنها كانت دقيقة بنسبة ٦٪ فقط. يا للشفقة! من المحتمل أن تخمن وتحصل على نسبة أعلى من هذه. وبالإضافة إلى ذلك، فسوف تجد أن ديكسون، ونوستراداموس، والوسطاء الآخرين يتعاملون بشكل عام مع الممارسات السحرية – فمثلاً كانت ديكسون تستخدم كرة كريستالية، وكان من الممكن أن يفسّر ذلك بعضاً من تنبؤاتهم.»

وبما إنني متشكك من الوسطاء، لم أرد الاندفاع أكثر لوضع محاولة الدفاع عنهم. فقد قدم جيسلر فكرته: أنهم كانوا مختلفون تماماً عن أنبياء الكتاب المقدس. قررت أن أتقدم إلى نقد أكثر فعالية للنبوة الكتابية، وهو إدعاء أن المسيحيين يخرجونها خارج السياق ويدعون أنهم تنبأوا بمجيء يسوع بينما كانوا يتعاملون بالفعل مع موضوع آخر. وقد جال مثال في ذهني.

بسطتُ يدي وأخذتُ كتابه المقدس بعد استئذانه. عدتُ إلى متى ٢: ١٤ - ١٥ التي تقول: «فَقَامَ [يوسف] وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا

قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي.»

هذه إشارة إلى هوشع ١١: ١. رجعتُ لتلك الآية وقرأتها لجيسلر: «لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلاماً أَحْبَبْتُهُ وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي.» أغلقتُ الكتاب وأعدته إلى جيسلر وقلتُ: «من الواضح الآن أن هذه الفقرة تتحدث عن بني اسرائيل وهم خارجون من مصر وقت الخروج. إنها ليست عن المسيا. ألا يسحب هذا نبوة خارج إطار النص؟»

فأشار جيسلر: «هذا سؤالٌ جيد. ومع ذلك عليك أن تفهم أنه ليست كل النبوات تنبؤية.»

فسألته: «ما معنى ذلك؟»

«من الحقيقي أن العهد الجديد قد طبق فقرات معينة من العهد القديم على يسوع لم تتنبأ عنه مباشرةً. يرى كثير من الدارسين أن هذه الإشارات محققة، رمزياً، في المسيح، دون أن تكون قد تنبأت عنه مباشرة».

«بمعنى؟»

«بمعنى أن بعض الحق في الفقرة يمكنه أن يُطبق على المسيح بشكلٍ مناسب حتى ولو لم يكن متنبأ عنه. دارسون آخرون يقولون إن هناك معنى عام في بعض فقرات العهد القديم تنطبق على كل من اسرائيل والمسيح، فكل منهما أطلق عليه «ابن» الله. وهذا ما يسمى أحياناً بـ «الرؤية مزدوجة الإشارة» للنبوة.

«يمكنني أن أفهم ميزة كلا الرؤيتين. ولكن هذه الفقرات لم تكن تنبؤية بصورة مباشرة. وأنا لا أستخدمها بهذا الأسلوب. ومع ذلك هناك بالطبع عدد كاف من الأمثلة لنبوات تنبؤية بوضوح لتأسيس السلطان الإلهي للكتاب المقدس. لقد أوضح علم الرياضيات أنه من المستحيل أن تكون قد تحققت بمجرد الصدفة على الإطلاق.

تأكيد المعجزات

متقدماً إلى السبب الآخر للسلطان الإلهي للكتاب المقدس، قال جيسلر إن هناك طريقاً أكيداً لتحديد ما إذا كان نبي هو المتحدث عن الله، أو إنه دجالاً يحاول خداع الجماهير: هل يمكنه إجراء معجزات قاطعة؟ إن الديانات التوحيدية الكبرى – المسيحية، واليهودية، والإسلام – تدرك صلاحية المعجزات كوسيلة تأكيد رسالة من الله. وحتى المتشكك الشهير برتراند راسل افترض أن المعجزات تثبت أصالة التأكيد الحق. [٢٩]

فقال جيسلر: «في الكتاب المقدس – الذي رأينا كما تذكر مصداقيته تاريخياً – لدينا أنبياء واجهوا التحدي، لكنهم أجروا المعجزات لإثبات أحقيتهم».

«مثلاً، قال موسى في خروج ٤: ١: «وَلَكِنْ هَا هُمْ لا يُصَدِّقُونَنِي وَلا يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي بَلْ يَقُولُونَ لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ.» فكيف يستجيب الله؟ يأمر الله موسى بإلقاء عصاه على الأرض وفي الحال ستتحول إلى حية. ثم قال لموسى أن يلتقطها من ذنبها، فتتحول إلى عصاة من جديد. ثم قال الله في آية ٥: «لِكَيْ يُصَدِّقُوا انَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ الرَّبُّ الَهُ ابَائِهِمْ الَهُ ابْرَاهِيمَ وَالَهُ اسْحَاقَ وَالَهُ يَعْقُوبَ.»»

«نفس الشئ ينطبق على إيليا على جبل الكرمل - فلقد واجه التحدي، فأرسل الله ناراً من السماء لإثبات أنه كان نبي حقيقي. بالنسبة ليسوع، فقد جاء حقاً وقال: «إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي.» [٣٠] وبعد ذلك فعلها. وحتى نيقوديموس افترض ذلك حينما قال ليسوع: «يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللهِ مُعَلِّماً لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعَهُ.» [٣١]

«وهذا لم يحدث أبداً مع محمد. ففي الواقع، آمن محمد حقاً أن يسوع كان نبياً أجرى المعجزات بما فيها إقامة الموتى. والمسلمون يؤمنون أيضاً أن موسى وإيليا أجريا المعجزات. وهذا ممتع للغاية؛ لأنه في القرآن حينما تحدى غير المؤمنين محمداً

لإجراء معجزة رفض. وقال فحسب إنه يجب عليهم أن يقرأوا سورة في القرآن.» (٣٢)

فتعجبتُ قائلاً: «هل فعل هذا؟»

«بالطبع. لقد قال محمد بنفسه: «الله قادر أن يأتي بمعجزة.» (٣٣) وقال أيضاً: «سيقولون: «لماذا لا تأتيه معجزة من ربه؟» (٣٤) وعلى خلاف يسوع، لم تكن المعجزات علامة لإرسالية محمد. ولم يمر على موته إلا حوالي ١٥٠ – ٢٠٠ عاماً حتى ادعى أتباعه معجزات ونسبوها له.

«ولكن حين أثار يوحنا المعمدان سؤال ما إذا كان يسوع هو المسيا، كان بإمكان يسوع أن يجيب تلميذا يوحنا بثقة: «اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا رَأَيْتُمَا وَسَمِعْتُمَا: إِنَّ الْعُمْيَ يُبْصِرُونَ وَالْعُرْجَ يَمْشُونَ وَالْبُرْصَ يُطَهَّرُونَ وَالصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ وَالْمَسَاكِينَ يُبَشَّرُونَ.» (٣٥)

توقف جيسلر للحظات بينما كنتُ أتأمل فيما كان يقوله. وبعدها لخص حججه: «عندما تُجمع هذه الأمور معاً: مصداقية الكتاب المقدس تاريخياً بتأكيد علم الآثار، والتحقيق الإعجازي للنبوات التنبؤية الواضحة، وإجراء المعجزات المذكورة، فسوف تحصل على كتاب مبرهن بصورة فائقة للطبيعة على خلاف أي كتاب آخر في التاريخ.»

أردت أن أوضح شيئاً: «ما لست تقوله هو «أؤمن أن الكتاب المقدس موحى به سماوياً لأنه يقول هذا.»

«هذا صحيح. فهذه حجة دائرية. لا، فالحجة توضع هكذا: الكتاب المقدس يؤكد أنه كلمة الله والكتاب المقدس يبرهن على أنه كلمة الله.»

سيبدو أن هذه حالة جيدة تماماً - لو أن الكتاب المقدس لم يكن فيه الكثير جداً من التناقضات الظاهرة في ثناياه. ولكن كيف يمكن الوثوق بالكتاب المقدس حقاً بينما لا يستطيع الحفاظ على روايته الشخصية حتى النهاية؟ كيف يمكن اعتباره موحى به سماوياً بينما

يقدم عبارات لا يمكنها ببساطة أن تتوافق بين بعضها البعض؟

التلاؤم مع التناقضات

عندما سألت عن التناقضات المزعومة في الكتاب المقدس، ضبط جيسلر جلسته في مقعده وابتسم، فقد كان هذا موضوع قضى في دراسته حياته بأكملها.

قال: «لقد كانت لدي هواية جمع التناقضات والأخطاء المزعومة والعبارات المتصارعة في الكتاب المقدس. ولدي قائمة بما يقرب من ٨٠٠ بند منها. منذ سنوات قليلة اشتركتُ في تأليف كتاب عنوانه «عندما يتساءل النقاد» يخصص حوالي ٦٠٠ صفحة لتوضيح صحة الأمـور.[٣٦] وكل ما علي أن أقوله لك هو إنه في اختباري عندما يثير النقاد تلك الاعتراضات، فهم يخترقون بصورة ثابتة واحداً من ١٧ مبدأ لتفسير الكتاب المقدس.

فسألته: «وما هي؟»

«مثلاً، افتراض أن ما ليس له تفسير لا يمكن تفسيره. فأنا متأكد أن ناقداً حاداً يمكنه أن يسألني: «ماذا عن هذا الموضوع؟» ورغم إنني قمتُ بدراسة هذه الأمور لمدة ٤٠ عاماً، إلا إنني لن أكون قادراً على إجابته. ماذا يبرهن ذلك: أن الكتاب المقدس مخطئ أم أن جيسلر جاهل؟ سأرجح صحة الكتاب المقدس، لأنه من بين الـ ٨٠٠ إدعاء التي درستها، لم أجدُ خطأ واحداً في الكتاب المقدس، لكني وجدتُ الكثير من الأخطاء من جانب النقاد.

فرفعتُ رأسي متسائلاً: «هل هذا معقول حقاً، أن ترجح صحة الكتاب المقدس؟»

فأصر قائلاً: «نعم، فعندما يفاجأ عالم بأمر شاذ في الطبيعة، فهل ينقطع عن العلم؟ عندما اكتشف مسبارنا الفضائي حلقات مضفورة حول المشتري، كان ذلك معارضاً لكل التفسيرات العلمية. فهل كنتَ تتوقع إذاً أن يستقيل كل علماء ناسا لأنهم لم يمكنهم تفسير ذلك؟»

فضحكت قائلاً: «بالطبع لا.»

«تماماً. إنهم لم يستسلموا، بل قالوا: «لا بدَّ أن يكون هناك تفسير، واستمروا في الدراسة. أنا أدرس الكتاب المقدس بنفس الأسلوب. فلقد أثبتَ مراراً وتكراراً أنه دقيق، حتى حينما كنتُ أعتقدُ مبدئياً عكس ذلك. فلماذا لا أرجح صحته الآن؟ نحن بحاجة لدراسة الكتاب المقدس بالطريقة التي يُحاكم بها الأمريكي في المحكمة: المتهم برئ حتى تثبت إدانته.

«النقاد يفعلون العكس. فقد أنكروا وجود الحثيين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم أساساً. بينما اكتشف علماء الآثار المكتبة الحثية. يقول الناقد: «حسناً، أعتقد أن الكتاب المقدس كان صادقاً في تلك الآية، لكني لا أقبل البقية.» مهلاً، فيما تبرهنت دقة الكتاب مراراً وتكراراً في مئات التفاصيل، فإن ثقل البرهان يقع على الناقد، لا على الكتاب المقدس.»

طلبتُ من جيسلر أن يصف باختصار بعض المبادئ الأخرى لحل التناقضات الظاهرة في الكتاب المقدس.

فقال: «مثلاً الإخفاق في فهم سياق الفقرة. هذا هو أكثر خطأ شائع لدى النقاد. فبأخذ الكلمات خارج سياق النص، يمكنك حتى أن تجعل الكتاب المقدس يبرهن بعدم وجود الله. ومع ذلك فمزمور ١٤: ١ يعلنها ويقولها: «ليس إله». ولكن بالطبع في السياق يقول: «قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: لَيْسَ إِلَهٌ». ومن هنا فإن السياق مهم نقدياً، ومعظم النقاد مذنبون بإخراج الآيات خارج إطار السياق لخلق تعارض مزعوم بينما لا يوجد تعارض.

خطأ آخر هو افتراض أن تقريراً جزئياً تقرير خاطئ. فمتى يقرر أن بطرس قال ليسوع: «أنت المسيح ابن الله الحي.» ومرقس يقول: «أنت المسيح.» ولوقا يقول: «مسيح الله». [٣٧] يقول النقاد: «هل رأيتَ؟ خطأ!» وأنا أقول: «أين الخطأ؟ فمتى لم يقل «أنت لست المسيح، بينما قال مرقس «أنت المسيح!» بل أن متى أسهب الأمر. وهذا ليس خطأ بل أمور تكميلية.

«الأخطاء الأخرى تتضمن تجاهل تفسير الفقرات الصعبة

في ضوء الفقرات الواضحة؛ وضع تعليم متعلق بفقرة غامضة؛ نسيان أن الكتاب المقدس يستخدم لغة الحياة اليومية الغير متكلفة؛ الإخفاق في تذكر أن الكتاب المقدس يستخدم وسائل أدبية مختلفة؛ نسيان أن الكتاب المقدس هو كتاب إنساني بخصائص إنسانية».

فقلت: «البشر يخطئون. فلو كان كتاباً إنسانياً، فهل الأخطاء يمكن تجنبها؟»

فأجابني: «فيما عدا الوصايا العشر، لم يُملى الكتاب المقدس. فالكُتّاب لم يكونوا سكرتارية للروح القدس. فأحياناً ما استخدموا وسائل بشرية أو أساليب أدبية مختلفة أو كتبوا من مناظير مختلفة، أو أكدوا على اهتمامات مختلفة، أو أعلنوا عن مشاعر ونماذج تفكير بشرية. ليست هناك مشكلة مع ذلك، ولكن كالمسيح، فالكتاب المقدس إنساني تماماً، ولكن بلا خطأ.»

فقاطعته: «ومع ذلك فالناس تطلع باعتراضات مزعومة طوال الوقت.»

فأجاب «مثل ماذا على سبيل المثال؟ ما هي الاعتراضات الأكثر شيوعاً التي تسمعها؟»

فكرتُ للحظات وقلتُ: «متى يقول إنه كان هناك ملاك واحد عند قبر يسوع. ويوحنا يقول اثنان. الأناجيل تقول إن يهوذا خنق نفسه، وسفر الأعمال يقول إن أحشائه قد خرجت.»

فأجابني: «أنت على حق، فهذه أمور متكررة، لكنها سهلة الحل. فبخصوص الملائكة، هل سبق لك أن لاحظت أنه كلما كان لديك اثنان من شئ ما، يكون لديك واحداً أيضاً؟ الأمر بسيط. متى لم يقل إنه كان هناك مجرد ملاك واحد. ويوحنا كان يقدم تفصيلاً أكثر قائلاً بوجود اثنين.

«بالنسبة لانتحار يهوذا، فأنت تخنق نفسك على شجرة أو فوق حافة منحدر. كان مخالفاً للناموس أن تلمس جسداً ميتاً في تلك الأيام. ولذلك يكون هناك من مرَّ لاحقاً، ووجد الجثة، وقطع الحبل، فسقط الجسد المنتفخ على الصخور. ماذا يحدث؟ تخرج

الأحشاء تماماً كما يقول الكتاب المقدس. هذه ليست معارضة، بل تكملة.»

على العموم، كان على أن أعترف أن جيسلر كان مستقيم الفكر. فأنا أتذكر كملحد أمطر المسيحيين غير المستعدين بوابل من الاعتراضات والاختلافات الكتابية الظاهرية، فكانوا يصابون بالارتباك والحيرة لأنهم لم يقدروا على الإجابة، فكنتُ أنطلق وأنا أشعر بالفخر والرضا.

ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يقدروا على إجابتها أنه لم تكن هناك إجابات. فكما هو الحال مع الفقرات المُربكة الخاصة بالكنعانيين وإليشع، كلما تعمقت في البراهين التاريخية وأخضعت الموضوعات للفحص، كلما كانت تميل أن تخبو كاعتراضات.

لماذا يصعب الإيمان

آن أوان الغذاء تقريباً وكنتُ أشعر بالجوع، فسألتُ جيسلر: «هل تريد أن تستريح قليلاً للغذاء»

فقال: «بالطبع. هناك مطعم صغير بالأسفل.»

تفحصتُ مذكراتي. كنتُ أعتقد أنني قمتُ بتغطية كل شئ أردتُ مناقشته. ثم لاحظتُ اقتباساً كنتُ قد جئتُ به. كان عبارة عن وجدان عكسي أحبط الكثير من الناس: «لماذا يجعل الله من الصعب جداً أن نؤمن به؟» لم أرد إنهاء اللقاء دون سؤال جيسلر حول ذلك.

قلتُ له: «هناك شئ أخير قبل أن نرحل» بينما قرأتُ له الكلمات الحيوية التي كتبها باحث روحي مُحبط:

> لو كنتُ أريد أن أتجنب الجحيم، فعليَّ افتراضاً أن أؤمن أن حيةً قد تكلمت إلى حواء، وأن عذراء قد أصبحت حبلى من قبل الله، وأن حوتاً قد ابتلع نبياً، وأن البحر الأحمر قد انشق، وكل الأمور المجنونة الأخرى. حسناً، لو كان الله يريدني أن أكون مجنوناً جداً ... فماذا يجعل الإيمان به ...

مستحيلاً جداً؟ ... يبدو الأمر بالنسبة لي أن إلهاً كُلي القدرة كان يمكنه عمل شئ أفضل لإقناع الناس بوجوده أكثر مما يفعله أي مبشر ... أن يكتب فقط على السحب بخط لطيف وكبير: «ها هو برهانكم، Ed. آمنوا بي أو إذهبوا إلى الجحيم! المخلص، القادر» (٣٨)

تطلعتُ إلى جيسلر، وقلت له: «ماذا تقول له؟»

انذهل جيسلر قليلاً وأجابني: «إجابتي ستكون أن الله قد فعل شيئاً مثل هذا. فالمزمور ١٩: ١ يقول «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ.» (٣٩) في الحقيقة، هذا مكتوب عبر السموات بوضوح شديد لدرجة أن الكثير والكثير من العلماء الذين يبحثون النجوم يصيرون مسيحيين.

«العالم الكوني العظيم آلان سانداج الذي حصل على جائزة نوبل للفلك، استنتج أن الله هو «تفسير معجزة الوجود» (٤٠) والسير فريد هويل الذي صمم نظرية الحالة الثابتة للكون لتجنب وجود الله صار مؤمناً أخيراً بوجود مصمم ذكي للكون.

«عالم الفيزياء الفلكية هيو روس الذي حصل على شهادة الدكتوراه في الفلك من جامعة تورنتو وقام بأبحاثه عن أشباه النجوم والمجرات، قال إن الدليل التاريخي والعلمي قد «أصل بعمق ثقتي بصحة الكتاب المقدس.» (٤١) روبرت جاسترو – لا أدري معترف، ومدير مرصد مونت ويلسون، ومؤسس معهد Goddard Space، استنتج أن نظرية الانفجار العظيم تشير إلى الله. وأحبُ ما قاله الفيزيائي الرياضي روبرت جريفث: «إن أردنا ملحداً من أجل مناظرة، لذهبنا لقسم الفلسفة. فقسم الفيزياء لا يفيد كثيراً. (٤٢) إن البرهان، يا لي Lee، واضح جداً.»

فأشرتُ: «ليس لمتشكك مثل برتراند راسل». وذكرته قائلاً: «لقد قال إنه لو وقف يوماً أمام الله وسُئل لماذا لم يؤمن به، لأجاب أنه لم يُعط له البرهان الكافي.»

وبما أن جيسلر كان مغرما بجمع الاقتباسات من الملحدين واللاأدريين، فقد ذكر شيئاً آخر قاله راسل: «سُئل راسل في أحد

لقاءات مجلة لوك Look: «تحت أي شرط ستؤمن بالله»، فأجاب بشكل أساسي: «حسناً، لو سمعتُ صوتاً من السماء يتنبأ بسلسلة من الأمور، ثم تحققت، فأعتقد أنه سيكون على أن أؤمن بوجود ذاك النوع من الكيان الفائق للطبيعة». (٤٣)

في ضوء مناقشتنا عن التحقيق الإعجازي للنبوات التنبؤية في الكتاب المقدس، كانت السخرية في عبارة راسل واضحة.

فصرح جيسلر: «يمكنني أن أقول: «سير راسل، لقد كان هناك صوت من السماء، وقد تنبأ بأمور كثيرة، وقد شهدناها تتحقق دون إنكار.»

«لذلك لا تعتقد أن الله يجعل الأمر صعباً على الناس أن يؤمنوا؟»

«على العكس، فالدليل موجود لو تهيأ الناس لرؤيته. فالناس لا يتحولون عن الله بسبب انعدام الدليل، بل بسبب كبريائهم أو مشيئتهم. فالله لا يجبر أي إنسان لدخول جماعة المؤمنين. المحبة لا تعمل أبداً بإجبار. لكنها تعمل فقط بإقناع. وهناك الكثير من الأدلة المقنعة ههنا.»

شعرتُ بواجبي لكشف شخصية الإنسان الذي اقتبستُ له قطعة لماذا يجعل الله من الصعب جداً أن يومن الناس. فقلت لجيسلر إن اسمه هو ادوارد بويد، وقد قدم هذه الملحوظة لابنه الفيلسوف المسيحي جريجوري بويد فيما كانا يتبادلان سلسلة من الخطابات يتجادلان فيها عن براهين المسيحية. في العام ١٩٩٢، بعد تأمل البراهين شخصياً، قرر المتشكك السابق ادوارد بويد أن يكون تابعاً ليسوع. (٤٤)

ابتسم جيسلر لسماع القصة، ثم إتجه إتجاهاً شخصياً شعرياً فيما اختتم الحوار بمناقشة إيمانه الشخصي.

«بالنسبة لي، أقول نفس الشئ الذي قاله الرسول بطرس: «يَا رَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كلاَمُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ عِنْدَكَ» (٤٥). فهو الوحيد الذي لم يعلن فقط أنه هو الله، بل أثبت أيضاً أنه هو الله. عندما

أقارن هذا بكل أصحاب الديانات الأخرى، يكون الأمر كالشاعر الذي قال:

«الليل له ألف عين

والنهار له عين واحدة

فنور العالم كله يموت

مع شروق الشمس»

رق صوت جيسلر لكنه احتفظ بشدته. وقال: «في منتصف ليل الجهل البشري، هناك الكثير من الأنوار في السماء. وفي وقت الظهيرة هناك نورٌ واحد. وهو يسوع المسيح نور العالم. فطبقاً لبراهين من يكون، لا يوجد حقاً أي منافس.

«لذلك جعلتُ معه نصيبي - لا مع من زعم الحكمة - كونفوشيوس، أو مع من زعم الاستنارة - بوذا، أو مع زعم النبوة - محمد، بل مع من أعلن أنه الله المتجسد، الواحد الذي أعلن قائلاً «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (٤٦)، وأثبت ذلك»

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• قيم كيف تؤمن أن جيسلر قد نجح في التعامل مع الموضوعات المُربكة لكيف تعامل الله مع عماليق، الكنعانيين، والغوغاء التي هددت إليشع النبي. ماذا كان أقوى جزء من تفسيره؟ هل موضوع شخصية الله «نقطة محيرة» في رحلتك الروحية؟ لماذا؟ لماذا لا؟

• هل تفهم إرشادات جيسلر لتفسير الكتاب المقدس؟ أي منها رأيتَ أن النقاد قد اخترقوها؟ هل تتفق أن ترجيح صدق الكتاب المقدس على أساس أنه برهن مصداقيته في حالات كثيرة؟ لماذا؟ لماذا لا؟

• ما هو رد فعلك لاقتباس المتشكك السابق ادوارد بويد؟ هل تؤمن أن الله قد جعل الإيمان به صعباً؟ ما هي عقبتك الكبرى للإيمان؟ ما هي الخطوات المحددة التي كان يمكنك إتخاذها لقهر تلك العقبة؟

• هل تعطلت بوجود تناقض أو تعارض ظاهر في الكتاب المقدس؟ لو كان الأمر هكذا، فكيف تصرفت لإيجاد إجابة؟ حاول وضع سؤالك بقدر الإحكام، ثم استفد من مصادر المكتبة والانترنت، بما فيها الكتب المذكورة بالأسفل، وإبحث هل هناك تفسير يرضيك.

لمزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Norman Geisler. Baker Encyclopedia of Christian Apologetics. Grand Rapids، Mich.: Baker، 1999.

• Norman Geisler and Thomas Howe. When Critics Ask. Grand Rapids، Mich.: Baker، 1992.

• Norman Geisler and Ronald Brooks. When Skeptics Ask. Wheaton، Ill.: Victor، 1990.

• Gleason L. Archer. Encyclopedia of Bible Difficulties. Grand Rapids، Mich.: Zondervan، 1992.

• Walter C. Kaiser Jr.، Peter H. Davids، F. F. Bruce، and Manfred T. Brauch. Hard Sayings of the Bible. Downers Grove، Ill.: InterVarsity Press، 1996.

٥

الاعتراض الخامس

من المهين الادعاء أن يسوع هو الطريق الوحيد إلى الله

«أنا أعارض تماماً أية ديانة تقول إن إيماناً أسمى من إيمانٍ آخر. وأدرك أن ذلك ما هو إلا عنصرية روحية. فهو طريق للقول بأننا أقرب إلي الله منكم، وهذا ما يؤدي للكراهية.» الحاخام شمولي بوتيتش [١]

«استطاع موسى أن يتأمل في الناموس، واستطاع محمد أن يُشهر السيف، واستطاع بوذا أن يُقدِّم المشورة الشخصية، واستطاع كونفوشيوس أن يعرض الأقوال الحكيمة، لكن أياً من هؤلاء لم يكن مؤهلاً لتقديم كفارة عن خطايا العالم ... المسيح وحده يستحق التكريس والعبادة بلا حدود.»

اللاهوتي أر. سي. سبرول [٢]

كان والتر شابلنسكي لديه آراء متشددة حول الدين، ولم يكن يخجل من التعبير عنها. في العام ١٩٤٠ أثار اضطراباً في روشيستر، نيو هامبشاير، باستنكاره الصريح للدين المنظم كـ «خدعة» وإدانة الكثير من التجمعات المسيحية بالاسم. وكانت النتيجة أنه وجد نفسه مقبوضاً عليه ومُداناً من قِبل قانون الدولة الذي يُجرِّم أن تتحدث «أية كلمة مزعجة أو احتقارية أو مهينة قانونياً لأي إنسان يمشي في أي شارع أو أي مكان عام آخر.»

مؤمناً أن حقوق حرية تعبيره قد انتهكتْ، استأنف شابلنسكي قضيته حتى وصلت محكمة الولايات المتحدة العليا. ومع ذلك، في العام ١٩٤٢ أكدَّ القضاة بالإجماع على إدانته، قائلين بأن مثل «الكلمات الهجومية» التي صرَّح بها تقع خارج إطار حماية التعديل الأول (٣). وبعد ٣٠ عاماً أوضحت المحكمة العليا تعريفها لـ «الكلمات الهجومية» بتسميتها «ألقاب تعسفية شخصياً من المحتمل أساساً أن تُثير رد الفعل العنيف.» (٤)

أثارت «الكلمات الهجومية» استجابةً عميقة في الناس؛ إذ جعلت أحشائهم تضطرب، وأياديهم تتكوَّر إلى قبضات. فهذه اللغة المُهينة تؤثر في الأعماق بالهجوم على أكثر معتقداتهم تأثيراً، وتُثيرهم فعلياً للاندفاع إلى الانتقام. بالنسبة للبعض ينطبق نفس الشئ على الكلمات المفرطة ليسوع المسيح:» أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.» (٥)

كثير من الناس يعتبرون أنه من الكبرياء والأفق الضيق والتحيز بالنسبة للمسيحيين أن يؤكدوا أن الطريق الوحيد إلى الله لا بدَّ أن يكون من خلال يسوع الناصري. ففي زمن التعددية والتسامح الديني، يكون هذا الادعاء المقصور غير لائق اجتماعياً، ويمثل صفعة لفظية في وجه الأنظمة العقيدية الأخرى. فالتعددي روزماري رادفورد روثر اعتبر ذلك «مبالغةً وطنية دينية سخيفة»(٦)، بينما دعاها حاخام يهودي «ديكتاتورية روحية» تشجع نوع الاتجاه الأنيق الذي يمكنه أن يقود إلى الكراهية والعنف تجاه الناس الذين يؤمنون إيماناً مختلفاً.(٧)

وبالطبع فإن مدخلاً مثل الذي عبرَّ عنه الفيلسوف الهندي سوامي فيفيكيناندا أكثر قبولاً اليوم: «نحن (الهندوس) نقبل صحة كل الديانات.» – وقد قالها للبرلمان العالمي للديانات في العام ١٩٨٣. وقال إن الخطية الحقيقية هي أن تدعو أي إنسان آخر خاطئاً. (٨)

هذا النوع من انفتاح الفكر والتحرر يتناسب جيداً مع ثقافتنا الحالية من النسبية، حيث لا يمكن اعتبار «حقيقة» بأنها حقيقية على نطاقٍ كوني طوال العصور، وفي كل الأماكن، ولكل الناس،

وفي كل الثقافات. ففي الواقع، ينكر ثلثا الأمريكان اليوم أي شيءٍ باعتباره الحق. [٩]

عندما كنتُ ملحداً، تعجبتُ من تأكيدات المسيحيين بأنهم يحتكرون المدخل الصحيح الوحيد إلى الدين. وكنتُ أشكو: «مَنْ يظنون أنفسهم؟ مَنْ هم حتى يدينوا أي إنسان آخر؟ أين حب يسوع في ذلك؟»

لقد دعا تشارلز تمبلتون ذلك بـ «الافتراض الذي لا يُطاق»[١٠] أن يزعم الكتاب المقدس أنه بالإضافة إلى يسوع «لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءَ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسَ بَهَ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلَصَ». [١١]، وأضاف تمبلتون:

> المسيحيون أقلية صغيرة في العالم. فتقريباً أربعة من كل خمسة أشخاص على وجه الأرض يؤمنون بآلهة تختلف عن إله المسيحية. وعدد السكان الأكثر من خمسة مليار إنسان الذين يعيشون على الأرض يوَقرون أو يعبدون أكثر من ٣٠٠ إلهاً. ولو أضاف أحد الديانات القبلية أو الروحانية، لارتفع الرقم لأكثر من ٣٠٠٠ إله. فهل علينا أن نؤمن أن المسيحيين وحدهم على حق؟ [١٢]

رغم تقرير تمبلتون المرعب حول عدد الآلهة التي تُعبد في العالم، إلا إنه على حق. إن تأكيد يسوع المقصور واحد من أفظع العقبات أمام الباحثين الروحيين اليوم. فمع موضوع متفجر مثل هذا، عرفتُ أنني كنتُ بحاجة للتكلم مع خبير له ذهن تحليلي واضح، وخلفية فلسفية سليمة، وخبرة ممتدة بمدى واسع من ديانات العالم المختلفة. هذه المعايير قادتني إلى إحدى ضواحي أتلانتا، جورجيا، إلى مكتب رافي زكريا، الذي وُلد ونشأ في الهند.

اللقاء الخامس: رافي زكريا - دكتوراه في اللاهوت، دكتوراه في الحقوق

قال لي رافي زكريا فيما كان يخلع معطفه الأسمر، وجلس حول مائدة خشبية مستديرة في مكتبه: «هناك قول هندي قديم يقول إن هناك طريقتان تصل بهما إلى أنفك.»

قال مشيراً مباشرةً لأنفه: «هذه طريقة.» ثم مدَّ يده خلف رأسه ولمس أنفه من الناحية البعيدة، وقال مبتسماً: «وهذه طريقة.»

بأسلوب آخر، أحياناً ما يُفضِّل الهنود اتخاذ طريقاً طويلاً غير مباشر لإجابةٍ ما أكثر من الوصول السريع إلى الحل. وأحياناً ما ينطبق هذا على زكريا الذي اشتهر كونه بين أشهر المدافعين عن المسيحية وضوحاً وذكاءً في العالم.

وديع القلب، ثاقب الفكر، لُقب زكريا بأنه «رجل إدراك روحي عظيم واستقامة فكرية» من قِبل بيللي جراهام. [١٣] لقد تحدَّث عن المسيحية، والفلسفة، وديانات العالم، والعبادات في ٥٠ دولة، والكثير من الجامعات. تتضمن كتبه الكتاب الشهير «هل يستطيع الإنسان الحياة بدون الله؟» وهو مؤسس جزئياً على سلسلة من المحاضِرات النافذة التي ألقاها في جامعة هارفارد؛ المظهر المُحطَّم: الوجه الحقيقي للإلحاد *A Shattered Visage: The Real Face of Atheism*؛ نجنا من الشرير *Deliver Us From Evil*؛ صرخات القلب *Cries of the Heart*؛ يسوع بين الآلهة الأخرى *Jesus Among Other Gods*. وقد صدر كتابه الأول للأطفال «التاجر واللص *The Merchant and the Thief*» في العام ١٩٩٩.

تعلم زكريا في مدرسة ترينيتي اللاهوتية الإنجيلية، حيث حصل على شهادة الماجستير في اللاهوت، وكان أستاذاً زائراً في جامعة كامبردج. وتمَّ تكريمه بمنحه شهادة دكتوراه اللاهوت من كلية Houghton ومعهد وكلية تيندال Tyndale، وشهادة الدكتوراه في الحقوق من كلية أسبوري. وهو الرئيس السابق لقسم الكرازة

والفكر المعاصر في المعهد اللاهوتي الاتحادي.

حالياً يرأس زكريا خدمات رافي زكريا الدولية *Ravi Zacharias International Ministries* التي تنتشر مكاتبها في الولايات المتحدة، وكندا، والهند، وانجلترا. وله – مع زوجته مارجريت– ثلاثة أطفالٍ.

زكريا شخصية مهيبة بابتسامة شبابية. وبشرته البرونزية نوعاً تتعارض مع شعره الأبيض تماماً لدرجة أنه يكاد يلمع. يتكلم بصوتٍ قوي ناعم بلهجة هندية مميزة. وبأدبه وضيافته، كان كريماً بوقته ومنتبهاً تماماً في لقائنا، رغم أن طاقمه كان يقوم بإعدادات متواصلة خلف الستار لرحلة دولية أخرى كان يستعد لإطلاقها.

أتيتُ لأسأله عن تأكيد يسوع بأنه الطريق الوحيد إلى الله، وهو التأكيد الذي قدَّمه لتلميذه توما. فطبقاً للتقليد، كان إيمان توما الذي شكَّ مرة قد تدَّعم بلقائه مع المسيح القائم، فسافر بعدها إلى الهند لتوصيل البشارة المسيحية، وقُتل أخيراً بالقرب من مَدراس Madras. حيث وُلد زكريا على بُعد ستة أميال تقريباً من النصب التذكاري لاستشهاده. بمعنى ما، فإن رحلة زكريا الروحية هي تذكار لرحلة توما. فبعد قضاء سنواته المبكرة كمسيحي بالاسم فقط، وجد زكريا نوعاً مؤقتاً من الإيمان في سن السابعة عشرة بعد سماع مبشر أمريكي يتحدث في اجتماع حاشد. وبعد ذلك انتهى به الأمر في المستشفى بعد محاولة انتحار بسبب لا معنى الحياة – وهو اختبار صار من خلاله تابعاً مكرساً تماماً ليسوع، ومُرسلاً من الهند إلى أرجاء العالم.

عرفتُ أن اختباره في هذه البيئة متعددة الثقافات والديانات، حيث نما بين المسلمين، والهندوس، والسيخ، سوف يُثري منظوره لذلك السؤال المُربك حول مقصورية المسيح. وفيما ارتشف الشاي الساخن، سحبتُ مذكراتي من حقيبتي. وعلى الفور بدأتُ في إثارة الموضوع.

كبرياء المسيحية

قلتُ في مستهل سؤالي: «اغفر لي فظاظتي، ولكن أليس من الكبرياء الجسيمة بالنسبة للمسيحيين أن يَدَّعوا أن يسوع هو الطريق الوحيد الفريد إلى الله؟ لماذا يعتقد المسيحيون أن لهم حق تأكيد أنهم على حق، وكل إنسان آخر في العالم خاطئ؟»

بينما كانت لهجة زكريا وحُلة عمله المُحافَظة – قميص أبيض رسمي ورابطة عنق خافتة – قد أضفتا عليه جواً من الرسمية، كان منهمكاً، دافئاً، ومتحمساً بشكلٍ ثابت في إجاباته.

فقال وصوته مفعم بالحيوية، وعيناه صادقتان مهتمتان: «لي Lee، إنني أسمع هذا السؤال كثيراً جداً، ولا سيما في الشرق. والشيء الأول الذي أفعله هو محاولة التعامل مع المعلومات المُضللة التي يتضمنها.

«المعلومات المُضلِّلة؟ مثل ماذا؟»

«أولاً، من المهم أن نفهم أن المسيحية ليست هي الديانة الوحيدة التي تزعم بالمقصورية. فعلى سبيل المثال يزعم المسلمون تماماً بالمقصورية – ليس لاهوتياً فقط، بل لغوياً أيضاً. فالمسلمون يؤمنون أن معجزة الإسلام المطلقة الكافية الفريدة هي القرآن. ومع ذلك فهم يقولون إنه مميز فقط في العربية، وإن أية ترجمة أخرى تُقلل من قداسته. والمطلوب ليس مجرد فهمٍ أساسيٍ للعربية، بل معرفة سوفسطائية باللغة.

«وبالنسبة للبوذية، فقد وُلدتْ عندما رفض جاوتاما بوذا تأكيدين جوهريين للهندوسية – السلطان المطلق للفيدا التي تعتبر كتابهم الخاص، ونظام الطوائف الاجتماعية الوراثية. فالهندوسية نفسها عنيدة للغاية في موضوعين أو ثلاثة: قانون الكارما Karma، الذي هو قانون العَلة والنتيجة الأخلاقية، لدرجة أن كل ميلاد يعتبر ميلاداً جديداً يُعوِّض عن الحياة السابقة، وسلطان الفيدا، وتناسخ الأرواح.»

فقاطعته: «لكنني سمعتُ الهندوس يقولون بنبلٍ شديد إن الهندوسية إيمان متسامح جداً.» قلتُ ذلك وأنا أفكر في عبارات مثل تلك التي قالها سوامي فيفيكينادا في مستهل هذا الفصل.

فابتسم قائلاً: «حينما تسمع هذه العبارة، فلا تأخذها مأخذ الجدية. فمعناها الحقيقي هو أن الهندوسية تسمح لك بممارسة ديانتك طالما أنها تندرج تحت مفهومهم عن الحق الذي هو أمر توفيقي.» والتوفيقية هي محاولة لمزج المعتقدات المختلفة أو حتى المتعارضة معاً.

ثم واصل كلامه: «أما بالنسبة للسيخية، فقد جاءت كتحدٍ لكلٍ من الهندوسية والبوذية. وهناك الملحدون الذين يرفضون آراء من يؤمنون بالله. وحتى البهائية – التي تزعم أنها حضن كوني لكل الديانات – ينتهي بها الحال وهي تستبعد المُستبعدين! ومن هنا فإن عبارة أن المسيحيين متكبرون بادعاء المقصورية تتجاهل حقيقة أن كل ديانة رئيسية أخرى تفعل نفس الشئ. ولذلك حين يتحدث الناس عن الكبرياء، فلا يمكن أن يكون هذا هجوماً منطقياً.»

بدأتُ بالإستعداد لصياغة سؤالي التالي، لكن زكريا توَّقع إتجاه السؤال، فقفز لإكمال عبارتي:

بدأتُ: «أنت تؤمن أن الحق كله.......»

فقال: «مقصور بالتعريف. نعم، نعم، أؤمن. فلو كان الحق لا يُستثنى، فلا يمكن عمل أي تأكيدٍ لادعاء الإيمان، بل يكون مجرد رأي يُقرَّر. فكلما تقوم بعمل تأكيد إيمان، فأنت تقصد أن شيئاً مضاداً له هو خاطئ. الحق يُستثنى ضده.»

فأشرتُ قائلاً: «هناك من ينكرون هذا.»

«نعم، ولكن فكر في الأمر: أن تنكر طبيعة الحق المقصورة هو أن تقوم بعمل تأكيد حق، فهل لا يكون هذا الشخص متكبراً إذاً؟ هذا هو التأثير المرتد الذي لا يتأمل فيه الذين يدينون. إن تضمينات يسوع الواضحة التي تقول إنه هو الطريق والحق والحياة هي: أولاً، أن الحق مطلق. ثانياً، أن الحق يمكن معرفته.

فقوله بالمقصورية معناه تصنيفياً أن أي شيءٍ يعارض ما يقوله هو خاطئ بالتعريف.»[٢]

فقلتُ: «أن يؤمن المسيحيون بذلك شيء، وأن ينقلونه دون أن يبدو شيئاً أنيقاً أو سامياً شيء آخر. لكن المسيحيون عادةً ما يحيدون عن هذا الطريق.»

فتنهد زكريا، فقد كان هذا الاتهام يسمعه على الدوام، وقال: «نعم، لو لم يكن الحق محصناً بالحب، فهذا سيجعل مالك الحقّ كريهاً، والحق نفسه بغيضاً. بما أنني تربيتُ في الهند، ولديَّ أصدقاء هندوس، ومسلمين، وبوذيين، وسيخ، يمكنني أن أقدِّر بعض انتقاداتهم للمسيحيين. فتاريخ المسيحية لديه تفسير عن طريقة منهجه. العنف، والخصومة، والعدوانية تناقض حب المسيح. فالإنسان لا يمكنه توصيل حب المسيح بمصطلحات الكراهية.

ثم واصل كلامه: «لدينا في الهند مثلٌ يقول حالما تقطع أنف إنسان، فلا حاجة أن تهديه وردةً ليشمها.» فلو كانت كبرياء المسيحي تُبعد إنساناً، فلن يكون هذا الإنسان قابلاً للبشارة المسيحية. قال المهاتما غاندي: «إني أحب مسيحهم، ولا أحب مسيحيتهم.» وقال فريدريك نيتشه: «سوف أؤمن بالفادي حينما يبدو الإنسان المسيحي أكثر شعوراً بالفداء.» وملحوظاتهم هذه تستحق التأمل.

وأضاف قائلاً: «ومع ذلك، من الممكن أن تعلن الحق المقصور في محبة، كما يمكن لعالم أن يقول بكل أدب: «هذا هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية. فهلا يمكننا الآنَ التصويت للتعاون معه أم لا؟»

«لذلك فإن نقد المسيحيين غالباً ما يكون صالحاً؟»

«نعم، فأحياناً ما تجاوزنا الحساسيات الثقافية. ومع ذلك في نفس الوقت، فإن الديانات الشرقية فيها الكثير من فحص النفس بهذا الخصوص اليوم. فبوضع الصراعات السياسية والقبلية جانباً، لستُ أعرف أية دولة مسيحية تكون حياتك فيها مُعرَّضة

للخطر بسبب اختلاف إيمانك. لكن اليوم هناك الكثير من الدول في العالم مثل باكستان، والسعودية، وإيران، يكون فيها أن تكون تابعاً للمسيح هو أن تُعرِّض حياتك وحياة أسرتك للخطر.»

لقد قرأتُ تقارير صحفية كافية في السنوات الأخيرة لمعرفة دقة ذلك بما فيها موطن زكريا الأصلي، حيث قُتل مسيحيون كثيرون على يد الهندوس المسلحين مؤخراً. لكن أحياناً لا يكون الأسلوب الذى يحاول به المسيحيون نشر إيمانهم هو الأسلوب المهين. فأحياناً ما يكون رد فعل الناس ببساطة على قدر البشارة نفسها.

فقال زكريا: «حتى الإنسان الذي عاش بكل كمال انتهت حياته على صليب. فمقاومة الحق ممكن أن تكون قوية جداً لدرجة أنها يمكنها أن تُعرِّض الخطر والعنف والكراهية حتى حينما لا يكون المرء قد فعل شيئاً خاطئاً على الإطلاق.»

الأصل، والمعنى، والأخلاق، والمصير

أي إنسانٍ يمكنه أن يزعم أنه الطريق الوحيد لله. في الواقع هناك القليل جداً من المجانين زعموا بهذا على مر التاريخ. والموضوع الحقيقى هو لماذا يجب على أي إنسان أن يتأكد من أن يسوع كان يتكلم الحق حين نطق بذلك.

سألتُ زكريا: «على أى أساسٍ تؤمن أن تأكيد يسوع هذا حقيقى؟»

فأجابنى: «آه، نعم، هذا هو لُب السؤال. فمن ناحية يمكنك أن تقول إن قيامة يسوع قد جعلته ابن الله. ولو كان هذا صحيحاً، تكون كل أنظمة الإيمان الأخرى غير صحيحة، لأن كلاً منها تؤكد على شيء مضاد لألوهيته. وبالطبع فإن السجل التاريخى المتعلق بالقيامة قويٌ جداً.

«ومن الناحية الأخرى، يمكنك الاقتراب لهذا الموضوع بالنظر للأسئلة الأربعة الجوهرية التي تسعى كل ديانة لإجابتها: الأصل، والمعنى، والأخلاق، والمصير. أؤمن أن إجابات يسوع المسيح

وحدها هى التى تتعلق بالواقع. فهناك ترابط بين إجاباته على خلاف إجابات أيه ديانة أخرى.»

كانت هذه عبارة جريئة؛ فتساءلتُ: «هل يمكنك تأييد ذلك بأمثلة كيف أن الإيمانات الأخرى تفشل في هذه الاختبارات؟ فأجابني:» تأمل البوذية. فإجابة بوذا على سؤال الأخلاق لا تتوافق مع إجابته بخصوص الأصول. فبوذا ليس مُوَّحداً بالله؛ إن لم يكن ملحداً. ولكن إن لم يكن هناك الخالق؛ فمن إذاً سيصل الإنسان إلى قانون أخلاقي؟ أو فكر في الرؤية الهندوسية لتناسخ الأرواح. لو كان كل ميلاد هو ميلاد جديد؛ وكل حياة تُعوِّض عن الحياة السابقة؛ فما الذى كنت تُعوِّض عنه في ميلادك الأول؟ لاحظ أن عدم الترابط هو السائد.»

كان زكريا سريعاً لإضافة أنه لم يكن يحاول تشويه سُمعة تلك الديانات. فقال:« الدارسون الكبار سيقولون لك بعدم الترابط. فحتى غاندى قال إنه لو أتيحت له الفرصة، لحذفَ بعض الأسفار من الهندوسية لأنها متعارضه جداً مع بعضها البعض. وعلى النقيض يُقدِّم يسوع إجابات هذه الأسئلة الجوهرية الأربعة للحياة بطريقة تتناسب مع الواقعية والتناغم الداخلي؛ على عكس أى نظام إيماني آخر.»

أثارت هذه العبارة التحدي؛ فقلتُ له: «تعمَّق في كل واحد؛ وقُل لي كيف.»

فأجاب: «حسناً جداً، بخصوص الأصول يقول الكتاب المقدس إننا لسنا مماثلين لله على خلاف إدعاء الهندوسية - بل متميزين عنه. وبأسلوب آخر إننا لم نأتَ بأنفسنا إلى الوجود؛ بل نحن خليقة الله. وحيث خُلِقنا على صورته هذه، فهذا معناه أن البشر لديهم قوة أخلاقية للرجوع إليها. لا نظام يمكنه أن يشرح هذا إلا الأنظمة التوحيدية. فحتى الطبيعيين ليس لديهم تفسيرً لإطار الإنسانية الأخلاقي، ومع ذلك فإن الإطار الأخلاقي هذا يتجاوب مع واقعية الإختبار الإنساني.

«تقول المسيحية أيضا إننا رفضنا الإرادة الإلهية. فقد قال

المُجرّب في الجنة إن أكلت هذه الثمرة ستصير مثل الله عارفاً الخير والشر. والمعنى المُتضمن هنا هو أنك تصير مُحدِّد الخير والشر. لقد وُلدتْ الحركة الإنسانية Humanism ها هنا؛ فالإنسان أصبح مقياس كل الأشياء. وهذا التمرد العنيد ورفض الله يتناسب مع الواقع. وكما قال مالكوم ماجريدج؛ فإن الفساد الإنساني هو الحقيقة الأكثر تأكيداً تجريبياً، لكنها أيضا الأكثر مقاومة فلسفياً.

«وبعد ذلك موضوع المعنى. مرةً أخرى يقف الإيمان المسيحي منفرداً، فأسهل طريقة لوصفه هي أن الله لا يدعونا للمعنى بأن يطلب منا أن نكون أناساً أخيار. ولا يدعونا إلى المعنى بمجرد أن يقول لنا أن نحب الواحد الآخر. بل في خبرة العبادة فقط يظهر المعنى. شئٌ ما أعظم من السعادة يمكنه أن يمنح المعنى؛ وهذه هي فرادة الله الخالدة في العبادة. يخبرنا الكتاب المقدس أن نحب الرب إلهنا من كل قلبنا، ونفسنا، وعقلنا، وعندما نفعل ذلك نبدأ أن نحب جيراننا كأنفسنا. وهذا أيضاً يرتبط بالاختبار.

«وبعد ذلك تقول المسيحية إن الأخلاق ليست موضوعة ثقافياً؛ بل بالأحرى تنمو من شخصيه الله نفسها. وإلا لانتهى بك الأمر بعقدة فلسفة الماضى: هل القانون الأخلاقي متسلطاً عليك، أم أن قانوناً أخلاقياً خاضعا لك؟ الطريق الوحيد لتفسير ذلك هو أن تجدها في الله الغير محدود، كُلِّى القدرة، الأخلاقي، الأبدي، الذي لا ينفصل عن شخصيته. وهكذا فالمسيحية تفسر الأخلاق بأسلوب مترابط.

«وأخيراً، فالمصير مؤسس على قيامة يسوع المسيح؛ ذاك الحدث التاريخى الذى أثبت ألوهيته، وفتح الباب للسماء لكل من يتبعه. أين يمكنك أن تجد شيئاً يتقارب مع ذلك؟

«حكى بيللى جراهام ذات مرة عن مقابلته كونراد أدينيه عمدة كولونيا الذى سجنه هتلر لمعارضة الحكم النازي، ثم صار فيما بعد المستشار المعتبر لألمانيا الغربية منذ العام ١٩٤٩ إلى العام ١٩٦٣. نظر أدينيه إلى عينى جراهام وسأله: «هل تؤمن بقيامة يسوع المسيح من الأموات.» فأجابه جراهام: «بالطبع أؤمن.»

فرد عليه أدينيه: «مستر جراهام، بعيدًا عن قيامة يسوع، لا أعرفُ أي رجاءٍ آخر لهذا العالم.»

«لقد كان على حق. فلأن القيامة هى حدث تاريخي فعلي؛ يمكننا أن يُغفر لنا، وأن نتصالح مع الله، وأن نقضي معه الأبدية، ونثق بتعاليم يسوع على أنها من الله.

«كان أحد أصدقائى متحولاً عن الإسلام اُستشهد فيما بعد. أتذكر زيارته في المستشفي بعد بتر رجليه، فقال لي: «كلما أفهم ماذا قال الآخرون وماذا علموا، كلما يبدو يسوع المسيح أكثر جمالاً بالنسبة لي. لم أنس ذلك على الإطلاق، وأؤمن أنه حقيقى تماماً.»

«لم يتكلم إنسانٌ قط مثل يسوع. ولم يجب إنسانٌ قط على الأسئلة كما أجاب هو، لا افتراضياً فقط، بل شخصياً أيضاً. وجودياً، يمكننا التأكد من ذلك. وتجريبياً، يمكننا التأكد من ذلك. الكتاب المقدس ليس مجرد كتاب تصوف أو روحانية، لكنه كتاب يُقدِّم لك أيضاً الحقائق التاريخية - فلو كنتَ متشككاً أميناً، فهو لا يدعوك إلى مجرد إحساسٍ، بل يدعوك إلى أقنوم حقيقي، ولهذا قال الرسول بطرس: «لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ.» (١٤)

«إنه يقول: هذا حقيقي. هذا واقعي. هذا يمكن الوثوق به. نعم، هذا يمكنه أن يستثنى ما يناقضه.»

عن الأفيال والإيمان

حتى لو كان زكريا على حق بخصوص المسيحية، فهل معنى ذلك بالضرورة أن كل الديانات الأخرى خاطئة؟ ربما تُعلِّم نفس الحقائق الاساسية في جوهرها، مستخدمةً لغةً مختلفة، وصوراً متنوعة، وتقاليد متعددة لتوصيل المعتقدات المتطابقة أساساً.

قلتُ: «يقول البعض إنه عندما تُجرِّد كل شئ؛ فكل ديانات العالم تُعلِّم أساساً الأبوة الكونية لله والإخوة الكونية للجنس البشرى.

وسوف يكون معنى هذا أن كل أنظمة الإيمان في العالم صالحة بشكلٍ متساوٍ.

فهز زكريا رأسه، وكان وجهه ينم عن الفزع، وقال: «الإنسان الذي لا يفهم ديانات العالم هو الوحيد الذى سيزعم أنها أساساً نفس الشئ.»

ماذا يقصدون بالأبوة الكونية لله بينما البوذية لا تزعم حتى بوجود الله؟ ماذا نقصد بأبوة الله بينما شانكارا – أحد أكثر الفلاسفة الهندوس احتراماً – قال إن التوحيد هو مجرد أسلوب طفلٍ للصعود أخيراً إلى القمة، وهناك ستكتشف أن الله ليس مختلفاً عنك؟ ما معنى أبوة الله إذاً؟ إنها وهم. إن أبوة الله هذه ليست تعليماً متشاركاً بين الديانات.

ثانياً، إخوة البشرية – نعم، نحن إخوة وأخواتٍ كبشر، ولكن السبب الوحيد في ذلك هو أن الله قد صممنا جميعاً. فحالما تضع هذا الأساس جانباً – قالها ضاحكاً - فسوف تنتهى بك الإخوَّة بأغطية أكثر من إخوة، ففي الغالب، الإسلام، والبوذية والهندوسية، والمسيحية لا تقول نفس الشئ. فهى تعاليم دينية متمايزة ومقصورة تبادلياً. ولا يمكن أن تكون كلها على حق في نفس الوقت.

حتى هذة اللحظة لم أحاول التوفيق بينها. فاقترحتُ قائلاً: «ربما تحتوى كل ديانة على جزء من الحق. فقد قال اللاهوتي جون هيك إن ديانات العالم هى استجابات مختلفة متلائمة ثقافياً لـ «الحقيقة»، أو الله. أليس هذا مثل القصة القديمة عن الرجال العميان الثلاثة الذين يشعرون بوجود الفيل - فكل ديانة هي محاولة صادقة لكنها غير كافية لتفسير سر الله، وهكذا تكون كل ديانة صالحة بأسلوبها الخاص؟»

فبدأ زكريا بقليلٍ من الجودو الفلسفي قائلاً: «إما أن يكون هيك نتاج ثقافتة الخاصة، أو إنه قد سما بثقافته لصياغة هذه العبارة. فلو كان قد كان سما بثقافته، فلماذا لم يسمو إنسانٌ آخر بالثقافة؟ هذا يبدو سوفسطائياً جداً من الناحية الأكاديمية، لكنها تحتوي على مشكلاتٍ كثيرة جداً في جوهرها»

فسألته: مثل ماذا؟»

«مثلاً، هل الملحد لديه جزء من الحق، أم أن الملحد مُهمشاً هنا؟ لو كان الملحد لديه جزء من الحق، فأي جزء يكون، حيث أن عقيدة الإلحاد الرئيسية هي إنكار حتى وجود الله؟»

توقف حتى يسمح للسؤال أن يحل نفسه، ثم أضاف: «سأقولُ هذا: هناك ملامح للحق في كل الديانات الرئيسية فعلياً. وهى تحتوى على بعض الأفكار والتأملات العظيمة. فقراءة فلاسفة الشرقِ المشهورين مُحفزة جداً جداً. لكن الأمر ليس كما لو أننا عمياناً نستكشف الفيل، أحدنا يشعر بوجود القدمِ ويعتبره شجرة، والآخر يشعر بوجود الخرطوم ويعتبره حبلاً، والثالث يشعر بوجود الأذن ويعتبرها مروحة.

قال وصوته يتصاعد للتأكيد: «إن فكرتي هى أن المَثل قد كشف بالفعل حقيقة أن هذا هو بالحقيقة فيلاً! فالأعمى يمكنه أن يقول لك إنه شجرة، لكنه على خطأ. إنه ليس شجرة أو حبلاً أو مروحة. لكن المُبصر يعرف أن هذا فيلاً. إنه يعرف الحق، فبصره قد كُشف له هذا. ويسوع المسيح أوضح الأمر أن الحقائق الأبدية عن الله يمكن أن تُعرف. يسوع هو مركز الإنجيل - ففيه جاء كل الحق معاً. ولذلك فبينما يمكن أن تكون هناك لمحات من الحق في مكانٍ آخر، فإن مجموع الحق الكُلي يوجد في المسيح.

«إن هكذا تفسير يتجاهل إمكانية أن الله يكشف عن نفسه، ومن ثم يمكننا أن ننال المعرفة عن من هو. لكن بدلاً من ذلك، جعل هذا الثقافة والحدس ساميان. لكن الكتاب المقدس يقول إن الله كشف عن نفسه: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله. ... وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقًّا.» (١٦)

الفداء والبر والعبادة

قال الكوميديان كوينتن كريسب ذات مرة: عندما أخبرتُ شعب ايرلندا الشمالية أنني كنتُ ملحداً، وقفتْ امرأة من الجمهور

وقالتْ: حسناً، ولكن أي إلهٍ لم تؤمن به - إله الكاثوليك أم إله البروتستانت؟»

لقد كانت دعابته بالفعل تعليقاً حزيناً على عمق الصراع الطائفي في تلك الأرض. فعبر القرن شهد العالم الكثير من القسوة والعنف وفقاً لاختلاف رؤية الناس لله. وفيما سأم البعض التشاحن الديني، أعلنوا أن العلم سيكون مكاناً أفضل لو توَّقف الناس ببساطة عن الدخول في المجادلات التعليمية والتركيز بدلاً من ذلك على الحياة في سلام مع الآخر.

أشرتُ إلى زكريا قائلاً: «هناك مسلمون ويهود ومسيحيون ومورمون وهندوس يعيشون بصورة أخلاقية. أليس أسلوب حياة الإنسان وعلاقتة مع جاره أهم مما يؤمن به لاهوتياً؟

فأجابني: «طريقة حياة الإنسان وطريقة معاملته لجاره مهمة جداً، ولكن ليست أهم مما يؤمن به، لأن ما يؤمن به ينعكس على الطريقة التى يحيا بها. وبغض النظر عن ما إذا كان قد قرر عبارة تعليمية، فما يؤمن به حقاً هو ما سيحياه أخيراً. لكن هذا السؤال يقدم افتراض أن الأخلاق هى الحياة كلها.»

فقلتُ: «إن لم تكن الحياة هي أن تكون أخلاقياً، فماذا إذاً؟»

فقال: «يسوع المسيح لم يأتِ هذا العالم ليجعل الأشرار أخياراً، بل جاء ليجعل الموتى أحياءً. جاء حتى أن الموتى عن الله يقومون لله. لو كانت هذه الحياة كانت عن الأخلاق فقط، فسوف يكون الشيء الأهم هو كيف تعيش، رغم أنه سيبقى متصلاً بما تؤمن به. لكن هذا يُسيء فهم المفهوم المسيحي الذي يقول مهما عشنا جيداً، لا يمكننا أن نبلغ مستوى وشخصية الله.

«إن كلمة «خطية» معناها فقد الهدف. ولو كان هذا تعريفٌ صحيحٌ، تصبح نعمة الله الحق الأكثر أهمية. فبعيداً عن الله، لا يمكننا حتى أن نؤمن بما هو صحيح، بغض النظر عن الحياة بالأسلوب الصحيح.

«نعم، الحياة بعطف وبأخلاق أمر مهم إن كان نابعاً من أجل

البقاء. لكن الفلاسفة من سقراط، أفلاطون، وأرسطو، حتى مفكري التنوير أمثال ايمانويل كانت كانوا غير قادرين حتى على تعريف معنى الأخلاق. وأخيراً استطاعوا فقط أن يُهدونا ما قدمته الأخلاق للمجتمع.

«عندما درستُ الاختيارات التى يمكن للناس من خلالها أن يحيوا حياةً صالحةً، وصلتُ إلى ستة أو سبعة منها، مثل موقف أخلاقيات جوزيف فليتشر؛ إنسانية آين راند الفردية؛ فكرة كانت عن الواجب، وهكذا. لكنها كانت تتناقض معاً بشدة، وسبب ذلك هو أنه لم يكن هناك منطقٌ أخلاقي مؤثرٌ ساميٌ. لقد انخفضوا جميعاً لمجرد البقاء. وهكذا آمنتُ أن الخير أو الشر هو نقطة البداية الخاطئة، وأن الحياة والموت – روحياً – هو حيثما تبدأ.

فقلتُ: «ولكن كما افترضتَ، من المهم كيف يعيش الناس. فغاندى مثلاً عاش حياة أكثر فضيلة من معظم المسيحين. فلماذا يجب أن يُطرح في الجحيم فقط لأنه لم يكن تابعاً ليسوع؟»

فقال مبتسماً: «هذا موضوعٌ شائك. فعندما أُسئل هذا السؤال أمام حشدٍ كبير، أريدُ حينها أن آخذ استراحة قصيرة! لكن الكتاب المقدس يُقدّم لنا إرشاداً لحل هذا.

«أولاً من المهم أن نعرف أنه لا إنسان يُودع إنساناً آخر إلى السماء أو الجحيم. ففي الواقع الله نفسه لا يرسل أى إنسان إلى السماء أو إلى الجحيم، بل أن الشخص بنفسه يختار إما الاستجابة لنعمة الله أو رفض نعمة الله، رغم أن حتى هذا القرار قد تمكن بنعمته.

«ثانياً، سأل إبراهيم الله في قضية سدوم وعمورة ما إذا كان سيدع الأبرار يموتون مع الأشرار، وكان من الرائع كيف أن إبراهيم قد أجاب على سؤاله الخاص. فقد قال: «أديَّانُ كل الارْضِ لا يَصْنَعُ عَدْلا؟» [١٧] وهذا معناه أنه يمكننا أن نكون واثقين تماماً أنه مهما يفعل الله لتحديد مصير غاندى أو أي إنسانٍ آخر، فسوف يفعل ما هو حق.

«والآن فكر في هذا: يقول الكتاب المقدس إن كل إنسان يقضي

الأبدية مع الله في السماء هو هناك بفضل نعمة وتدبير يسوع المسيح الذى آمن به الإنسان وقبله. ولكن لو رفض الإنسان تلك النعمة، فهل كان صالحاً أو شريراً؟ هذا سؤال مثير لأن الكتاب المقدس يقول لنا لا أحد صالح حقاً حتى يُفدى.»

فقلتُ: «اشرح ذلك.»

«إن نموذج الخروج نموذجٌ ثلاثيّ. فالله أخرج الشعب من مصر، وأعطاهم الناموس الأخلاقى، ثم أعطاهم خيمة الاجتماع. بتعبير آخر: الفداء، والبر، والعبادة. لا يمكنك أبداً أن تنتهك هذا التسلسل. فإن لم تُفدى، لا يمكنك أن تكون باراً. وإن لم تُفدى وتُبرَّر، لا يمكنك أن تعبد لأن الكتاب المقدس يقول: «مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ؟ اَلطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ.» (١٨)

«وهكذا فإن الفداء هو أهم خطوة نحو البر. لو حاولتُ أن أجاهد بنفسى نحو الخير، فأنا أقول أساساً إننى لستُ بحاجةٍ لفداء الله. فأنا فادي نفسى. أي إنسان ــ صالحاً أو شريراً في أعيننا ــ يقول هذا ينتهك بذلك مبدأ أساسياً لوحي الله، وهو أن الفداء هو الخطوة الأولى.»

وماذا عن غاندي إذاً؟

كان عقلي لا يزال مُركِّزا على غاندي، فقلتُ: «غاندى لم يتبع يسوع، لذلك أعتقد أنك ستقول إنه لم يُفدى.»

فأجابنى زكريا: «هذا شيءٌ سيحدده الله. ومع ذلك، فما الذى آمن به غاندي؟ لقد لخصه في عبارةٍ واحدة: «الله هو الحق، والحق هو الله». وسؤالي له سيكون: «ما معنى هذا؟» نحن نجلس في غرفة، وهذه عبارة صحيحة. فما علاقة ذلك بكون هذه الغرفة إلهاً أم لا؟ لا علاقة. فهي تُطابق عبارة قلتُها تواً. الله موجود ــ هل هذه عبارة صحيحة؟ لو كانت هذه عبارة صحيحة، فمن هو هذا الله؟»

فقاطعته قائلاً: «ولكننا هنا نتكلم عن إنسانٍ مثل غاندى الذى

عاش حياةً صالحة في نظر معظم الناس، بينما قاتل محترف مثل ديفيد بيركوفيتز ابن سام، قتل الكثير من الأبرياء، وهو الآن يقول إنه صلى صلاةً ليصير مسيحياً. وسوف يقول المسيحيون إن بيركوفيتز سيذهب إلى السماء بينما غاندى لا. أين العدل ههنا؟

«نحن نريدُ أن نرى العدل لأننا مخلوقات بشرية أخلاقية. ولكن حين نُقلل العدل إلى موضوعات من قبيل مَنْ تصرَّفَ بأي أسلوب خلال فترة ممنوحة من الوقت، فسوف نفقد المفهوم الأشمل للعدلِ. نحن نحكم على ذلك من وجهة نظر نظامنا. فلو كان على الله أن يمنح حقاً ما يستحقه كل منا، لما وصل أيٌّ منا إلى السماء.

«هناك نكتة حول أخين عاشا حياةً خليعة، وعندما مات أحدهما فجأة، ذهب الأخ الآخر إلى خادم وطلب منه ما إذا كان يمكنه أن يعظ في جنازة أخيه قائلاً له: «لديّ طلبٌ واحد فقط: أن تشير إلى أخي باعتباره قديساً. فقال له الكاهن¨ إنه سيبذل قصارى جهده لذلك.

«جاءت الجنازة، وكان الخادم يؤبن المرحوم قائلاً: «أريدُ أن تعرفوا أن هذا الرجل كان خادعاً، كاذباً، غشاشاً، ولصاً، ولكن مقارنةً بأخيه كان قديساً!»

«هناك شفرة حادة لهذه العقدة. فنحن نحاول يائسين أن ندَّعي الصلاح بمقارنة أنفسنا بالآخرين. ديفيد بيركوفيتز يمكنه أن يقول: «مهلاً، أنا لستُ هتلر! لم أقتل الملايين، بل قتلتُ مجرد القليلين. أو يقول: «لم أكن جيفرى دامر، فلم آكل ضحاياي.»

نحن نميلُ لاستخدام هذا النوع من المقارنات التى نظهر بها دائماً أفضل من أي إنسان آخر، ونعتقد أننا صالحين. ولكن حسب مقياس الله الأخلاقى الكامل، نفشل جميعاً. كلنا نحتاج غفران الله ونعمته.

«بصراحة ما فعله ديفيد بيركوفيتز كان عنيفاً وشريراً ولا جدال حول ذلك. ومع ذلك، علينا أن ننظر إلى ذلك في ضوء خطة الله الكلية. فأنت تعرف أن هناك أموراً أسوأ من الموت أو القتل.»

فتساءلتُ: «مثل ماذا؟»

فقال: «رغم صعوبة فهم ذلك، إلا أن أسوأ شيء هو أن تقول لله إنك لا تحتاجه. لماذا؟ لأن الميت يمكنه أن يعود إلى الحياة من قبل الله، والمحروم يمكنه أن يجد السلام من قبل الله، والمجروح يمكنه أن يجد عون الله وقوته، ويري حتى الله يحارب في الظلام لغز الشر. بأسلوب آخر هناك ملاذ أثناء هذه الأهوال. ولكن بالنسبة لمن لا يحتاج الله، فما هو الملاذ؟ لا يوجد.

«لذلك السؤال ليس هو ما اذا كنتُ ديفيد بيركوفيتز، أو مهاتما غاندى، أو أدولف هتلر، أو الأم تريزا. السؤال هو: «هل بلغتُ لإدراك أننى قد خبتُ عن مقياس الله الكامل، ومن ثم من نعمة الله، وليست لديَّ إمكانية لأكون معه في السماء؟»

«بصراحة لو عشتُ حياة أعتقد أنها جيدة جداً لدرجة أنني لا أحتاج الله، فمن السخرية أن بيركوفيتز سيكون قد وجد الحق المطلق الذي أعمتنى كبريائي وذاتي عن رؤيته. فما الجحيم إلا غياب الله؟ بالنسبة لي أن أحيا حياتي مع غياب الله هو أن أكون حقاً على الطريق إلى الجحيم.»

فعارضته قائلاً: «لكن هل من العدل أن يفلت بيركوفيتز دون عقاب؟»

فقال زكريا: «لستُ متأكداً أنه أفلت. نعم الله غفر له لو كان قد اعترف وتاب وطلب رحمة الله. لكن كلما انسجم مع من هو المسيح، كلما تعمق ألمه لما فعله.

«دعني أُقدّم لك مثالاً. افترض أنك تقود سيارتك وشرد ذهنك للحظاتٍ. وفجأة هناك طفل يركض أمامك فصدمته. كلما كنتَ على علاقةٍ أقرب بالمأساة، كلما تعاظم ثقلك لبقية حياتك. لن تكون قادراً أبداً أن تنظر وجه طفلٍ آخر دون أن تفكر: «ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟»

«ربما نعتقد أن بيركوفتيز قد أفلتَ بمعنى أنه لم يذهب إلى المشنقة، لكن هناك شئ مثيل وهو مشنقة القلب. فقلبك يمكن

أن يكون متناغماً جداً للجحيم الذي أطلقتَ سراحه. لا أؤمن أن الإنسان المهتدي حقاً يمكن أن يجلس في زنزانته ويقول: «حسناً، لقد عرفتُ المسيح، ولذلك لن أموت بسبب ذلك، لا، فأحياناً ما يكون جحيم القلب الدخلي عميقٌ ومؤلمٌ جداً.

«أعتقد أن هناك جحيماً لخلاص متأخر لأن الدموع المسكوبة هي دموع ما فُقِدَ قبل أن تصل لمعرفة الله. فهل يغير ماضيك؟ نعم، ولكن أحياناً لا يمكنك أن تنساه.»

يقول هذا، توقف زكريا ورجع للخلف في كرسيه. وعندما واصل الكلام قائلاً: «كلما يُساء فهم النعمة، سيؤدى الأمر دوماً إلى المقارنة والغيرة أو السخط وتهمة الظلم. ومن المثير بشكلٍ كافٍ أن يسوع يناقش هذا الموضوع نفسه.

«في أحد أمثاله، سخط الفعلة الذين عملوا اليوم كله أن الذين جاءوا في الساعة الأخيرة قد نالوا أيضاً نعمة المالك.[١٩] إن أحد أكثر الحقائق المذهلة للكتاب المقدس هي فهم أننا لا نربح طريقنا إلى السماء. فنحن نقرأ أيضاً في الكتاب المقدس قصة المرأة الخاطئة التي قبلها يسوع. فاستنكر الفريسي رحمة الله.[٢٠] الأعمال لها مكان – ولكن كإعلان نوال غفران الله، وليس كإشهار الحصول عليه.»

وماذا عن الذين لم يسمعوا؟

كان القاتل المحترف ديفد بيركوفيتز محظوظاً. فهو يعيش في دولة يتحدث فيها الناس بحرية عن المسيحية. إنسان ما كلمه عن عرض المسيح بالغفران، وهو يقول إنه اعترف بخطاياه وآمن بيسوع. ولكن ماذا عن الناس الذين يعيشون في أماكن لا يُناقش فيه الإنجيل بصورة عادية أو حيث يحظر القانون نشره أصلاً؟

تساءلتُ:» أليس من الظلم إدانتهم بينما لم يسمعوا عن يسوع بل تبعوا فحسب تقاليد آبائهم الدينية؟»

مدَّ زكريا يده للكتاب المقدس. وفيما فتحه وقلَّب صفحاته حتى

سفر الأعمال، لمحتُ الكثير من الصفحات أوضح فيها الآيات الذهبية باللون الأصفر.

«يقول الكتاب المقدس أول كل شئ إنه لا إنسان سيكون في محضر الله بعيداً عن حقيقة أن شخص وعمل المسيح جعلا ذلك بالإمكان. فهذا هو الثمن المُستلزم: موت المسيح على الصليب بديلاً عنا، دافعاً العقوبة التى كُنا مستحقين أن ندفعها. والآن يُولد البعض في ثقافة أو أخرى، لكن الرسول بولس قال شيئاً مثيراً جداً عن ذلك عندما كان يتكلم إلى الأثينيين.

رفع زكريا نظارته الخاصة بالقراءة من جيبه وضبطها حول وجهه بانتظام. وبعدها قرأ جزءاً من فقرة كان بولس يحاجج فيها بعض الفلاسفة اليونانيين:

«وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ وَحَتَمَ بِالأَوْقَاتِ الْمُعَيَّنَةِ وَبِحُدُودِ مَسْكَنِهِمْ لِكَيْ يَطْلُبُوا اللهَ لَعَلَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَهُ فَيَجِدُوهُ مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا لَيْسَ بَعِيداً.»

خلع زكريا نظارته وتطلَّع إليَّ قائلاً: «هذا أمرٌ مهم لأنه يشير إلى أن هناك خطة خلاصية في الخلق، حيث أن كل إنسان مخصص له محل ميلاد. فالله يعرف أين سنولد وأين سنُربى، وهو يصنعنا في موضع يمكننا فيه أن نطلبه. نحن نعرفُ بوضوح أنه حيثما عشنا - فيٍ أية ثقافة، وفي أية أمة - يكون الله في متناوَل كل منا. وهناك دائماً إمكانية إنسان يصرخ على ركبته قائلاً: «ساعدنى يا الله»، ولو حدث ذلك فهناك طرق يمكن لله فيها أن يرعاه تتخطى إدراك عقولنا.

«مثلاً؟»

«مثلاً، يمكنه أن يُرسل له إنساناً يتشارك معه الإنجيل. أو دعنى أقول لك ما حدث في حالة امرأة مسلمة عملتْ في معهد مشهور جداً في دولتها. قالتْ لي كيف كانت تُغادر مكتبها في نهاية يوم عملها وهي غير سعيدة أبداً في قلبها. وبينما كانت سائرة، تمتمتْ قائلة: لستُ أدرى لماذا أنا فارغة جداً، وبعد ذلك قالتْ فجأة:

يسوع، هل يمكنك أن تساعدني؟ توقفتْ على الرصيف وقالتْ لنفسها: «لماذا دعوته؟ حسناً، لقد صارت هذه المرأة مسيحية.

بالنسبة لها، أعتقد أن الله قد رأى قلباً جائعاً له، لكنه لم يعرف كيف يصل إليه في عزلة وجودها. أعتقد أن الله كان يجتاز حدود بيئتها لأنها كانت بالفعل تخترق حدود حياتها الداخلية، وتسعى نحوه. وبهذا، يمكن لله أن يصل إلى أي وضع ثقافي استجابةً لأي إنسانٍ يريد أن يعرفه.

«طريقة أخرى للنظر إلى هذا الموضوع تأتينا من الرومان، حيث يقول بولس: «لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ.» [٢٢] ثم يقول بولس: «لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ فَهَؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوباً فِي قُلُوبِهِمْ شَاهِداً أَيْضاً ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً» [٢٣] ويتكلم عن كلمة المسيح الضرورية للإنسان الذي يريد معرفته: «فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ؟ وَكَيْفَ يَكْرِزُونَ إِنْ لَمْ يُرْسَلُوا؟ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مَا أَجْمَلَ أَقْدَامَ الْمُبَشِّرِينَ بِالسَّلاَمِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَيْرَاتِ». [٢٤] أعتقدُ أكثر فأكثر أن كلمة المسيح هذه تأتي داخل إطار الثقافات المختلفة.

«ماذا أقصد بذلك؟»

«لقد تكلمتُ في بلدانٍ إسلامية كثيرة، حيث يكون الأمر عسيراً أن تتحدث عن يسوع. ففي الواقع أن كل مسلم تحول لتبعية المسيح قد فعل ذلك. أولاً بسبب محبة المسيح المُعبّر عنها من خلال إنسان مسيحي، أو ثانياً بسبب رؤية أو حلم أو أي تدخل آخر فائق للطبيعة. والآن لا توجد ديانة بها تعاليم معقدة حول الملائكة والرؤى أكثر من الإسلام. وأعتقد أنه من الاستثنائي أن يستخدم الله هذه الحساسية للعالم الفائق للطبيعة الذي يتحدث فيه بالرؤى والأحلام ويُعلن نفسه.

«واحد من أعظم المتحولين في الهند كان من السيخ، ويدعى سوندار سنغ، عرف المسيح من خلال ظهور المسيح له في غرفته في حلم ذات ليلة. كان هذا له تأثيرٌ هائل على حياته فصار مسيحياً. لذلك هناك طرق يمكن أن يكشف بها الله عن نفسه تتخطى عقولنا البشرية.

«والآن، إن كان الله قادراً أن يقدم كلمة المسيح بأوضاع عديدة، وبطرقٍ لا يمكننا حتى أن نفهمها - وإن لم يكن بعيداً عنا أينما كنا، وإن كان يمكنه أن يتحدث من خلال الإعلان العام للخليقة، ومن خلال الضمير - فعلينا إذاً أن نقبل حقيقة أننا بلا عذر. فكل إنسان سيعرف الحق بطريقةٍ كافية حتى لو استجاب لذلك الحق المعروف، فسوف يكشف له الله المزيد. هل هذا معناه أنه عليهم أن يكون لديهم مقدار من الحق كمن هو في وضعٍ أخر؟ لا أعتقدُ ذلك.»

حاولتُ تلخيص فكرته، فقلت: «هل تقصد أنه بغض النظر عن أين يعيش إنسان في العالم، وبغض النظر عن الثقافة التى يِعيش فيها، عندما يستجيب لفهم أنه يطلب الله بطريقةٍ ما، فسوف تتاح له فرصة أن يستجيب الله له؟»

فيما تكلمتُ كان زكريا يزن كلماتى بحرص فأجابني: «أعتقد ذلك. علينا أن نكون حريصين جداً ههنا، ولكنيَ أؤمن أنه لو طلب إنسان الله بعمقٍ وبإخلاص، فسوف تكون هناك طريقة يُتيحها الله لذلك الإنسان أن يسمع عنه. ولو لم يستجب ذلك الإنسان لله تحت أية ظروف، فربما لن يسمع عنه. لكن كل البشر يعرفون ما يكفي لدينونتهم، فهم ليسوا بحاجة لسماع يوحنا ٣: ١٦ حتى يضلوا. فهم ضالون لأنهم رفضوا حقاً ما قاله الله لهم من خلال الخليقة، وضميرهم، وبطرقٍ أخرى. وبسبب ذلك، سوف نقف جميعاً نُقدِّم حسابنا أمامه.»

«الإخلاص مهم إذاً؟»

«الإخـلاص ليس هو الخلاص. لكني أعتقد أن الإخلاص يجلب إمكانية أن يعلن الله عن نفسه لك. يمكن أن يبدو البعض

مخلصين، وعندما يُقدَّم المسيح لهم يرفضونه. إنهم يفشلون في اختبار الحق.»

فقلتُ: «أنت تؤمن إذاً أن كمّ المعلومات التى يحتاجها الإنسان بخصوص المسيح يمكنها أن تتفاوت إلى حدٍ كبير؟

«نعم، أؤمن بذلك. فخطر المنظور الغربى هو الاعتقاد بأنه إن لم يُغلَّف شئٌ ما بترتيب، فهو غير جيد.» ولسوء الحظ، فإن بعض المسيحيين الغرب يعتقدون أنه إن لم يقل المرء قانون الإيمان كما يقولونه هم، فهو لا يعرف الله.

«ومع ذلك، ماذا يعرف الطفل عن أمه؟ إنه يعرف أنها تُربيه، وتُغير ملابسه، وتحتضنه، وتُقبله - فلا بدَّ أن يكون صديقة. هذا الطفل لا يعرف أمه كما سيعرفها عندما يكون في الثامنة عشر. لكنه يعرفها بدرجة كافية لدرجة أنه يحبها. أؤمن أنه بينما يُعلن الله عن نفسه، فهناك مستويات من الفهم خاضعة للتنوع.»

لماذا ليس يسوع؟

لو كان يسوع هو الحق، فلماذا يرفضه الكثيرون جداً؟ وإن كانت المسيحية حقيقية، ألا يجب أن تنتصر أخيراً؟ هذا ما لا تُوضحه الإحصاءات. فالمسيحية تُحرز تقدماً ضئيلاً نسبياً في ربح مهتدين من ديانات العالم الرئيسية الأخرى. وأساساً يميل الناس في أرجاء العالم لتبنى ديانة آبائهم.

سألتُ زكريا عن ذلك، وقال إن هذه الأمور تُحيرّه كمدافعٍ عن المسيحية، لكن هناك بعض التفسيرات.

«لرؤية هذا النموذج من منظورٍ مختلف، لماذا البوذية شائعة جداً في أمريكا اليوم؟ إجابتي بسيطة: لأنه يمكنك أن تصير صالحا بدون الله. فلو أمكنك أن تكون لديك جرعة مناسبة من الروحانية من الثالثة حتى الخامسة مساء، ثم تُقسّم حياتك من جديدٍ وتحياها كما تشاء، فحسناً، لم لا؟ ديانة كهذه سيكون لها الكثير من الجاذبية.

«لماذا الإسلام جذاب للبعض؟ بسبب الاعتبارات السياسية الجغرافية. لماذا الإيمان الهندوسي جذاب؟ لأنه ثري في الفلسفة، وعقيدته لمعاملة الأرض بتوقير تنال بعض الإعجاب اليوم.»

فتساءلتُ: «لماذا ليس المسيح؟»

فأجابني: «لأنه يدعوكَ أن تموت عن ذاتك. فكلما يتضمن الحق تكريس كامل تُخضع فيه نفسك للإتضاع الكامل، واستسلام الإرادة، كلما تواجه المقاومة على الدوام. إن المسيح يخترق قوتنا واستقلاليتنا. إنه يتحدانا في مجالات الطهارة. يوحنا المعمدان جاء معطياً الناموس. ولم يحب الناس هذا. يسوع جاء معطياً رسالة النعمة، فقالوا: «لماذا لا تعطينا برهان الناموس؟ كل ما يُقدّمه يسوع للثقافة، تريد الثقافة أن تغيره. ففي عمق الرفض هناك مقاومة تأكيد من هو.

«البوذية والأنظمة الدينية الأخرى تقول للناس أساساً كيف يُحسّنوا أنفسهم عن طريق أنفسهم. لم تكن لديَّ مشكلة أبداً لمعرفة ما هو صحيح وما هو خطأ في معظم المواقف، لكن ما كنتُ أريده هو إرادة فعل الصحيح. وهنا يأتى دور المسيح. فهو يقول إن قدمت له نفسك بأكملها، فلن يمنحك الحياه الأبدية فحسب، بل سيغير أيضاً ما تريد أن تفعله في هذه الحياة.»

بما أننى أعرفُ مستوى التكريس الذى تتطلّبه المسيحية، كنتُ فضولياً لمعرفة ما الذى دفع زكريا للاستجابة الإيجابية لرسالة يسوع. فقلتُ له: أخبرني القليل عن قصتك.»

فنظر للأسفل للحظات، ثم مدَّ يده لكوب الشاى وشرب قبل الإجابة.

بدأ قائلاً: «في الهند تعيش الحياة التى وُلدتَ فيها. فأبي وأمي كانا مسيحيان بالاسم. وفي الحقيقة كان السبب أنهما مسيحيان هو ببساطة أنهما لم يكونا بوذيان أو مسلمان أو هندوسيان. لا يمكنني أن أذكر أبداً سماع كرازة الإنجيل في كنيستي التي كانت متحرّرة الفكر.

«قبل مجيئي إلى المسيح بقليل، كانت أخواتي قد اكتشفن الإنجيل وقمن بتكريسهن الشخصي. آمنتُ بيسوع في مرحلتين. الأولى كانت عندما سمعتُ الإنجيل مُعلناً بشكلٍ عام في قائمة استماع عندما كنتُ في السابعة عشرة. قلتُ لنفسي: «هناك شئٌ حقيقي بخصوصٍ هذا وأنا أريده.» تقدمتُ وحصلتُ على النُصح، لكنني لم أفهم حقاً. لقد كان التعليم كثيراً جداً.

«في ذلك الوقت كنتُ واقعاً تحت الكثير من الضغوط في ثقافةٍ كان الأداء الأكاديمي فيها يتمتع بأهميةٍ قصوى. فإن لم تكن في قمة الطبقة، فلن تنجح. لم أستطع التكيف مع ذلك. وأيضاً كان لي أب صارم جداً، وقد تصارعتُ مع ذلك، فقد تلقيتُ الكثير من العقاب الجسدى.

«بعد شهورٍ قليلة قرّرت إنهاء حياتي. لم أكن مكتئباً، فلقد صُدمَ أصدقائي عندما سمعوا أنني أفكر في الانتحار. ولكن بالنسبة لي، كانت الحياة بلا معنى أو هدف. ذهبتُ للمدرسة يوماً ما واستخدمتُ مفاتيح معمل العلوم لفحص بعض السموم. وضعتها في كوبٍ من الماء، وتجرعتها، منهاراً على ركبتي.»

حملقتُ وأنا لا أصدق. فمع إنسان محنك، رفيع الثقافة، واسع المعرفة، واضح، ومؤثر اليوم مثل زكريا، كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتخيله مراهقاً مرتبكاً مقطوع الرجاء منهاراً على ركبتيه لاهث النفس لأن السموم قد تغلغلتْ في أوردته.

واصل قائلاً: «أسرعَ بي خادمي في البيت إلى المستشفى. ولو لم يكن هناك حينها، كنتُ قد مُتُ. أفرغوا كل السموم من داخلي. وبينما كنتُ مُستلقياً على الفراش، دخل صديقٌ بعهدٍ جديد وأظهر لي يوحنا ١٤. لم أستطع أن أمسك الكتاب، فقد كان جسدي خالياً جداً من الماء. كان على أمي أن تقرأه لي.

«كانت تقرأ حيث كان يسوع يتكلم إلى توما قائلاً: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.» ثم جاءت إلى آية ١٨ حيث يقول يسوع لتلاميذه: «إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ.»

لقد لمستْ هذه الآية نفسي. فقلتُ في صلاة: «يسوع، لا أعرفُ عنك الكثير، لكنكَ تقول لي إنك رئيس الحياة الحقيقية.» لم أفهم مفهوم الخطية. ففي تلك الثقافة لم أستطع ذلك. لكن ما فهمته كان أنه يُقدّم لي ذاته كي يمنحني الحياة.»

«لذلك قلتُ: «لو أخرجتني من غرفة المستشفى هذه، لسعيتُ جاهداً في بحثي عن الحق.» وقد خرجتُ من تلك الغرفة بعد خمسة أيام إنساناً جديداً تماماً. بدأتُ في دراسة الكتاب المقدس، وقد غيَّر حياتي بصورةٍ درامية. ثم أتى إخوتي لاتباع يسوع، ووالديَّ أيضاً قبل موتهما.

«لكن في غرفة المستشفى تلك قال لي المسيح إنه يمكنه أن يهبني معنى الحياة حقاً دون أن يشرح إنسان لي هذا. لم أنظر أبداً إلى الوراء. فسنوات الدراسة أكدَّت قراري لاتباعي. درستُ بعض محاضرات الفلسفة في كامبردج تحت إشراف ملحد مشهور، وأتذكر التفكير في اندهاش: «هل هذه هي أفضل الحجج لدى الملحدين؟» لقد كانت تؤكد فحسب على حق الكتاب المقدس.

فقلتُ: «أنت تتعامل مع الكثير من الباحثين الروحيين الآن، فماذا تقول لهم؟»

«يقول الكتاب المقدس: «وَتَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ.» [٢٥] فكر في ذلك – فهذا وعدٌ مدهش. أشجعهم لتهيئة قلوبهم وعقولهم لوضع القبول، وعدم إرهاق أذهانهم لاختبار حق الكتاب المقدس. بالنسبة لأي إنسان حقيقي يقدم رؤية غير متحيزة، لا أفهم كيف يمكنه أن يحيا دون أن يقول إنه ليس هناك شئ مثل هذا على وجه الأرض.

«لقد سافرتُ عبر أرجاء العالم. بحثتُ عن كل شئ. ولم أجد ما يُرضي ذهني وقلبي وأعمق اشتياقات نفسي كما في يسوع. فهو ليس مجرد الطريق والحق والحياة، لكنه شخصي بالنسبة لي. إنه طريقي، وحقي، وحياتي – تماماً كما يمكن أن يكون لأي إنسانٍ يصل إليه.

«تذكر ما قاله بولس للأثينيين: «إنه ليس بعيداً عن أيٍ منا.»

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• ماذا كان رد فعلك الشعوري لأول مرة سمعت فيها تأكيد أن يسوع هو الطريق الوحيد إلى الله؟ هل تغيرت رؤيتك بعد قراءة مناظرة رافي زكريا؟ كيف؟

• قال زكريا: «إن التضمينات الواضحة ليسوع وهو يقول إنه الطريق والحق والحياة هي أولاً لأن الحق مُطلق، ثانياً لأن الحق يمكن معرفته.» هل تؤمن بهذين التأكيدين حول الحق؟ لماذا؟ لماذا لا؟

• كيف تؤمن أن المسيحية تتعامل مع موضوعات الحياة الأساسية العقلية الأربعة: الأصل، والمعنى، والأخلاق، والمصير؟ هل تعليم الكتاب المقدس حول هذه الموضوعات يتوافق مع اختبارك؟

• هل فكرتَ شخصياً في أية ديانة عالمية أخرى؟ لو نعم، ماذا وجدته جذاباً بخصوصها؟ ما ملامح المسيحية التي تجذبك، وما الملامح التي تصدّك؟

• يقول الكتاب المقدس عن الله: «تَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ.»، فما الاقتراحات العملية الثلاثة التي تُقدِّمها لصديق يريد أن يعرف كيف يمكنه أن يجد الله بهذه الطريقة؟ هل اتخذتَ هذه الخطوات بنفسك؟ ماذا كانت النتيجة حتى الآن؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Ravi Zacharias. Jesus Among Other Gods. Nashville: Word، 2000.

• Paul Copan. True for You، But Not for Me. Minneapolis: Bethany House، 1998.

• Frank Beckwith and Gregory Koukl. Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air. Grand Rapids، Mich.: Baker، 1998.

• Millard J. Erickson. How Shall They Be Saved? Grand Rapids، Mich.: Baker، 1996.

٦

الاعتراض السادس

إله محب لن يعذب الناس أبداً في الجحيم

في رأيي هناك نقصٌ خطير جداً في شخصية المسيح الأخلاقية وهو إيمانه بالجحيم. فأنا بنفسي لا أشعر أن أي شخص مثقف تماماً يمكنه أن يؤمن بالعقاب الأبدي.

برتراند رسل – ملحد [١]

الجحيم هو إطراء الله العظيم لحقيقة الحرية الإنسانية وكرامة الاختيار الإنساني. تشيسترتون. – مسيحي [٢]

كان القاضي كورتلاند. أ. ماسرز في ورطة. فقد كانت تمثل أمامه متهمة اشتركت بدور صغير في قضية مخدرات. كانت أم فقيرة في الحادية والثلاثين من عمرها لها أسرة صغيرة. كانت نادمة علي جريمتها. وفي رأي القاضي كانت تستحق فرصةً ثانية. وكان تحقيق العدالة يتطلب إبقاءها تحت المراقبة.

لكن كانت هناك مشكلة: فلو وجدها ماسرز مذنبة بالتهمة الصادرة ضدها، فلن يكون أمامه اختيار في قانون ماساشوستس إلا أن يعاقبها بالحبس لمدة ست سنوات. لقد عرفَ أن السجن سيترك فيها جُرحاً إلي الأبد. وأكثر من المحتملِ سيدمر الضعيفة وسيتركها مُرة النفس، غاضبة، بلا عمل، ومقدّر لها لمزيد من المتاعب.

هذا نوعٌ يُدعى «العقوبة الإلزامية» الذي يُغير إتجاه القضاة

في تقرير بعض أنواع القضايا. الجانب الإيجابي هو أن القضاة يُمنعون من أن يكونوا متساهلين للغاية. أما العاقبة السلبية فهي أنه في بعض الحالات يمكن أن تكون العقوبة الذاتية قاسية للغاية – كما هو الحال في هذه القضية حيث وقفت المتهمة خلف القضبان لفترةٍ أطول من أكثر اللصوص المسلحين.

لم يُعرف عن ماسرز أبداً أنه تراجع عن إصدار فترات حبس طويلة للمجرمين لو كانت الظروف تسمح بذلك. لكن في هذه القضية اعتبر أن العقوبة الإلزامية – بدون إمكانية إطلاق السراح المبكر «إجهاض مطلق للعدالة».

وهكذا قدَّم ماسرز اختياره: «خالف القانون كي تكون عادلاً». لقد صرح أنها مذنبة بتهمة أقل لا تستلزم فترة سجن محددة، وحكم عليها بخمس سنوات من إبقاءها تحت المراقبة مع النصح المتطلب.

قال ماسرز لبوسطن غلوب في تحريها عن العقوبة الإلزامية: «لو لم يكن القاضي قادراً علي فعل ذلك، فلا يجب أن يعتلي منصة المحكمة. فالقاضي إما أن يكون إنساناً آلياً يوافق روتينيا علي هذه العقوبات، أو يكون منقاداً بحس العدالة». [٣]

كنتُ أفكر في هذه القضية بينما كانت الطائرة تهبط تجاه مطار لوس أنجلوس الدولي في صباح أحد أيام سبتمبر الحارة. تأملتُ قائلاً: «كم من السخرية أن قانوناً مصمماً لتدعيم العدالة يكون مهدداً لتحريفها بدلاً من ذلك. استطعتُ أن أفهم معني العدالة الذي دفع ماسرز يتجنب إصدار عقوبة تناسب الجميع، بل فرض عقوبة بديلة تناسب الجريمة بشكلٍ أكثر تناسباً.

لمدةٍ طويلة كباحثٍ روحي، وجدتُ أن معني العدالة الخاص بي يُنتهك بالتعليم المسيحي عن الجحيم الذي اعتبرته أكثر ظلماً بمراحل مما ستكون فترة السجن الإلزامية في القضية التي أمام ماسرز. لقد بدأ التعليم بالنسبة لي كالقتل الكوني، عقوبة أوتوماتيكية غير قابلة للاستئناف لعذاب والتعذيب بلا نهاية. إنها عقوبة إلزامية، مطلقة: فكل واحد ينال نفس العواقب بغض النظر

عن ظروفه. قف خارج خط الله – حتى ولو قليلاً، حتى ولو دون قصد – وسوف تُصفع بعقوبة سجن بلا نهاية لها في مكانٍ يجعل Leavenworth يبدو مثل ديزني لاند.

أين العدالة في ذلك؟ أين التناسب بين الجريمة والعقاب؟ أي نوع من الآلهة يستمتع برؤية مخلوقاته تتألم إلي الأبد – بلا رجاء، خارج الفداء – في غرفة تعذيب كل جزء منها في رعب وبربرية أي معسكر اعتقال نازي؟ ألم يكن الملحد بي. سي. جونسون علي حق عندما أعلن أن «فكرة الجحيم سخيفة أخلاقيا؟» [٤]

هذه أسئلة صعبة وشعورية. كنتُ بحاجة لإجابات من سلطة ثاقبة الذهن، إنسان لن يتهرَّب من التحديات الشريفة. نظرتُ من خارج نافذة الطائرة بينما كانت لوس أنجلوس الضاحية تُجتاز من أسفل، وهي تتألق في ضوء الشمس اللامع. كنتُ قلقاً بخصوص مواجهتي مع فليسوفٍ محترم تصارع بشدة مع هذا التعليم المزعج للدينونة الأبدية.

اللقاء السادس: جي بي مورلاند - دكتوراة في الفلسفة

لم يأخذ الأمر طويلاً حتى أحصل على سيارتي المؤجرة وأقودها إلي بيت مورلاند الواقع بالقرب من مدرسة تالبوت اللاهوتية، حيث يعمل فيها أستاذاً في برنامج الماجستير في الفلسفة وعلم الأخلاق.

لقد أوضح كتاب مورلاند: ما وراء الموت: استكشاف برهان الخلود *Beyond Death: Exploring the Evidence for Immoral-ity* أنه قام بالكثير من التفكير الشامل والتحليل الذاتي الشخصي عن تعليم الجحيم. وقام مع المؤلف المشارك جاري هابيرماس بالبحث عن طبيعة النفس، واختبارات ما قرب الموت، وتناسخ الأرواح، ولاهوت السماء.

اخترتُ أيضاً مورلاند بسبب خلفيته الواسعة. فهو رجل علم حاصل علي درجة في الكيمياء من جامعة ميسوري، ولديه معرفة شاملة للاهوت؛ إذ يحمل درجة ماجستير من معهد دالاس

اللاهوتي، وهو فليسوف موضع تقدير حيث حصل علي شهادة الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا الجنوبية.

أصدر مورلاند أكثر من ١٢ كتاباً، بما فيها تَدَرُّج المدينةَ العلمانيةَ *Scaling the Secular City*؛ المسيحية وطبيعة العلم *Christianity and the Nature of Science*؛ هل الله موجود؟ *Does God Exist?* (مناظرة مع كاي نيلسون)؛ فرضيةُ الخَلْق *The Creation Hypothesis*؛ الجسد والنفس *Body and Soul*؛ أحب الرب إلهك من كل عقلك *Love Your God with All Your Mind*؛ يسوع تحت الهجوم *Jesus Under Fire* الذي حصل علي جائزة. كل هذا وهو في الحادية والخمسين فقط.

حياني مورلاند، وكان يرتدي قميصاً قصير الأكمام، وبنطلوناً، وحذاء بلا جوارب. في ممشى بيته المصمم علي طراز مزرعة. صافحته وقدمتُ له مواساتي. عرفتُ أنه سافر إلي سان دييجو الليلة السابقة، وشاهد فريقه المحبوب Kansas City Chiefs يلقى هزيمةً نكراء أمام الفريق المتواضع Chargers. كان لا يزال يرتدي قبعة بيسبول كان اسم فريقه بارزاً علي مقدمتها.

بالداخل، بعد تبادل قليل من المزاح، غرقتُ في أريكة غرفة معيشته وتنهدتُ. لقد كان موضوع الجحيم كبيرا، ثقيلاً، مثيراً للجدل، ونقطة ارتكاز للمتشككين الروحيين. بحثتُ في ذهني عن نقطة انطلاقة.

أخيراً قررتُ أن أكون أميناً، فاعترفتُ قائلاً: «لستُ متأكداً من أين أبدأ. كيف يتسنى لنا حتى مناقشة موضوع الجحيم؟»

فكر مورلاند للحظات، ثم ضبط جلسته في كرسيه الأخضر الوثير، واقترح قائلاً: «ربما يجب أن نميز بين محبة شئ أو عدم محبته وتقرير ما إذا كان من الصواب القيام به.»

«ماذا تقصد؟»

فشرح قائلاً: «كثيراً ما يكون الشيء الذي نحبه ليس هو الشيء الصحيح الواجب عمله. فالبعض يقولون إن الزنا ممتع،

لكن معظم الناس يتفقون علي خطأه. وعادةً ما يكون فعل الشيء الصحيح غير ممتع. فإخبار إنسان حقيقة قاسية يحتاج أن يسمعها، أو طرد واحد لا يقوم بمهامه جيداً يمكنها أن تكون أمور غير ممتعة بالمرة.»

فقاطعته قائلاً: «والجحيم يستدعي استجابة عميقة. فالناس يتصرفون بقوة ضد الفكرة نفسها.»

«هذا صحيح. فهم يميلون لتقييم ما إذا كان مناسباً مبنياً علي مشاعرهم أو إساءتهم العاطفية تجاهه.»

«كيف نفهم ذلك؟»

«أعتقدُ أن الناس يجب أن يحاولوا إقصاء مشاعرهم جانباً؛ فأساس تقييمهم يجب أن يكون ما إذا كان الجحيم حالة علاقات عادلة أخلاقياً أم صحيحة أخلاقياً، وليس ما إذا كانوا يحبون المفهوم، أو لا يحبونه».

توقف مورلاند قبل الاستمرار وأضاف: «من المهم أن نفهم أنه إن كان إله المسيحية حقيقياً، فإنه يكره الجحيم ويكره الناس الذاهبين إليه. فالكتاب المقدس واضح تماماً: الله لا يُسر بموت الشرير.» (٥)

ربما يكون الأمر هكذا، لكن الأمر ينتهي بهم وهم يقضون أبديتهم في مكانٍ من الرعب المطلق واليأس المدقع. ورجعتُ بذاكرتي للقائي مع تشارلز تمبلتون – المبشر الذي صار متشككاً. فدون إنكار، لديه مشاعر قوية بخصوص الجحيم، لكنها بدتْ أنها مشتعلة بالغضب المقدس والثورة الأخلاقية.

بصراحة، كنتُ واعياً قليلاً بفصل مناقشة الجحيم تماماً عن استجابتنا العاطفية لها – وفي النهاية بدا أنهما مرتبطان بصورة تدعو لخيبة الأمل.

معالجة تحدي تمبلتون

رغم أنني فهمتُ فكرة مورلاند أن أخلاقية أو عدم أخلاقية الجحيم أمرٌ مستقل عن مشاعرنا تجاه الموضوع، غير أنني قررتُ أن تكون أفضل خططي هي مواجهة مورلاند مباشرةً باعتراضات تمبلتون – العاطفية منها والكلية.

جلستُ منتصباً، متجهاً لمواجهة مورلاند بقربٍ أكثر. قلتُ له: «لقد قابلتُ تشارلز تمبلتون حولِ هذا الموضوعِ وقد كان عنيداً جداً. فقد قال لي: «لم أستطع أن أعرِّض يد إنسانٍ للنار للحظات. ولا حتى للحظة! فكيف يمكن لإلهٍ محب أن يعذبك إلي الأبد لأنك لا تطيعه ولا تفعل ما يطلبه دون أن يسمح بموتك، بل مواصلاً عذابك في هذا الألم طوال الأبدية؟»

ثم لفظتُ كلمات تمبلتون الأخيرة بنفس نغمة المقت التي استخدمها في التحدث معي: «ولا حتى المجرم يمكنه أن يفعل ذلك!»

بدا أن التحدي يتردد صداه غالباً في غرفة معيشته؛ فتصاعد التوترِ بسرعة. ثم بدوتُ اتهامياً أكثر مني فضولي، فتوَّجت بالسؤال طالباً: «د. مورلاند ماذا تقول إزاء ذلك؟»

الكثير جداً من أفكاره تنطلق فيما وراء المشاعر.

الآن عليك أن تفهم شيئاً بخصوص مورلاند: فهو فليسوف، ومفكر، وعقلاني معتدل. ولا شيء يبدو وأنه يضايق مكانه. ورغم نغمتي الإتهامية - التي بدت تقريباً وكأنها تتضمن حقاً أنه كان مسئولاً بصفةٍ خاصة عن خلق الجحيم - لم يُصدر مورلاند أية إساءة. ولكن بدلاً من ذلك، انطلق ذهنه لجوهر الموضوع. بدأ مورلاند: «مفتاح إجابة تمبلتون هو في صياغته. لقد صاغ سؤاله حتى صار كسؤال: «متى توقفتَ عن ضرب زوجتك؟ فمهما كانت إجابتك، فأنت مُدان منذ البداية لو قبلتَ صياغته».

فقلتُ: «لذلك فَمقدمته المنطقية خاطئة. كيف ذلك؟»

«حسناً، الأمر الأول هو أن الجحيم ليس غرفة تعذيب».

ارتفع حاجباي. فبالطبع ستكون هذه أخبار سارة لأجيال كثيرة من أطفال مدارس الأحد الذين كانوا يرتعبون في كوابيس بالأوصاف المرعبة للتعذيب الأبدي والعذاب بالنار في الهاوية.

فسألته: «أليس الأمر كذلك؟»

«فهز مورلاند رأسه، واستطرد: «الله لا يعذب الناس في الجحيم، ولذلك فتمبلتون مخطئ تماماً بخصوص ذلك. إن تمبلتون يجعل الأمر أيضاً وكأن الله طفل مُدلل يقول للناس: «انظروا، إن كنتم غير مستعدين لطاعة أوامري الإلزامية، فسوف أعاقبكم على ذلك. عليكم أن تعرفوا أن أوامري هي أوامري. وإن لم أصل إلى أهدافي، فسوف أجعلكم تدفعون الثمن. حسناً، بالطبع، إن كان الله مجرد طفل له أوامر إلزامية، فسوف يكون الأمر متقلباً بالنسبة له أن يحاكم الناس. لكن ليس هذا علي الإطلاق هو ما يحدث هنا.

«إن الله هو الكيان الأكثر كرماً وحباً وروعة وجاذبية في الكون. لقد خلقنا بإرادة حرة وخلقنا لهدف: أن ننتمي إليه وللآخرين بحب. نحن لسنا أموراً عارضة، ولسنا قروداً معدلة، ولسنا أخطاء عشوائية، ولو خبنا مراراً وتكراراً عن الحياة من أجل الهدف الذي خُلقنا لأجله - الهدف الذي سيسمح لنا أن ننمو أكثر من أن نحيا بأية طريقة أخرى - فإن الله لن يكون بوسعه علي الإطلاق إلا أن يمنحنا ما طلبناه طوال حياتنا، وهو الانفصال عنه».

«وهذا هو الجحيم ...... »

«نعم، هذا هو الجحيم. هناك نقطة إضافية: من الخطأ أن نعتقد أن الله هو كيان محب ببساطة، ولاسيما عندما تقصد بكلمة محب المعني الذي يستخدمه معظم الأمريكان اليوم. نعم، الله كيان عطوف، لكنه أيضاً كيان عادل، أخلاقي، وطاهر. ولذلك فإن قرارات الله غير معتمدة علي الحسية الأمريكية الحديثة. وهذا أحد الأسباب لماذا لم يجتاز الناس أبداً وقتاً عصيباً بفكرة الجحيم حتى الأزمنة الحديثة. الناس اليوم يميلون للاهتمام فقط بالفضائل الأكثر نعومة كالحب والرقة، بينما ينسون الفضائل الصعبة

كالقداسة والبر والعدالة.

«ولذلك في صياغة سؤاله أظهر لنا تمبلتون كياناً حاقداً فرض هذه القواعد الإلزامية الظالمة وفي النهاية يضرب قدميه ويقول: «إن لم أصل إلى أهدافي، فسوف أعذبكم إلي الأبد.»

غمضت عينا مورلاند الحادتين مع عيني وشَّدد قائلاً: «لا شيء يمكنه أن يكون أبعد من الحق».

موقف الله اللاحق

قلتُ بينما استرخيتُ في الأريكة: «حسناً، إذاً هنا فرصتك لإعلان الأمر بوضوح. لنضع بعض الأساسات بترتيب تعريفاتنا. لقد قلتَ إن الجحيم ليس غرفة تعذيب. فما هو إذاً؟

فأجابني: «إن جوهر الجحيم إتصالي. فالمسيحية تقول إن البشر هم أقيم الكائنات في الخليقة كلها. فبما أن البشر مهمون، فالعلاقات الشخصية أيضاً مهمة، ويكون الجحيم إتصالي بشكل واسع.

«في الكتاب المقدس، الجحيم هو الانفصال أو الابتعاد عن أجمل كيان في العالم – الله نفسه. إنه الإفراز عن أي شيء مهم، من أية قيمة، وليس فقط من الله، بل أيضاً من الذين عرفوه وأحبوه.»

ارتبكتُ بشيء ما، فتساءلتُ: «هل الجحيم عقاب لكسر معايير الله؟ أم إنه العاقبة الطبيعية لمن يعيشون حياةً يقولون فيها: «لا يهمني أن أكون منفصلاً عن الله؛ فأنا أريد أن أفعل الأشياء بطريقتي الخاصة، ومن ثم تُمنح لهم رغبتهم علي الدوام بانفصالهم عن الله إلي الأبد؟»

فقال: «إنه الاثنين. لا ترتبك: فالجحيم عقوبة – وليس عقاباً. الجحيم ليس التعذيب. فعقوبة الجحيم هي الانفصال عن الله، الذي يأتي بالخزي، والكرب، والندم. ولأنه سيكون لنا كل من الجسد والنفس في الوضع المُقام، فإن التعاسة المُختبرة يمكنها أن تكون عقلية وجسدية. لكن الألم الذي سيُعاني منه سيكون بسبب الحزن الناتج عن الابتعاد النهائي، المطلق، الدائم عن الله، وعن ملكوته،

وعن الحياة الصالحة التي خُلقنا من أجلها في المقام الأول. فالناس في الجحيم سيحزنون حزناً عميقاً علي كل ما فقدوه.

«الجحيم هو الحكم النهائي الذي يقول لك إنك مرفوض من الحياة من أجل الهدف الذي خُلقت لأجله، والبديل الوحيد هو الحكم عليك بعيداً إلي الأبد. لذلك فالجحيم عقوبة. لكنه أيضاً العاقبة الطبيعية لحياة كانت تُعاش في إتجاهٍ معين.»

فأشرت قائلاً: «وفقاً لسفر التكوين، عندما خلق الله كل شئ، أعلن أنه «حسن». ومن الواضح أن الله قد خلق الجحيم. ولكن كيف عساه أن يفكر أن الجحيم حسن؟ ألا يُعَرض هذا الأمر شخصية الله للنقاش؟»

فأجابني مورلاند: «في الواقع، لم يكن الجحيم جزءاً من الخليقة الأصلية. فالجحيم هو موقف الله اللاحق. الجحيم شيء اضطر الله لعمله لأن الناس اختاروا أن يتمردوا ضده ويبتعدوا عن الأفضل بالنسبة لهم، وعن الهدف الذين خُلقوا من أجله.

«عندما أسس الناس الولايات المتحدة، لم يبدأوا بإنشاء السجون. لقد كانوا يودون أن يكون لهم مجتمعٌ بلا سجون. لكنهم اضطروا لإنشائها لأن البعض لم يتعاون. ونفس الأمر ينطبق علي الجحيم.»

«هل الجحيم مكان مادي؟»

«نعم ولا. عندما يموت الناس، تترك نفوسهم أجسادهم ولا يعودوا ماديين. يقول الكتاب المقدس إنه عندما يموت الناس الذين سيذهبون أخيراً إلي الجحيم قبل مجيء المسيح، فسوف ينفصلون عن حضور الله، لكنهم لن يكونوا في مكانٍ مادي لأنهم ليسوا بماديين. وبهذا المعني، من المحتمل ألا يكونَ الجحيم موقعاً، بل جزءاً حقيقياً من الكون. ويكون الأمر مثلما تدخل باباً إلي نوعٍ آخر من الوجود.»

فضحكتُ قائلاً: «يبدو كاختبار ما بقرب الموت.»

فأجابني: «حسناً، أعتقد أن اختبارات ما بقرب الموت أوضحت

دون شكٍ معقول أنه عندما يموت الناس، لا يزالوا قادرين علي الوعي.»

ثم واصل كلامه: «في الدينونة الأخيرة، سيقوم جسدنا وستتحد نفسنا معه. وعند هذه النقطة، أعتقد أنه سيكون هناك مكانٌ في الكون سيُفصل فيه الناس عن المكان الأصلي الذي سيظهر فيه نشاط الله وشعبه. لذلك عند هذه النقطة يكون من المعني أن نتكلم عن الجحيم كمكان – لكنه لن يكون غرفة تعذيب أو ما شابه.»

نار، ودود، وصرير أسنان

آن أوان مجاز «غرفة التعذيب» مرةً أخرى. فقلتُ: «لا عجب أن هذه رؤيةٍ شائعة عن الجحيم. فعندما كنتُ في حوالي العاشرة من عمري، أخذتُ إلي مدارس الأحد ، حيث أضاء المعلم شمعة وقال: هل تعلم كم من المؤلم أن تحرق إصبعك؟ حسناً، تخيل جسدك كله في النار علي الدوام إلي الأبد. هذا هو معني الجحيم.»

أومأ مورلاند كما لو كان قد سمع مثل هذه القصة من قبل.

فأضفتُ: «الآن يرتعب بعض الأطفال. لقد سخطتُ لأن هذا الشخص كان يحاول التحكم فيّ. أعتقدُ أن الكثير من الناس قد مروا بهذا النوع من الاختبار. وعليك بالاعتراف أنه عندما يأتي آوان الحديث عن الجحيم، فإن الكتاب المقدس يميل بالتأكيد للإشارة إلي النار.»

فأجابني مورلاند: «هذا صحيح، لكن النار صورة مجازية.»

فرفعتُ يدي معارضاً: «حسناً، مهلاً، لقد اعتقدتُ أنك دارساً محافظاً. هل تحاول أن تُخفف فكرة الجحيم لتجعلها أكثر قبولاً؟

فأجابني: «قطعاً، فأنا أريدُ أن أكونَ دقيقاً كتابياً. نحن نعرف أن الإشارة للنار صورة مجازية لأنك إن حاولت فهمها حرفياً، لن يكون لها معني. فمثلاً، الجحيم موصوف علي أساس أنه مكان الظلمة المُطلقة ومع ذلك هناك نار أيضاً. كيف يمكن هذا؟ فالنار ستنير المكان.

وبالإضافة إلى ذاك، نحن نعرف أن المسيح سيعود ثانيةً مُحاطاً بالنار، وأنه سيكون هناك سيف كبيرٌ خارجاً من فمه. لكن لا أحد يعتقد أن المسيح لن يكون قادراً لقول أي شئ؛ لأنه سيكون مختنقاً بسيفٍ. إن الصورة المجازية للسيف تشير إلي كلمة الله في الدينونة. والنار تشير إلي المسيح الآتي في الدينونة. في عبرانيين ١٢: ٢٩ يُدعي الله ناراً آكلة. ومع ذلك لا أحد يعتقد أن الله مصباح بنزن. إن استخدام الصورة المجازية للنار طريقة لقول إنه إله دينونة.»

فتساءلتُ: «ماذا عن الجحيم كمكانٍ يأكل فيه الدود أجساد البشر باستمرار.»

فقال مورلاند: «في أيام يسوع كانت آلاف الحيوانات تُقّدم كل أسبوعٍ في الهيكل، وكان هناك نظام صرف للدم والشحم للتدّفق خارجًا والتجمع في بركة. وكان هناك دود يتغذى علي ذلك. لقد كان مكانٌ قبيحٌ للغاية. عندما كان يسوع يُعَلم، استخدم هذه الاستعارة لقول إن الجحيم أسوأ من ذلك المكان المقزز خارج المدينة.»

فقلتُ: «هناك أيضاً العبارة «صرير الأسنان» لوصف مَنْ هم في الجحيم، ألا يشير ذلك لرد فعل الناس لألم العذاب؟»

فقال مورلاند: «بأكثر دقة، هذا معناه وصف حالة من الغضب أو إدراك خسارةٍ فادحة. إنه تعبير عن ثورة إثر إدراك أن المرء قد ارتكب خطأ جسيماً. فلو كنتَ قد عشتَ مع من هم منهمكين في شئونهم، ومتمركزين حول ذواتهم، وأنانيين، فهم يغضبون عندما لا يصلون إلي طريقهم. أؤمن أن صرير الأسنان تعبير من نوع شخصية الناس الذين سيسكنون الجحيم.»

قلتُ محاولاً إدخال قليلاً من التساهل: «لا نيران، لا دودٍ، لا صرير أسنان من العذاب – ربما لا يكون الجحيم سيئاً كما اعتقدنا.»

فأجاب مورلاند بسرعة وبقوة: «من الخطأ أن نفكر هكذا. فأية صورة مجازية تتضمن إشارة حرفية. المجازي هو النار الحارقة،

والحرفي هو أن هذا هو مكان الحسرة المطلقة. إنه خسارة كل شئ، ومعناه الإشارة إلي حقيقة أن الجحيم هو أسوأ موقف يمكن أن يحدث لإنسان.»

فقلتُ: «لقد ذكرتَ أن الناس في الجحيم هم منهمكين في شئونهم وأنانيين، وقد رفضوا الله طوال حياتهم. فهل من الممكن بالنسبة لنوعية هؤلاء أن تكون السماء جحيماً؟»

فقال: «دعني أُوضح الأمر هكذا: هل سبق لك الحياة مع إنسان كان وسيماً بشكلٍ لا يُصدّق، وجذاباً جداً، وأكثر ذكاءً منك؟ وعندما تكون في موقف اجتماعي، يريد الناس أن يستمتعوا إليه، لا إليك. افترضْ أنك لا تهتم بذلك الشخص، لكنك تبقى معه في غرفة لمدة ٢٤ ساعة يومياً لمدة ٣٠ عاماً. فسوف يكون هذا اختبار صعب تماماً.

والآن ضاعف هذه الخواص ١٠٠٠٠ مرة، وهذا قدرٌ ضئيل مما عليه الله. فالله ذكيّ حقاً حقاً. وهو جذابٌ جداً. وهو أكثر نقاءً أخلاقياً منا. وإن لم يقع الناس عاطفياً في محبته، فإن إجبارهم أن يعيشوا حوله إلي الأبد – عاملين نفس الأشياء التي يريد الناس الذين يحبونه أن يعملوها – سيكون غير مريح بالمرة.

«عليك أن تفهم أن شخصية الناس لا تتكون بالقرارات علي الفور، بل بآلاف الاختيارات الصغيرة التي يقومون بها كل يوم دون حتى أن يعرفوا عنها شيئاً. فكل يوم نُهيئ أنفسنا حتى نكونُ إما مع الله وشعبه، ونُقّيم الأشياء التي يُقّيمها هو، أو نختار ألا نشترك في هذه الأمور. لذلك، نعم، الجحيم أساساً مكان للناس الذين لا يريدون الذهاب إلي السماء.»

«هل تقصد أن الناس يختارون الجحيم عن وعي؟»

«لا، فأنا لا أقصد أنهم يرفضون السماء عن وعي ويختارون الذهاب إلي الجحيم بدلاً من ذلك. لكنهم يختارون عدم الاهتمام بالقيم التي ستكون حاضرة في السماء كل يوم.»

فقلتُ: «لذلك في الواقع، بالطريقة التي نحيا بها حياتنا، إما نُهيئ

أنفسنا لنكون في محضر الله والتمتع به إلي الأبد، أو نُهيئ أنفسنا لوجودٍ نحاول فيه أن نجعل أنفسنا مركز الكون، ولا نهتم أن نكون مع الله أو مع من يحبونه.»

فأومأ مورلاند قائلاً: «هذا صحيحٌ تماماً. فالجحيم ليس مجرد حكم. إنه حكم، لكنه أيضاً نهايةُ طريق مختار – إلى حدٍ ما – في هذه الحياة ههنا والآن، يوماً فيوم.»

ومع ذلك، هناك ملامح للجحيم تبدو وكأنها تخترق معنى العدالة بالنسبة لنا. علي الأقل شعرتُ بذلك في الماضي. فقد استفدتُ من وقفة في حوارنا لأمد يدي إلي حقيبتي وأستخرجُ قائمةً كتبتها في الطائرة.

قلتُ لمورلاند: «ماذا لو طلبتُ ردك عن كلٍ من هذه الموضوعات. إن هدفي ليس أن أتجادل معك، بل إنني أريدُ منك فقط أن تُوَضح منظورك، وفي النهاية سأزن ما إذا كنتُ أعتقد أنك تُقَدم إجابات كافية، وما إذا كان التعليم عن الجحيم بالإجمال يواجه الفحص.»

فأجاب: «هذا يبدو عادلاً». نظرتُ إلي القائمة، وقررتُ أن أبدأ بواحدٍ من أكثر الاعتراضات المثيرة للعاطفة علي الإطلاق.

الاعتراض الأول: كيف يمكن لله أن يرسل الأطفال إلي الجحيم؟

الناس يتراجعون بفكرة أن الأطفال ينزلون إلى الجحيم. في الواقع، يحب بعض الملحدين أن يوبخوا المسيحيين لأنهم يتذكرون كتابات مُبشرو القرن التاسع عشر الذين استخدموا لغة مرعبة لوصف اختبارات الأطفال المرعبة في الجحيم. على سبيل المثال، كتب قس بريطاني لقبه «رسول الأطفال» هذه الكلمات الرهيبة:

> طفلٌ صغير في فرنه الأحمر الساخن. إسمعْ كيف يصرخ للخروج منه! أنظر كيف يتلوى في النار! إنه يضرب رأسه في سقف الفرن. ويضع قدميه علي الأرضية. يمكنك أن ترى علي وجه الطفل الصغير ما تراه علي وجوه كل

من هم في الجحيم – اليأس البائس والمرعب. [٦].

قلتُ لمورلاند: «إن فكرة الأطفال في الجحيم مُخيفة جداً. فكيف يمكن أن يكون هناك إله محب إن كان الأطفال محكوم عليهم بالجحيم؟»

كنتُ مهتماً برؤية ما إذا كانت إجابة مورلاند ستتوافق مع تقرير الدارس نورمان جيسلر السابق تناوله حول هذا الموضوع.

فحذر مورلاند بخصوص الاقتباس السابق قائلاً: «تذكر أن اللغة الكتابية حول النار واللهيب لغة مجازية.»

«نعم، حسناً، ولكن هل سيكون هناك أطفال في الجحيم؟»

استند مورلاند – أب لابنتين – إلي الأمام بينما كان يتكلم وبدأ قائلاً: «عليك أن تفهم أنه في الحياة بعد الموت، فإن شخصياتنا تعكس موقفاً بالغاً على أي حال، وهكذا يمكننا أن نقول تأكيداً إنه لن يكون هناك أطفال في الجحيم.»

«وبالطبع لن يكون في الجحيم من أُتيحت له فرصة النمو حتى البلوغ، ويكون قد اختار إلي الجحيم ببساطة لأن كل ما كان يحتاجه وقتٌ قصيرٌ باقٍ ويكون قد مات قبل أوانه. مدَّ مورلاند يده نحو مائدة وسحب كتابه المقدس الجلدي، وقال: «بالإضافة إلي ذلك، في الكتاب المقدس يُنظر إلي الأطفال بشكلٍ عام كصور مجازية للخلاص. ففي كل النصوص التي يُستخدم فيها الأطفال بالإشارة إلي الحياة الأخرى، يُستخدمون كصور أنهم نالوا الخلاص. وليست هناك أية حالة يستخدم فيها الأطفال كصور للدينونة.»

قلّب صفحات العهد القديم حتى استقر علي سفر صموئيل الثاني. فقال: «هاك مثالٌ جيد: الطفل الذي أنجبه داود من بثشبع إثر علاقة أثيمة مات، ويقول داود في ٢ صم ١٢: ٢٣ «أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيَّ.»

لقد كان داود يُعبرّ عن حقيقة أن طفله سيكون في السماء وأنه سينضم إليه يوماً. لذلك هذا دليلٌ آخر أن الأطفال لن يكونوا في الجحيم.»

الاعتراض الثاني: لماذا يعاني كل إنسان نفس الشئ في الجحيم؟

بينما كنتُ أصيغُ سؤالي التالي، نهضتُ من الأريكة وتمشيتُ حتى النافذة الأمامية، متوقفاً في جزءٍ من شعاع الشمس الذي كان يتراقص علي السجادة. كانت قضية ماساشوستس التي تتضمن القاضي ماسرز تكمن في ذهني.

قلتُ: «إن معني العدالة لدينا يتطلب أن يُحاسب الأشرار علي إيذائهم للآخرين. وبهذا المعنى يجب أن يكون الجحيم رادعاً مناسباً للبعض. ومع ذلك، فإن معني العدل يُخترق لدينا أن يحمل أدولف هتلر نفس العقوبة الأبدية التي يحملها إنسان عاش حياة جميلة وفقاً لمقاييسنا الخاصة، لكنه لم يأخذ قرار إتباع الله.»

كان مورلاند يصغي باهتمام، وقال «يبدو من الظلم أن يُعرَّض كل إنسان لنفس العواقب. هل هذا ما تقصده؟»

«نعم، هذا صحيح. ألا يزعجك هذا؟»

إتجه مورلاند في كتابه المقدس إلي العهد الجديد، وقال: «في الواقع ليس كل إنسان يختبر الجحيم بنفس الطريقة. فالكتاب المقدس يُعلم أن هناك درجات مختلفة من المعاناة والعقوبة.»

وصل إلي متى ١١، ثم بحثَ بإصبع السبابة حتى استقر علي الآيات ٢٠ـ ٢٤ التي قرأها بصوتٍ عالٍ:

> «حِينَئِذٍ ابْتَدَأَ يُوَبِّخُ [يسوع] الْمُدُنَ الَّتِي صُنِعَتْ فِيهَا أَكْثَرُ قُوَّاتِهِ لأَنَّهَا لَمْ تَتُبْ: «وَيْلٌ لَكِ يَا كُورَزِينُ! وَيْلٌ لَكِ يَا بَيْتَ صَيْدَا! لأَنَّهُ لَوْ صُنِعَتْ فِي صُورَ وَصَيْدَاءَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكُمَا لَتَابَتَا قَدِيماً فِي الْمُسُوحِ وَالرَّمَادِ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ صُورَ وَصَيْدَاءَ تَكُونُ لَهُمَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لَكُمَا. وَأَنْتِ يَا كَفْرَنَاحُومَ الْمُرْتَفِعَةَ إِلَى السَّمَاءِ سَتُهْبَطِينَ إِلَى الْهَاوِيَةِ. لأَنَّهُ لَوْ صُنِعَتْ فِي سَدُومَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكِ لَبَقِيَتْ إِلَى الْيَوْمِ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَرْضَ سَدُومَ تَكُونُ لَهَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لَكِ».

أغلق مورلاند الكتاب المقدس، وقال: «يقول يسوع إن الناس سيحاسبون وفقاً لأعمالهم.»

فتساءلتُ: «أليس حساباً موحداً؟ هل ستُضبط العدالة وفقاً لكل فرد؟»

«تماماً. ستكون هناك درجات من الانفصال، والعزلة، والفراغ في الجحيم. أعتقد أن هذا أمر مهم لأنه يؤكد أن عدالة الله تناسبية. ليست هناك تماماً نفس العدالة لكل إنسانٍ يرفض رحمة الله.

«تذكر، إن كان الله يسمح حقاً أن يُشكِّل الناس شخصياتهم بآلاف الاختيارات التي يقومون بها، فسوف يسمح لهم أيضاً بمعاناة العواقب الطبيعية للشخصية التي اختاروا أن يتخذوها لأنفسهم. وأولئك الذين في تشكيلٍ أسوأ بشكلٍ فردي سيختبرون درجةً أعلي من العزلة والفراغ.»

الاعتراض الثالث: لماذا يُعاقب الناس بلا حدود علي جرائم محدودة؟

كيف يمكن لأي خطأ ارتكبناه في هذه الحياة أن يستحق عقوبة أبدية؟ أليس من الظلم أن نقول إن حياة محدودة من الخطية تستلزم عقوبة غير محدودة؟ أين العدل؟

تساءلتُ بينما جلستُ علي حافة الأريكة: «كيف يمكن أن نفعل أي شيء في هذه الحياة يستلزم عذاباً أبدياً؟»

فأشار مورلاند قائلاً: «تذّكر أنه ليس عذاباً. الصياغة خطيرة. إنه ليس عذاباً واعياً أبدياً، لكنه معاناة واعية أبدية ترجع إلي الحكم عليك بعيداً عن الله.»

فقلتُ: «حسناً، ولكن هذا لا يحل السؤال.»

«حسناً، إنه لا يحل السؤال، ولكن دعني أحاول. أولاً: نحن نعرف جميعاً أن الدرجة التي يستحق الإنسان عندها العقوبة ليست متعلقة بالمدة الزمنية التي أخذها لارتكاب جريمة. فمثلاً: يمكن أن يأخذ قاتل عشر ثوان لارتكاب جريمته، وسرقة الموسوعة

البريطانية من شخص آخر يمكنها أن تأخذ نصف يوم لو أخذتَ وقتاً طويلاً لاقتحام البيت. وفكرتي هي أن درجة العقوبة العادلة للفرد ليست متعلقة بالمدى الزمني الذي أخذته لارتكاب الفعل، بل بالأحرى متعلقة بمدى قسوة العمل نفسه.

وهذا يقود للنقطة الثانية. ما هو الشئ الأكثر بشاعة الذي يمكن أن يقوم به إنسان؟ معظم الناس – لأنهم لا يعرفون الكثير عن الله – سيقولون إنه إيذاء الحيوانات، أو تدمير البيئة، أو إصابة شخص آخر. ولا شك أن كل هذه الأفعال مرعبة. لكنهم يشحبون في ضوء الشئ الأسوأ الذي يمكن أن يرتكبه إنسان، ألا وهو أن يسخر ويُحقِّر ويرفض محبة ذاك الذي ندين له بكل شئ، والذي هو خالقنا – الله بنفسه.

عليك أن تفهم أن الله أعظم بغير حدود في صلاحه، وقداسته، وعطفه، وعدله من أي إنسانٍ آخر. أن تعتقد أن إنساناً يمكنه أن يحيا حياته كلها متجاهلاً إياه باستمرار بالطريقة التي يختارها للحياة بدونه وهو يقول: «لم أهتمُ بالمرة بما وضعتني هنا من أجله. لم أهتمُ بالمرة بقيمك أو بموت ابنك عني. سوف أتجاهل كل ذلك – فهذه هي الخطية القصوى. وتكون العقوبة الوحيدة التي تقتضي ذلكِ هي العقوبة القصوى التي هي الانفصال الأبدي عن الله.

وكما أشار آلان جوميز إلي أن طبيعة العنصر الذي تُرتكب ضده الخطية، وطبيعة الخطية نفسها، لابدَّ أن تؤخذ في الاعتبار عند تحديد درجة الشناعة.» (٧)

جعلتني إجابة مورلاند أفكر في الحادثة التي سأل فيها ناموسيٌ يسوع عن الوصية الأعظم في الناموس، فقال له يسوع: «أحب الرب إلهك.» (٨)

في الولايات المتحدة تُعاقب أخطر جريمة – القتل – بأقصى عقوبتها ألا وهي الانفصال عن المجتمع في السجن مدي الحياة. ومن هنا بدا أنه من المنطقي بالتأكيد أن نقول إن انتهاك ناموس الله المُطلق بتحدٍ سيأتي بالعقوبة المطلقة، ألا وهي الانفصال عن

الله وعن شعبه إلي الأبد.

الاعتراض الرابع: ألم يقدر الله أن يدفع كل إنسان للذهاب إلي السماء؟

قلتُ لمورلاند: «دعني أعود للوراء لنقطةٍ ذكرتها أنت في البداية. لقد قلتَ إن الله يحزن من ضرورة الجحيم.»

«نعم هذا صحيح.»

«لذلك لماذا لا يدفع ببساطة كل إنسانٍ للذهاب للسماء؟ فهذا سيبدو أنه حلاً بسيطاً.»

فأجاب مورلاند: «لأنه بهذا يكون لا أخلاقياً.»

فقلتُ في اندهاشٍ: «لا أخلاقياً؟ لا أخلاقياً أكثر من الجحيم؟»

«نعم، لا أخلاقياً. تتبعني في ذلك: هناك فرقٌ بين القيمة الجوهرية والقيمة المساعدة. فالشئ تكون فيه قيمة جوهرية لو كان قيماً وصالحاً في ذاته ومن ذاته، وتكون فيه قيمة مساعدة لو كان قيماً كوسيلة لغاية معينة. مثلاً: إنقاذ الأرواح صالحاً جوهرياً. والقيادة علي الجانب الأيمن من الشارع قيمة مساعدة، فهي صالحة فحسب لأنها تحافظ علي النظام. ولو قرر المجتمع أن كل إنسان يجب أن يقود علي الجانب الأيسر، فسوف يكون الأمر حسناً. فالهدف هو الحفاظ علي النظام وإنقاذ الأرواح.

«والآن، عندما تعامل الناس وكأنهم قيمين بصورة مساعدة، أو كأنهم مجرد وسيلة لغايةٍ معينة، فأنت بذلك تُجردهم من إنسانيتهم، وهذا خطأ. فأنت تعامل الناس كأشياء عندما تعاملهم فحسب كوسائل لغاية تعاملهم كما لو كانت لديك قيمة جوهرية.»

فتساءلتُ: «وما علاقة هذا بدفع الناس للذهاب إلي السماء؟»

«إن دفعتَ الناس لعمل شئ ضد حرية إرادتهم، فأنت بذلك تُجردهم من إنسانيتهم. وتقول إن الخير الناشئ عما تريده أكثر قيمة من احترام اختياراتهم، فأنت بذلك تعامل الناس كوسائل لغاية

معينة بمطالبتهم عمل شئ لا يريدونه. وهذا ما سيكون لو أن الله قد دفع كل إنسانٍ إلي السماء.

«لي Lee، بما أن الله قد منح البشر حرية الإرادة، فليس هناك ضمانٌ أن كل إنسان سيختار أن يتعاون معه. فاختيار دفع كل إنسان إلي السماء ليس أخلاقياً لأنه يُجرده من إنسانيته، ويسحب منهم كرامة فعل قرارهم الشخصي، ويحرمه من حرية الاختيار، ويعامله كوسائل لغاية معينة.

«الله لا يمكنه أن يُشكِّل شخصية الناس نيابةً عنهم. والناس الذين يفعلون الشر أو يتبنون المعتقدات الخاطئة يبدأون بعيداً عن الله، ثم ينتهي بهم الأمر أخيراً في الجحيم. الله يحترم الحرية الإنسانية. في الواقع سيكون من عدم المحبة – ونوعاً من الإجبار الإلهي – أن تدفع الناس لقبول السماء وقبول الله وهم لم يريدوا ذلك حقاً. عندما يسمح الله للناس أن يقولوا له «لا»، فهو حقاً يحترمهم ويُقدِّرهم.

الاعتراض الخامس: لماذا لا يطرد الله الناس فحسب؟

ملمح أخر من ملامح الجحيم مزعج بشكلٍ خاص للناس وهو إن مدته أبدية. فماذا لو كان الجحيم لا يستمر إلي الأبد؟ وماذا لو أن الله قد أباد الناس – أي طردهم خارج الوجود – بدلاً من إجبارهم للانفصال عنه إلي الأبد؟

قلتُ لمورلاند: «بالطبع سيكون هذا إنسانيَ أكثر من أبدية من الحسرة والندم.»

فأجابني: «صدق أو لا تصدق، الانفصال الدائم عن الله أسمى أخلاقياً من الإبادة. فلماذا يُبرِّر الله أخلاقياً لإبادة إنسان؟ عندما تُقصي الناس عن اختيار الانفصال المُدرك عن الله إلى الأبد، حسناً، فأنت تعامل الناس ههنا كوسائل لغاية معينة.

«الأمر يُشبه إجبار الناس للذهاب إلي السماء. فما تقوله هو «الشئ الذي يهم حقاً هو أن الناس لا يعودوا يعانون عن وعي، لذلك سأبيد هذا الإنسان خارج الوجود لتحقيق هذه الغاية، هل

تفهم؟ هذا معاملة الشخص كوسيلة لغاية معينة.

«ما يفعله الجحيم هو أن يميز أن الناس لهم قيمة جوهرية. وبما أن الله يحب القيمة الجوهرية، فعليه أيضاً أن يكون راعياً للأشخاص، لأن هذه معناه أنه راعياً للقيمة الجوهرية. إنه يرفض إبادة خليقة خُلقت علي صورته. ولهذا في الدينونة الأخيرة يكون الجحيم هو الاختيار المشروع الأخلاقي الوحيد.

«الله لا يحب ذلك، لكنه يعزلهم. وهذا يُمجد حرية إرادتهم. وهو لا يتعدى ذلك. في الواقع، فإن الله يعتبر الناس ذوي قيمة جوهرية حتى أرسل ابنه يسوع المسيح كي يعاني ويموت في مقابل أن – لو اختاروا – يقضوا الأبدية معه في السماء.»

لكن بعض اللاهوتيين يؤكدون أن الإبادة هي ما يعلمه الكتاب المقدس. فهم يقولون إن الكتاب المقدس يُعلم أنه بينما عقوبة الجحيم أبدية، فإن العقاب ليس أبدياً.

المؤمنون بتعليم الإبادة يميلون لاقتباس مزمور ٣٧ الذي يقول إن الأشرار «يُقطعون»؛ «كَالدُّخَانَ فَنُوا»؛ «أَمَّا الأَشْرَارُ فَيُبَادُونَ جَمِيعاً». ويشيرون إلي مزمور ١٤٥: ٢٠ حيث يقول داود: «يَحْفَظُ الرَّبُّ كُلَّ مُحِبِّيهِ وَيُهْلِكُ جَمِيعَ الأَشْرَارِ.» وإشعياء ١: ٢٨ «وَهَلاَكُ الْمُذْنِبِينَ وَالْخُطَاةِ يَكُونُ سَوَاءً وَتَارِكُو الرَّبِّ يَفْنُونَ.» ويؤكدون أيضاً أن الاستعارات التي استخدمها يسوع دليل علي نظرية الإبادة: «الأشرار يُربطوا ليُحرقوا» (٩)

سألتُ مورلاند: «أليس معني ذلك أن نظرية الإبادة متناغمة مع الكتاب المقدس، ومن ثم فهي طريقة معقولة لتوفيق عدل الله مع تعليم الجحيم؟»

فانتصب مورلاند قائلاً بإصرار: «لا، ليس هذا هو التعليم الكتابي. فعندما تحاول أن تفهم ما يُعلِّمه مؤلف، تبدأ بالفقرات الواضحة التي قصدها المؤلف للتحدث عن الموضوع، ثم تنتقل إلي الفقرات الغير واضحة التي ربما تكون غير مقصود منها التعليم بشأن الموضوع.

«دعني أشرح ذلك: هناك فقرات في الكتاب المقدس تقول إن يسوع المسيح مات من أجل كل إنسان، وهناك أيضاً غلاطية ٢: ٢٠ التي يقول فيها الرسول بولس إن المسيح «أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي»، فهل عليَّ أن أفترض الآن من هذه الفقرة أن المسيح مات فقط عن بولس؟ لا، ولم لا؟ لأن هناك فقرات واضحة تُعلم أن المسيح مات عن الجميع؛ ولذلك عندما نصل لعبارة بولس، نقول إنه من الواضح أن بولس لم يقصد أن يسوع قد مات عنه فحسب، لأننا نفسر الغير واضح في ضوء الواضح.

«والآن، ماذا عن هذه الفقرات المتعلقة بالجحيم؟ العهد القديم يتضمن فقرات واضحة عن الجحيم كونه أبدياً. فدانيال ١٢: ٢ يقول: «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ.» (١٠) والكلمة العبرية المُطابقة لكلمة أبدي *everlasting* مُستخدمة في كلا الحالتين. فلو قلنا إن الناس سيفنون في الجحيم، فيجب أن نقول أيضاً إنهم سيفنون في السماء. فلا يمكنك أن تتمتع بمزايا شيء ما دون التعرض لعدم مزاياه [ما فيش حلاوة من غير نار!]. وهذه الفقرة المقصود منها بوضوح أنها تُعلّم عن هذا الموضوع.

«في العهد الجديد، في متى ٢٥، يُقدّم يسوع تعليماً واضحاً حيث يقصد طرح قضية الحالة الأبدية للسماء والجحيم، ويستخدم نفس كلمة أبدي *everlasting* للإشارة لكلا الأمرين.

«ننتقل إذاً من هذه الفقرات الواضحة إلي التعليم الغامض عن «القطع». كل هذا الكلام عن الدمار والقطع في العهد القديم المقصود منه عادةً الناس المقطوعين من إسرائيل ومن الأرض. فمعظم هذه الفقرات لها علاقة ضعيفة - أو ليست لها علاقة – بموضوع الحياة الأبدية؛ ولكن لها علاقة بالقطع في هذه الحياة عن الوعود التي أعطاها إبراهيم للشعب في الأرض.»

فأشرتُ قائلاً بأن أصحاب نظرية الإبادة يقتبسون أيضاً اللغة الكتابية عن النار كدليل أن الناس يُدمرون أكثر مما يُعذبون إلي الأبد في الجحيم. وقد صاغ ذلك القس البريطاني اللامع جون

ستوت قائلاً: «إن النار نفسها يُصطلح عليها كونها «أبدية»، و»لا تُطفأ»، ولكن سيكون الأمر شاذاً جداً إن كان ما يُلقي فيها لن يكون مُعرَّضا للدمار. إن توقعنا سيكون العكس: فسوف يُستهلك إلي الأبد، لا سيُعذب إلي الأبد.» [11]

ومع ذلك، كان مورلاند عنيداً، فقال: «إن لغة النار مجازية. ففي سفر الرؤيا يُقال لنا إن الجحيم والموت سيُطرحان في بحيرة النار. والآن فإن الجحيم ليس شيئاً يمكنه أن يحترق. إنه مملكة. وهذا يُشبه القول بأن السماء يمكنها أن تُحرق. فالسماء ليست بهذا النوع من الأشياء الذي يحترق. وكيف تحرق الموت؟ الموت ليس بشيئ يمكنك أن تحرقه.

لذلك من الواضح أن بحيرة النار معناها الإشارة إلي الدينونة. فعندما يُقال إن نهاية مقررة للجحيم، فإن كلمة «جحيم» يكون معناها الإشارة إلي الحالة المؤقتة لمن هم بين مرحلة موتهم وبين القيامة العامة. وعند هذه النقطة، ستقدم لهم أجسادهم من جديد، وسيوضعون بعيداً عن الله. والموت ستُوضع له نهاية لأنه لن يكون هناك موتٌ فيما بعد. ولذلك فإن لغة بحيرة النار معناها بوضوح لغة مجازية للدينونة، وليس احتراقٌ حرفيٌ.»

الاعتراض السادس: كيف يمكن أن يوجد الجحيم جنباً إلي جنب مع السماء؟

تساءلتُ: «لو كان المقصود من السماء أن تكون مكاناً بلا دموع، فكيف يمكن أن يكون هناك جحيمٌ أبديٌ موجود في نفس الوقت؟» ألا ينوح من هم في السماء علي الذين يعانون إلي الأبد في الجحيم؟»

فقال مورلاند: «أولاً: أعتقد أن الناس في السماء سيُدركون أن الجحيم طريقة لتكريم الناس باعتبارهم كائنات قيمة جوهرياً مخلوقة علي صورة الله.»

ثانياً: كثيراً جداً ما تنبع قدرة الإنسان علي التمتع بشيئ من النمو

والحصول علي المزيد من الرؤية الناضجة. فعندما كانت طفلتيَّ صغيرتان، لم تكن إحداهما قادرة علي التمتع بهديةٍ ما لو كانت الأخرى قد حصلت علي هديةٍ أفضل قليلاً من هديتها من وجهة نظرها. وعندما كبرتا، كانت الواحدة قادرة علي التمتع بهديتها بغضّ النظر عن هدية الأخرى. في الواقع، لو كانت الواحدة تنزعج بخصوص ما كانت تحصل عليه الأخرى، فهي تسمح بذلك للأخرى أن تسيطر عليها.

قال سي إس لويس إن الجحيم ليس له حق الفيتو ضد السماء. وكان يقصد بذلك أن الناس في السماء لن يُحرموا من امتياز التمتع بحياتهم بسبب وعيهم بالجحيم. فلو لم يقدروا، سيكون للجحيم حق الفيتو ضد السماء.

«عليك أن تتذكر أن النفس كبيرة بشكلٍ يكفيها أن يكون لديها شعورٌ منسجمٌ من الفرح، والخير، والحبّ، والسعادة، وفي نفس الوقت يكون لديها شعورٌ بالحزن والأسي من أجل الآخرين. ليست هذه حالات غير متناغمة في حياة الإنسان؛ فهي علامة لشخصية الفرد ونضوجه حتى إنها قادرة أن تستوعب تلك الحالتين في نفس الوقت.

الاعتراض السابع: لماذا لم يخلق الله فقط الذين كان يعرف أنهم سيتبعونه؟

تساءلتُ: «بما أن الله يعرف المستقبل، فلماذا خلق إذاً أولئك الذين كان يعرف أنهم سيحيدوا عنه وستنتهي حياتهم في الجحيم؟ ألم يكن قادراً أن يخلق فقط أولئك الذين كان يعرف أنهم سيتبعونه ولا يخلق ببساطة الذين كان يعرف أنهم سيرفضونه؟ فهذا الاختيار سيبدو أنه إنساني أكثر من الجحيم.»

فقال مورلاند: «هذا يعتمد علي هدف الله. فلو كان الله قد اختار أن يخلق أربعة، أو ستة، أو سبعة أشخاص، فربما استطاع أن يخلق فقط أولئك الذين سيذهبون إلي السماء. لكن المشكلة هي أنه حالما يبدأ الله في خلق أناساً أكثر، يصبح من الأكثر صعوبة أن

يخلق من سيختارونه ولا يخلق من سيرفضونه.»

«لماذا؟»

«لأن أحد الأسباب التي يضعنا الله هنا من أجلها هو أن يعطينا فرصة للتأثير علي الآخرين.»

فكر مورلاند للحظات قبل أن يصل أخيراً إلي تشبيه. فتساءل: «هل تذكر أفلام العودة إلي المستقبل؟ هل تذكر كيف عادوا في الزمن، وغيروا بياناً واحداً بسيطاً، ثم عندما عادوا إلي المستقبل كانت المدينة قد تغيرت بأكملها؟ أعتقد أن هناك قدرٌ من الحق في ذلك.

«إن الحقيقة البسيطة هي أننا نتأثر بملاحظة الآخرين. افترض مثلاً أنه عندما كنتُ صبياً صغيراً أعطي الله والديّ اختيار الانتقال إلي إلينوي لأنهما عارضا البقاء في ميسوري. لنقل إنه جاراً مسيحياً كان مرائياً، وقد لاحظتُ هذا الرجل، واخترتُ بسبب أسلوب حياته أن أرفض الإنجيل بقية أيام حياتي. والآن افترض أن رفاق العمل كانوا ينظرون إليَّ كيف كنتُ بغيضاً، وأن خمسة منهم قد صاروا تابعين للمسيح بسبب مثالي الردئ لما تبدو عليه حياة إنسان غير مسيحي. حسناً، لو ذهبنا إلي إلينوي، لغاب عنا واحد – وهو أنا – لكن يكون خمسة أفراد قد نالوا الفداء.

«من الناحية الأخرى، افترض أن الله لا يختار تقديم عرض وظيفة جديدة لأبي، ومن ثم نبقي في ميسوري. فربما أقابل مدرب رياضي مسيحي يغمرني بحياته وينتهي بي الحال أن أتبع الله بسبب ذلك. لكن بسبب أن حياتي المسيحية ليست ما يجب أن تكون عليه حقاً، يُقنع خمسة أفراد بغير المسيح.

«هل تفهم رؤيتي؟ إنه سيناريو عودة إلي المستقبل. فعندما يُختار الله أن يخلق شخصاً، يكون له تأثير علي اختيارات الآخرين، وربما يكون له تأثير علي قراراتهم بالإيمان بالمسيح أو لا.

«هناك جزء أخر من ذلك يتعلق بكيفية خلق النفس. هناك رؤية أن النفس تأتي إلي الوجود أثناء لحظة الحمل، وبشكلٍ ما تُمرَّر من

خلال الوالدين. أي إن الإمكانات التي للنفس محتواه في البويضة والحيوان المنوي للأب والأم، وهذا يُسمي *Traducianism*[1] . وهذا معناه أن والديَّ قد خلقا نفسي بفعل التوالد. ومن ثم لا يمكن أن يكون لي والدان مختلفان. وهذا معناه إذاً أن الطريقة الوحيدة التي استطاع الله أن يخلقني بها هي إن كان نسبي السلفي بأكمله قد سبقني، لأن جدوداً مختلفين معناه آباءً مختلفين، ومن ثم أدوات مختلفة للنفس.

«وهاك تضمين الـ *Traducianism* لسؤالنا: علي الله أن يزن تماماً سلاسل سلفية مختلفة في مجموعها. ولا يمكنه أن يزن أفراداً فحسب. ولذلك فربما يكون أن الله يسمح باتحاد بعض السلاسل معاً، حتى أن بعض الأفراد الذين يرفضون المسيح فيها – ولنقل افتراضاً جد جد جدي – يسمحون للمولودين فيما بعد أن يؤمنوا بالمسيح. وهذا معناه أن الله يوازن السلاسل البديلة وليس فقط البشر البديلة.

«عندما يقوم الله بهذه الدينونات، يكون قصده لا أن يحفظ الكثير من الناس خارج الجحيم بقدر الإمكان، بل أن يأتي بالكثيرين إلي السماء بقدر الإمكان.

«والأسوأ لأنه ربما يسمح بمزيد من الناس الذين سيختارون الذهاب إلي الجحيم أن يُخلقوا لجذب عدداً أكبر من الناس يختاروا الذهاب إلي السماء.

الاعتراض الثامن: لماذا لا يعطي الله الناس فرصةً ثانية؟

يقول الكتاب المقدس بصراحة: «وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّيْنُونَةُ.» (١٢) ولكن لو كان الله محباً في الحقيقة، فلماذا لا يعطي الناس فرصةً ثانية بعد الموت لصنع قرار إتباعه والذهاب إلي السماء؟

تساءلتُ: «لو كان الناس قد تذوقوا الجحيم، ألا يعطيهم ذلك

---

١ الإيمان بأن النفس قد وُهبت من قَبل الوالدين مع الجسد – المترجم

اتجاهاً قوياً لتغيير أفكارهم؟

فقال مورلاند: «هذا السؤال يفترض أن الله لم يفعل كل ما كان يستطيعه قبل أن يموت الناس، وأنا أرفض ذلك. فالله يفعل كل ما يستطيعه ليعطي الناس فرصة، ولن يكون هناك إنسانٌ واحد سيكون قادراً أن يقول لله: «لو لم تسمح لي أن أموت قبل ميعادي، لو كنت قد منحتني عاماً آخر، لكنتُ قد قمتُ بهذا القرار.»

«الكتاب المقدس يقول لنا إن الله يُبطئ مجئ المسيح إلي الأرض كي يمنح كل إنسان الفترة الكافية بقدر المستطاع حتى يأتي إليه.[١٣] فلو كان كل ما يحتاجه الإنسان وقتاً إضافياً قصيراً للمجئ إلي المسيح، فسوف يمد الله وقته علي هذه الأرض ليمنحه تلك الفرصة. ومن هنا لن يكون هناك أي إنسان كان بحاجة لوقت إضافي قصير أو مات قبل آوانه استجاب لفرصة أخرى لقبول المسيح.

«الله عادل. فهو لا يحاول أن أن يجعل هذا صعباً على الناس. أؤمن أنه من الممكن بالتأكيد أن أولئك الذين يستجيبون للنور من الطبيعة أنهم قد قبلوه إما أن تكون بشارة الإنجيل قد أرسلتْ لهم، أو أن الله سيدينهم بناءً على معرفته بما كان من الممكن أن يفعلوه لو كانت قد أتيحتْ لهم فرصة لسماع الإنجيل. الحقيقة البسيطة هي أن الله يُكافئ أولئك الذين يريدونه.» [١٤]

ومع ذلك كان هذا يعالج جزءاً من السؤال، فقلتُ: «مهلاً، ألن يكون الموت والوعي بحضور أو بغياب الله بعد أن تموت شيئاً دافعاً جداً بالنسبة للناس؟»

«بلي، ولكن بأسلوب سلبي. أولاً: عليك أن تدرك أنه كلما عاش الناس منفصلين عن الله لفترةٍ أطول، كلما قل احتمال قدرتهم علي اختبار حرية إرادتهم وثقتهم به. ولذلك فإن معظم الناس الذين يأتون إلي المسيح يفعلون ذلك حينما يكونون صغاراً. فكلما تعيش بعادة سيئة لفترة أطول، كلما كان التحول عن هذه العادة صعباً. هذا ليس مستحيلاً - لكنه أكثر صعوبة. لذلك ما الذي سيجعل الناس يفكرون مثلاً أن فترة حضانة عشر سنوات من الانفصال

عن الله ستجذب انتباههم؟

«بالإضافة إلي ذلك، فإن هذا سيجعل الحياة قبل الموت لا علاقة لها بالموضوع أصلاً. ومن هنا يكون السؤال: لماذا لم يخلق الله الناس منذ البدء بفترة الحضانة؟ لماذا خلقهم علي الأرض لمدة ٧٥ عاماً، وسمح أن يموتوا ثم يضعهم في فترة الحضانة لو كانت فترة الحضانة هي التي يحتاجونها فعلاً في المقام الأول؟ هاك الحق، يا لي Lee، هذه الحياة هي فترة الحضانة!

«الشيء التالي الذي لا بدَّ أن تضعه في ذهنك هو: لو أن الناس رأوا عرش دينونة الله بعد الموت، فسوف يكون الأمر إكراهياً تماماً ألا تكون لهم قوة حرية الإرادة فيما بعد. فأي قرار فعلوه لن يكون حرية إرادة أصلية حقيقية، بل يكون مُكرهاً تماماً.

«ويكون الأمر مثل أن أُمسك غادوفاً فوق ابنتي وأقول: «ستتأسفين إلي أختك لارتداء فستانها دون استئذان»، فأي اعتذار لن يكون اعتذاراً حقيقياً، بل سيكون مجرد تجنب. والناس الذين يختارون في فرصة ثانية لن يختاروا حقاً الله - ملكوته، أو طرقه، ولا سيكونوا مُهيئين للحياة معه في ملكوته. لكنهم سيقدمون «اختياراً» حذراً فقط لتجنب دينونته.

«سأقترحُ شيئاً أخر. الله يحتفظ بتوازن مرهف بين الحفاظ علي وجوده بشكلٍ واضح بما فيه الكفاية حتى يعرف الناس أنه هناك، وفي نفس الوقت إخفاء وجوده بما فيه الكفاية حتى أن من يريدون أن يختاروا تجاهله يمكنهم ذلك. وهكذا فإن اختيارهم المصيري سيكون اختياراً حراً تماماً.»

الاعتراض التاسع: أليس تناسخ الأرواح أكثر عقلانية من الجحيم؟

الهندوس يرفضون فكرة الجحيم. وبدلاً من ذلك يؤمنون بتناسخ الأرواح؛ حيث يرجع الناس إلي هذا العالم في هيئة أخرى بعد موتهم، وتُمنح لهم فرصة أخرى للقيام بـ الكارما السيئة *the bad karma* التي أنتجوها في حياتهم السابقة وينتقلون إلي الاستنارة.

تساءلتُ: «ألا يعد تناسخ الأرواح أسلوباً عقلانياً بالنسبة لإله محب أن يمنح الناس بداية جديدة حتى يمكنهم أن يتوبوا خلال المدة القادمة ولن يكون مضطراً لإرسالهم إلي الجحيم؟ أليس هذا مفضلاً علي الجحيم؟»

فأجابني: «تذكر، نحن لا نقرر ما هو حقيقي بناءً علي ما نحبه أو ما لا نحبه. فعلينا أن نفكر في البرهان. لستُ أعرف أي طريق أخر لتقرير ما إذا كان شيء صحيح إلا من خلال النظر إلي البرهان.

فقلتُ: «نعم، ولكن أليس هناك برهان لتناسخ الأرواح – وخاصة الأشخاص الذين لديهم ذكريات لحياة مبكرة أو حتى التحدث بلغات لا يعرفونها؟»

فقال: «أعتقد أن برهان تناسخ الأرواح ضعيف لعدة أسباب. فمثلاً هو برهان غير متماسك. دعني أشرح لك السبب. رقم ٢ هو رقم زوجي أساساً. فلو قلتَ لي إنك تتأمل في الرقم ٢، لكنه رقم شاذ، لقلتُ لك: «يمكنك أن تُفكر في رقم ٣ أو ٥، ولا تفكر في ٢، لأنني سأقول لك شيئاً واحداً أساسياً بالنسبة لذلك – إن رقم ٢ رقماً زوجياً.

«والآن ليس أساسياً بالنسبة لي أن طولي كذا. ليس أساسياً بالنسبة لي أنني أزن ١٦٥ رطلاً. لكن الأساس بالنسبة لي أنني إنسان.

«لو كان لكَ أن تقول: «مورلاند في الغرفة الأخرى، وقد فقد خمسة جنيهات، فمعظم الناس سيقولون: «حسناً له.» فماذا لو قلت: «مورلاند في الغرفة الأخرى، وتخيل! إنه مكعب من الثلج»، فمعظم الناس سيقولون: «لا يمكن أن يكون هذا هو مورلاند، لأنه إن كان هناك شئ واحد أعرفه عنه، فهو أنه إنسان، وليس مكعب ثلج.»

«حسناً، تناسخ الأرواح يقول إنه يمكنني أن أعود إلي الحياة في صورة كلب، أو أميبا، فأنا لستُ أدري لماذا لم أستطع أن أعود كمكعب ثلج. ولو كان هذا حقيقي، فما الاختلاف بين أن

تكون مورلاند وأن تكون أي شيء أخر؟ لا شيء أساسي بالنسبة لي. وكما أن الازدواج شئٌ أساسي بالنسبة للرقم ٢، فالإنسانية شئٌ أساسي بالنسبة لي. وتناسخ الأرواح يقول إن ما هو أساسي بالنسبة لي ليس أساسياً حقاً علي أي حال.»

فتعجبتُ: «إذاً هو غير متماسك.»

فقال: «تماماً، والسبب الأخر هو أنني لا أؤمن بتناسخ الأرواح بسبب كل هذه البراهين التي اقترحتها أنت - أشياء من قبيل الذكريات المُفترضة للحياة السابقة - يمكنها أن تُفسر بصورة أفضل بوسائل أخرى.

«يمكن أن تكون هناك تفسيرات نفسية - فالناس يبدو أنهم يتذكرون تفاصيل معينة، لكنها تخمينات محفوظة أو غامضة، أو يمكن أن تكون هناك تفسيرات شيطانية لبعض أوجه هذا النشاط. حقاً، عندما تفحص البحث بحرص، ستجد أنه يفشل في تدعيم تناسخ الأرواح. [١٥]

«وأخيراً لستُ أؤمن بتناسخ الأرواح لأن هناك خبيرٌ في هذا السؤال، وهو يسوع الناصري. فهو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي مات وقام من الأموات وتكلم بسلطان حول هذه القضية. يقول المسيح إن تناسخ الأرواح زائف، وإن هناك موتاً واحداً وبعد ذلك الدينونة. وقد قام رسله - الذين علمهم بوضوح - بتكرار تعاليمه حول ذلك.»

بدلاً من ذلك، علّم يسوع عن واقعية الجحيم. ففي الواقع، ناقش هذا الموضوع أكثر من أي إنسانٍ أخر في الكتاب المقدس. فأشرتُ قائلاً: «من السخرية أن ملحدين كثيرين يقبلون يسوع كمعلم عظيم، ومع ذلك فهو الواحد الذي كان لديه الأكثر ليقوله عن الجحيم.»

فقال مورلاند: «نعم، وتذكر هذا: البرهان هو أن يسوع وتابعيه كانوا فاضلين. فلو أردت أن تعرف كيف ترى الفقراء، فاسأل إنساناً كالأم تريزا. ولا تسأل هيو هيفنر؛ لأن إنساناً كالأم تريزا لديها من الصفات ما يفوق هيفنر. وإن أردتَ أن تعرف ما إذا كان

الجحيم عادلاً بشكلٍ أساسي، فأسأل يسوع. وهاك الدليل: إنه لم ير أية مشكلة مع التعليم.

«أعتقدُ أننا في وضع محفوف بالمخاطر عندما نقارن مشاعرنا وإدراكاتنا الأخلاقية بمشاعر وإدراكات يسوع. فبهذا نقول إن لدينا بصيرة أعظم منه للنفاذ إلي ما هو عادل وما هو غير عادل. وأعتقد أن ذلك ليس ما يجب أن نعلنه.

الحق عن الجحيم

استندتُ للخلف علي الأريكة وفكرتُ للحظات. لقد أجاب مورلاند ببراعة علي أقسى الاعتراضات المتعلقة بموضوع الجحيم. وكان عليَّ الاعتراف أنني عند جمعت كل إجاباته معاً، بدا أنها تقدم عرضاً معقولاً حول هذا التعليم.

ومع ذلك، فهذا لم يزيل عدم ارتياحي. وقد كنتُ في صحبة جيدة. قال سي إس لويس ذات مرة إن عقيدة الجحيم «أحد الأسباب الرئيسية التي تُهاجم بها المسيحية كديانة بربرية، ويُطعن بسببها في صلاح الله.» (١٦)

بالنسبة لمورلاند، تحدث كفيلسوف وكلاهوتي، لكني كنتُ فضولياً بخصوص رد فعله الشخصي تجاه الموضوع. فسألته: «ماذا عنك يا مورلاند؟ لقد نسجتَ حججاً مقنعة في صالح التعليم - ولكن كُن أميناً - ألا تأتيك أوقات تشعر فيها بعدم الارتياح الشديد لوجود الجحيم؟»

فخلع مورلاند نظارته ذات الإطار الفضي، وفرك عينيه قبل الكلام. وقال: «إطلاقاً. لا جدال. ولكن، من جديد، أن أشعر بعدم الارتياح حول شئ ليس معناه أن تكون لي دينونة عقلانية معتبرة وتكون خاطئة. أؤمن أن الجحيم يمكن تبريره أخلاقياً، لكني لا أشعرُ بالارتياح تجاهه لأنه أمر محزن.»

توقف وواصل: «لتتذكر أن الله لا يشعر بالارتياح تجاهه أيضاً. فالله لا يحبه. لذلك ما هي الاستجابة المناسبة للشعور بعدم

الارتياح؟ لا أن أحاول خلق رؤية من الحياة الأخرى تمنعني من الشعور بعدم الارتياح. فهذه طريقة مرعبة للاقتراب إلي الحق. لكن الشئ المناسب عمله هو الاعتراف بأن الجحيم حقيقي، والسماح لمشاعر عدم ارتياحنا أن تُحفزنا علي العمل.

«بالنسبة لمن لا يعرفون المسيح، يجب أن يحفزهم لمضاعفة جهودهم لطلبه والعثور عليه. و بالنسبة لنا نحن الذين نعرفه، يجب أن تجعلنا نضاعف جهودنا لنشر رسالة رحمته ونعمته لمن يحتاجونها.

ونحن بحاجة للحفاظ علي المنظور الصحيح من خلال هذا كله. تذكر أن الجحيم سيكون إلي الأبد أثراً للكرامة الإنسانية، وقيمة الاختيار الإنساني. إنه عزلة حين يقول الله شيئين مهمين: «أنا أحترم حرية الاختيار لدرجة إنني لن أجبر البشر، وأقيم حاملي صورتي لدرجة أنني لن أبيدهم.»

«هل يمكنك أن تري كيف أن عقيدة الجحيم يمكن أن تكون حجر عثرة بالنسبة للباحثين الروحيين؟»

«نعم، وأود أن أقول شيئاً حول ذلك. كلما تحاول أن تبدأ صداقة مع أي إنسان، لن تفهم كل شئ عنه، وليس بالضرورة تتوافق أو تشعر بارتياح بخصوص كلّ رؤاه. ولكن عليك أن تتساءل سؤالاً جوهرياً: «هل تثق بذلك الإنسان لدرجة أن تريد الدخول في صداقة معه؟

«نفس الأمر ينطبق مع يسوع. فكل موضوع فردي لن يجد طريقه للحل قبل أن ندخل في علاقة معه. لكن السؤال الجوهري هو هل يمكنك الوثوق به؟

«سأشجع أي باحثٍ روحي على قراءة إنجيل يوحنا ثم يتساءل: «هل أؤمن بيسوع؟» أعتقد أن الإجابة هي نعم. وأنا أؤمن أنه بينما ننمي علاقتنا معه بمرور الوقت، سنصل إلي الثقة به في تلك الأوقات التي نفتقد فيها الفهم الكامل.»

ما الذي سيفعله الله؟

جعلتُ كلمات مورلاند تتأصل للحظات قبل الوقوف وتقديم الشكر له علي وقته ومعرفته: قلتُ: «لقد كان موضوعاً صعباً. أقدِّر استعدادك للتحدث عنه.»

فاؤما مبتسماً وقال: «عفواً، أتمني أن يكون مفيداً.»

قادني للخارج، حيث تصافحنا الأيدي، وقفزتُ في السيارة للعودة إلي المطار. ازدحام المرور لم يزعجني؛ فقد كان أمامي المتسع من الوقت قبل انطلاق رحلتي. في الحقيقة آثرتُ القيادة المتمهلة لأنها أتاحت لي فرصة للتأمل في اللقاء.

هل كان الجحيم الاختيار الوحيد المتاح لله؟ هل هو عادل وأخلاقي؟ هل التعليم متناغم منطقياً؟ بوضوح، اعتقد يسوع ذلك. وأنا آمنتُ أن تحليل مورلاند كان كافياً بشكلٍ شامل للتغلب علي موضوع الجحيم كعقبة.

لم يكن هذا معناه أنني كنتُ مرتاحاً تماماً بكل فارق دقيق من النقاط التي قدمها. لكن كان معناه أن تفسيراته - عندما تتجمع معاً - كانت أقوى بشكلٍ كاف لا يدعوني السماح لهذا الموضوع أن ينحرف برحلتي الروحية.

بينما كانت مُحاصراً وسط ازدحام مرور لوس أنجلوس الذي لا مفر منه، مددتُ يدي لحقيبتي، وفتشتُ عن مواد البحث التي جمعتها لإعداد حديثي مع مورلاند. وأخيراً، تمكنتُ من سحب شريط لقاء سابق عن الجحيم كنتُ قد أجريته مع اللاهوتي اللامع كارسون Carson D.A.. وضعتُ الشريط في جهاز التسجيل، وقدمته لسماع بعض الملحوظات التي بدا أنها خاتمة مناسبة للظهيرة:

> الجحيم ليس مكاناً يُودع فيه الناس لأنهم كانوا رجالاً صالحين، بل أنهم ببساطة لم يؤمنوا بالشيء الصحيح. إنهم يُودعوا هناك أولاً وأخيراً لأنهم يتحدون خالقهم، ويريدون

أن يكونوا في مركز الكون. الجحيم ليس مليئاً بالناس الذين تابوا فعلاً، والله ليس وديعاً بشكلٍ كاف أو صالح بشكلٍ كاف كي يدعوهم خارجاً. إنه ملئ بالناس الذين مازالوا يريدون علي الدوام أن يكونوا مركز الكون ويصممون في تمردهم الذي يتحدى الله.

ماذا سيفعل الله؟ لو قال إن هذا الأمر لا يهمه، فلا يعد الله إلهاً يُعجب به. فإما أن يكون لا أخلاقي أو أنه مراوغ بشكل إيجابي. فبالنسبة له، أن يتصرف بأي أسلوب آخر في وجه مثل هذا التحدي السافر هو التقليل من شأن الله نفسه. (١٧)

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• ماذا كان مفهومك عن الجحيم قبل قراءة هذا الفصل؟ كيف دعم أو صدَّ تحليل مورلاند هذه المعتقدات؟

• قال مارك توين Mark Twain: «*Heaven for the climate; hell for the companionship*» في ضوء وصف مورلاند، فكيف تستجيب لمن يُقدِّم هذه الملحوظة؟

• هل كانت عقيدة الجحيم عقبة بالنسبة لك كباحث روحي أو كمؤمن بالمسيحية؟ بأية أساليب محددة تعامل مورلاند بالهموم التي جعلتك تتراجع في رحلتك الروحية؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Gary R. Habermas and J. P. Moreland. Beyond Death: Exploring the Evidence for Immortality. Wheaton, III.: Crossway، 1998.

• Michael J. Murray. "Heaven and Hell." In Reason for the Hope Within, ed. by Michael J. Murray, 287-317. Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1999.

• William V. Crockett, editor. Four Views on Hell. Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1996.

٧

الاعتراض السابع

تاريخ الكنيسة مُكدَّس بالظلم والعنف

«لقد اُستغلت المسيحية عبر التاريخ [من قَبل بعض الأشـخـاص] كمبرر لأكثر الأهـوال الحمقاء القاسية الوحشية المعروفة للإنسان. والأمثلة التاريخية لا تصعب على التذكر: الحملات الصليبية، محاكم التفتيش، إحراق السحرة، الهولوكوست .... لم أر في المسيحية الكثير حتى أعتبر أنها تستحق أن أدين بها.» كين شي – ملحد [١]

«لقد كانت المسيحية عطية للبشرية ... وكان لها تأثيرٌ مفيد على الجنس البشري ... فمعظم الذين يعيشون اليوم في بيئة مسيحية ظاهرية بأخلاقياتٍ مسيحية لا يُدركون كم ندين ليسوع الناصري ... فكم من الخير والرحمة الموجودة في هذا العالم قد تدَّفقت بمقدارٍ عظيم منه هو.»

جيمس كينيدي – مسيحي [٢]

كان وين أولسون على الدوام هو الأكثر مرحاً في مجموعته. كقاض مهيب محترم له عينان زرقاوان شاحبتان، وهالة من الشعر الأبيض، كان أولسون يُمتع كل واحد بقصص مضحكة للغاية من خبراته الغريبة أحياناً من محكمة جنايات كوك كاونتي. كان يتمتع بذكاء حاد، وبقدرةٍ مذهلة على المرح، وبأكبر قدر من المودة المُشجعة التي يمكن أن يتصف بها مسئول كبير في شيكاغو.

كان أولسون غير مشهور، لكنه كان قاضياً حي الضمير فيما يبدو. لقد أحب بشكلٍ خاص أن يرى اسمه في الصحافة؛ لذلك كان عادةً ما يُقدِّم لي القصص عندما كنتُ مراسل الشيكاغو تريبيون في مبني المحاكم الجنائية علي الجانب الغربي من شيكاغو.

في نهاية اليوم، أحياناً ما كنا نسترخي في مكتبه ونتبادل النكات. وعادةً ما كنا نُطلق بعض الضحكات بعد تناول المشروبات في مقهى Jeans، وهو مقهى مشهور، حيث كان يستضيف كل من لديه قصصٍ عن كيف تمكن من دفع نفقات كلية الحقوق من خلال العمل طبالاً في فرقة بولكا polka. ولأنه كان شخصاً انبساطياً بشكلٍ كبير، فلم يحتمل أن يكون وحيداً.

ذات مرة اتصل بطاقم الصحافة، ودعاني لحفل زفاف. ذهبتُ إلي مكتبه، ووجدتُ أولسون المرح يُشرف علي زواج مفاجئ لقاطع طريق مقيد اليدين- كان قد حُكم عليه تواً بثلاث سنوات في السجن - وصديقته الحامل. وعلي الفور اختارني أولسون كشاهد العريس.

وقال مبتسماً بعدما قاد المساعدون العريس خارجاً بعد احتفالٍ لمدة دقيقتين: «عذراً، لا يوجد شهر عسل.»

كقاضي مخدرات يسمع قضايا إجرامية روتينية، لم يكن أولسون في وضع يمهد أية طرق قضائية جديدة. فعلى الأقل، لم يكن الأمر عمداً. ومع ذلك، ففي إجازة عيد الشكر لعام ١٩٨٠، أصبح أولسون دون علمه متورطاً في حادث غير مسبوق في القضاء الأمريكي.

بعدما غادر أولسون مقر المحكمة، متوقعاً إجازة راحة لمدة أربعة أيام، اقتحم فريق من عملاء وكالة الاستخبارات الأمريكية FBI في سرية مكتبه المُظلم، ووضعوا جهاز تنصت مُصرّح به قانونياً. وقد أشار ذلك للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة أن الاستخبارات الفيدرالية قد تنصتتْ علي مكتب قاضٍ مقيم، وهو شرفٌ لو كان أولسون قد عرفه لكان قد تخلى عنه لأي إنسانٍ آخر.

تيرانس هيك - المُدّعي المعين للعمل في محكمة أولسون - كان في الواقع عميل سري، وجزء من تحري حكومي سري يُدعى «عملية جري لورد "Opertation Greylord". بعدما عاد أولسون من الإجازة، عندما كان أي إنسان تحت المراقبة يدخل مكتبه، كان هيك يستخدم جهاز إرسال مختفي لإرسال رسالة مُشفرّة لأحد عملاء الـ FBI المتمركز في سيارة تركن بالخارج. وكان العميل بعد ذلك يرسل لمُتحرٍ آخر كي يقوم بتفعيل جهاز التنصت حتى يتمكن العملاء من الإصغاء لما كان يدور خلف الأبواب المغلقة. (٣)

على العموم، تم تسجيل أكثر من ٢٥٠ ساعة من المحادثات - وقد أكدت الشكوك الحكومية أن القاضي كان يحيا حياةً مزدوجة. فلقد إتضح أن أولسون المحبوب، المنبسط، وصاحب الشعبية الجارفة في المحكمة، مبتزاً فاسداً بشكلٍ رهيب؛ فقد كان يبيع العدالة لمن يدفع أكثر.

مُسجلٌ علي الشرائط إلي الأبد، كان أولسون يقبل الرشاوي من المساعدين ومُحّرفي العدالة في كل مرة. وفي أحد المواقف سُمع وهو يقول: «أحبُ الناس الذين يأخذون الرشاوي لأنك تعرف تماماً أين تقف.» (٤) في الواقع، في غضون أيام بعد وضع جهاز التنصت، استمع العملاء في اندهاشٍ أولسون وقد سوّى بوقاحةٍ قضية مخدرات مع محامٍ غير شريف:

أولسون: أنا جامع نقود.

المحامي: هل ٢٠٠ دولاراً كافية أيها القاضي؟ لقد خصصتُ ٧٦٥ [دولاراً] لهذا اليوم.

أولسون: حسناً، لقد قمتُ بصفقةٍ مع شخص، لكني سأعطيها لك، فأنت يمكنك القيام بعملٍ أفضل.

المحامي: لقد أعطيتك اثنتين [٢٠٠ دولاراً]. لو لم تكن كافية فأخبرني. مهما كانت الصفقة ....

أولسون: أحبُ من يدفع لي نصف ... ما يحصل عليه ...

ففي بعض الأيام لا أحصل علي شئ. ومن المُخجل أن يأتي شخص إلى هنا ولا يكون معه شيئاً. (٥)

تركتُ شيكاغو تريبيون لتحرير صحيفة أخرى عندما انتشرت الأخبار المذهلة: أولسون يُتهم بـ ٥٥ فقرة اتهامية من الرشوة والابتزاز. هززتُ رأسي. لقد خدعني، وخدع رفاقه، وخدع العامة لسنواتٍ طويلة جداً. شعرتُ بالخيانة والغضب إثر استخفافه المتكبر بنفسِ القوانين التي أقسم علي التمسك بها. لقد انقلب عليه الحظ تماماً؛ فالقاضي الذي كان يتحكم ذات مرة في مصير الآخرين كأنه ملك وجد نفسه الآن محكوماً عليه باثنتي عشرة سنة في سجن فيدرالي.

ولم يذهب إلي السجن وحده. فعشرات القضاة والمحامين المنحرفين وجدوا أنفسهم أيضاً مجروفين في شبكة عملية جري لورد - أكثر تحقيق سريٍ ناجح في تاريخ نظام محاكم كوك كاونتي - وهو تحري أثار أسئلة، بالتشابه، لها علاقة أيضاً بالمسيحية.

فاسد حتى النخاع؟

كان أحد الموضوعات التي طرأت علي السطح خلال عملية جري لورد هو: عندما يُكتب تاريخ شيكاغو، فهل سيُنظر إلي جرائم أولسون ومسئولي المحكمة الفاسدين الآخرين علي أنها تشابهات في نظام شريف آخر للعدالة؟ وبأسلوبٍ أخر، هل جهاز العدالة الإجراميٍ بلا شوائب أساساً ونزيه فيماعدا تلك اللطخات النادرة التي حدثت عندما حاول قاضي محتال أن يرتشي لنفسه؟

أم أن أولسون ورفاقه عُرضة للفساد المنظم المنتشر حتى إنهم أفسدوا DNA العدالة في كوك كاونتي؟ هل نظام المحكمة مُعرَّضٍ حتى النخاع للابتزاز والمحاباة، حتى إن قضية أولسون كانت حقاً نافذة لـ «العمل المعتاد» داخل القضاء المحلي؟

نفس هذه الأسئلة يمكن طرحها بخصوص المسيحية بشكلٍ أساسي. فالمسيحيون يميلون لرؤية حالات سوء استغلال الكنيسة والعنف خلال القرون كتشابهات في أية مؤسسة إيجابية أخرى.

ومع ذلك، فالنقاد أكثر استعداداً لاعتبار الصور الزائفة كالحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، ومحاكمات ساحرات سالم كتفسير لمشكلةٍ أعمق: أن المسيحية نفسها مُلّطخة حتى النخاع برغبةٍ متعطشة للسلطة لفرض إرادتها علي الآخرين - حتى ولو كان من خلال العنف والاستغلال إن كان هذا ضرورياً. قال أحد أشهر ملحدي التاريخ الحديث - برتراند رسل - إن هذا يصعب تجنبه:

> بمجرد أن يُفترض أن الحق المطلق سوف تتضمنه أقوال رجل معين، فسوف تكون هناك مجموعة من الخبراء لتفسير أقواله، وهؤلاء الخبراء يستوعبون القوة بشكلٍ معصوم؛ وذلك لأنهم يمسكون مفتاح الحق. ومثل أية طائفة متميزة أخرى، يستخدمونٍ قوتهم لمصلحتهم الشخصية ... إنهم يصيرون خصوماً بالضرورة لكل تقدمٍ أخلاقي ومعرفي. (٦)

وبالطبع فإن الأهوال التي اُرتكبت تحت اسم يسوع كانت بمثابة موانع صواعق بالنسبة لخصوم الإيمان. قال الفيزيائي الحائز على جائزة نوبل ستيفن وينبرج: «بالدين أو بدونه، يمكن أن يكون لديك أخيار يفعلون خيرات وأشرار يفعلون شروراً. ولكن بالنسبة للأخيار الذين يفعلون شروراً، فهذا يتطلب الدين.» (٧)

لقد كانت سوء الاستغلالات التي قامت بها الكنيسة أحد العوامل التي دفعت كين شي لاتخاذ خطوة جمع لفظتين متناقضتين لتأسيس مؤسسة أسماها «ملحدون ليسوع Atheists for Jesus» التي تعترف بما تدعوه أن يسوع هو «رسالة المحبة والوداعة» دون قبوله كالله، ودون قبول الكنيسة كبيته.

كان نفور تشارلز تمبلتون من كثير مما حدث من قَبل الكنائس واضحاً في حوارنا كما هو في كتاباته. فبينما قرر أن الدين المُنظم قد قدم «خيراً لا يُقاس»، إلا إنه إتهم أنه «نادراً ما كان على أفضل أحواله. فكثيراً جداً ما كان تأثيراً سلبياً ... وعبر القرون وفي كل قارة، كان المسيحيون - تابعي رئيس السلام - هم سبب

الصراع والمتورطين فيه.» [٨] فعلى سبيل المثال شبه الكنيسة خلال العصور الوسطى كونها «منظمة إرهابية». [٩]

هل هذا التخمين مؤكد بالبيانات التاريخية؟ هل من الممكن أن يدافع المسيحيون عن أنفسهم ضد المجازر الدموية الوحشية للحروب الصليبية والتعذيب الوحشي لمحاكم التفتيش؟ هل أمثلة العنف والاستغلال هذه تقدم طرازاً متواصلاً للسلوك يجب أن تحفز بشكلٍ مبرر الباحثين الروحيين لتجنب الدين المنظم؟

هذه أسئلة مُربكة، ولكن لحسن الحظ لم أضطر للسفر بعيداً جداً للحصول علي الإجابات. فقد كان واحدٌ من أشهر مؤرخي المسيحية يسكن علي بعد أقل من نصف الساعة من بيتي حينما كنتُ أسكن في ضاحية شيكاغو.

اللقاء السابع: جون. د. وودبريدج – دكتوراه في الفلسفة

بعد الحصول علي شهادة الماجستير في التاريخ من جامعة ميتشغن الحكومية، حصل وودبريدج الذي يجيد التكلم بلغتين على شهادة الدكتوراه من جامعة تولوز في فرنسا. وحصل علي عضوية ومنحة فولبرايت من المنحة الحكومية للدراسات الإنسانية *National Endowment for the Humanities*؛ والمجلس الأمريكي للاجتماعيات المتعلمة *American Council of Learned Societies*. وقام بالتدريس في عدد من الجامعات المدنية، بما فيها قسم الدين، *Hautes Etudes*، السوربون، باريس. والآن يعمل أستاذاً باحثاً في تاريخ الكنيسة في مدرسة اللاهوت الإنجيلية في دير فيلد، إلينوي.

تتضمن كتب وودبريدج العديدة المتعلقة بالتاريخ أعمال تقنية مثل «التمرد في فرنسا فيما قبل الثورة: مؤامرة أمير كونتي ضد لويس الخامس عشر ١٧٥٥ـ ١٧٥٧»، الذي نشرته مطبعة جامعة جون هوبكنز، والمزيد من الجهود مثل القادة العظماء للكنيسة المسيحية *Great Leaders of the Christian Church*؛ أعظم من منتصرين *More Than Conquerors*؛ سفراء للمسيح *Ambassadors for*

Christ. وكتب أيضاً كتباً عن اللاهوت والدراسات الكتابية مثل التفاسير، والسلطان، والقانون *Hermeneutics, Authority and Canon*؛ والكتاب والحق *Scripture and Truth*، وكلاهما اشترك في تأليفهما مع كارسون؛ والسلطان الكتابي *Biblical Authority*. بالإضافة إلي ذلك، عمل كمحرر أعلى لـ المسيحية اليوم لمدة عامين.

وودبريدج عضو كثير من الجمعيات التاريخية الرئيسية في الولايات المتحدة وفرنسا، بما فيها الجمعية التاريخية الكاثوليكية الأمريكية *American Catholic Historical Association*؛ الجمعية الأمريكية لتاريخ الكنيسة *American Society of Church History*؛ والجمعية الأمريكية لدراسات القرن الثامن عشر *American Society of Eighteenth Century Studies*؛ والجمعية الفرنسية *Societe francaise du XVII siecle*؛ وجمعية التاريخ الحديث والمعاصر *Societe d,histoire moderne et contemporaine*.

عندما قابلتُ وودبريدج في بيته الهولندي المزخرف بصورة تقليدية، اختبرتُ قليلاً من الشعور بتكرار الموقف. وبعد ذلك أدركتُ أنه يحمل تشابهاً غريباً للممثل بيتر بويل. كان الرجل الأصلع - أب ثلاثة أطفال، والبالغ من عمره ٥٥ عاماً - يرتدي سويتر أبيض فوق قميص أزرق ذات أزرار. جلسنا أمام أحدنا الآخر على مائدة غرفة طعامه، وكانت عليها أوراق لكتاب كان يستكمله بينما كان في إجازة.

لم تكن هناك طريقة لبدء مناقشتنا. ليس في هذا الموضوع. فرغم أن لقاءنا كان قبل شهور قليلة من قيام البابا يوحنا بولس الثاني بتقديم اعترافه التاريخيّ العام، وطلب غفران الله عن الخطايا التي ارتكبتها أو تغاضت عنها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خلال الألفيتين الأخيرتين [١٠]، سحبتُ قصاصة من جريدة عن اعتراف أقدم تاريخاً من البابا، وأشرتُ إليه بينما طرحتُ التحدي الأول.

الاعتراف بخطايا الكنيسة

بدأتُ قائلاً: «في العام ١٩٩٤ دعا البابا يوحنا بولس الثاني الكنيسة للاعتراف بـ «الجانب المظلم من تاريخها»، وقال: «كيف يمكن أن يبقى المرء صامتاً عن أشكالٍ كثيرة للعنف المُرتكبة تحت اسم الإيمان - حروب الدين، محاكم التفتيش، والأشكال الأخرى من انتهاكات حقوق البشر؟» (١١).

أليس صحيحاً أن الكنيسة عبر القرون قد أغفلت بشكلٍ مقصود هذه المساوئ؟

بينما كان وودبريدج يستمع، جلس ومرفقيه على المائدة، ويديه مربعتين وقام بتحليل سؤالي قبل لحظاتٍ من الرد.

أجابني قائلاً: «أعتقد أن تصريح البابا كان شجاعاً؛ لأنه يعترف أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قد تغافلت عن بعض الأشياء التي ارتكبت تحت اسم المسيح، وهي عُرضة بوضوح لنقد المسيحية بوجهٍ عام.

«ورغم ذلك، أُضيفُ سريعاً أننا يجب أن نحرص على استخدام تعبير «الكنيسة»؛ لأن هذا يعطي انطباع أنه كانت هناك مؤسسة واحدة تمثل المسيحية. سوف أضعُ حداً فاصلاً من التمييز بين الناس الذين هم جزء من «الكنيسة» - الناس الذين هم الخراف الذين يسمعون صوت الراعي وهم مسيحيون حقيقيون – و«الكنائس المؤسسية»، قالها وهو يؤكد علي جمع الكلمة قبل الأخيرة.

أضاف: «والآن بوضوح هناك الكثير والكثير من المسيحيين الحقيقيين الذين هم في الكنائس المرئية، ولكن بسبب أن شخصاً ما هو جزء من كنيسة ليس معناه بالضروري أنه تابعاً ليسوع. بعض الناس مسيحيين ثقافيين وليسوا مسيحيين أصليين.»

فنظرتُ متشككاً وتساءلتُ: «أليس هذا جزء من تعديلية القرن الحادي والعشرين؟ فهذا يجعل من الأسهل للنظر إلى الماضي، والقول بأن كل الأهوال التي اُرتكبت تحت اسم المسيحية قد

ارتكبت حقاً من قبل أولئك الذين قالوا إنهم كانوا مسيحيون، لكنهم لم يكونوا هكذا في الحقيقية. هذا يبدو مجال مناسب للمراوغة.»

فأصر قائلاً: «لا؛ فهذا التمييز ليس جديداً. ففي الحقيقة يعود الأمر إلي يسوع نفسه. مدَّ يداه لكتابه المقدس الذي كان مختبئاً بين بعض الأوراق المتناثرة، وقرأ كلمات يسوع من إنجيل متى:

«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ! (١٢)

وبعدها قال وودبريدج: «وهكذا تكلم يسوع عن هذا التمييز منذ ألفي عام. وبالطبع خلال القرون ارتكب الكثير تحت اسم المسيحية لا يعكس تعاليمه.

«علي سبيل المثال، حاول أدولف هتلر أن يصبغ حركته كحركة مسيحية، لكنه لم يقدم بوضوح ما أشار إليه يسوع. وعندما طلب من اللاهوتي كارل بارث أن يبدأ محاضرة في ألمانيا بالقول «مرحي هتلر Heil Hitler»، أجاب: «من الصعب أن أقول: «مرحي هتلر» قبل تفسير الموعظة علي الجبل!« فهذان الشيئان لا يتوافقان معاً. ولذلك إن قبلنا هذا التمييز، يمكننا أن نحلل بوضوح أكثر بعض الأشياء المنسوبة للإيمان المسيحي.»

بُقيتُ ملتبساً فتساءلتُ: «هل تقصد إذاً أنه إن كان شئ شرير قد أُرتكب في التاريخ، فلا يمكن أن يكون قد ارتكبه مسيحيون أصليون؟»

فأجابني: «لا، لا، لا أقولُ ذلك. فالكتاب المقدس يوضح أنه بسبب طبيعتنا الخاطئة، فإننا نستمر في عمل الأشياء كمسيحيين لا يجب أن نعملها. نحن غير كاملين في هذا العالم. ولسوء الحظ، فإن بعض الأفعال الشريرة التي أُرتكبت عبر التاريخ ربما تكون في الحقيقية قد ارتكبها مسيحيون. وعندما حدث ذلك، يكونوا قد

تصرفوا علي خلاف تعاليم يسوع.

«وفي نفس الوقت، يجب أن نميز أنه كان هناك غالباً صوت أقلية اعترف بمساوئ ما مارسته بعض الكنائس المؤسسية. علي سبيل المثال، كنتُ أقرأ للتو هذا الصباح أنه خلال احتلال إسبانيا لأمريكا اللاتينية، كان هناك كاثوليك رومان يُرَّوعون لكون السكان الأصليين كانوا يُستغلون لأغراض اقتصادية تحت اسم المسيح. وقالوا: «لا، لا يمكنكم عمل ذلك!» كان هؤلاء المسيحيون مستعدون لإعلان مساوئ ممثلي الدولة أو الكنيسة.»

فقلتُ: «لنعود لتصريح البابا. هل من المناسب في هذه المرحلة من التاريخ الاعتراف بالخطايا الماضية للكنيسة؟»

«نعم، من المناسب تماماً الاعتراف بأن بعض الأشياء التي ارتكبها مسيحيون هي في حقيقتها خطايا. فالكتاب المقدس يخبرنا أن نعترف عن خطايانا. والاعتراف يجب أن يكون واحداً من الصفات المميزة للمسيحيين - فهو استعداد للتصريح بالخطأ، وطلب الغفران، والسعي لتغيير طرقنا في المستقبل. في الواقع، ليس البابا وحده الذي يقوم بذلك. ففي الاتفاقية المعمدانية الغربية كانت هناك مبادرة حديثة للاعتراف بأن المعمدانيين الغرب الأوائل قد أخطأوا بشكلٍ ردئ بخصوص موضوع العبودية. ومنذ عدة سنوات اعتذرت مجموعة لوثرية كندية لليهود لمناهضة السامية في كتابات مارتن لوثر.»

«كمؤرخ، هل يمكنك توضيح لماذا يتخذ المتشككون المساوئ من تاريخ الكنيسة باعتبارها حُججاً ضد المسيحية، أو كطريقة للهجوم علي الإيمان؟»

فأجابني: «يمكنني أن أفهم ذلك. لسوء الحظ، فإن بعض الأحداث المعينة في التاريخ قد نشأ عنها السخرية في بعض الناس تجاه المسيحية. وفي نفس الوقت، هناك عدد من الآراء المضللة حول ما فعله المسيحيون وما لم يفعلوه. فبعض النقاد هاجموا المسيحية الثقافية، وقد فشلوا في فهم أنها ليست مسيحية حقيقية.

«لقد كانت هذه واحدة من مشكلاتنا لقرون. كان فولتير ناقداً

رئيسياً للمسيحية، ومع ذلك عندما ذهب إلى إنجلترا، التقى ببعض المسيحيين من الكويكرز Quakers والمطهريين Presbyterian، وتأثر بإيمانهم للغاية. لذلك من الممكن أن يكون هناك شكل مؤسسي للمسيحية أحياناً ما يصد الناس، بينما من الممكن أن تكون التعبيرات الحقيقية عن الإيمان جذابة للغاية عندما يقابلها الغير مسيحيين.»

بهذه الخلفية قررتُ الرجوع إلي فجر المسيحية ثم الانتقال للأمام عبر التاريخ بإثارة بعض أكثر الأحداث إزعاجاً التي نُسبت إلي الإيمان.

لماذا انتشرت المسيحية؟

لقد تعجب المؤرخون ووضعوا النظريات حول السرعة المدهشة التي انتشرت بها المسيحية في الإمبراطورية الرومانية رغم الاضطهاد الوحشي. طلبتُ من وودبريدج أن يخمن التعليقات التي قالها الملحد الذي صار مسيحياً باتريك جلين:

> جزء من سبب الانتشار السريع للمسيحية، كما أشار المؤرخون، كان ببساطة أن المسيحيين الأوائل أناساً ودعاء. فوداعة المسيحيين وخدمتهم للفقراء والمسحوقين جذبت تابعين جدد. قال مؤرخ: «المسيحيون أدهشوا القدماء بإحسانهم.»

أومأ وودبريدج مستجيباً، وقال: «نعم، أعتقد أن إشارة جلين للانتشار السريع للمسيحية دقيق. فترتليان Tertullian يكتب في نهاية القرن الثاني: «نحن مجرد أبناء الأمس، ومع ذلك نملأ مدنكم، وجزيرتكم، وقصركم، ومجلسكم، وساحتكم، وقد تركنا لكم فقط معابدكم.» ولذلك ففي غضون ١٥٠ عاماً انتشرت المسيحية بسرعة كبيرة جداً جداً.

«وتفسير واحد لانتشارها السريع - كما أشار جلين - هو أن مسيحيين كثيرين لم يكونوا يعتنون فقط بخاصتهم، بل كانوا يعتنون بالجيران، والفقراء، والأرامل، والمجروحين، وكانوا محبين جداً

بصورة أساسية. لقد أظهروا العطف تجاه الأطفال، الذين كانوا يُعاملون غالباً بقسوة من قبل الرومان واليونانيين عند ميلادهم، ولا سيما الأطفال من البنات. كان أسلوب حياة المسيحيين يناسب تعاليمهم، ولذلك كان كثير من المسيحيين الأوائل لا يخافوا أن يقولوا: «تمثلوا بنا كما نتمثل نحن بالمسيح.»

وبقول هذا، أضاف وودبريدج شيئاً بقليلٍ من الخجل: «لسوء الحظ، في الكرازة المعاصرة يقول البعض: «لا تنظروا إلينا، أنظروا إلي المسيح»، لأننا نخشى ما سيجده الناس إن تعرّضت حياتنا للفحص. لم يكن هذا مناسب للكثير من هؤلاء المسيحيين الأوائل - فقد كان هناك تناغم بين معتقداتهم وسلوكهم.»

سحب وودبريدج ورقة وقال: «يمكننا أيضاً الحصول علي بعض الأفكار حول سبب نمو المسيحية بسرعةٍ مذهلة من بعض غير المسيحيين الأوائل.» ثم قرأ بصوتٍ عالٍ ملاحظات لوسيان Lucian، وهو هجائي يوناني من القرن الثاني، وناقد للمسيحية:

> هذه المخلوقات المُضللة تبدأ بالاقتناع العام أنها خالدة إلي الأبد؛ وهذا يفسر احتقار الموت وتكريس النفس طوعاً، الأمر الشائع جداً عندهم، وأنه قد أوصى لهم - من قبل مُشرعهم الأصلي - أنهم جميعاً أخوة منذ لحظة تحولهم. وهم ينكرون آلهة اليونان ويعبدون الحكيم المصلوب، ويتّبعون نواميسه. كل هذا يلزمونه بالإيمان، وتكون النتيجة أنهم يحتقرون كل المسرات العالمية علي حدٍ سواء، معتبرين إياها مجرد ملكية عامة. [١٤]

«إنه يؤكد حقيقة أن المسيحيين عاملوا الواحد الآخر كإخوة، وشاركوا ممتلكاتهم بحرية مع بعضهم البعض. أضف إلي ذلك عاملاً مهماً آخر يشير إليه: فالمسيحيون آمنوا أن الموت هو أن تكون مع المسيح. ويقول يوستينوس الشهيد Justin Martyr في الدفاع الأول *the First Apology*: «يمكنكم أن تقتلونا، ولكن لا يمكنكم أن تجرحونا.» [١٥] معظمنا يعتقد أن القتل هو جُرحٍ طويل المدى، ولكن من وجهة نظرهم، فإن القتل لا يهم كثيراً جداً. وهذا

ما قاله بولس: «لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ.» [١٦]

«ولذلك عندما تأخذ في الاعتبار تكريس المسيحيين الأوائل الشجاع للإيمان، واستعدادهم للشهادة من خلال استشهادهم لحق المسيح، وأسلوب حياتهم الوديع المتعاطف، واهتمامهم بالواحد الأخر وبالمعوزين والمجروحين والمحرومين في المجتمع، وتكريسهم للصلاة، وقوتهم بالروح القدس، يمكنك أن تبدأ في فهم لماذا انتشر الإيمان بسرعة مدهشة.»

فتساءلتُ: «أساساً، هل كان تبّني المسيحية كديانة الدولة الرومانية أمراً جيداً أم رديئاً؟»

«من ناحيه، كان من الرائع جداً أن تتوقف الاضطهادات - ومن هنا كان ذلك أمر جيد.» قالها وودبريدج مبتسماً. «ولكن فيما أصبحت الكنيسة مرتبطة بالدولة عن قرب، فقد بدأت الكنيسة استخدام الدولة كوكالة اضطهادية، وقد صار ذلك أمر ردئ للغاية. وبالإضافة إلي ذلك، فقد تسربت روح العالم إلي الكنيسة.»

«كيف ذلك؟»

«لقد انتشرت شائعة أن قسطنطين قد وعد أنه لو صرتَ مسيحياً، لحصلت علي رداءٍ جميل وقطعٍ من الذهب. حسناً، فهذه ليست أمور صعبة كي تصير مسيحياً. ومن هنا كان الباب مفتوحاً علي مصراعيه لمن قد يكونون اعترفوا بالمسيحية، لكنهم لم يقبلوا يسوع حقاً.»

«وبأسلوبٍ أخر مسيحيون ثقافيون أكثر مما يكونوا تابعين حقيقيين ليسوع؟»

«تماماً.»

بترسيخ الأساس المتعلق بالمسيحية المبكرة، قلبتُ الصفحة في قائمة أسئلتي، وبدأتُ التركيز علي الوصمات الرئيسية الخمس في التاريخ المسيحي التي أزعجتني بالأكثر عندما كنتُ متشككاً - الحروب الصليبية، محاكم التفتيش، محاكمات ساحرات سالم، استغلال الإرساليات، ومناهضة السامية.

الخطية الأولي: الحروب الصليبية

قلتُ لوودبريدج: «لنتقدم إلي الأمـام. لقد حاولتْ الحملات الصليبية المسيحية لمدة قرنينٍ أنٍ تطرد المسلمين من الأراضي المقدسة.» فتحتُ كتاباً تاريخياً وقلبت صفحاته حتى وجدتُ المكان الصحيح، وقلت: «لقد وصف تقريرٌ مرعب دخول الحملات الصليبية أورشليم في الحملة الصليبية الأولي هكذا ...» وقرأتُ لوودبريدج الوصف التالي من شاهد عيان:

> بعض رجالنا ... قطعوا رؤوس أعدائهم، والبعض الآخر أطلقوا عليهم السهام حتى يسقطوا من الأبراج، والبعض عذبوهم لفترة أطول بطرحهم في اللهيب ... كان من الضروري أن يسلك المرء طريقه فوق جثث الرجال والخيول. لكن هذه كانت أمور طفيفة مقارنةً بما حدث في هيكل سليمان (حيث) ... كان الرجال يركبون خيولهم وسط دماء ترتفع إلي ركابهم وسيور اللجام. في الحقيقة كانت هذه دينونة عادلة ساعية من الله أن يمتلئ هذا المكان بدماء غير المؤمنين لأنه عانى مراراً من تجديفاتهم [١٧].

أغلقتُ الكتاب بقوةٍ وبنفور، ونظرتُ بحدةٍ إلى وودبريدج، وسألته بصوتٍ مشحون بالهجاء: «هل تتفق أن الحملات الصليبية كانت عادلة وسامية؟»

فقال بصرامة: «هذا النوع من سفك الدماء كريه ومنفر. هل حدث؟ نعم حدث. هل التفكير فيه يسبب حسرة الفؤاد؟ نعم. لستُ أحـاول تبريره أو تفسيره. ومع ذلك فإن سؤالك: «هل كانت الحملات الصليبية عادلة أم لا؟» يتطلّب إجابة إما-أو، وأعتقد أنه سيكون من المفيد بصورة أفضل أن نقدم سياقاً أكثر تفصيلاً.»

جلستُ في مؤخرة مقعدي، وقلتُ: «هيا».

بدأ وودبريدج: «أطلق البابا أوربان الثّاني Pope Urban II الحملة الصليبية الأولى في العام ١٠٩٥ عندما ألقى عظة مشهورة جداً، فاستجابت الحشود بالهتاف: «الله يشاء هذا!» واستمرت

الحملات الصليبية حتى خسارة آخر حامية مسيحية في الأراضي المقدسة في العام ١٢٩١ عندما أخذ المسلمون مدينة اسمها عكا مرة أخرى. وعادت أورشليم ليد المسلمين قبل العام ١١٨٧.

«استدعي البابا البارونات وآخرين للذهاب إلي الأرض المقدسة واستعادتها من المسلمين الذين كانوا يحتلونها، والذين اعتبروا أعداء المسيح. ولذلك إن وضعنا أنفسنا مكان محاربي الحروب الصليبية الأوائل، يمكننا أن نفهم أنهم كانوا يعتقدون أنهم يقومون بشئ سام للمسيح. ولكن عندما تدرس تفاصيل ما حدث بالفعل، فسوف ترتبك كثيراً. في الحقيقة، في حملة صليبية واحدة، وهي الحملة الرابعة، لم يصل المشاركون حتى إلى الأرض المقدسة. لقد وصلوا إلي القسطنطينية، فاستولوا عليها، وأسسوا هناك مملكتهم الخاصة. وكانت النتيجة سفك الدماء بشكلٍ رهيب. فـ «المسيحيون» الغربيون قتلوا المسيحيين الشرقيين.

«بالإضافة إلي العنف، كانت هناك مشكلةٌ رئيسية أخرى هي الدافع وراء بعض من ذهبوا. ففي العام ١٢١٥ علّم البابا إنوسينس الثّالث Pope Innocence III الناس بالفعل أنه لو انطلقوا في الحروب الصليبية، فهذا سيضمن لهم خلاصهم. ولو أرسلوا من يحارب نيابةً عنهم، فهذا أيضاً سيضمن لهم خلاصهم. لقد كانت تلك المشورة تشويه واضح للمسيحية الحقيقية. فهي تسخر من تعاليم الكتاب المقدس، ولا يمكنها بحالٍ من الأحوال أن تتوافق مع المعتقدات المسيحية التاريخية.

«لقد صار من الأصعب تخمين دوافع الحروب الصليبية بعد أن استرد المسلمون أورشليم. وبعض الحملات الصليبية اللاحقة ورطت المسيحيين للذهاب إلي الأراضي المقدسة في محاولةٍ لحماية المسيحيين الآخرين الذين كانوا في ضيقات شديدة. ورغم ذلك من العدل أن نقول إنه رغم نوايا أي إنسانٍ، فإن الجشع والقتل العام الذي ارتبط بالحملات الصليبية قد تركَ وصمة قبيحة علي سمعة الإيمان المسيحي.

«وهذا ليس مجرد منظور متحرر للقرن الحادي والعشرين. ففي

القسم الأول من القرن الثالث عشر كان بعض المسيحيين يقولون نفس الشئ. فقد كان أحد أسباب انحلال نموذج الحملات الصليبية هو التقاليد الزائفة العديدة المرتبطة بالحملات الصليبية. لقد حاول البابوات في القرون اللاحقة إطلاق حملات صليبية أخرى، لكنهم لم ينالوا الدعم الشعبي والسياسي. فالتعارض الأصلي بين المسيحية الحقيقية وتقرير ما كانت عليه الحملات الصليبية أسهم لضياع الاهتمام أو الحماسة لخوض حروب صليبية جديدة.

«وهذا يعود بنا إلي التفرقة بين الأشياء التي تُؤدى تحت اسم المسيح وتلك الأشياء التي تمثل حقاً تعاليم يسوع. فعندما تحاول التوفيق بين تعاليم يسوع مع مجازر الحروب الصليبية، فلن يكون هناك طريق للتوفيق بينهما.»

فتساءلتُ: «ماذا تقول لغير المسيحي الذين يقول إن الحروب الصليبية توضح فقط أن المسيحيين يريدون أن يظلموا الآخرين، وأنهم عنفاء كالآخرين؟»

تأمل وودبريدج في السؤال للحظاتٍ قبل الجواب، وبدأ قائلاً: «سأقول إن هذه العبارة فيها بعض الحق فيما يخص الحروب الصليبية. فقد كان هناك أناسٌ ارتكبوا ما لم يجب أن يرتكبوه تحت اسم المسيح. ومن هنا فسوف أوَضح أنه ليس كل شئ يُرتكب تحت اسم المسيح يجب أن يُنسب في الحقيقة إلي المسيحية.

«ولكني لن أحاول أن أراوغ فكرة أن هناك أهوالاً قد حدثت أثناء الحروب الصليبية. فهي بحاجة للاعتراف بأنها تتعارض تماماً مع تعاليم ذاك الذي كان محاربو الحروب الصليبية يتبعونه افتراضاً. من المهم أن تعاليم يسوع ليست هي المغلوطة ليست هي المغلوطة ههنا، بل أفعال أولئك الذين قد ضلّوا لأي سببٍ عما علّمه هو بوضوح: علينا أن نحب أعداءنا. فنظرية «الحرب العادلة» لا بدَّ أن تتفاعل مع هذا المفهوم.

«ليس هناك من ندد بالرياء أو بالوحشية أكثر من يسوع. ومن هنا، إن كان النقاد يؤمنون أن ملامح الحروب الصليبية يجب استنكارها باعتبارها ريائية وعنيفة - فحسناً، يجب أن يتحدوا مع

المسيح. يجب أن يوافقوه.»

الخطية الثانية: محاكم التفتيش

بدأت محاكم التفتيش في العام ١١٦٣ عندما أمر البابا ألكساندر الثّالث Pope Alexander III الأساقفة اكتشاف برهان الهرطقة والتصرف ضد الهراطقة. وما تبع ذلك كان حملة من الرعب، بإجراءات سرية، وسلطة أعلي مخصصة للمفتش وافتقاد كامل للقضاء المستحق، حيث كان المتهمون لا يعرفون أسماء متهميهم، ولم تكن هناك هيئة دفاع، وكان التعذيب يستخدم لاستخراج الاعترافات. وأولئك الذين رفضوا أن يتوبوا أحيلوا إلي الحكومة لمواجهة الحرق علي الأوتاد.

تساءلتُ: «ما الذي دفع إلى محاكم التفتيش؟ والأهم، كيف أمكن لمسيحيين حقيقيين أن يشتركوا في مثل هذه الأهوال؟»

فشرح وودبريدج: «يمكن أن تعود جذور محاكم التفتيش إلى اهتمام البابوية العميق بمشكلة الهرطقة، خاصةً في فرنسا الجنوبية بين الـ Albigeneses. في الواقع، لا جدال أن الـ Albigeneses كانوا مؤيدو التعاليم والممارسات الهرطقية. ولم تفلح معهم الوسائل التقليدية للإقناع كإيفاد الإرساليات لهم. وكانت محاكم التفتيش مدخل أو استراتيجية بديلة لمحاولة منع هذه الهرطقة من الانتشار. وقد كانت هناك عوامل سياسية فعالة أيضاً؛ فسكان فرنسا الشمالية كانوا يبحثون عن أي مبرر للتدخل في المقاطعات الجنوبية.

«وقد كانت هذه هي المرحلة الأولي لمحاكم التفتيش؟»

«نعم. كانت هناك أساساً ثلاث موجات من محاكم التفتيش. الأولي تلك التي ذكرتها. والثانية بدأت في العام ١٤٧٢ عندما ساعدت ايزابيلا Isabella وفرديناند Ferdinand في تأسيس محكمة التفتيش الإسبانية، التي كان سلطان البابا أيضاً من ورائها [١٨]. والموجة الثالثة بدأت في العام ١٥٤٢ عندما قرر البابا بولس الثالث Pope Paul III تصيد البروتستانت، ولاسيما الكالفنيين.»

«لديكم هكذا كاثوليك يدعون أنفسهم مسيحيين يضطهدون بروتستانت يدعون أنفسهم مسيحيين.»

«نعم، وهذا يُوَضح من جديد أنه لا يمكن حقاً أن تتكلم عن «الكنيسة الواحدة». فالأمور تتعقد بشكل أكبر بسبب أن المعاصرين قد عرّفوا الهرطقة عادةً بفتنة سياسية. فلو أن شخصاً قد اُعتبر هرطوقياً، فقد كان يُعتبر أيضاً مثيراً للفتنة سياسياً. ومثال ذلك، في محاكمة مايكل سيرفيتوس Michael Servetus، قدمته الحكومة أخيراً إلي الموت. كان أحد الاتهامات هو أنه هرطوقياً، ولكن ماذا كان خوف الدولة الأشد بصورة محتملة؟ لقد كان الخوف الأكثر هو أنه كان أيضاً مثيراً للفتنة سياسياً. لقد كان الدين والسياسة مرتبطان معاً.»

«هل من الممكن أن بعض المسيحيين الحقيقيين كانوا حقاً ضحايا محاكم التفتيش؟ إننا نعتقد - على نحو نموذجي - أن المسيحيين يرتكبون الأهوال ويتساءلون كيف يمكن لمسيحيين حقيقيين أن يعذبوا أي إنسان، ولكن هل من الممكن حقاً أن يكون المسيحيون الحقيقيون قد كانوا هم المقتولين؟

«نعم، هذا محتملٌ جداً. فنحن لا نعرف هويات كل من ماتوا، ولكن علي الأرجح كان كثيرون منهم ممن يحملون الإيمان الحقيقي. بالطبع هناك برهان أن الكنيسة الكاثوليكية قد فقدت صوابها في إطلاق محاكم التفتيش هذه. وأحياناً ما استخدم البروتستانت استراتيجيات غير مناسبة لإخماد الهرطقة أيضاً.»

«هل كانت محاكم التفتيش تشابه أم جزء من نمط أوسع من المساوئ و الظلم من قبل الكنائس عبر التاريخ؟»

«أعتقد أن محاكم التفتيش تراجيديا لا يمكن للمسيحيين الفرار منها. لكني لا أعتقد أنها تمثل تاريخ الكنائس المسيحية. فمن الإفراط الشديد أن نقول إن هذا النوع من النشاط الكاره هو جزء من نموذج.

لمعظم سنوات وجودها، كانت هناك كنائس مسيحية كثيرة في موقف أقلية، ومن ثم ليست حتى في موقف يدعوها لاضطهاد أي

إنسان. في الواقع، والكلام عن الاضطهاد، وقع ملايين المسيحيين بأنفسهم ضحايا الاضطهاد الوحشي عبر العصور، مستمرين في بعض الأماكن إلي هذا اليوم. في الحقيقة، كان هناك بوضوح شهداء مسيحيون في القرن العشرين أكثر من أي قرنٍ أخر. وإلى يومنا هذا عينه، فإن المسيحيين يُقتلون بسبب إيمانهم حول العالم. لهذا أقول لا، فمحاكم التفتيش حتى الآن مجرد استثناء في تاريخ الكنيسة، وليست هي القاعدة.»

ذكرّتني ملاحظات وودبريدج بعمود مجلة عن المسيحيين وهم في فترة الاضطهاد. فبينما يفكر معظم الناس في نموذج الإنسان المسيحي العادي اليوم، وهو أحد مواطني الولايات المتحدة، ويعيش بعيداً عن أي خطر من جهة إيمانه، أوضح الصحفي ديفيد نيف David Neff الأمر.

قال: «المسيحي النموذجي يعيش في دولة نامية، ويتحدث لغة غير أوربية، ويوجد تحت تهديد متواصل من الاضطهاد - القتل، والحبس، والتعذيب، والاغتصاب.» (١٩)

الخطية الثالثة: محاكمات ساحرات سالم

محاكمات ساحرات سالم في نهاية القرن السابع عشر عادةً ما تُذكر كنوع من الهستيريا المسيحية. ففي الإجمال شُنق ١٩ فرداً، ودُفع واحدٌ للموت لرفضه الشهادة. (٢٠)

تساءلتُ: «أليس هذا نوعاً آخر من كيف أن المعتقدات المسيحية يمكنها أن تُعرقل حقوق الآخرين؟»

«نعم، هذا مثال، إن كانت المسيحية الحقيقية في الواقع هي المتورطة هنا. فعندما تُفرّغ الأحداث المؤدية للمحاكمات، فسوف ترى أن هناك عوامل كثيرة قد عجلت بحدوثها. فهناك موضوعات متصلة بأشخاص يتآمرون للحصول علي أراضي من أشخاص آخرين. وهناك موضوعات مرتبطة بالهستيريا، وهناك موضوعات مرتبطة بالإيمان بالظهورات النجمية؛ حيث يشهد الناس أن أحداً قد فعل شيئاً بينما كانوا هم في مكانٍ أخر. عندما

تدرس السياق القانوني للمحاكمات، فهناك متغيرات ستأخذك إلى موضوعاتٍ لا علاقة لها بالمسيحية.»

«هل تقصد أن الكنائس كانت بريئة؟»

«ربما لن يكون هذا تبريئاً كاملاً لتأثير المسيحية على المحاكمات، لكن المؤرخون الذين يعملون مع أمورٍ من هذا القبيل يعرفون أنه يجب ألا تكون أحادي السببية في تصنيف مثلِ تلك الأحداث. فالحياة أكثر تعقيداً من مجرد أن تقول «المسيحية» كانت مسئولة. فرغم أنه كانت هناك محاكمات سحرة في أوربا، إلا إن ذلك كان انحرافاً، وليس جزءاً من نموذج أكبر في المستعمرات. عليك أن تتحرى التوازن النفسي لبعض الناس المتورطين في محاكمات السحرة، وتفكر في تقريرهم الزائف حول الأمور.

«مرةً أخرى علينا أن نؤكد أن محاكمات ساحرات سالم شكلت حدثاً مروعاً. لستُ أحاول أن أقلّل من خطورتها. لكن المؤرخون يدركون أن الحبكة أكثر تعقيداً من مجرد إلقاء اللوم على الكنائس».

فأشرتُ قائلاً: «كان أحد الافتراضات المُسبقة في ذلك الوقت هو أن الساحرات موجودات. فماذا عنك؟ هل تؤمن بوجود ساحرات؟»

فأجابني: «نعم، أؤمن بوجودهن. في الواقع، منذ عدة سنوات كنتُ أشاهد التليفزيون الفرنسي عندما كان روبرت ماندرو - وهو مؤرخ لامع جداً - يقترح أنه حالما يستتير الناس، لا يعودوا يؤمنون بالساحرات فيما بعد. ثم قالت امرأة: «سيد ماندرو، أنا متأثرةٌ جداً بكل ما قلته، لكني أريد أن أقول لك إني ساحرة.» وبالطبع فالسحر يمارس في فرنسا، والولايات المتحدة، وفي كل مكان.

«لذلك جزء من مشكلة التعامل مع محاكمات ساحرات سالم افتراض أن ذلك كله كان هراء، وأنه لا وجود لمثل ذلك من ساحرات وسحر. فالحقيقة الجوهرية هي وجودهما، وحتى الكثير من غير المسيحيين يدركون ذلك.

«هل هذا يبرر ما حدث في سالم؟ لا بالطبع. ولكن عندما تُخترق التعقيدات، فإن هذا الموقف لا يمكنه أن يُكتب بلا ترو كمثال أن المسيحية قد اندفعت للقتل. فالحياة والتاريخ ليسا بمثّل هذه البساطة.»

«ماذا أنهى المحاكمات؟»

«هذا ليس معروفاً بصورةٍ عامة، لكن إنسانٌ مسيحي هو الذي لعب الدور الرئيسي. فقد ندَّد قائدٌ مطهري يُدعى انكريس مازير Mather Increase بقوة ضد ما كان يجري، وكان ذلك بداية النهاية. والمفارقة هي أن صوتاً مسيحياً هو الذي أخرس الجنون».

الخطية الرابعة: استغلال الإرساليات

الإرساليات تصل دون دعوة. فرغم النوايا النبيلة، تكون جاهلة بالمكان الذي تستقر فيه، وغير مبالية بقلوب وبقيم الناس الذين جاءت إليهم. تتدخل في أمور لا تعنيها شيئاً. تفترض أن الروحانية التقليدية للسكان الأصليين ناقصة، بل وحتى شيطانية. تُرشي أو تُجبر الناس لترك طرقهم التقليدية حتى إنه في مسيرة محاولة «خلاص» الناس تختم الأمر بالقضاء عليهم. [٢١]

قرأت هذا الاتهام لوودبريدج، تابعاً إياه بهذه الأسئلة: «ألم تسهم الإرساليات عبر التاريخ في زوال الثقافات الأصلية؟ ألم تختم الأمر باستغلال نفس الناس الذين إدّعت أنها أرادت مساعدتهم؟ وبالقياس، ألم تسبب الإرساليات الأذى أكثر من الخير؟»

كان هذا الموضع قريب إلي قلب وودبريدج؛ فقد كانت عائلته تتمتع بتقليدٍ طويل من الخدمة في الحقل المُرسلي. لكنه لم يبدو أنه إتخذ هذا التحدي شخصياً، بل استجاب باتزانه وصراحته المميزة.

قال: «دعني أبدأ بالاحتلال الإسباني لأمريكا اللاتينية كمثال، لأنه يشرح كيف يمكن أن يصبح هذا الموضوع معقداً.»

عندما أومأتُ بقبول ذلك، استطرد: «هل كان هناك استغلال للسكان الأصليين هناك؟ لسوء الحظ، نعم. ولكن هل كان ذلك نتيجة الإرساليات؟ حسناً، التاريخ يخبرنا أن الحركة الإرسالية كانت غالباً مرتبطة بسياسة اقتصادية للقوى الاستعمارية معروفة باسم الروح المذهبية التجارية Mercantilism».

«هل تُعرِّف ذلك».

«كانت الروح المذهبية التجارية هي الاعتقاد بأن الدولة صاحبة الذهب الأكثر هي الأقوى. وكان يُعتقد أن الميزان السياسي للقوة في أوربا تُحدده جزئياً أية دولة تستكشف بنجاح أمريكا اللاتينية وغيرها. ونتيجة ذلك، أصبحت دوافع الروح المذهبية التجارية، لسوء الحظ، مختلطة بالمشروعات الإرسالية. وفي الحقيقة ارتكب الأسبان الفظائع في أمريكا اللاتينية، لكن كثير منها كانت تُحرّضها المجازفات وأنواع الروح المذهبية التجارية بينما قامت إرساليات كثيرة بعمل أشياء تستحق الثناء.»

فتح وودبريدج كتاباً كان بالقرب منه، وقال: «في الواقع يتحدث المؤرخ أنتوني جرافتون من جامعة برنستون عن الأشياء القيمة التي قامت بها الإرساليات. وقرأ لي من كتاب عوالم جديدة، النص القديم *New World, Ancient Text*:

> أصرَّت الكنيسة الرومانية علي إنسانية الهنود، وقد وصلت أعداد كبيرة من الإرساليات - خاصةً الأخوة المتسولين المثاليين الذين أصروا علي الإتيان بما رأوه بالناس البسطاء الأنقياء من العالم الجديد إلي المسيح. لقد بنوا الكنائس والمجتمعات الدينية [٢٢].

واصل وودبريدج: «إن جرافتون ليس مبشراً، لكنه درس بعناية الحركة الإرسالية ويعترف بالقدر الكبير من الخير الذي قامت به الإرساليات. لسوء الحظ، فإن الإرساليات كجماعة تُناقش كعملاء للروح المذهبية التجارية؛ ومن ثم تنال اللوم على بعض الفظائع التي قام بها الإسبان في أمريكا اللاتينية.»

«وكما لاحظتُ مبكراً، فقد كانت هناك في القرن السادس عشر

مناقشات في إسبانيا حول ما إذا كان ما يدور في أمريكا اللاتينية أمراً مسيحياً أم لا. وكان هناك مدافعون كبار عن الهنود الذين صمموا أنه يجب عدم استغلالهم. فاندفع أحد الشخصيات البارزة - بارتولومي دي لا كاس Bartolome de Las Casas - لإتجاهه الإصلاحي بعد قراءة فقرة من سفر يشوع بن سيراخ في الكتاب المقدس الكاثوليكي الروماني تقول: «خبز المحتاج حياته. مَنْ يسلبه رجل دماء [٢٣]»، وبقراءة هذا، عارض مع كاثوليك رومان آخرين الأمور الحاقدة التي كانت تدور في أمريكا اللاتينية.»

أثارت تعليقاته ذاكرتي لرؤية تمثال خارج مبني الأمم المتحدة في مدينة نيويورك منذ عدة سنوات. الآن فهمتُ الخلفية: فرانسيسكو دي فيتوريا Francesco de Vitoria - مؤسس القانون الدولي - كان واحد من اللاهوتيين الذين دافعوا عن الكرامة الكاملة لهنود العالم الجديد، وعارضوا بشجاعة استغلالهم في المحكمة الإسبانية.»

«ولذلك بينما يكون من الحقيقي أن «الحضارة المسيحية» قد أسهمت أحياناً ببعض الأشياء التي أشرتَ إليها مبكراً؛ فقد كانت هناك أيضاً الآلاف من أعمال الخير التي كانت تمجد الله. فالكنيسة الكاثوليكية لها سجل مؤثر للاعتناء بالفقراء خلال العصور الوسطى. ففي كاليفورنيا، كانت خدماتهم على طول الساحل تهتم بالناس. وعندما تقرأ مذكرات عدداً من الإرساليات البروتستانتية التي ذهبت إلى أراضٍ أخرى، فمن الصعوبة جداً بمكان أن تستنتج أنهم كانوا يصممون بوعيٍ علي ظلم أو تدمير كل ملامح الثقافات الأصلية.»

بينما كانت إجابة وودبريدج تُقدِّم بعض السياق، أردتُ أن أضغط عليه لإجابةٍ أكثر شخصية. فقلتُ: «لقد تضمنت عائلتك مرسلين، فماذا كانت اختباراتهم؟»

«حسناً، لقد قرأتُ مذكرات جدي الذي كان واحد من أوائل المرسلين البروتستانت إلى الصين. وبالطبع لم أفهم أنه كان يفعل ما قلته أنت مبكراً. ولكن بدلاً من ذلك، كانت لديه رغبة ملتهبة أن يعرف الشعب الصيني المسيح. وقد كان مهتمٌ جداً بفقر الشعب

الصيني وببعض ممارساتهم التي كانت ضارة للغاية بإنسانية الأفراد. لقد احترم ملامح ثقافتهم، وارتدى ضفيرة الشعر الطويلة عند الضرورة حتى يكون مقبولاً عندهم.

«لا بدَّ من الإشارة إلى أن نقاد الإرساليات أحياناً ما تكون لديهم مثالية جان جاك روسو؛ أن الشعوب الأصلية كانوا سعداء دائما ويعيشون حياة كاملة، وأنه لم يكن هناك أي من تحضير الأرواح السلبية أو الشيطانية في ثقافاتهم. ولكن عندما تقرأ تقارير الناس الذين يذهبون لمناطق معينة، فإنك ترى أن بعض هؤلاء الناس الأصليين كانوا في ظروف روحية وجسدية رهيبة، وأن المرسلين قد ساعدوهم بشكلٍ عظيم.

«قرأتُ أيضاً خطابات كتبتها أمي التي عملت كمرسلة في إفريقيا قبل زواجها. كانت تركب دراجة بخارية في أعماق الغابات، وتنتقل من قرية إلى أخرى. عملت في مستعمرة جذام تهتم فيها بالمرضى. وتمنتْ أن تُظهر لهم محبة المسيح، وتخدمهم، وتراهم قد نالوا الشفاء. وخدمتْ لدرجة المخاطرة الشخصية الكبيرة بسبب الملاريا، والأخطار الأخرى المرتبطة بالحياة في غابة.

«ولذلك أقولُ نعم، أحياناً ما يكون هناك تحول لثقافةٍ ما، لكن غالباً ما يكون هذا التحول قد أتى ببعض الخير. فعندما صار السكان الأصليون مسيحيين، اختبروا محبة وفرح المسيح. وهذا شئ رائع. عندما تزحف الدوافع الأخرى لأذهان الذين يسعون لتغيير ثقافة ما، كالسعي للربح الإقتصادي أو لمعنى مقلوب للتفوق العنصري، فإن أموراً سيئة جداً ستنتج عن ذلك.»

فعلَّقت قائلاً: «ربما يكون بعض نقاد الإرساليات لا يرون قيمة في البشارة المسيحية؛ ومن ثم لا يرون فائدة للناس الذين يصيرون تابعين ليسوع.»

فصرَّح: «هذا صحيح! غالباً ما يكون هذا هو الافتراض المسبق المختبئ. ولكن إن افترض واحد أن الإنجيل هو قوة الله للخلاص، فإن ربح ثقافات العالم المختلفة التي تسمع الإنجيل سوف لا يُحصى.»

«لي زميل دراسة يعتبر لاهوتي إفريقي بارز. اضطر لمحاربة الإعلام القائل بأن المسيحية هي أيدولوجية إمبريالية غربية هدفها تدمير الديانات الإفريقية. إن منظوره مختلف تماماً. فهو يفهم الإسهامات الرائعة التي أسهمت بها المسيحية للمجتمعات الإفريقية. وقد جلب هذا الرجاء، والفداء، وهناك أفارقة ليس لهم حصر ممتنون جداً للإنجيل. وفي نفس الوقت، لا يُنكر أن حاملي البشارة المسيحية كانوا أحياناً لا يعيشون حسب تعاليم المسيح في تعاملاتهم مع الأفارقة.»

الخطية الخامسة: مناهضة السامية

كانت مناهضة السامية واحدة من أقبح الآفات في تاريخ المسيحية؛ فهي حالة ساخرة لأن يسوع كان يهودياً وصرَّح بأنه مسيا إسرائيل ومسيا العالم المنتظر. كان تلاميذه يهوداً، واليهود أيضاً كتبوا العهد الجديد بأكمله، ما عدا سفر الأعمال وإنجيل لوقا اللذان كتبهما الطبيب لوقا.

في العام ١٩٩٨ اعتذرت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عن «أخطاء وإخفاقات» بعض الكاثوليك لعدم مساعدة اليهود أثناء المذبحة النازية، بينما عبرَّ الكاردينال جون أوكونر من نيويورك عن «الأسف العميق» لمناهضة السامية في الكنائس طوال السنين قائلاً: «نريدُ بكل إخلاصٍ أن نبدأ مرحلة جديدة.» [٢٤]

وقد سلم وودبريدج بأسف أن مناهضة السامية قد شوَّهت التاريخ المسيحي. وكان السؤال الرئيسي هو لماذا حدثت في المقام الأول.

فقال: «كان أحد العوامل هو أن معظم اليهود لم يعتقدوا أن يسوع كان هو المسيا. وقد أدى رفض اليهود لقبوله؛ وذلك لاعتبار اليهود في أذهان بعض المسيحيين أعداء المسيح. أضف إلي هذا أن اليهود قد تم اعتبارهم مسئولين عن صلب يسوع، فيكون لديك مكونان قويان لـ «مناهضة السامية المسيحية.»

لم يكن هذا كافياً بالنسبة لي، فصُمت: «لا بدَّ أن يكون هناك

أكثر من ذلك.»

فأجابني: «نعم، أؤمن بذلك. لقد حاول هايكو أوبيرمان المؤرخ اللامع في جامعة أريزونا تعيين عدداً من العوامل الأخرى. فعلي سبيل المثال، عندما تصل إلى العصور الوسطى وعصر الإصلاح، كانت هناك شائعات زائفة كثيرة عن اليهود التي أضافت حتى وقوداً لنيران مناهضة السامية.»

«أية شائعات؟»

«أن اليهود كانوا متورطين في تسميم الآبار في زمن الموت الأسود Black Death في العام ١٣٤٨؛ وقد دنسوا المقادس المسيحية بقدر استطاعتهم؛ كما كانت لديهم ذبائح سرية Sacrifi-cial Deaths؛ وقد تلاعبوا بالأسفار المقدسة المسيحية؛ إلخ. والآن تذكر أن هذه الإتهامات لم تكن صحيحة. ومع ذلك فقد أثارت مشاعر الغضب والاستياء.»

ولكن لم يبدو أن هذا يرضي وودبريدج. فتأمل في الجانب الأخر كما لو كان يبحث عن تفسيرٍ أخر، وأخيراً نظر إليَّ في إحباطٍ واضح.

وقال: «يبدو لي أن هذا لا يوفي الموضوع حقه. فقد كان المرء يعتقد - أو بالأحرى يرجو – أن المسيحيين منذ العصور الوسطى وصولاً إلى مارتن لوثر قد أدركوا أن تعاليم يسوع كانت تمنعهم تماماً من عمل أو قول بعض الأشياء التي قيلت وارتكبتُ تحت أسمه.»

فقلتُ: «لقد ذكرتَ لوثر. ومناهضته للسامية مُوَثقة بشكلٍ جيد. كيف نشأ ذلك؟

«بوضوح، عرف لوثر بعض الشائعات عن اليهود. ومع ذلك، باكراً في حَياته، كان محباً للسامية – محباً لليهود بشكلٍ ظاهر - وبسبب هذا الحب تمني أن يكون هناك تحول كبير يقبلون فيه يسوع كالمسيا بالنسبة لهم. وعندما رفضوا ذلك، صار لوثر أكثر عصبية في سنواته اللاحقة، وتفوه ببعض الكلمات القبيحة جدا

عنهم.»

لقد أربكتني إجابته، فقلتُ: «لقد كنتُ أعتقد أن مناهضته للسامية كانت ألماً مدى الحياة.»

«يؤكد بعض الدارسين أن هناك استمراراً لآرائه عن الشعب اليهودي طوال حياته، لكني سأؤكد أن تصريحات لوثر العدائية الخبيثة قد جاءت في نهاية حياته. فربما كان يُطلقها عن إحباطٍ عميق شديد لأنهم لم يأتوا إلي المسيح.

ورغم كل ما قِيل، فإن بعض تصريحاته مرعبة تماماً لدرجة أنه من المناسب تماماً بالنسبة للوثريين أن يرفضوا الاعتراف بها، وعلي كل المسيحيين أن يرفضوها تماماً. فالمسيحيون ببساطة لا يمكنهم أن يكونوا مناهضين للسامية. فيجب أن يكون هذا أمر غير وارد بالنسبة لأي تابعٍ ليسوع.

« والآن، من الناحية الأخرى، في العصور المعاصرة، غالباً ما كان المسيحيون المبشرون بعض أعظم أصدقاء إسرائيل. والإتجاه العام الذي أراه في كنائس كثيرة تجاه الشعب اليهودي هو إتجاه الاحترام.»

«ماذا تقول لإنسانٍ يهودي يقول لك إنه لم يفكر أبداً في المسيحية بسبب تاريخها المُناهض للسامية؟»

فأومأ وودبريدج بخفةٍ، وقال بحزنٍ في صوته: «لقد صُدمتُ بذلك من قبل. فقد كنتُ أقوم بالتدريسِ في جامعةٍ مدنية، فقالت لي طالبةٌ يهودية شابة: أريدُ عمل بحثاً عن لوثر؛ فجدي قال لي إن لوثر كان يكره اليهود. هل هذا حقيقي؟» فقلتُ لها: «على الأرجح ذلك، ولكن انطلقي وحضرّي البحث.»، فعادت إليّ ببحثٍ جعلني أبكي. لقد وجدتُ أشياءً لم أعرفُ حتى أن لوثر قد قالها، إنها أشياء سيئة للغاية.»

«ماذا تقول لمثل هذه الشابة؟»

«إنني أسف جداً جداً علي ما قاله لوثر؛ فهذه الأشياء تتعارض حتماً مع تعاليم المسيح، وهذه واحدة من المشكلات التي نواجهها

كمسيحيين - فنحن لا نعيش دائماً وفقاً لمثاليات يسوع.

ويمكنني أن أقول: «أدركُ مدى صعوبة ذلك، لكني أرجو أن تفكر فيما قاله وفعله يسوع، وأفحص المسيحية على أساس ما تُعلَمه حقاً.»

حاول وودبريدج أن يسهب كلامه، لكنه لم يستطع تذكر شيئاً آخر مساعداً كي يضيفه. فقال: «أخشى ألا يكون هذا عرضاً ممتازاً، لكن هذا ما أقوله من قلبي.»

بدأت قائلاً: «بعض اليهود يؤمنون أن هتلر كان مسيحياً...» فوثب من مكانه وقاطعني.

قال: «آه، نعم، هذا صحيحٌ تماماً. مرةً أخرى علينا أن نميز بين المسيحية الثقافية والمسيحية الحقيقية. فخلال صعود الاشتراكيين القوميين National Socialists، حاول هتلر أن يلتف حول المسيحية وحول مارتن لوثر. وقد كانت حيلة أيدولوجية ماكرة. لكن النقاد المسيحيون، مثل كارل بارث وآخرين، لم يقبلوا للحظة أن هتلر كان يمثل المسيحية المستقيمة.

«دعني أقدم لك تفسيراً تاريخياً آخر. آمن كثير من اليهود في عامي ١٦٦٥ و١٦٦٦ أن إنساناً معيناً كان هو المسيا، لكنه آنذاك تحول إلي الإسلام، وهذا ما خيب طموحات كثير من اليهود. والآن إن قيل لمؤرخ يهودي اليوم: «هل تريد تعيين ذاك الرجل باعتباره المسيا؟» سيقول لك: «بالطبع لا، لقد كان محتالاً.»

«حسناً، بنفس الإطار، سنقول نحن المسيحيون إن هتلر لم يكن أي نوع من المسيا المسيحي. فالناس غالباً ما يدَّعون أشياء زائفة. لقد كان إنسان محتال شرير، ولم يكن مسيحياً حقيقياً، ولا ممثلاً عن التعاليم المسيحية الحقيقية.»

بورتريه للمسيحية

كان يمكننا الاستمرار لمناقشة لطخات تاريخية أخرى عن المسيحية، بما فيها ظلم النساء الذي حدث رغم إتجاه يسوع

المغاير للثقافة تجاههن، والطريقة التي اقتبس بها كثير من الناس في الجنوب الكتاب المقدس في محاولة ملفوفة لتبرير العنصرية والعبودية. لكنني كنتُ قد قضيتُ وقتاً طويلاً أستجوب فيه وودبريدج. وبدون محاولة الدفاع عن الأمور التي لا يُدافع عنها، سعى لتقديم بعض السياقات والتفسيرات. ولتقرير أية أحداث من هذه كانت الاستثناءات أو القاعدة بالنسبة للمسيحية، فقد آن أوان استكشاف الجانب الآخر من التاريخ المسيحي.

قلتُ: «بقبول كل ما تكلمنا عنه، ما هي النتيجة الأخيرة؟ هل العالم أسوأ أم أفضل حالاً بسبب وجود المسيحية؟»

فانتصب وودبريدج في مقعده وأصرَّ قائلاً: «أفضل حالاً. ولا جدال في ذلك. فهذه حالات تاريخية قابلة للاعتذار لا يجب أن تُخفى عن العيون. يجب أن نعتذر عنها، ويجب أن تُبذل الجهود لتأكيد عدم تكرارها. ومع ذلك، في نفس الوقت، كان الانتشار الواسع للتاريخ المسيحي نافع جداً للعالم.»

فعلَّقت قائلاً: «أفترض أنه من السهل في التحدث عن خطايا المسيحية نسيان دور الإلحاد في سحق الحقوق الإنسانية. أخذتُ كتاباً وقرأتُ لوودبريدج بعض الملحوظات التي كتبها المسيحي المعروف لويس بالاو.

> إن الصدمة المدوية للإلحاد الشامل أرسلتْ موجات جذرية عبر أوربا وفيما ورائها، وهي تُقرِّر بشكلٍ مباشر لفناء وقتل أكثر من مائة مليون إنسان في القرن الماضي وحده. لقد دفعت الإنسانية ثمناً باهظاً فادحاً للاختيارات المرعبة للمقاومة المتعمدة للإيمان، مُنفذة علي يد لينين، هتلر، ستالين، ماوتسي تونج، وآخرين – حيث كان كل منهم متأثر بشكلٍ عميق بكتابات قادة الإلحاد ... وبعد رؤية نمو الإلحاد ... فمن الأوضح أكثر مما مضى .. أنه بدون الله نحن ضائعون. (٢٥)

فأجاب وودبريدج: «أتفقُ أنه بدون الله نحن ضائعون. وهذا ليس مجالاً للقول بأن الملحد لا يمكنه الحكم جيداً؛ لأنه من وجهة

النظر المسيحية، فإن الملحد يستفيد من نعمة الله العامة. ولكن بقبول افتقاد البنية في الإلحاد لعمل قرارات أخلاقية، فمن السهل أن نفهم لماذا اختبر العالم أهوال هذه الأنظمة. حينما لا يكون هناك مقياس أخلاقي مطلق، فإن القوة الغاشمة غالباً ما تكسب.»

«في رأيك ما هي الطرق الإيجابية التي أسهمت فيها المسيحية للحضارة؟»

ضبط وودبريدج جلسته في مقعده. وتأمل في سؤالي للحظات ثم أجاب بصوتٍ نقل إخلاصه وإعجابه وحماسة مشاعره الحُبية العميقة للكنيسة.

قال: «إني أرى تأثير المسيحية كصورة زيتية جدارية متألقة لها مناظر كثيرة، كل منها مرسوم بألوان جميلة لامعة واضحة. فبدون المسيحية، سيكون هناك قدر مرعب من البهتان، ومجرد خطوط قليلة متناثرة متفرقة هنا وهناك ليس لها أي معنى. لكن المسيحية تضيف الكثير جداً من المعنى، والرجاء، والجمال، والثراء للصورة.»

مأسوراً بالمجاز تساءلتُ: «ماذا تُبين الصورة؟»

«المنظر المركزي بعينه سوف يُصور قصة يسوع وفدائه عن خطايانا. فأخيراً - مرةً واحدة إلى الأبد - تعامل مع موضوعات ذنبنا، ووحدتنا، واغترابنا عن الله. وبموته الكفاري وقيامته فتح السماء لكل من يتبعه. هذا هو أعظم إسهام قامت به المسيحية على الإطلاق. وهو مُلخص في يوحنا ٣: ١٦ «لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.»

«أيضاً تُقَدِّم لنا المسيحية إعلاناً عن معنى الحياة ووجود الأخلاقية الكونية. فبدون هذا الإعلان، يكون من الصعب جداً وجود أية قيمة للمعنى. وينتهي بك الحال مثل ألبرت كامو الذي قال في الفقرة الافتتاحية من أسطورة سيزيف: «لماذا لا أنتحر أنا أو أي إنسان أخر؟» حسناً، المسيحية تفسر لماذا لا. إنها تعطينا إطاراً من الإرشاد للحياة، وإتباع طريقاً أخلاقياً، والرجوع إلى

الله، وأمور أخرى بأسلوب ذات معنى عميق وقوي.

«لمسات الفرشاة في الصورة سوف ترسم المناظر التي تكشف عن الدوافع الإنسانية الشاملة التي ألهمتها حياة المسيح وتعليمه. فالكاثوليك الرومان، والأرثوذكس، والبروتستانت اشتركوا جميعاً في مساعدة الفقراء، والمحرومين، والمعوزين. وكانوا مستعدون للعمل ضد مصالحهم الشخصية لخدمة الآخرين. وبفقد كل هذا - كل العمل الإرسالي، وكل المستشفيات، وكل مؤسسات الإعانة، وكل الأعمال الخيرية لإطعام الجوعى، وكساء الفقراء، وتشجيع المرضى - ستكون ضربة قاضية للعالم.

«بالإضافة إلى ذلك، فإن تأثير الفكر المسيحي يضيف مناظر أخرى، ويُضفي الظل والعمق للصورة. فالمسيحيون سلّموا عقولهم لله. ولو حذفتَ إسهاماتهم الأدبية، والموسيقية، والمعمارية، والعلمية، والفنية، سيصير العالم أكثر بلادة وضحالة بشكلٍ كبير. فكر في المؤسسات التعليمية العظيمة التي بناها المسيحيون - بما فيها هارفارد، وييل، وبرنستون - التي تم التفكير فيها أصلاً وبنائها من أجل تقدم الإنجيل.

«وأخيراً هناك قوة الروح القدس التي تُلّون كل شئ صالح. هل يمكنك أن تتخيل كيف سيكون العالم لو انسحب الروح القدس؟ من الردئ بشكلٍ كاف الطريقة التي عليها الأمور الآن، ولكن إن لم تكن هناك قوة الروح القدس الحافظة؛ فما بالك أن الجانب المرعب من الحياة سينطلق كي يكون أكثر نشاطاً مما هو عليه الآن.»

فتساءلتُ: « فيما تنظر إلي صورة التاريخ هذه، هل ترى إيجابيات المسيحية تغلب الحالات السلبية التي ناقشناها؟»

فقال بلا تردد: «نعم. فأنا منفطر الفؤاد على الأوقات التي لم نحياها نحن المسيحيون وفقاً لتعاليم يسوع، ومن ثم فقد خلقنا حواجز للإيمان. لكني ممتنٌ للغاية للرجال وللنساء المجهولين الذين دعّموا الإيمان عبر القرون بتواضع وبشجاعة، والذين خدموا في الخفاء، وكرسوا حياتهم لمساعدة الآخرين، وتركوا

العالم مكاناً أفضل حالاً، وصارعوا لعمل الحق رغم الضغط الرهيب لعمل العكس.

واستنتج قائلاً: «عندما أفكرُ في التاريخ المسيحي، فهؤلاء هم أول من يخطروا علي ذهني. إنهم الأبطال الذين عادةً ما يتم نسيانهم كثيراً جداً.

توقف، ثم بابتسامةٍ تواقة - منحهم أعظم تقدير: «إنهم ما كان يراه يسوع.»

عطايا المسيحية

كانت كلمات وودبريدج الملتهبة لا تزال ترن في ذهني عندما عدتُ إلي البيت، مرهقاً من يوم طويل. استرخيتُ في مقعدي المفضل والتقطتُ مجلة لأتصفحُها. وهناك - من قبيل الصدفة تماماً - وجدتُ مقالاً فيه كثير من الدارسين يكتبون في الأيام الأخيرة من القرن العشرين، ويتأملون شكل الحضارة بدون المسيحية. وقد أكملتْ ملحوظاتهم ما توَّقف عنده وودبريدج. [٢٦]

مايكل نوفاك أطرى عطية المسيحية للكرامة. وكتب: «كل من أرسطو وأفلاطون اعتقدا أن معظم البشر بالطبيعة عبيد ومناسبين فقط للعبودية. ومعظمهم ليست لهم طبيعة تستحق الحرية. اليونانيون استخدموا «الكرامة» لمجرد القلة، لا لكل البشر. وعلي النقيض أصرَّت المسيحية أن كل إنسان محبوب من قبل الخالق، ومخلوق على صورة الخالق، ومُحدَّد له الصداقة الأبدية والاشتراك معه.»

أشار إلى الأفكار الحضارية للحرية، والضمير، والحق التي يمكن إسنادها إلى المسيحية. وأكدَّ قائلاً: «بدون الأساسات المسيحية الموضوعة لنا في العصور الوسطى والقرن السادس عشر، لصارت حياتنا الاقتصادية والسياسية معاً لا أكثر فقراً فحسب، بل أيضاً أكثر وحشية.»

ركز ديفيد. ن. ليفنجستون– أستاذ في كلية علوم الأرض في

جامعة الملكة في بلفاست، ايرلندا الشمالية، علي عطية المسيحية للعلم. وكتب: «إن فكرة أن المسيحية والعلم كانا علي الدوام في تصادم هو تشويه جسيم للسجل التاريخي. ففي الحقيقة آمن روبرت بويل – دارس الكيمياء الإنجليزي العظيم – أن العلماء أكثر من غيرهم قد مجدّوا الله في البحث عن مهامهم لأنه قد وُهبَ لهم أن يستجوبوا خليقة الله.»

وأشار إلى أن أولئك الذين في عصر الإصلاح «آمنوا أن الله قد أعلن ذاته للبشرية بطريقتين؛ في الكتاب المقدس وفي الطبيعة. وقد مكنهم ذلك من الاشتراك في التحري العلمي للعالم الطبيعي.» وكانت النتائج إسهامات متدفقة من قبَل العلماء الذين أثارهم الإيمان المسيحي.

ووصف ديفيد لايل جيفري - أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة أوتاوا - عطية المسيحية للتعليم. وقال: «قد يكون من الصعب أن نقول إن الثقافة التعليمية في أوربا ومعظم إفريقيا والأمريكتين غير منفصلة عن القوة التحولية ثقافياً للمسيحية. ففي معظم أوربا، كما في إفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وأماكن أخرى كثيرة من العالم، كان ميلاد التعليم والأدب أساساً - وليس مصادفةً - يتوافق مع وصول الإرساليات المسيحية.»

ومع ذلك، ربما يكون الأكثر إثارة هو أن استكشاف المؤرخ مارك نول لعطية المسيحية للتواضع، وهو إسهام قليل الملاحظة، كان له علاقة خاصة في ضوء مناقشاتي مع وودبريدج عن الجانب القبيح للتاريخ المسيحي. كتب نول:

طوال المسيرة الطويلة للتاريخ المسيحي، كان الأمر الأكثر إحزاناً - بسبب تكراره المستمر - هو كم نخيب نحن المسيحيون العاديون كثيراً جداً عن الوصول للمثاليات المسيحية بشكلٍ مأساوي للغاية. وطوال المسيرة الطويلة للتاريخ المسيحي، كان الأمر الأكثر تمييزاً - بسبب أنه أحد معجزات النعمة - هو كيف عاش مؤمنون كثيرون ضد تعظم المعيشة لتمجيد المسيح. ومن بين كل «علامات التناقض» هذه، فإن أكثر الأمور الخليقة بالمسيح

تماماً كانت تلك الحالات التي كان ينطلق فيها المؤمنون الأقوياء - بسبب الثروة، والتعليم، والقوة السياسية، والثقافة الرفيعة، أو الوضع المفضل - إلي المُحتقرين، والمتروكين، والمهملين، والضائعين، والغير معروفين، أو الواهنين. [٢٧]

قال إن القوة تُغذي عبادة الذات. فهي تُفسد ونادراً ما تعتذر. واستفاض مارك نول لسرد أحداثاً عديدة عبر التاريخ فيها الرجال الأقوياء، كلياً أو جزئياً بسبب إيمانهم المسيحي، قد وضعوا أنفسهم طوعاً في توبة عامة لسوء استخدامهم للقوة - وهذه شهادة دائمة مقابلة للثقافة لقوة الإنجيل.

أثارت اهتمامي قصة واحدة بشكلٍ خاص لأنها كانت تتعلق بحدثٍ غامض لكنه متألق في ختام حلقة ناقشها وودبريدج وأنا معاً: محاكمات ساحرات سالم.

واحد من القضاة - تطهري لامع اسمه صامويل سيوول من بوسطن أصبح منزعجاً للغاية من الدور الذي لعبه في تلك الكارثة. فقد تحرك ضميره المسيحي أخيراً للعمل عندما سمع ابنه يقرأ فقرة كتابية مشهورة: «فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى الأَبْرِيَاءِ!» [٢٨]. لقد فطرت الكلمات قلب سيوول.

وفي خدمة الكنيسة في ١٤ يناير من العام ١٦٩٧، أعطى القس تصريحاً ليقرأه بينما وقف سيوول النادم بخجلٍ أمام الجمع. كان التصريح يعترف بذنب سيوول على أكثرِ مما حدث، قائلاً إنه «يتمني أن يُلقى عليه لوم وخزي ذلك، طالباً عفو الناس، ولا سيما متمنياً الصلوات حتى أن الله الذي له سلطان غير محدود يغفر تلك الخطية وكل الخطايا الأخرى.» لقد دفع تصرفه المتواضع من الأسي والتوبة الكثير من القضاة الآخرين للاعتراف بإخفاقاتهم أيضاً.

أغلقتُ المجلة ووضعتها على مائدة القهوة. وفكرتُ في نفسي أن ذلك ربما يكون أحد أكثر تراثات المسيحية روعةً - استعداد القادر لإحناء ركبة التوبة عندما تُرتكب الأخطاء. ومع ذلك فقد كان تذكار آخر لقوة الإيمان في تغيير الحياة والتاريخ لصالح الخير.

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• قبل قراءة هذا الفصل، ما الحدث الذي أزعجكَ بالأكثر في التاريخ المسيحي؟ لو كان وودبريدج قد ناقشه، فكيف أحسن التعامل معه؟ هل موقفك من هذا الموضوع هو نفس الموقف أم مختلف؟

• هل تعتقد أن الخطايا التاريخية التي ناقشها وودبريدج هي تماثلات في تاريخ الكنيسة أم انعكاسات شئ مخطئ تماماً في DNA الإيمان؟ ما الحقائق التي ساعدتك في تكوين رأيك؟

• هل أصبح العالم أفضل بفضل المسيحية؟ لماذا؟ لماذا لا؟ على نفس القياس، هل كانت إسهامات الإلحاد إيجابية أم سلبية بالنسبة للبشرية؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Mark A. Noll. A History of Christianity in the United States and Canada. Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1992.

• Bruce L. Shelley. Church History in Plain Language. Dallas: Word, 1982, 1995, updated 2nd edition.

• Rodney Stark. The Rise of Christianity. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1996.

• D. James Kennedy and Jerry Newcomb. What If Jesus Had Never Been Born? Nashville: Nelson, 1994.

٨

الاعتراض الثامن

مازالت لديَّ شكوكٌ، لذلكَ لا يمكن أن أكون مسيحياً

في أعمق أفكارهم الداخلية، حتى أكثر المسيحيين المكرسين يعرفون أن هناك شيئاً غير منطقي حول الإيمان. فوراء اعترافهم بالإيمان هناك عملاق شك نائم ... وفي اختباري، أفضل طريقة لقهر الشك هو الاستسلام له.

دان باركر – قس تحوّل إلى ملحد [١]

أولئك الذين يعتقدون أنهم يؤمنون بالله ولكن بدون حرارة في القلب، وبدون كرب للذهن، وبدون عدم يقين، وبدون شك، وحتى في أوقات عدم اليأس، يؤمنون فقط بفكرة الله، ولا يؤمنون بالله نفسه.

مادلين لينجل – مسيحية [٢]

كان المحامي يحمل فكرة لي، وقال لي إنها قصة إنسانية مشوقة. إنها حكاية عضو عصابة تم إصلاحه. قصة مثيرة حول إرهابي شوارع سابق وجد الدين فاستقام طريقه. وعدني قائلاً إنها ستكون دافئة للقلب. قراءة جيدة ليوم الأحد.

أدرتُ عيناي؛ فقد بدت القصة عذبة للغاية بالنسبة لي. كنتُ في سيارة الشرطة بحثاً عن شئ مثير، شئ شجاع، شئ يستقر بي على الصفحة الرئيسية لتريبيون الأسبوعية. لم أكن مهتماً بحكاية ساذجة عن طريد ضعيف مولود من جديد.

لكن نهاية الأسبوع كانت تقترب بسرعة، ومفاتيح القصة التي كنتُ أتعقبها قادتني إلى لا شئ عدا الممرات المظلمة. لذلك كتبتُ فكرة المحامي. وفكرتُ قائلاً: من يدري؛ فربما أكشف هذه القصة الزائفة لهذا الرجل المحتال، وأحصل على المقال الذي كنتُ أسعى إليه.

رفعتُ سماعة التليفون، وبدأتُ الإتصال بمصادر الشرطة. هل سمع أحدكم عن شخصية رون برونسكي هذا؟ بالطبع بما فيه الكفاية؛ فقد كان من اتصلتُ بهم في وحدة جرائم العصابات يعرفونه جيداً. لقد كان المسئول الثاني القاسي في عصابة بليرز Belaires - وهي عصابة أرعبت أجزاءً من شمال شيكاغو. كان خطيراً وعنيفاً كما قالوا. وكان له مزاجاً فورياً لإطلاق النار، وشهية للمخدرات الغير شرعية، وسجلاً موسوعياً من حالات القبض عليه.

قال متحري: «هذا الشخص مريضٌ عقلياً. وسخط آخر لسماع اسمه وطرده بكلمة واحدةً: «نفاية».

أخبروني أنه كان هناك تفويض للقبض عليه بتهمة الضرب المتفاقم وإطلاق النار على عضو عصابة منافسة على ظهره. كتبتُ بسرعة كلمة «جبان» في مذكرتي.

قال لي شرطي سري: «لم نره لفترة طويلة. ونعتقد أنه هرب من المدينة. والحق يقال إننا لا يهمنا أين هو طالما أنه بعيد عنا.»

ثم اتصلت ببعض قادة الكنيسة في بورتلاند، أوريجون، حيث قال لي المحامي إن برونسكي كان يعيش العامين الأخيرين هناك. بينما كان برونسكي يعمل في محل معادن، قابل بعض المسيحيين، وترك افتراضاً حياة الجريمة، وتزوج صديقته الحميمة، وأصبح تابعاً مكرساً ليسوع.

قال لي قسيسه: «رون واحد من أجمل وأحب الناس الذين أعرفهم. فهو مكرسٌ تماماً للمسيح. ونحن نصلي معاً مرات كثيرة في الأسبوع. وهو يفعل دائماً أشياء مثل زيارة المرضى، والصلاة معهم، واستخدم معرفته الشعبية لتبشير الأطفال المضطرين.

أعتقد أن الناس سيدعونه «المُغرم بيسوع».

قال إن برونسكي قد تصالح مع الله ولكن ليس مع المجتمع. وقال: «لقد عرف أنه مازال هناك تصريح بالقبض عليه، لذلك حفظ أمواله واستقل القطار إلي شيكاغو لكي يُسلِّم نفسه.»

لقد أثار هذا فضولي. فجريمة الاعتداء المتفاقم يمكن أن تؤدي إلي عشرين عاماً في السجن. قررتُ الانتقال للخطوة القادمة في بحثي بلقاء برونسكي بمجرد أن يرتب محاميه ميعاداً.

في تلك الليلة كنتُ جالساً على مائدة الطعام، أفكرُ ملياً في الصور المتصارعة التي رسمها البوليس والقس لشخصية برونسكي. وعلَّقت لليزلي بينما وقفتْ بجوار الفرن تجهز شاي المساء: «الأمر يبدو كتغيير إعجازي.»

فتساءلتْ: « يبدو؟»

فقلت: «نعم. عندما أفتشُ بشكلٍ أعمق، سأكتشفُ احتياله.»

استرختْ ليزلي في الكرسي أمامي، وارتشفتْ الشاي وتساءلتْ: «الشرطة لم تكن تبحث عنه، لكنه سلم نفسه على أيِ حال. فماذا دفعه لذلك؟»

فقلتُ: «هذا ما سأكتشفه. من المحتمل أنه يدّعي الإصلاح حتى يحصل على عقوبةٍ أخف. أو أن محاميه يحاول عقد صفقة مع المدَّعي. أو أنه يعرف أن كل الشهود قد ماتوا ولا يمكنهم إدانته على أي حال. أو أنه يرجو الحصولِ على شعبية إيجابية للتأثير على القاضي. أو أنه يقيم دفاعاً مجنوناً ...»

واصلتُ كلامي، وأصبحتْ فرضياتي أكثر وأكثر غرابةً بينما تأملتُ في السبب الحقيقي وراء تسليم نفسه. فكرتُ في كل احتمالٍ بعيد ــ ما عدا أن حياته قد تغيرت بالحقيقة، وأنه قرر أن يقوم بالشئ الصحيح بمواجهة عواقب جريمته.

وأخيراً رفعت ليزلي يداها قائلة: «مهلاً، مهلاً، هذه نظريات غريبة تماماً. وضعتْ كوبها ونظرت إليَّ قائلةً بصوتٍ حاد: «هل تحاول وضع ثقوبَ في قضيته لأنك تعتقد حقاً أنه رجل ثقة؟ أم

أنك تُثير الاعتراضات لأنك لا تحب أن تكون قصته حقيقية؟»

فاتخذتُ موقف الدفاع وقلتُ: «هيه، إن دوري هو أن أكون متشككاً.»

لكنها انفعلتْ. ولكي أكون أميناً، لم أرد أن أؤمن أن المسيحية يمكنها أن تُحوّل جذرياً شخصية إنسان وقيمه. كان من الأسهل بكثير إثارة شكوك واختلاق اعتراضات جسيمة من التفكير أن الله يمكنه حقاً أن يُطلق متحولاً ثورياً في حياة فاسدة منحطة مثل هذه.

إختراق الستار الدخاني

كما اتضح، فإن رون برونسكي اجتاز محاولاتي الساخرة لتشويه قصته. كان رجال الشرطة الأذكياء بأحوال الشارع مقتنعين تماماً أن التغيرات التي حدثت في حياته تغيرات حقيقية. وهكذا كان المُدّعي. فبعد سماع الدليل، وافق القاضي، وبدلاً من الحكم عليه بالسجن، أطلق سراحه بكفالة. وقال لبرونسكي المندهش والممتن: «عُدْ إلي بيتك، وكن مع أسرتك.»

واليوم، بعد أكثر من ٢٠ عاماً، مازال برونسكي خادماً لأطفال الشوارع في مدينة بورتلاند الداخلية، وما زال صديقٌ حميمٌ لي.[٣]

كان إتجاهي المبدئي تجاه برونسكي تذكارٌ بالشكوك التي أثرتها كمتشكك روحي. في البداية كانت لديَّ اعتراضات قلبية هامة بالنسبة للإيمان المسيحي. ولكن بمرور الوقت، بعد أن بدأتُ العثور على إجابات كافية لهذه الموضوعات، بدأتُ في عرض تحديات جديدة وأكثر هامشية بشكلٍ متصاعد.

وذات يوم، تذكرتُ تعليق ليزلي عن برونسكي، وتخيلتُ كيف ستواجهني من جديد بكلماتٍ مشابهة: «لي Lee، هل تحاول أن تضع تُجادل المسيحية لأنك تعتقد حقاً أنها وهماً - أم أنك تثير الاعتراضات لأنك لا تريد أن تكون حقيقية؟»

بصراحة، كان لديّ الكثير من الدافع لمغالطة المسيحية عندما كنتُ ملحداً. عرفتُ أن إسرافي في الشراب، وأسلوب حياتي الأناني اللاأخلاقي سيتغير إن أصبحتُ تابعاً ليسوع، ولم أكن متأكداً أنني أردتُ الاستغناء عن ذلك. في النهاية، كان هذا هو كل ما عرفته. ومن ثم، بدلاً من محاولة العثور على الحقّ، وجدتُ نفسي أحاول صدّ الحق بشكوكٍ مزيفة وباعتراضات مختلفة.

لستُ أعتقد أنني وحدي في هذا المجال؛ فالكثير من الباحثين الروحيين لديهم أسئلة شرعية بخصوص المسيحية، وهم بحاجة لتتبع الإجابات التي تُرضي قلوبهم ونفوسهم. ومع ذلك فإني أعتقد أن بعض الباحثين يصلون للنقطة التي فيها يُصعدون دون وعيٍ ستارات دخانية لإخفاء دوافعهم الراسخة لرفض الإيمان.

ونفس الشئ ينطبق على المسيحيين الذين يسقطون فرائس للشكوك حول معتقداتهم. فغالباً يتعرضون لنوبة من الشكوك حول بعض ملامح إيمانهم. ومع ذلك، في أحيان أخرى، فإن شكوكهم المعترف بها يمكن حقاً أن تكون ميكانيزم دفاعي مصقول. من الممكن أن يعتقدوا أنهم مُعلقون بسبب اعتراض ما حول جزء من المسيحية، بينما تكون الحقيقة هي أنهم يبحثون عن مبرر – أي مبرر – ألا يأخذوا يسوع بجدية أكثر.

بالنسبة لكثير من المسيحيين، كان مجرد وجود آية شكوك من أي نوع أمرٌ مروع. فهم يتساءلون ما إذا كانت أسئلتهم لا تؤهلهم ليكونوا تابعين للمسيح. يشعرون بعدم الأمان لأنهم ليسوا متأكدين ما إذا كان مسموحٌ لهم بالتعبير عن عدم اليقين حول الله، ويسوع، أو الكتاب المقدس. لذلك فهم يحفظون أسئلتهم لأنفسهم – وهي من الداخل غير محلولة – وينمون ويصابون حتى ينجحوا أخيرا في خنق إيمانهم.

كتب أوس جينيس ذات مرة: « ليس العيب أن الناس لديها شكوك، لكن العيب هو أنهم يخجلون منها.» [٤]

في نفس الوقت، هناك مسيحيون كثيرون لديهم منظورٌ مختلفٌ تماماً. فهم يؤمنون أن وجود الشكوك ليس دليلاً على غياب

الإيمان، بل على العكس، يعتبرون أن الشكوك هي جوهر الإيمان عينه. قال أندريه ريزنر: «الصراع مع الله ليس هو افتقاد الإيمان، لكنه هو الإيمان!» (٥)

هل الباحثون الروحيون عليهم أن يحلوا كل سؤال من أسئلتهم قبل أن يتبعوا يسوع؟ هل يمكن لإنسان أن يكون مسيحياً، ومع ذلك تكون لديه تحفظات أو شكوك؟ ماذا يمكن أن يعمل الناس لو أرادوا الإيمان بالمسيح - كثيراً مثل ما اعترف به تشارلز تمبلتون في لقائي معه - لكنهم يشعرون أن الأسئلة عن المسيحية تعوّق طريقهم؟ هل هناك طريقة لحل الشكوك حين تُثار؟ وهل هناك رجاء لهؤلاء الذين تبدو شخصيتهم الكئيبة وكأنها تسحبهم بلا رحمة نحو الشك في أمور الإيمان؟

لقد تصارع الدارسون مع هذه القضايا لسنوات، لكني لم أرد التكلم مع أستاذ يكون اهتمامه بالشك مجرد اهتمام وقائي وأكاديمي. أردتُ الحصول على الإجابات من إنسان عرف بنفسه الارتباك، والذنب، وغموض عدم اليقين المؤدي إلي الجنون؛ وهذا ما دفعني إلى دالاس للقاء قائدٍ مسيحيّ أخذته رحلة إيمانه مرات كثيرة في طرق جانبية تعذيبية في وادي ظل الشك.

اللقاء الثامن: لين أندرسون

خارج بيته الكلاسيكي الذي يرجع للعام ١٩٢٩، الملئ بالآلات الكاتبة البدائية، والتليفونات الشمعدانية الطريفة، والتحف الأخرى من تلك الفترة، يعمل لين أندرسون في مكتب مريح فوق مرآبه. يتميز مكان عمله بإحساس بسيط؛ حيث الفن الهندي والغربي على الجدران، وأرفف الكتب من الأرضية إلي السطح، وصورة الغرفة التي وُلد فيها في ساسكات كيوان Saskatchewan منذ ٦٣ عاماً. لم تكن هناك كهرباء في البيت الذي تربى فيه، فقط راديو محبوب يعمل بالبطارية أبقي الأسرة على إتصال مع العالم الخارجي.

يتمتع أندرسون بجاذبية إنسانية لراعي البقر تناقض عقليته

العميقة وإنجازاته الساحرة. فهو يحمل درجة ماجستير من مدرسة هاردينج الدينية؛ وشهادة دكتوراه في الخدمة من جامعة أبيلين المسيحية، الذي كان فيها أستاذاً مساعداً لأكثر من عقدين. كان أندرسون قساً أكبر لمدة ٣٠ عاماً في كنائس في كندا والولايات المتحدة، وترك المنبر في العام ١٩٩٦ لتأسيس خدمات شبكة الرجاء Hope Network Ministries، والتي من خلالها يُدَّرب ويُعلِّم ويُعدّ قادة الكنائس.

كتب أندرسون عدداً من الكتب منها الإبحار حول رياح التغير *Navigating the Winds of Change*، السماء نزلت *Heaven Came Down*، بحثاً عن التعجب *In Search of Wonder*، أغنية الراعي *The Shepherd Song*، إنهم يشمون كالخراف *They Smell Like Sheep*.

ومع ذلك، كان الكتاب الذي أثار اهتمامي بشكل خاص هو الكتاب المثير «إن كنتُ أؤمن حقاً، فلماذا لديَّ هذه الشكوك؟ *If I Really Believe, Why Do I Have These Doubts?*. كان هذا الكتاب الصريح المتألق هو الذي كشف معارك أندرسون الشخصية المتكررة مع الشك.

بعد الحوار لمدة قصيرة لمعرفة الواحد الأخر، جلس أندرسون وأنا في مقاعد ذات خلفية مستقيمة على مائدة خشبية بسيطة تحت مروحة سقف كنا نتنسم هوائها المنعش اللطيف. كان أندرسون يحمل نظرات جميلة، وشعر داكن، وبشرة محمرة، ونظارات ذات إطار ذهبي.

إنه إنسان مُعبّر حين يتكلم؛ فذراعاه تمتدان أحياناً للفهم والتعبير، وصوته الثري بالأمانة والإخلاص الصلب عادةً ما ينخفض إلي همسٍ كورق الصنفرة، كما لو كان يأتمنني على سرٍ مثير.

وقد عاد سؤال الافتتاحي بأندرسون إلي خبرات طفولته في كندا الغربية الريفية فيما بحثتُ بدايات شكوكه المزمنة. واعتقدتُ أن كثيرين ممن يتصارعون مع الشكوك يمكنهم أن يتعلقون بقصته.

جذور الشك

كان أندرسون ابنً لمسيحيين مكرسين كانا جزءً من كنيسة صغيرة لكنها متصلة في منطقة خالية عموماً من المسيحيين. وقد قال إنه حصل على هويته ومعني قيمته من أسرته ومجتمع الكنيسة، ولكن رغم ذلك فقد بدأت شكوكه حول المسيحية مبكراً.

بدأ: «حتى وأنا طفل صغير، كانت لي شخصية منقبضة متأملة. كنتُ أسرح طويلاً. وكنتُ دائماً ما أنظر إلي الجانب السلبي من الأشياء، ولا أقبل أي شيء قبولاً تاماً، بل أتساءل دائماً، وأنقب دائماً حتى أتعمق إلي مستوي جديد. لم أكن قادراً أبداً على التخلص من ذلك.

ابتسمتُ؛ فقد كنتُ أنا الآخر غالباً ما أُتهم بطرح الكثير جداً من الأسئلة، وقلتُ: «متى صرتَ مسيحياً؟»

«قدمتُ اعترافاً بالإيمان في معسكر صيفي عندما كنتُ في الحادية عشرة من عمري، لكني لم أشعر بالنقاء بعد ذلك. كان من المفروض أني قد سلمتُ حياتي ليسوع، لكني لم أكن حتى متأكداً أنه كان هناك يسوع. شعرتُ بالخداع.»

«هل ذكرتَ مشاعرك لأحد؟»

«تكلمت مع خادم، لكنه لم يبدو أنه يفهمني. فكتمتُ الأمر في داخلي. لكني بالطبع كنتُ لا أزال أصلي للحصول على بعض الأشياء. أذكرُ الصلاة المستمرة للحصول على دراجة، لكني لم أحصل عليها إطلاقاً. وهذا جعلني أشعر أن الله لم يكن متواصلاً معي. فكرتُ قائلاً: «لنكن واقعيين؛ عندما تصلي لا يكون هناك شئ بالأعلى سوى السماء الزرقاء.»

تساءلتُ ما إذا كان قد شعرَ بالشك فقط أم أنه كانت هناك فترات كان ينمو فيها إيمانه.

فقال: «أحياناً ما كنتُ أشعر حقاً بوجود الله. كنتُ أعود إلي البيت من المدرسة في عاصفةٍ ثلجية في الغروب، وأنا أرنمُ وأشعر أنني

بين يدي الله. ولكن لغالبية الوقت، لم أؤمن به، على الأقل ليس كما كان يؤمن به رفاق كنيستي.»

«هل كنت تخشى أن يكتشفوا ذلك؟»

«بالطبع، لأنه كانت لديّ حاجة ملحة أن أكون محبوباً ومقبولاً، وتكون لي مكانة في هذا المجتمع المؤمن. كنتُ أخشى أن يعتقدوا أنني كنتُ رديئاً، فسوف يغضبون، وسوف يعتقدون أن والديّ كانا فاشلان روحياً. كنتُ أخافُ أن يُصاب والديّ بخيبة الأمل أو بالخزي.»

بوضوح، يمكن أن يلعب الأباء دوراً هاماً في تشكيل رؤية الطفل عن الله. ففي الحقيقة أوضحتْ دراسة أن معظم ملحدي التاريخ الأكثر شهرة - بمن فيهم برتراند رسل، جان بول سارتر، فريدريك نيتشه، ألبرت كامو، سيجموند فرويد، مادلين موراي أوهير، وكارل ماركس - كانت لديهم علاقة متوترة مع أبائهم، أو أن الأباء قد ماتوا مبكراً وتركوهم في سن صغير؛ وهذا ما نتجت عنه صعوبة في دواخلهم للإيمان بآب سماوي. [٦] لذلك قررتُ التحقيق في هذه النقطة مع أندرسون.

قلتُ بقليل من التردد آملاً ألا أكون قد اقتحمت خصوصياته: «تحدث لي قليلاً عن والديك».

فنزع أندرسون نظارته ووضعها على الكتاب المقدس الذي كان مفتوحاً أمامه. وقال: «باستعادة الماضي، أعتقد أن بعض شكوكي ربما تكون قد نبعت من نظام تربية أمي. لقد أحبتني أكثر من الحياة، لكنها لم تكن لديها وسائل عاطفية لإظهار ذلك. كانت طريقتها لتحسينك هي أن تُظهر لك ما أخطأتَ به. لقد تعلّمتُ أن الأمهات ليس من المفروض أن يُظهروا المودة الجسدية للأبناء، وإلا سيجعلهم ذلك شواذاً، وعدم التأكيد على الناس لأن هذا يمكنه أن يجعلهم معاندين.»

«هل شكلَّ هذا رؤيتك عن الله؟»

«كما تعلم، غالباً ما يُعرِّف الناس الله بصورة أب. ففي معظم

الأحوال يدعوه الكتاب المقدس أباً، ويدعوه حتى أماً أحياناً. ولذلك فإن جزءاً من البعد الذي شعرتُ به عن الله ربما كان هو البعد الذي شعرتُ به عن أمي. ومن الناحية الأخرى، فقد كان أبي إنسان تأكيدي، متعاطفٌ، منبسط، لكني أعتقد أن هناك شيئاً في طبيعتنا الساقطة يسمع الأخبار السيئة تأتي من خلال الأخبار السارة.»

«وماذا كانت البشارة المسيحية الرئيسية التي أدركتها في سنواتك المبكرة؟»

كانت: «إن لم تصل لهذا المستوى، فسوف تضل – ولكن لا أحد يمكنه الوصول لهذا المستوى، ولاسيما أنت.» ونتيجة ذلك كنتُ كلما أصبح أكثر اقتراباً إلي الله - حينما كنتُ أبدأ الإيمان وأكون جاداً في التواصل معه - كلما كنتُ أشعر باليأس لأنني لم أستطع الوصول إلي توقعاته. ثم فكرتُ: «هذا متعب! لماذا عليَّ أن أؤمن بشئ سوف يدينني مهما فعلت؟ بالتأكيد، إن كان هناك الله، فلا يمكن أن يكون كهذا. إن وحشاً قد اخترع هذا.»

«هل اعتقدت أنك ستتخلص من ذلك؟»

«كنتُ أرجو أن يكون ذلك جزء من كوني طفلاً. ولكن في الكلية انتقلتْ الشكوك من الجانب العاطفي إلي الجانب المعرفي. فاندفعتُ لطرح الأسئلة حول الكتاب المقدس، وتساءلتُ لماذا هذا الكم الرهيب من المعاناة في العالم.»

ابتسم حينما تذكر قصة. «أذكر يوماً أن طالباً أثار مسألة كتابية عويصة، ولم يستطع الأستاذ حلها. وأخيراً بعد التعثر لبعض الوقت قال الأستاذ: «عندما تُتاح كل الحقائق، فسوف نري أنها تؤكد مصداقية الكتاب المقدس.»

ضحك أندرسون قائلاً: «أتذكر التفكير: «أوه، لا؛ فهذا الفتي يرجو أن تكون حقيقية أيضاً! فلو فحصت الأعماق، فهو خائف مثلي تماماً!»

فضائل الشك

وصف أندرسون نفسه كـ«شكاك فطري» أو كإنسان يسأل دائماً: «ماذا لو؟» وكالمحامين والمحاسبين الذين يتدربون على تمييز ماذا كان من المحتمل أن يكون خاطئاً؛ فالشكاكون الفطريون ينجذبون كالمغناطيس للشكوك والأسئلة. فربما يكونوا ممتلئين بالقلق أو تكون شخصيتهم كئيبة. وبالنسبة لهم، فإن الإيمان لا يأتي بصورة طبيعية.

لكن هذه مجرد فضيلة واحدة من الشك. طلبت من أندرسون أن يُقدِّم أمثلة عن الفضائل الأخرى.

فاستند للوراء في كرسيه، ورفع رجليه عن الأرضية قليلاً، ثم هزهما جيئة وذهاباً، وقال: «آه، هناك الكثير من الأنواع المختلفة. فبعض الشكاكين متمردين، ورغم ذلك ربما لا يعرفون أنفسهم هكذا. فهم يحملون الإتجاه: «لن أسمح لإنسانٍ أن يُدير حياتي أو يفكر نيابةً عني.» ويمكن أن يتخذ هذا بهيئةً الكبرياء المتعالية. فأحياناً ما يُريد شخص صغير أن يتمرد ضد والديه، وأحد طرق القيام بذلك هو التمرد ضد الله الذي يؤمن به الوالدان.

«وهناك الناس الذين تنبع شكوكهم من خيبة أملهم مع الله. ومثال هذا الفتاة التي زرتها بالأمس. الله يقول «اسألوا تعطوا»، ولم تُعط. لذلك فهي تتصارع مع عدم اليقين. هل كان الله جاداً؟ وهل كان هناك أصلاً؟»

«البعض لديهم جروحٌ شخصية أو أسرية. تكلمتُ منذ أسابيع قليلة مع امرأة عانت من الإيذاء الجسدي من أمها وأبيها اللذان كانا متدينان جداً. لقد كانا يجعلانها تركع أمام الفراش وتصلي ثم يضربانها. أستطيع أن أفهم لماذا لديها مشكلة مع الله! والبعض الأخر جُرحوا بصورة شخصية بمعني أنهم رُفضوا من قَبل صديق، أو أن عملهم قد انهار، أو أن صحتهم قد ساءت. إنهم يتساءلون: «إن كان هناك الله، فلماذا تحدث هذه الأمور؟»

«وهناك الشكوك المعرفية. وهذه ما كنتُ أعاني منها. كنتُ أبذل

قصارى جهدي لتدعيم أساس إيماني، ولكن كان هناك أناسٌ أكثر مني ذكاءً لم يؤمنوا بالله. بدأتُ أتساءل: «هل الإيمان للأذكياء فقط؟ كيف يمكن أن يكون الذكاء مهماً جداً لله، ومع ذلك عليك الحصول على معدل ذكاء ١٩٧ للتمسك بالإيمان؟»

تساءلتُ ما إذا كانت هناك بعض العوامل التي يمكن أن تؤكد الشك في الناس. فسألتُ أندرسون: «ما الأشياء التي تسهم في الشك رغم أن الإنسان ربما لا يكون واعياً بها؟»

فأجاب: «مواسم الحياة يمكنها عمل اختلافٌ كبيرٌ. فأحياناً ما يكون الإنسان مؤمنٌ عظيم وهو في الكلية، ولكن عندما يكون أبٌ شاب لديه ابنه الثاني، ويعمل ٦٠ أو ٨٠ ساعة أسبوعياً، وزوجته مريضة طوال الوقت، والمدير قد أشهر إفلاسه - فببساطة لا يكون لديه وقتٌ للتأمل. ولا أعتقد أن الإيمان يمكنه أن ينمو بدون وقت تأملي. فلو لم يتح الإنسان مجالاً لذلك، فإن إيمانه لن ينمو، وبالتالي ستزحف إليه الشكوك.

«عاملٌ آخر يمكن أن يكون عقد مقارنات مع إيمان الآخرين. قابلتُ شابة قالت لي: «أكره الذهاب إلي الكنيسة لأنني أسمع كل تلك التصريحات التي لا أختبرها أنا شخصياً. أنا أؤمن، وأدرس الكتاب المقدس، وأصلي، وأعمل بجد في الخدمة كما يعمل كل منهم، لكني لا أنال ذاك الفرح، ولا تُستجاب صلواتي، ولا أنال معنى عظيماً للسلام، ولا أشعر بأني بين يدي إله يرشدني طوال الطريق وسوف يتولى رعايتي.» أشخاصٌ كهذه الفتاة يبدأون في التفكير: «لماذا لا يعطيني الله مثل هذه الأشياء؟»

كنتُ فضولياً لمعرفة كيف تعاملَ مع موقفها. فتساءلتُ: «وماذا قلتَ لها؟»

«شجعتها على قراءة المزامير، لأن هذا سيُغير منظورها حول ما يبدو عليه الإيمان العادي. نحن نحب التركيز على المزامير المتفائلة، لكن ٦٠٪ منها مراثي، حيث أناس يصرخون «أين أنت يا الله؟ الإيمان العادي مسموح فيه بالقرع على صدر الله والشكوى.»

أشرتُ قائلاً: «هناك الكثير من الخوف من التكريس في ثقافتنا. فهل هذا يؤثر على استعداد الفرد للإيمان بالله؟»

فأجابني: «نعم، من الممكن. ففي هذه الدولة الأنانية، فإن تعريفنا للحرية هو حرية الوصول إلي طريقي، وحرية الحفاظ على اختياراتي. بعض الشباب يخافون الزواج لأنه تكريس مدي الحياة. حسناً، فالتكريس الأقصى هو التكريس لله. نحن لدينا ثقافة أيس كريم Basking-Robbins حيث العقوبة الأكثر تخويفاً هي قضاء حياة بدون اختيارات. وأعتقد أن هذا يسهم في خوف الناس من تكريس حياتهم للمسيح.»

ما هو ليس بإيمان

عرفتُ أن الأفكار الخاطئة عن الإيمان غالباً ما تفتح الباب للشكوك لأنها يمكنها أن تخلق توقعات أو مظاهر سوء فهم زائفة حول طبيعة الله. فمثلاً، إن اعتقد الناس خطأ أن الله وعد بشفاء كل إنسان، أو بجعل كل إنسان ثرياً بمجرد أن يُبدي الإيمان الكافي، فيمكنهم أن يقعوا فريسة للشكوك عندما يهجم المرض أو يقترب الإفلاس. وللوصول لرؤية دقيقة عن الإيمان، قررتُ أولاً توضيح الخفايا اللاهوتية بتعريف ما هو ليس إيماناً.

«ما بعض مظاهر سوء الفهم العامة للإيمان؟»

«الناس يخلطون الإيمان بالمشاعر. فمثلاً يساوي بعض الناس الإيمان بمعيار ديني أبدي. وعندما يزول هذا المعيار، كما يحدث بصورة محتومة، يبدأون في الشك ما إذا كان لديهم أي إيمان على الإطلاق».

«هل تقصد عدم وجود علاقة بين المشاعر والإيمان؟»

«لا؛ فالمشاعر متصلة ببعض أبعاد الإيمان، لكن كثيرٌ من ذلك له علاقة بطبائع الناس. فبعض الناس ليسوا مندفعين للإفراط في المشاعر، ومع ذلك ربما تكون لديهم قيمٌ ومعتقدات قوية.»

فتساءلتُ: «وماذا عنك؟»

فضحك قائلاً: «أنا أميل أن أكون مرتفعاً ومنخفضاً عاطفياً. فقد أخذ الأمر مني سنوات لاكتشاف أن هذا ليس تشتتاً للإيمان. ولهذا السبب علينا أن نكون حريصين بخصوص مشاعرنا - فمشاعرنا يمكن أن تكون متقلبة. دعني أقدم لك مثالاً.

«قال لي شخص ذات مرة: «لم أعد أحب زوجتي»، فكان ردي هو أن أقول له: «اذهب إلي بيتك وأحبها»، لكنه قال: «أنت لا تفهمني؛ فأنا لم تعد لدي مشاعر تجاهها»، فقلتُ له: «لم أسألك عن مشاعرك، بل قلتُ لك: اذهب إلي بيتك وأحبها»، فقال: «لكني سأكون غير أمين عاطفياً إن عاملتها بهذه الطريقة بينما أنا لا أشعر بذلك.»

فسألتهُ: «هل أمك تحبك؟»، فبدا أن هذا السؤال قد جرحه. فقال: «نعم بالطبع»، فقلتُ: «بعد أن أحضرتك من المستشفى إلى البيت بحوالي ثلاثة أسابيع، وكنتَ تصرخ من الحفاظات الغير نظيفة، وكانت تضطر للاستيقاظ وهي متعبة جداً وتضع قدميها الحافتين على الأرضية الباردة، وتنظف حفاضاتك، وترضعك - فهل تعتقد أنها كانت تتضايق حقاً من كل هذا؟» فقال: «لا»، فقلتُ: «حسناً، إذاً، أعتقد أن أمك كانت غير أمينة عاطفياً.»

«كانت هذه هي فكرتي: إن مقياس حبها لم يكن أنها شعرت بضرورة تغيير الحفاضات، بل أنها كانت مستعدة لعمل ذلك حتى عندما لم تكن تشعر بسعادة خاصة تجاه ذلك. وأعتقد أننا بحاجة لتعلم ذلك بخصوص الإيمان. فالإيمان ليس دائماً أن تكون لك مشاعر عاطفية إيجابية تجاه الله أو الحياة.»

فقلتُ: «حسناً، هذا أحد المفاهيم الخاطئة. ماذا عن فكرة أن الإيمان هو غياب الشك؟»

فقال: «نعم، بعض الناس يعتقدون أن الإيمان معناه غياب الشك، ولكن هذا ليس حقيقي. وأحد النصوص الكتابية المفضلة بالنسبة لي يحكي عن الرجل الذي يأتي إلى يسوع بابنه الذي به شيطان، آملاً أن ينال الشفاء. إن إجابة الرجل في منتهى القوة. فهو يقول: «أومَنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي!» (٧)

طقطق أندرسون ركبته متعجباً: «أيها الرجل، يمكنني حقاً أن أتواصل مع ذلك!»

فتساءلتُ: «إذاً الشك والإيمان يمكنهما أن يتواجدا معاً؟»

«نعم، فهذا معناه أنه يمكنك أن تكون لديك شكوكٌ وأنت تؤمن. وقد كان هذا واقعياً مع إبراهيم. فقد آمن بوضوح، لكنه في نفس الوقت كانت لديه شكوك. ويمكنك ملاحظة ذلك بما فعله في بعض الأوقات وبما قاله. والآن لستُ أدري أين تبدأ الشك السلبي المتآكل المزعج، لكني أؤمن حقاً أنه حينما لا يكون هناك شك على الإطلاق، فمن الأرجح أن يكون الإيمان غير سليم.

«لذلك يمكن أن يلعب الشك دوراً إيجابياً؟»

«أعتقد ذلك. فدائماً ما أصبح عصبياً بدرجة قليلة بخصوص ما أسميه عقلية «المؤمن الحقيقي» - أولئك الذين لديهم ابتسامات متألقة وعيون زجاجية ليس لديهم أي شك في العالم، ويعتقدون دائماً أن كل شئ رائع، وكل شئ عظيم. لا أعتقد أنهم يعيشون في نفس العالم الذي أعيش فيه. وأخشى فيما سيحدث لهم عندما يحدث أمر ردئ.

«على سبيل المثال، أعرفُ طبيباً ابنه البالغ من العمر أربع سنوات بالسرطان. وأذكرُ عدة ليال كان يتجمع فيها أربعون أو خمسون شخصاً في بيت للصلاة الحارة من أجل هذا الطفل. وفكر أحدهم قائلاً: «بالطبع سيُشفى الطفل بسبب صلواتنا. لكنه عندما لم يُشفى، سحقهم الأمر.

«لقد تعرّض لاهوتهم للتضليل وعدم الفحص. ولم يتعرض أبداً لتحدي الشكوك أو الأسئلة العميقة. كان من الممكن أن تساعدهم الشكوك في تطوير إيمان أكثر جوهرية وأكثر واقعية - الثقة بالله رغم الموت وليس فقط رغم الشفاء.»

اتجهت عينا أندرسون إليّ كما لتأكيد كلماته القادمة، وأصرَّ قائلاً: «الإيمان الذي تتحداه الشدة أو الأسئلة الصعبة أو التأمل غالباً ما يكون إيمانٌ أقوى في النهاية.»

التنقيب تحت السطح

بصراحة، أحياناً ما تخدم الشكوك هدفاً إيجابياً. ومع ذلك فقد تعلمتُ عبر السنين أنه من الممكن أن يكون من الخداع أن تقبل كل الشكوك بنفس المستوى. فمثل استجابتي الأولى لقصة رون برونسكي، يمكن أن يُستخدم التشكك كوقاء لإبعاد الناس عن الدوافع الأكثر عمقاً. لم أرد إضعاف شرعية الناس الباحثين عن إجابات عن عقباتهم الحقيقية تجاه الله، لكني كنتُ بحاجة للوصول لأصل لماذا يُثير البعض موضوعات غامضة.

قلتُ: «في اختبارك، هل يزعم البعض أن لديهم اعتراضات معرفية، حتى إن كانت شكوكهم لها مصدر خفي آخر؟»

فقال وهو يومئ ويُثّبت القدم الأمامية من كرسيه على الأرضية مرةً أخرى: «نعم، هذا حقيقي تماماً. ففي الواقع أعتقد شخصياً أن كل عدم إيمان يكون له في النهاية سبب خفي آخر. فأحياناً ما يؤمن بإخلاص أن مشكلته معرفية، لكنه في الواقع لم يتواصل بشكلٍ كافٍ مع نفسه لاستكشاف الاحتمالات الأخرى.»

فتساءلتُ: «هل يمكنك تقديم مثال؟»

فأخذ الأمر منه لحظات حتى قال: «عندما كنتُ روائياً لامعاً صغيراً، جاء ملحدٌ من عائلة شيوعية ملحدة إلى مدينتنا الصغيرة في كندا لتجميع اللون المحلي[1] لكتاب كان يكتبه. ذات يوم كان يزور أسرتنا، وقد كان جادٌ تماماً. فقال: «هل يمكنني أن أسألك عن دينك؟» ورغم أنني كنتُ أتصارع مع الشكوك من وقتٍ لآخر أجبته بالإيجاب.

«هل تؤمن حقاً أن هناك إلهاً يعرف اسمي؟»

«نعم، هذا ما أؤمن به؟»

«هل تؤمن بصحة الكتاب المقدس؟ بأطفالٍ يُولدون من عذارى،

---

[1] local color أسلوب كتابي يقوم على تصوير سمات إقليم معين أو سمات سكانه – المترجم

وموتى يقومون من القبر؟»

«نعم، هذا ما أؤمن به؟»

ثم قال بعواطف قوية: «يمكنني أن أبذل أي شئ حتى أؤمن بذلك، لأنني سافرتُ العالم كله، ورأيتُ معظم الناس بؤساء. الناس الوحيدون الذين يبدو أنهم حقاً يأخذون من الحياة ما يريدونه هم الذين يقولون إنهم يؤمنون بما تؤمن به أنت. لكني لا يمكنني أن أؤمن لأن عقلي يمنعني من الوصول إلي الطريق!»

اتسعتْ عينا أندرسون وقال: «لقد كنتُ مندهشاً يا لي Lee، فلم أعرف ماذا أقول بعد ذلك لأن عقله كان أكثر ذكاءً من عقلي!»

ثم استند أندرسون بالقرب مني قائلاً: «ولكن مع استعادة الحدث، لا أعتقد أن عقله كان هو المشكلة الحقيقة. بدأتُ أفكر عما سيخسره لو تبع يسوع. لقد كان عضوٌ في نقابة للكتاب اللاّمعين الذين يعتقدون جميعاً أن الدين شئ بال تماماً. أؤمن حقاً أن كبرياءه العملية ورفض رفاقه قد كانا ثمناً فادحاً أن يدفعه.»

سمح أن يدوم تأثير القصة قليلاً، وعرض قائلاً: «دعني أقدم لك مثالاً آخر.»

«ذات مرة كنتُ أتحدث مع جندي بحرية سابق قال لي: «أنا إنسانٌ بائس. لديَّ زوجة وأطفال، وأحصل على أموال أكثر مما أنفق، وأنامُ مع كل امرأة في المدينة، لكني أكرهُ نفسي. عليك أن تُساعدني، ولكن لا تقل لي شيئاً عن الله؛ لأنني لا أؤمن بهذه الأشياء.»

تكلمنا لساعات، وقلتُ له أخيراً: «ربما تعتقد أنك تتعارض معي، لكني لستُ متأكداً من ذلك. أعتقدُ أن مشكلتك ليست هي أنه لا يمكنك أن تؤمن، بل أنك لن تؤمن لأنك تخشى أن تترك الأشياء التي تمارسها في الظلام.»

فكرَ للحظات وقال: «نعم، أعتقدُ أن هذا صحيح. فأنا لا يمكنني أن أتخيل الحياة بدون النوم مع امرأة واحدة. ولا أتخيل الحياة بأموال أقل من التي أحصل عليها – الأمر الذي لا بدَّ أن أفعله

لأني أكذبُ للحصول عليها.» لقد كان يحاول في النهاية أن يكون أميناً.»

بهذه الكلمات انخفض صوت أندرسون إلى همسٍ حاد، وقال: «وهاك فكرتي: كان هذا الرجل يتجادل لساعات وساعات حول شكوكه العقلية. وكان يُقنع الناس أنه لا يمكنه أن يؤمن لأن لديه اعتراضات معرفية كثيرة جداً، لكنها كانت مجرد أمور واهية. كانت مجرد ضباب استخدمه لإخفاء تردداته حول الله.»

استند أندرسون للخلف في كرسيه، وواصل قائلاً: «تَحدثتُ مع فتاة أخرى تعرضت للإيذاء الجسدي. وكانت كل طريقة يُقدَّم بها الله إليها من خلال ديانة والديها تعتبر مرعبة. لستُ ألومها لصعوبة إيمانها. لكن حججها كانت دائماً في الجانب المعرفي. وعندما تحاول أن تنقب بعمق في عقباتها الحقيقية، لم تكن هي ترد اجتياز ألم مواجهتها. لقد استخدمت الشكوك المعرفية لتضليل الناس.

«وحانت لي فرصة الحديث عن الله مع إنسان في شمال غرب المحيط الهادئ. كان يُثير كل أنواع الموضوعات المعرفية. ولكن عندما تفحصنا ذلك، اتضح أنه لم يرد أن يؤمن بالله لأنه لم يرد أن يبيع حانته الشهيرة التي كانت تجلب له أموالاً طائلة، وكان يستمتع بها كثيراً.

قال اندرسون باختصار: «هذا هو اختباري: عندما تنقب في الأعماق، فإما أن تكون هناك إرادة للإيمان، أو إرادة لعدم الإيمان. وهذا هو جوهر الموضوع.»

داعبتُ ذقني في تأمل وقلتُ: «تقصد إذاً أن الإيمان اختيار.»

فأومأ أندرسون موافقاً وأجاب: «هذا حقيقي تماماً - إنه اختيار.»

قرار الإيمان

عندما طلبتُ من أندرسون التوسع في أدوار الإيمان والإرادة، سرعان ما جاء على الفور بشخصية العهد القديم إبراهيم كمثال.

قال أندرسون: «لقد دُعي إبراهيم «أبو الإيمان»، ولكن لم يكن هذا معناه أنه لم يشك أبداً، ولم يكن معناه أنه فعل الشئ الصحيح على الدوام، ولم يكن معناه أن إتجاهاته كانت نقية دائماً. لقد فشل إبراهيم من وجهة نظر الأمور الثلاثة هذه. ولكن أصغ، لم يتخل إبراهيم على الإطلاق عن إرادته لإتباع الله. لقد قال: «سأؤمن به – أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟» لم يتخل إبراهيم عن الله. وأحد تعريفات الإيمان هو أنه الإرادة لكي تؤمن. إنه قرار إتخاذ أفضل نور عن الله وعدم التوقف.

«إن فكرة الاختيار تتخلل الأسفار المقدسة. أنظر إلى يشوع. إنه يقول أن يختار هذا اليوم من ستعبد، أما هو وبيته فيعبدون الرب. ومن هنا، فإن الإيمان وجوهره من قرارات الإرادة.»

رفعتُ يدي لإيقافه، وتساءلتُ: «ولكن ألا يوجد أيضاً معنى يقول بأن الإيمان هبة من الله؟»

فوافق قائلاً: «نعم، وهذا يثير سراً كبيراً حول الاختيار وحرية الإرادة. ولكني أعتبرُ ذلك كالقوة المحركة في سيارة. حظاً سعيداً إن حاولت تحريك إطارات السيارة بدونها. ولكن بإصبع واحد يمكنك أن تزود السيارة، والقوة المحركة ستمكنك من تحريك العجلات. بصورة مشابهة، فإن إرادتنا تصنع القرار لوضع إيماننا بالمسيح، والله يقوينا نحن.»

بسط أندرسون يده لنقل نظارته من فوق كتابه المقدس. وبعد أن ارتداها، تنقّل بين صفحات الكتاب الرقيقة حتى وصل إلى إنجيل يوحنا.

قال: «أصغ إلى يوحنا ٧: ١٧. يقول يسوع: «إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي.»

ومن هنا – إلى حدٍ ما – لو كانت لدينا الإرادة كي تؤمن، فالله إذاً يؤكد أن يسوع هو من الله.»

تقدم عدة صفحات إلى يوحنا ١٢: ٣٧، وقال: «الكتاب المقدس يتوسع في ذلك حين يقول: «وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هَذَا عَدَدُهَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.» وبعد آيتين يقول: «لِهَذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا.» (٨)

وشرح قائلاً: «بأسلوب آخر أنهم قرروا قرار إرادة لإنكار رسالة المعجزات - دليل أن يسوع هو الله - لأنهم لم يدفعوا الثمن الذي سيكون انهيار نظامهم الديني بأكمله. واتخذوا هذا القرار كي لا يؤمنوا على الدوام أنهم قد فككوا قدرتهم على الإيمان. ومن هنا فالإيمان في جوهره هو أحد قرارات الإرادة التي نستمر في إتخاذها، لكن هذا الخيار موهوب لنا من قِبل نعمة الله. فنحن متحفزون للاستمرار في إتخاذه عن طريق روحه.»

فأشرتُ قائلاً: «وهو اختيار لا بدَّ أن نتخذه دون امتلاك كل المعلومات الكاملة التي نحب أن تكون لدينا.»

«هذا صحيح، وإلا يكون ما لدينا هو المعرفة وليس الإيمان.»

«تكلم عن الاختلاف بينهما.»

وضع أندرسون الكتاب المقدس على المائدة ثم فحص الغرفة بحثاً عن توضيح ارتجالي. وفيما بدا أنه غير قادر على إيجاد دعامة مناسبة، مدَّ يده في جيبه ثم سحبها. وقال: «حسناً، أنا أمسك شيئاً. هل تعرف ما هو؟»

فغامرتُ بتخمين وقلتُ: «عملة.»

فقال: «لكنك لا تعرف ذلك يقيناً. هذا رأيك. إيماننا ليس رأينا. دعني أقول لك إنني أمسك ربع دولاراً في يدي، فهل تؤمن بهذا؟»

فقلتُ: «بالطبع.»

«أقول لك إن هذا حقيقي، لكنك لم تره. هذا هو الإيمان. تقول

رسالة العبرانيين إن الإيمان هو الإيقان بأمور لا ترى.»

ابتسم أندرسون وقال: «راقبني وأنا أدمر إيمانك تماماً.» وبهذه الكلمات فتح يده لتكشف عن ربع دولار. «لم يعد الأمر إيماناً، بل معرفة.»

وضع الربع دولار علي المائدة وقال: «أحياناً يعتقد الناس أن الإيمان هو معرفة أن شيئاً ما حقيقي بلا أدنى شك على الإطلاق، ومن ثم يحاولون أن يبرهنوا الإيمان من خلال برهان تجريبي. لكن هذا هو المدخل الخطأ.»

التفتَ إلى العملة وقال: «يمكنك أن ترى وتلمس هذا الربع دولار، ومن هنا لستَ بحاجة للإيمان. والله – لأسبابه الخاصة – لم يُخضع نفسه لمثل هذه البراهين.

«بدلاً من هذا، علي الناس أن يفعلوا ما فعلته أنت في كتاب القضية .. المسيح - فأنت اعتمدت علي برهان موثق. وأوضحت كيف أن خطوطاً متنوعة من البراهين تشير بشكل مقنع إلى الله. وهذا يصنع شيئاً مهم للغاية – فهو يترك لنا المجال لصنع اختيار عن طريق اتخاذ خطوة إيمان في نفس الاتجاه الذي يشير إليه البرهان.»

التعامل مع الشك

كانت الظهيرة تنقضي ببطء، لكني لم أرد إنهاء حديثنا دون الحصول على النصح من أندرسون بخصوص كيف يمكن للناس أن يتعاملوا مع الشكوك التي يمكن أن تُداهمهم. كنتُ أعرفُ أنه لا توجد صيغة بسيطة لقهر الشك، وفي نفس الوقت، هناك بعض الخطوات التي يمكن أن يتخذها الناس لمساعدتهم في تخفيف شكوكهم. وكل شئ يبدأ بالإرادة.

قلتُ: «عندما تُعلِّم حول هذا الموضوع، تقول للناس إنهم يحتاجون مبدئياً أن يُقرِّروا ما إذا كانوا يريدون حقاً أن يؤمنوا أم لا. لماذا تبدأ بهذه النقطة؟»

«لأن بعض الناس يقولون إنهم يريدون أن يؤمنوا بينما هم لا يريدون حقاً. كما قلتُ سابقاً، إنهم يُثيرون قضايا معرفية عندما يحاولون فقط تشتيت الانتباه عن إنهم لا يريدون حقاً أن يؤمنوا. على سبيل المثال، قالت لي فتاة جامعية: «يبدو لي وكأن هذا الفكر المسيحي قد اخترعه أناس لديهم حاجة نفسية كي يؤمنوا.»

وكانت إجابتي نعم، فالناس لديهم حاجة نفسية كي يؤمنوا، كما أن بعض الناس لديهم حاجة نفسية كي لا يؤمنوا. وقلتُ لها: «ما السبب وراء أنك لا تريدين أن تؤمني؟ هل هذا بسبب أنك لا تريدين المسئولية التي يحملها الإيمان؟ هل هذا بسبب اليأس من فسادك؟ أم أنه بسبب أنك لا تريدين التخلي عن الحفلات؟»

فاندهشتْ وقالت: «من قال لك هذا؟ الأمر قليل من الأسباب الثلاثة.» حسناً، لقد كانت لديها أسباب شعورية تدفعها ألا تريد أن تؤمن. وآخرون لديهم أسباب مختلفة.

«لكن الناس عليهم أن يقرروا حقاً لماذا يريدون أن يؤمنوا. هل بسبب أنهم رأوا بعض براهين حقيقة المسيحية؟ أم بسبب أنهم يائسون بدون الله؟ وإذا كانوا لا يريدون أن يؤمنوا، فلماذا؟

«لو كانت شكوك معرفية، حسناً لا تتوقف عند هذه النقطة. إنهم بحاجة للتعمق فيما يمكن أن يدفعهم حقاً للابتعاد عن الله. لمدة عشرة سنوات كنتُ أزور فتاة صغيرة أسرتها تسئ استغلالها، وقد صَرحت لي أخيراً أن صراعها لم يكن مع الله، ولا مع أسئلتها، لكن مع جروحها، مع مشاعرها. إنها بحاجة أن تبدأ من هذه النقطة.»

فقلتُ: «افترض أن إنساناً يريد أن يؤمن، فماذا توصي كخطوه تالية؟»

«أقترحُ أن يذهب إلى الإيمان. فلو أردتَ أن تزرع وروداً، فلا تشترَ فداناً في القطب الشمالي، لكنك تذهب إلى المكان الذي تُزرع فيه الورود جيداً. ولو أردتَ أن تمارس الإيمان، فمن المحتمل ألا تريد الانضمام لشركة الملحدين الأمريكان القابضة. حاوط الناس الذين تحترمهم بسبب حياتهم، وعقلهم، وشخصيتهم، وإيمانهم،

وتعلم منهم. راقب حياتهم.

«وأشجع الناس أن يضعوا مواد بنائية للإيمان في أذهانهم، وبهذا أقصد الكتب، والشرائط، والموسيقى التي تبني دافعاً قوياً للإيمان، وتُوّضح طبيعة الله، وتختبر البرهان المؤيد والمُعارض، وتتعامل بذكاء مع نقد الإيمان، وتمنح الرجاء الذي يمكنك من التواصل مع الله، وتهديك أدوات تنمية حياتك الروحية.»

كانت هذه الاقتراحات ذات دلالة، لكن شئ كان مفقوداً. فقلتُ: «الإيمان لأجل الإيمان لا معنى له. أليس من المهم تحديد أين تضع إيمانك تماماً؟»

فرد أندرسون: «تماماً، ومن هنا فالخطوة التالية هي توضيح هدف إيمانك. نحن الكنديون نعرف أن هناك نوعين من الثلج: الثلج الكثيف والثلج الرقيق. يمكن أن يكون إيمانك قليلاً جداً بالثلج الكثيف، وهذا يجعلك قائماً بشكل لا بأس به، ويمكن أن يكون إيمانك عظيماً جداً بالثلج الرقيق، ويمكنك أن تغرق. ليس مقدار الإيمان الذي تجمعه هو المهم. فالإيمان يمكنه أن يكون ضئيلاً كحبة خردل. لكن إيمانك لا بدَّ أن يُستثمر في شئ صلب.

«ومن هنا فالناس بحاجة لتوضيح أسبابهم للإيمان. لماذا يجب أن يؤمنوا بيسوع بدلاً من ماهاريشي Maharishi؟ لماذا يؤمنون بالبللورات أو بالصوفية الشرقية. أين الثقة؟ تطلع أندرسون للكتاب المقدس الجلدي على المائدة وقال: «أنا متحيز بوضوح، ولكن حين يصل الموضوع إلى هذه النقطة، فإن هدف الإيمان الوحيد المدعم بصلابة من برهان التاريخ والآثار والأدب والخبرة هو يسوع.»

تجربة الإيمان

اتخاذ قرار الإيمان، والذهاب حيث يوجد الإيمان، واستخدام المواد البانية للإيمان، وتوضيح هدف الإيمان – بالطبع كانت كل هذه توصيات جيدة، لكن شئ ما بدا أنه لا يزال غائباً. فقلتُ: «في نقطة معينة تكون رحلة إيمان بحاجة إلى أن تبدأ، فكيف يحدث

هذا؟»

فجاءتني إجابة أندرسون: «الجلوس والاستغراق في الإيمان والشك لن يمكنهما أن يجعلا أي إنسان مؤمناً على الإطلاق. ولا حتى قراءة كل الكتب الصحيحة، أو الخروج مع الرفاق المناسبين، أو حتى إتخاذ قرار الإيمان. في النهاية لا بدَّ أن تباشر تجربة إيمانك بعمل ما يعمله الإيمان.

«قال يسوع إن ثبتنا في كلامه – أي ثبتنا في عمل ما يقوله – نكون حقاً تلاميذه. [٩] فمعنى أن تكون تلميذاً هو أن تكون «متعلماً تابعاً». وعندما تكون متعلماً تابعاً تعرف الحق، والحق يحررك.

«معرفة الحق لا تعني حشو عقلك بالمعرفة، فهذه هي الكلمة العبرية «يعرف» التي ليست جمع المعلومات. إنها معرفة متعلقة بالخبرة. كما عرف آدم حواء – فهو لم يعرف مجرد اسمها وعنوانها، بل اختبرها.

«لكي تختبر الحق وتتحرر، عليك أن تكون متعلماً تابعاً. وبأسلوب آخر، افعل ما يقوله لك يسوع، وسوف تختبر مفعول ذلك. فالأمر بمثابة قيادة دراجة؛ فلا يمكنك مشاهدة فيديو أو قراءة كتاب حول ذلك، بل عليك أن تركب الدراجة للمرور بهذه الخبرة.»

«كيف يفعل الإنسان هذا؟»

«أنت تقول: «لقد سمعتُ بعض الأشياء التي علّمها يسوع. تبدو كأفكار جيدة بالنسبة لي، لكني لا أعرف مدى حقيقتها. على سبيل المثال سمعتُ يسوع يقول «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ»؛ فكيف أعرفُ مدى حقيقة ذلك؟» حسناً، فألف مناظرة لا يمكنها برهان هذا. ولكن عندما تصبح كريماً، ستدرك أن هذا حق. يمكنك أن تقول: «آوه، ربما يكون يسوع قد خمن صواباً بالصدفة.» استمر إذاً، وسوف تُدهش لكثرة ما خمنه يسوع بالصواب!»

بسطتُ يدي لالتقاط كتاب أندرسون المقدس، مفتشاً فيه حتى وصلتُ إلى مزمور ٣٤: ٨، وقلتُ: «قال الملك داود ذُوقُوا

وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبَّ!»؛ فهل هذا هو ما تتكلم عنه؟»

فقال بإقناع: «هذه هي الفكرة، فكلما تفعل هذا، كلما تُنسج باختبارات في نسيج الإيمان.»

توقعتُ من أندرسون الإسهاب، لكنه توقف فجأةً بهذا التعليق. تطرَّق إلى الجانب كما لو كان يستجمع أفكاره. ثم استمر بالتكلم بتأثر عن خبرة الإيمان.

الإيمان كفعل

قال أندرسون: «أعرفُ يا لي Lee أنك ملحد سابق. من المحتمل أن يمكنك الخروج بمائة سؤال عن الله لا أعرفُ كيف أرد عليها. ولكن هل تعرف السبب؟ الأمر لا يهم لأنني اكتشفتُ أن هذا حقيقي.

«لم يكن مظهري ينم عن ابتسامة سخيفة وعينين زجاجيتين. فلقد اكتشفتُ أنه مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ. لقد تسايرتُ وتسايرتُ مع هذا. فكلما اكتشفُ رؤية جديدة، وكلما يتحدث يسوع لي شخصياً بطرق لا يمكنني حتى أن أنطق بها، وكلما أمارس تعاليمه وأختبر النتائج ـ حسناً، بعد قليل لا أهتم بكم الأسئلة المعرفية التي لديك حول لماذا لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. فأنا أعرفُ أنه حقيقي.

«الأمر يبدو كأن تقول: «برهن لي أن قوس قزح جميل»، فأقول: «حسناً، إنه أحمر وأخضر»، لكنك تقول: «لا أحب الأخضر والأحمر معاً.»، فأقول: «لكن الشكل الذي يظهران فيه في قوس قزح جميل!» لم أسمع إطلاقاً عن إنسان اعتقد أن قوس قزح ليس جميلاً. عندما تكون قادراً أن تنظر إليه بالفعل لنفسك، فلا حاجة لي لقول المزيد. لقد رأيته أنتَ، واختبرته، وتعرف أنه جميل.

«أعتقد أن الإيمان مثل هذا. ففي النهاية، عليك أن تنطلق وتمارسه. وبالمناسبة، في إنجيل يوحنا، لا يأتي الإيمان أبداً كاسم،

بل دائماً كفعل. فالإيمان عمل action، وليس مجرد قبول عقلاني. إنه إتجاه حياة. ولذلك عندما نبدأ عمل الإيمان، فالله يبدأ في تأييده. وكلما نتعمق في إتباع الرحلة، كلما نعرف أنها حقيقية.

بينما كان تحليله يتمتع بالقبول، إلا أن غموضاً واضحاً كان موجوداً. فأوضحتُ قائلاً: «لو كان الإيمان اختبارياً، يمكنك الانضمام للبوذية، وستجد أن التأمل يُخفض ضغط دمك ويجعلك تشعر بالتحسن. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن البوذية على حق.»

فحذر قائلاً: «ولكن تذكر أن الاختبار مجرد سبيل واحد للبرهان. فعليك أيضاً توضيح هدف إيمانك كي تحدد ما إذا كانت هناك أسباب شرعية لتصديق أنه إيمان حقيقي. فالاختبار النهائي للحلوى يتمثل في أكلها. فالبوذية تعمل لصالح بعض الأشياء، والإلحاد يعمل لصالح بعض الأشياء. لكنك لو اتبعت رحلة يسوع بكاملها، ستجد أن تعاليمه تتماشى في تناسق لأنها حقيقية. فالمسيحية ليست حقيقية لأنها مؤثرة، لكنها مؤثرة لأنها حقيقية.»

فابتسمتُ قائلاً: «يبدو أنك تتكلم عن خبرة.»

«حسناً، سأقول لك – إن إيماني أفضل بكثير عما كان منذ ٣٠ عاماً. فهل أملكه كله معاً؟ هذا سيكون مبالغة. ولكني في سلام غامر أكثر مع الله، وفي ثقة تامة أكثر أنني بين ذراعيه، وأؤمن أنه يقبل محاولاتي الضعيفة لتمجيده بحياتي.»

«هل تأتيك لحظات لا تزال تشك فيها؟»

فاندهش قائلاً: «آوه، يا رجل، نعم!، إني أتصارع مع لماذا لا أحرز تقدماً أكثر في قهر خطاياي المحببة. بالطبع لا يمكن أن يكون هذا هو خطأ الله – بل من الناحية الأخرى، لماذا يجعل الأمر صعباً جداً عليَّ؟ أنا لديَّ ذاك النوع من الشكوك. أتصارع مع الأهوال التي تحدث في كوسوفو، واندونيسيا، وبقاع إفريقيا، حيث تُباد أجناس بأكملها – وبعضها تحت اسم الدين. لماذا لا يتعامل إله محب مع هذا؟ لستُ أقول إني لا أؤمن به. لكني أقول إني لا أملك الإجابة الكاملة النهائية على هذا السؤال.»

«هل هناك رجاء للشكاكين بالفطرة مثلك أنت؟ »

كان أندرسون عنيداً فصمم قائلاً: «نعم، نعم، بالطبع. عندما أقول إني أتصارعُ مع شكوكي وخطاياي، فلا أريدُ أن أبدو كإنسانٍ مهزوم أو كمن ليس له رجاء. أحد الرفاق من كنيستي قرأ كتابي عن الشك وقال: «أوه، لا! هل تقصد أنك لا تؤمن حقاً؟»، فقلتُ: «لا، فأنا أؤمن حقاً – ولكن هل تعن عدم إيماني؟»

«هذه الأيام أختبرُ الله أكثر من أي وقتٍ مضى. يمكنني حتى أن أرى نعمة الله في تلك الأوقات التي يبدو فيها غائباً عني، تماماً كما أن صفات زوجتي تبدو أكثر واقعية عندما أكون بعيداً عنها لأني أشتاقُ إليها. هذه الأيام أصلي أكثر، وأتلقى من الله استجابة للصلاة أكثر مما تلقيته في كل حياتي. أشعرُ بحاجة أقل للتحكم في الآخرين أو النتائج لأني أعرفُ أن الله يُمسك بالزمام.

«والمثير للسخرية، أشعرُ أني أقل استعداداً للرد علي كل الاعتراضات القادمة من المتشككين المشهورين. ولكن هل تعرف السبب؟ لم يعد الأمر مهماً بالنسبة لي كما كان، لأني أعرفُ أن هذا حقيقي. إني أراه.

«أراه في حياتي، أراه في زواجي، أراه في أطفالي، أراه في علاقاتي، أراه في حياة الآخرين عندما يتغيرون بقوة الله، وعندما يتجددون من قِبل الله، وعندما يتحررون من قِبل حقه.»

كان صوت أندرسون يحتوي علي إتجاه خفي بالسلطان الواثق. فقد صرح في الختام: «لي Lee ، لقد تذوقتُ!، وأقولها لك – لقد تذوقتُ! ولقد نظرتُ ما أطيب الرب.»

عاد ذهني لصورة شاب كندى ريفي يتحسر على شكوكه، وهو يبحث يائساً عن أرضية روحية صلبة ليؤسس عليها حياته. والآن، لا رغم الشكوك، ولكن بسبب الشكوك، وجد حياته. إن علاقته الشخصية مع الله تؤكد مراراً وتكراراً ما لم يبرهنه أي دليل تجريبي علي الإطلاق. بسطتُ يدي وأغلقتُ التسجيل وقلت: «أشكرك يا لين علي أمانتك العظيمة.»

الإيمان بالشك

واصلتُ الأمر بإعادة تشغيل تسجيل لقائي مع أندرسون بينما عدتُ إلى شيكاغو في رحلة جوية نصف ممتلئة تلك الليلة. وجدتُ نفسي أتفقُ مع تقديره لدور الشك. فبينما يمكنه أن يكون مُربكاً، ورغم أنه يمكنه أن يصير مدمراً في النهاية لو لم يُعتنى به، إلا أن الشك يمكن أن تكون له فوائد بشكلٍ واضح. رددت مع رؤية جاري باركر في كتابه عطية الشك *The Gift of Doubt* :

> لو لا يتواجه الإيمان مع الشك، ولو لا يتصارع مع الزيف، ولو لا يتحارب الخير مع الشر، فكيف يعرف الإيمان قوته الشخصية؟ في رحلتي الروحية الخاصة، لو كان عليَّ أن أختار بين إيمان حملق في الشك وجعله يطرف، وإيمان ساذج لم يعرف أبداً خط نار الشك، لاخترتُ علي الدوام الإيمان الأول.

سأفعلُ هكذا أيضاً. لقد عرفتُ أن ثقتي الجوهرية بيسوع ستكون أكثر قوة وضماناً وثباتاً لأنها تمحصت من خلال نار الشك المطهرة. وفي النهاية، ورغم الأسئلة، والتحديات، والعقبات، فإن إيماني لن يعيش فقط، بل سينمو أيضاً.

بعد ذلك إتجهت أفكاري إلي تشارلز تمبلتون. هل كانت اعتراضاته العقلية حول الله مسئولة حقاً عن تفكيك إيمانه؟ أم أن شيئاً ما كان كامناً في ظل تلك الشكوك، دافعاً خفياً لا يُوصف كان يضرم سراً تحدياته للمسيحية؟ لم يكن أمامي طريق للتأكد. ولم تكن لديَّ رغبه للبحث في حياته الخاصة لاستكشاف ذلك. في هذه اللحظة، كان أفضل ما استطعته هو أن أستمر في أخذ اعتراضاته علي محمل الجدية.

كان هناك تضمين آخر مهم من لقاء أندرسون. فلو كان الشك والإيمان يمكنهما أن يتواجدا معاً، فهذا معناه أن الناس ليس عليهم أن يحلوا تماماً كل عقبة بينهما وبين الله لنوال إيمان حقيقي.

وبأسلوبٍ آخر، عندما تميل أكثرية جميع الأدلة على نحوٍ حاسم

إلى رضا الله، ثم يقرر إنسانٌ اختياره العقلي بالإيمان به، فيمكنها أن تتحكم في بعض أكثر الاعتراضات الخارجية حتى يأتي اليوم ويتم حلها.

وفي نفس الوقت، يمكنهم أن يقرروا قرار الإيمان، ويطلبوا من الله المعونة لعدم إيمانهم.

مشاورات

أسئلة للتأمل ومجموعات الدراسة

• أي جزء من قصة أندرسون تعاطفتَ معه؟ بأية طرق تختلف أو تتشابه رحلتك الروحية مع رحلته؟

• ما أنواع الشكوك التي تتصارع معها؟ هل من الممكن أن تكون مُضرمة بدافع عدم الإيمان؟ لو كان الأمر هكذا، فهل يمكنك أن تحدد سبب تباطئك عن اتباع الإيمان بالمسيح؟

• كيف تأثرت رؤيتك عن الله من قَبل الأسرة التي نموت فيها، أو الكنيسة التي كنت تحضرها في طفولتك؟ باستعادة الماضي، هل نموتَ برؤية كتابية دقيقة عن الله؟

• عرض أندرسون اقتراحات عديدة للجهاد في حياتك الروحية – إتخاذ قرار الإيمان، الذهاب حيث ويجد الإيمان، استخدام المواد البانية للإيمان، توضيح هدف إيمانك، واختبار إتباع تعاليم يسوع. أي من هذه الخطوات تؤمن أنها ستكون الأكثر عوناً لك، ولمَاذا؟

مزيد من الأدلة

مصادر أخرى حول هذا الموضوع

• Lynn Anderson. If I Really Believe, Why Do I Have These Doubts? 2d Edition. West Monroe, La.: Howard, 2000.

• Gary E. Parker. The Gift of Doubt. San Francisco: Harper & Row, 1990.

• Os Guinness. In Two Minds. Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1976.

• Gary R. Habermas. The Thomas Factor. Nashville: Broadman & Holman, 1999.

الخاتمة
قوة الإيمان

«شخصٌ ما، في مكانٍ ما، يحبني!»

عبارة متكررة في يوميات الملحدة

الراحلة مادلين موريه أوهير [١]

الإنسان يرفض الله لا بسبب المطالب الفكرية، ولا بسبب ندرة الأدلة. الإنسان يرفض الله بسبب مقاومة أخلاقية ترفض أن تعترف باحتياجه لله.»

رافي زكريا، مسيحي [٢]

استغرقتْ عودتي من مقابلتي في تكساس طوالِ اليوم. فقد تعطلت رحلتي الجوية بسبب الطقس العاصف، ثم أُلغيت نتيجة مشكلات ميكانيكية، واضطررتُ لإعادة توجيه نفسي عبر مدينتين أخريين كي أرجع إلى الوطن. لقد كانت رحلات الطيران وعرة ومزدحمة. كنتُ متعباً بدنياً، لكن ذهني كان يعمل وقتاً إضافياً.

انتهيتُ أخيراً من استرجاع ذكرياتي، والتوسع في رحلتي الروحية الأصلية بمحاورة خبراء حول الاعتراضات «الثمانية العنيدة» للمسيحية. ومرةً أخرى، حملق الإيمان في عين الشك بشكلٍ محكم – وكان السؤال الوحيد هو أيهما سيطرف.

استرخيتُ في مقعدي الوثير المفضل، وذهني يطن بينما كان

يسعى لاستيعاب كل المعلومات والآراء والأدلة التي كنتُ أجمعها على مدار العام الماضي. ملأتُ مجموعة من الدوسيهات القانونية بالأبحاث. وكانت مجموعة شرائط المقابلات المسجلة كثيرة العدد، وكان مكتبي مملوءاً بالكتب.

أثارت العقبات الثمانية للإيمان قضايا عسرة، ومع ذلك، كان الخبراء الذين أجريتُ معهم مقابلات رواداً في تقديم إجابات مُرضية. ففي كثير من الموضوعات استطاعوا أن يقدموا تفسيرات حاسمة وطدت القضية في ذهني بشكل حاسم. بالنسبة لبعض الموضوعات التي لم تُخضع ذاتها لذلك النوع من الحل الحاسم، تمكن الباحثون من إضعاف فعالية الاعتراضات بتقديم قرائن وأفكار هامة. تمت إزالة الاعتقادات الخاطئة، وتم تحقيق وضوح أكثر، وفى النهاية تمت تهدئة وخزة كل تحدٍ بنجاح.

بالنسبة لي شخصياً، برهن عائقان – وجود المعاناة، وعقيدة الجحيم – على أنهما المصدران الأكثر إرباكاً. فكلما انغمستُ فيهما أكثر، كلما وجدتُ نفسي في خطر فقدان رؤيتي. وبينما كنتُ أغلق عيني، وأفكرُ في التحقيق، متطلعاً إلى موضوعات متقدمة يمكنها أن تساعدني على إدراك كل شئ، جالت بخاطري ثلاثة مشاهد متميزة، بدءاً من مناقشة قصيرة ساعدني فيها مورلاند على استعادة توازني.

المشهد الأول: إيجاد منظور

كنتُ على وشك أن أغادر منزل مورلاند في يوم مقابلتنا حول عقيدة الجحيم. عرفتُ أنه كان بحاجة أن يرحل إلى المعهد اللاهوتي، لذلك شكرته على وقته، وبدأتُ في إعداد عدة التسجيل. لكن كان لا يزال هناك شئ يزعجه. وبينما كنا نجلس سأل عما إذا كان يمكنه أن يضيف نقطة أخرى.

قال بينما يبحث في ذهنه عن الطريقة الصحيحة للكلام: «لي Lee، هناك شئ آخر يجب أن أضيفه». وتنهد وهو يبدو محبطاً من أسلوب إيجاز كلامه. وبعد ذلك، بينما إتكأتُ على إطار بابه

وأصغيتُ عن كثب، وصف مورلاند تماثلاً جزئياً خلق لحظة دهشة بالنسبة لي.

بدأ قائلاً: «عندما تحاول أن تصنع قرار بشأن شئ، وتزن البرهان عليه وضده، فمن المهم أن تأخذ بعين الاعتبار كل الأدلة المتعلقة به، وليس مجرد جزء صغير منها.»

كان هذا أمرٌ معقول، لكني سألتُ لماذا شعر بأنه مجبر على قول هذا.

فشرح قائلاً: «لأننا كنا نركز على رفض واحد شائع للمسيحية – أقصد وجود الجحيم. ولو كنتَ تركز فقط على عقبة واحدة، فسوف تفقد الصورة الكبيرة الشاملة.»

«دعني أقدم لك توضيحاً. افترض أنني رأيتُ زوجتي تمسك يد رجل آخر في المول. فهل سيكون من المنطق أن أستنتج أنها كانت تخدعني؟ حسناً، إن الأمر يعتمد على أي دليل أضعه في الاعتبار. فإن كان الدليل الوحيد الذي أفكر فيه هو ما رأيته في المول، لقلتُ لنفسي: «لا أرى أي شئ يوضح أن لا تخدعني.» لكن ذلك يترك شيئاً مهملاً. أليس كذلك؟

«إنه يهمل مقداراً وفيراً من الأدلة ليست لها علاقة بموقف المول، لكن له كل العلاقة بالربع الأخير من قرنٍ من الزمان قضيته معها. لقد عرفتها بشكلٍ جيد إلى حدٍ كاف، يوماً فيوم، حتى أكون واثقاً من أنها لا يمكن أن تخدعني هكذا. لذلك إذا سُمح لي أن أقدم أدلة العمر هذه، لقلتُ: «يبدو في الظاهر وكأنه شئ مضحك، لكن لا يمكن ببساطة أن يكون صحيح أنها تخدعني. لا بدَّ أن يكون هناك تفسير آخر.»

«افترض الآن أنها قد تلقت مكالمة دونٍ علمي من شخص ساعدته أن يصير مسيحياً منذ عشرين عاماً. وحدث وأن كان في المدينة، وهي لم تكن قد رأته منذ عقدين من الزمان، لذلك تقابلا معاً في المول، وكانا يسترجعان صور العائلة، ويستغرقان في الذكريات. كان يستعد للمغادرة إلى بلد أجنبي، وربما لن تراه مرة أخرى. ولذلك، كأخ وأخت، تماسكا الأيادي في براءة، وتحدثا في

المول.

«حسناً، هذا يشبه فحصنا لمنطقية الجحيم ربما تسأل نفسك: «هل أشتري الجحيم أم لا؟» إن كان الدليل الوحيد الذي تفكر فيه أثناء تأملك هو مزايا وعيوب الجحيم في حد ذاته، فإن ذلك يشبه التأمل في موقف زوجتي، والسماح فقط للدليل في صالح وضد ما رأيته في المول.

«أريد أن أؤكد أن هناك العديد من الأدلة الأخرى التي يجب أن تأخذها بعين الاعتبار، والتي ليس لها علاقة بالجحيم في حد ذاته، لكنها تتصل به. ما هذا؟ إنه كل الأدلة على وجود الله، وأنه خلقك، وأن العهد الجديد جدير بالثقة تاريخياً، وأن يسوع صنع معجزات وقام من الموت، وأن الله يريد أن يقضي الأبدية معك في السماء.

«عندما تحلل كل ذلك، ربما ستقول لنفسك: «رغم أنني ربما لا أملك تفسيراً جيداً على نحو كامل في هذه النقطة لسبب وجود جحيم، إلا إنني أعرف أنه يجب أن يكون هناك جحيم لأن لدىّ أدلة كثيرة على أن يسوع المسيح هو بالحقيقة ابن الله، وأنه قد علم عنه.

«ولأنني يمكن أن أؤمن به، وفي محبته العميقة للبشر - كما اتضح من موته لأجلنا على الصليب – يمكن أن أثق فى أن الجحيم سيكون معقولاً في النهاية، وأنني سأرى عدله وسوف أدرك في النهاية أنه أفضل بديل أخلاقي.»

سلسلة طويلة من الأدلة

كان تفسير مورلاند البسيط مُعيناً لي للغاية. فبينما تعمقتُ في أعقد عوائق الإيمان، جاءت لتبدو في شكل ضخم في ذهني، حتى إنها طردت المعلومات الأخرى المتصلة. ومن الممكن أنه بينما تركز على موضوع واحد مربك بشكلٍ خاص بالنسبة لك، تحدث نفس الظاهرة.

إن كشف زيف المسيحية يتطلب أكثر من مجرد إثارة اعتراض.

وذلك لأن هناك خلفية لأدلة أخرى متصلة تخلق افتراضاً قوياً لصالح الإيمان بيسوع المسيح. وببساطة، فإن فحص التحديات الفردية ليس كافياً، فهذا الامتداد الواسع من الأدلة هو بحاجة أن يُحفظ في الذهن بينما يتم التفكير في كل اعتراض على حدة.

أي نوع من الأدلة؟ لقد استنبطت مقابلاتي مع الخبراء هذه الحقائق المقنعة التي تسير بقوة إلى وجود الله وابنه الوحيد يسوع المسيح:

- الانفجار العظيم. أظهر لين كريج المساعد في تأليف كتاب «الإيمان، والإلحاد، وكوزمولوجيا الانفجار العظيم-*Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology* من إصدار مطبعة جامعة أكسفورد، أن الكون والزمن ذاته كانت لهما بداية في نقطة ما من الماضي السحيق. ويشير العلماء إلى هذا باسم الانفجار العظيم. ناقش كريج أنه كل ما يبدأ في الوجود له علة، وأن الكون قد بدأ في الوجود؛ ومن هنا تكون للكون علة - أي خالق غير مُسبَّب، وغير متغير، ولا يحده زمن، وغير مادي. وحتى الملحد الشهير كاي نيلسن قال ذات مرة: «افترض أنك سمعت فجأة فرقعة عالية ... وسألتني: «ما الذي تسبب في تلك الفرقعة؟» وأجبتك: «لاشئ، إنها حدثت وحسب»»، فلن تقبل ذلك. والتي أشار لها كريج قائلاً أنه إذا كانت هناك علة واضحة على وجود فرقعة صغيرة، أفلا يعقل أيضاً أن هناك «علة» على وجود انفجار عظيم؟

- التناغم الجيد للكون. في الخمس والثلاثين سنة الماضية ذهل العلماء باكتشاف مدى التوازن المذهل للحياة في العالم في موضع حرج للغاية. لقد كان الانفجار العظيم حدثاً منظماً على نحو عال تطلب مقداراً هائلاً من المعلومات، ومن لحظة الابتداء كان العالم متناغماً بشكل جيد لدقة لا يمكن إدراكها لوجود حياة مثل حياتنا. إن اختلافاً صغيراً جداً في تقدير الاتساع المبدئي للكون، وقوة الجاذبية، أو القوة الضعيفة، أو عشرات من الثوابت والكميات الأخرى

كان سيخلق كوناً مانعاً للحياة بدلاً من كونٍ مدعم للحياة. وهذا كله يؤيد استنتاج أن هناك مصمماً ذكياً وراء هذا الكون.

• القانون الأخلاقي. بدون الله، تكون الأخلاقية ببساطة نتاج تطور اجتماعي حيوي، وفي الأساس مسألة تذوق أو تفضيل شخصي. فعلى سبيل المثال، ربما يصبح الاغتصاب محرماً أثناء التطور البشري لأنه ليس امتيازاً اجتماعياً، لكن من الممكن أيضاً تصور أن الاغتصاب كان من الممكن أن يتطور كشئ نافع لبقاء الأنواع. وبتعبير آخر، فإنه بدون الله لا يوجد معيار مطلق للصواب والخطأ يفرض ذاته على ضميرنا. لكننا نعرف في أعماقنا أن القيم الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل – فمثلاً، بعض الأفعال كالاغتصاب، وتعذيب الأطفال أمور بغيضة أخلاقياً في العالم، ومن ثم فهذا معناه أن الله موجود.

• أصل الحياة. لا يمكن أن تقدم الدارونية نظرية يمكن تصديقها عن كيفية نشأة الحياة بشكل طبيعي من مواد كيميائية غير حية. كان الغلاف الجوي المبكر للأرض سيمنع تطور القوالب البناءة للحياة، وكان جمع حتى أكثر مادة حية بدائية سيمثل صعوبة بالغة حتى إنه لا يمكن مطلقاً أن يكون نتاج عمليات غير موجهة أو عشوائية. بل على النقيض، فإن المقدار الشاسع من المعلومات الدقيقة التي توجد داخل كل خلية حية – المشفرة في أبجدية «DNA» الكيميائية الرباعية الحروف يؤكد بقوة وجود مصمم ذكي كان وراء الخلق الإعجازي للحياة.

• مصداقية الكتاب المقدس. توصل الباحث نورمان جيسلر على نحو مقنع لوجود دليل على أن الكتاب المقدس مصدر يمكن الإعتماد عليه أكثر من أي كتاب آخر من العالم القديم. فمصداقيته الأصلية تعززت مراراً بواسطة الإكتشافات الأثرية، وكما قال: «إن كان يمكننا أن نثق في الكتاب المقدس عندما يخبرنا عن أمور أرضية صريحة

يمكن التأكد من صحتها، يمكننا إذاً أن نثق به في مجالات حيث لا يمكننا أن نؤكد على صحته مباشرة بطريقة تجريبية». علاوة على أن الأصل الإلهي للكتاب المقدس قد ترسخ بطريقتين. الأولى، هي أنه في تحدٍ لكل الشواذ الرياضية، تحققت عشرات النبوات القديمة عن المسيا – بما في ذلك إطار الوقت الدقيق الذي كان سيظهر فيه – تحققت بشكل إعجازي في شخص واحد فقط عبر التاريخ، يسوع الناصري. الثانية، هي أن الأنبياء الكتابيين صنعوا معجزات لتأكيد سلطانهم الإلهي. وكان حتى أعداء يسوع يعترفون بمعجزاته. على النقيض من ذلك في القرآن حينما تحدى الكفار «محمداً» كي يصنع معجزةً، رفض ذلكٍ، وأخبرهم فقط أن يقرأوا سورة في القرآن، رغم أنه سلّم بأن «الله لديه بالتأكيد القوة لإرسال علامة.»

• قيامة يسوع. بنى كريج فرضية قوية بأن يسوع المسيح قد قام من الأموات في التأصيل الأخير من تأكيده لألوهيته. لقد قدَّم أربع حقائق مقبولة على نطاق واسع من قبل مؤرخي العهد الجديد. أولاً، بعد أن صُلب يسوع، دفنه يوسف الرامي في قبر. هذا معناه أن مكانه كان معروفاً من قبل اليهود، والمسيحيين، والرومان على حدٍ سواء. ثانياً، في يوم الأحد بعد الصلب، فإن مجموعة من النسوة تابعاته وجدن القبر فارغاً. في الحقيقة لم يؤكد أحد سوى أن القبر كان فارغاً. ثالثاً، في مناسبات عديدة، وتحت ظروف متنوعة، اختبر أفراد مختلفون ومجموعات مختلفة ظهورات ليسوع قائماً من الموت. لا يمكن رفض هذا كأمر أسطوري نتيجة للتاريخ المبكر جداً لهذه الروايات. رابعاً، آمن التلاميذ الأصليون فجأةً وبإخلاص أن يسوع قد قام من الموت رغم ميلهم لتصديق النقيض. كانوا مستعدين للانطلاق حتى الموت مؤكدين قيامة يسوع، وهكذا برهن على أنه ابن الله، ولا يوجد إنسان يموت وهو على علم وبرغبته من أجل أكذوبة.

هذا بالإضافة إلى أن الباحثين والخبراء الثلاثة عشرة الذين قابلتهم لأجل كتابي السابق «القضية .. المسيح »، أكدوا أن سير يسوع في العهد الجديد تواجه الفحص العقلاني، وأنها سُلمت لنا على نحو موثوق فيه عبر التاريخ، وأن هناك أدلة وثيقة تشهد ليسوع خارج الكتاب المقدس، وأن يسوع لم يكن غير متزن نفسياً عندما صرَّح أنه الله، وأنه حققَ كل صفات الألوهية. (رجاء النظر إلى الملحق: ملخص « القضية .. المسيح» في ختام هذا الكتاب للحصول على فكرة شاملة عن هذه النتائج.)

تفسير الدليل

يجب وزن كل اعتراض من الاعتراضات «الثمانية العنيدة» في ضوء هذا الدليل الإيجابي القوي لوجود الله ولألوهية يسوع المسيح. على سبيل المثال، كما سلم بيتر كريفت في مقابلتنا، فإن المعاناة في هذا العالم لا تُشكّل دليلاً ضد وجود الله، لكنها في النهاية تستتر وراء قدر كبير من الأدلة الأخرى أن الله موجود، وأنه يحبنا، وأنه يمكنه أن يفدينا من معاناتنا، ويأتي منها بالخير. هذه الأدلة الكثيرة يمكنها أن تمنحنا الثقة بأنه رغم أننا ربما لا نفهم تماماً سر وجود المعاناة أو الجحيم، فإننا يمكن أن نثق في أن الله عادل، وأنه يتصرف بطريقة ملائمة، وأننا يوماً ما سيكون لدينا تفسير أعمق.

في حين أن كلاً من هذه العوائق الثمانية خطير، إلا أن أياً منها لم يكن قادراً أن يتغلب على البيانات التي تشير بإقناع لصحة المسيحية. عندما كنتُ ملحداً أدركتُ أنني يجب أن أفعل أكثر من مجرد إثارة اعتراضات عشوائية لعرقلة المسيحية، وكان يجب أن أطلع بسيناريو لا إيماني يتلاءم بشكل أفضل مع كل الحقائق التي سجلتها تواً. لكن الإلحاد لا يمكنه أن يفسر الانفجار العظيم، والتناغم الجيد للكون، ونشوء الحياة، ووجود القوانين الأخلاقية، والتأكيد الخارق للطبيعة للكتاب المقدس، والقيامة. إن الفرضية الوحيدة التي توضح هذا كله هي أن هناك خالقاً إلهياً ابنه الوحيد هو يسوع الناصري.

لقد فحصتُ كل عقبة على حدة، محاوراً خبراء استطاعوا أن يُقدِّموا تفسيرات مُرضية وتحليلات مُرضية. ثم قمتُ بتقييم كلاً من الاعتراضات في سياق الدليل المقنع بأن المسيحية على حق، ومن ثم فإن الله جدير بالثقة، وأنه يحبنا بعمق.

استنتاجي هو أن المسيحية نشأت سالمة. فبعد قضاء سنة في تحري الاعتراضات «الثمانية العنيدة»، ظللتُ مقتنعاً تماماً بأن الخطوة الأكثر عقلانية ومنطقية التي يمكن أن يتخذها الناس هي أن يستثمروا إيمانهم بيسوع الناصري.

المشهد الثاني: صنع اختيار

في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، داخل مبنى بطوب أحمر عليه الكلمات «الحق سيحرركم» منقوشة على سطحه الخارجي، وجدتُ ليزلي وأنا جالسين في مكتب يبدو وكأنه آثار إعصار في حديقة نباتات. كان يحيط بنا - على المكتب والأرضية وكراسي قليلة متبقية - كومات عالية من الأوراق. كانت الأرفف متخمة بكتب ثقيلة، وصحف بالية، ومنوعات من التذكارات. وكان يجلس في وسط كل هذا الفيلسوف دالاس ويلارد ساكناً – وهو أحد أبرز المفكرين المسيحيين في أيامنا هذه.

لقد كانت فرصة نادرة أن أتكلم مع مؤلف أكثر كتابين مسيحيين شهرةً في العقود الأخيرة: *The Spirit of the Disciplines*، *The Divine Conspiracy*. كان حديثنا مع أستاذ الفلسفة ذات الشعر الرمادي، والذي كان يرتدي نظارة، يرتكز على كيفية ممارسة الإيمان من خلال الصلاة.

بينما نناقش كيف يستجيب الناس لله، قدم ويلارد ملاحظة ممتعة على نحو خاص: «إن القضية هي ماذا نريد نحن؟ يقول الكتاب المقدس إنه إذا كنتَ تبحث عن الله من كل قلبك، فسوف تجده بالتأكيد. ستجده بالتأكيد. فالإنسان الذي يريد أن يعرف الله هو الذي يكشف له الله نفسه. وإن كان إنسان لا يريد أن يعرف الله، حسناً، فالله خلق العالم والعقل البشري بطريقة لا يجبره فيها على

ذلك.»

بسط يده، وبحث في كومة أوراق على مكتبه، وسحب ورقةً واحدة، وقال: «هذا بيان أعطيته للطلبة في فصلي.» فأخذتُ الورقة وقرأتُ هذه الكلمات:

«الثلاثاء القادم صباحاً، بعد الإفطار مباشرةً، سيفزع كل إنسان في هذا العالم الواحد إثر قصف رعد مدوٍ. الثلج يدور في دوامات، والأوراق تتساقط من الأشجار، والأرض تجيش وتلتوي، والمباني تتداعى، والأبراج تنهار. السماء تشتعل بضوء فضي غريب، وآنذاك، بينما يتطلع كل أناس هذا العالم، تنفتح السماوات، وتتفرَّق السحب، كاشفةً عن تمثال ضخم متألق بشكل لا يُصدَّق يشبه الإله زيوس، وهو يحلِّق فوقنا مثل مائة قمة كقمة إيفرست. إنه يعبس على نحو مظلم بينما يُشرف البرق على ملامح وجهه التي صممها مايكل أنجلو، ثم يشير لأسفل إليَّ أنا، ويشير لكل رجل، وامرأة، وطفل كي يصغي: «كانت لديَّ كمية كافية تماماً من مهارتك الفائقة في أمور اللاهوت. كن مطمئناً، يا نورووود راسيل هانسون، من أنني موجود بالتأكيد!» [٣]

قال ويلارد: «لذلك سألتُ الفصل في حالة حدوث هذا بالفعل، فكيف كان سيستجيب هانسون؟»

فقلتُ: «هل تعتقد أنه سيفسره؟»

فأجاب ويلارد: «بالقطع!، هذا أمر مؤسف تماماً، لكني أعتقد أنه سيفسره. يجب أن نكون منتبهين لحقيقة أن الصلاة المستجابة – في كل حالة يمكن تخيلها تقريباً - يمكن تفسيرها إذا كنتَ تريد ذلك، وهذا هو ما يفعله الناس عادةً. إنهم يقولون: «حسناً، أنا ذكيٌ جداً، لا يمكن الاستهزاء بي بكل هذه الأمور.»»

استطعتُ أن أفهم ذلك. فقد أخبرتُ ويلارد عن وقت دخلت فيه ابنتي المولودة حديثاً العناية المركزة بسبب مرض غامض كان يهدد حياتها. لم يستطع الأطباء أن يشخصوه. ورغم إنني كنت ملحداً، إلا إنني كنتُ يائساً جداً لدرجة إنني صليتُ حقاً والتمستُ

الله - إذا ما كان موجوداً - كي يشفيها. بعد ذلك بوقت قصير أذهلت الجميع بتحسنها تماماً فجأة، وتركنا الأطباء وهم ينبشون رؤوسهم مندهشين.

قلتُ لويلارد: كان إستجابتي هي أن أفسر الأمر. لقد قلت «يالها من مصادفة! لا بدَّ وأنها كانت تعاني من نوع ما من البكتريا أو أحد الفيروسات التي اختفت تلقائياً. لم أكن حتى سأفكر في إمكانية أن يكون الله قد تدخل. وبدلاً من ذلك، بقيتُ في إلحادي».

ابتسم ويلارد لسماع القصة، وقال برقة: «أنا لا أعني أن أشخص حالتك في حضورك، ولكن هل ربما تكون كبرياؤك قد ظهرت في الطريق؟ لقد كنتَ ذكياً جداً! ما كنتَ ستخدع بهذا. دع كل السيدات الكبار يُخدعن، ولكن ليس أنتَ. طالما أن الشخص لديه هذا الإتجاه تكون هذه هي استجابتهم.»

رائع! لقد كان صحيحاً في الهدف. فحتى إن كان هناك نمو لأدلة موثقة على تدخل الله، فإنني كنت سآتي بأي تفسير - بغض النظر عن مدى غرابته، وبغض النظر عن عدم منطقيته – فيما عدا احتمالية أنه قد استجاب صلاتي. لقد كنتُ متكبراً للغاية لإحناء ركبتي لأي شخص، وساقطاً للغاية في نظام حياتي اللاأخلاقي حتى إنني كنت لا أريد التخلص منه.

استمر ويلارد قائلاً: «أراهنك أن الأمر لا يأخذ خمس دقائق لتفسير معجزة واضحة بشكل تام كالنار التي نزلت من السماء لتلتهم المذبح في حادثة إيليا في العهد القديم. هل تعرف السبب؟ لقد فسرها الناس بالفعل! وإذا لم يفسروها، لاختلف تاريخ إسرائيل كثيراً جداً عما كان.

«والله وضع الصلاة بطريقة إذا ما كنت تريد تفسيرها فإنك تستطيع. هذا هو العقل البشري. والله وضعه هكذا لهذا السبب: الله قضى بأن الناس يجب أن يُدانوا في النهاية بما يريدونه.»

إرادة للإيمان

تخللت تلك الرؤية من ويلارد أعماق رحلتي الروحية. فإن كنتُ أريد هذا، كان يمكنني الاستمرار في محاولة تفسير كلام الخبراء الذين قابلتهم، بغض النظر عن مدى غرابة أو تفاهة مجادلاتي في النهاية. وصدقني، فإن عقلي قادر تماماً على صياغة كل أنواع البينات المتقنة، والأعذار، والجدالات المعارضة – حتى في وجه الحق الواضح.

رغم ذلك، ففي النهاية الإيمان ليس هو وجود إجابات مثالية وكاملة على كل اعتراض من الاعتراضات «الثمانية العنيدة». فباختصار، نحن لا نطالب بذلك المستوى من البرهان الحاسم في أي مجال في الحياة. القصد هو أننا بالتأكيد يكون لدينا دليل كاف حول الله نسلك بناءً عليه. وفي النهاية هذه هي القضية. الإيمان هو عن اختيار، خطوة الإرادة، قرار بأنك تريد أن تعرف الله شخصياً. إنه قول «أنا أؤمن - فأعن عدم إيماني!» وكما قال ويلارد: «الإنسان الذي يريد أن يعرف الله هو الذي يكشف الله له نفسه». أو كما قال لي لين أندسون: «عندما تفتش أسفل السطح، ستجد إما إرادة للإيمان أو إرادة لعدم الإيمان. هذا هو جوهر الأمر.»

لقد كنت شاكراً لأنني لم أضطر لإلغاء عقلي كي أصير مسيحياً. الدليل الإيجابي على أن يسوع هو ابن الله الوحيد، والإجابات المقنعة على الاعتراضات «الثمانية العنيدة» أوضحت الطريق لي كي آخذ تلك الخطوة. لكن كان ينبغي عليّ أن أتغلب على كبريائي. كان ينبغي عليّ أن أقاوم لأنانية والزهو الذان هددا بإبقائي بالخلف. كان ينبغي عليّ أن أقهر الاهتمام الذاتي والتملق الذاتي الذان كانا يغلقان قلبي تماماً عن الله.

لكي أطبق كلمات «ويلارد» على نفسي، كانت القضية الكبرى هي: «ماذا كنتُ أريد؟» هل كنتُ أريد أن أعرف الله شخصياً – أن أختبر التحرر من الذنب، وأن أعيش بالطريقة التي خُلقت كي أعيش بها، وأن أتبع مقاصده لأجل حياتي، وأن أستخدم قوته

للحياة اليومية، وأن أتواصل معه في هذه الحياة وللأبد في الحياة الآتية؟ إن كان الأمر كذلك، كان هناك الكثير من الأدلة لبناء قرار عقلي عليها لقبوله.

كان الأمر يرجع إليّ – كما أنه يرجع إليك. وكما عبر عنه ويليام لين كريج:

> إذا لم يكن الله موجوداً، فالحياة إذاً ليس لها جدوى. أما إذا كان إله الكتاب المقدس موجوداً، فالحياة إذاً لها معنى. والبديل الثاني فقط هو الذي يمكننا من أن نعيش سعداء متناغمين. ومن ثم، يبدو لي أنه حتى إن كان الدليل على هذين البديلين متساوٍ بشكلٍ مؤكد، فإن الإنسان العاقل يجب أن يختار المسيحيةَ الكتابية. يبدو لي أنه من غير المعقول على نحوٍ إيجابي أن تفضل الموت، والعبث، والدمار، على الحياة، والمعنى، والسعادة. وكما قال بليز باسكال إننا لا نملك شيئاً كي نخسره، وأمامنا اللامحدودية كي نكسبها. (٤)

المشهد الثالث: تغيير حياة

حدث هذا المشهد الثالث بعد مقابلتي في أتلانتا مع كريج حول موضوع المعجزات. دخلت سيارتي المستأجرة وقمت بالقيادة ببطء في الطريق العام الداخلي إلى روماRome ، جورجيا. كان المناخ في الصباح التالي بارداً، لكنه مشمس. ارتديتُ ملابسي وتوجهتُ إلى كنيسة لأجل خدمات يوم الأحد.

كان بالخارج ويليام نيل مور يحيي الجميع بطريقة مهذبة بمصافحتهم عند وصولهم. كان يبدو وسيماً، ويرتدي بذلة بخطوط داكنة، وقميص متموج أبيض، ورابطة عنق بنية. كان وجهه لونه بني، وشعره أسود قصير، لكن أكثر شئ أتذكره كان ابتسامته: لقد كانت خجولة ودافئة، لطيفة ومخلصة، ومبهجة ومحبة بين الحين والآخر. لقد جعلتني أشعر بالترحاب.

هتفت امرأة عجوز وهي تصافح يده لفترة قصيرة ثم انتقلت للداخل: «مجد الرب يا أخ مور!»

مور خدام معين في الكنيسة الواقعة بين مشروعين للإسكان في المجتمع المختلط عرقياً. إنه أب محب، وزوج مخلص، ومعيل أمين، وموظف جاد في العمل، رجل رحمة وصلاة يقضي وقت فراغه في مساعدة المجروحين الذين يبدون وكأن الجميع نسوهم. وباختصار، فإنه مواطن مثالي.

لكن بالرجوع إلى مايو ١٩٨٤، كان مور في ذلك الوقت محتجزاً في زنزانة المحكوم عليهم بالموت في معتقل ولاية جورجيا، أسفل المدخل من الكرسي الكهربائي حيث عُين لحياته أن تنتهي في أقل من ٧٢ ساعة.

لم تكن هذه هي قضية إنسان برئ كونه محكوم عليه بالسجن من غير بينة كافية من قبل نظام العدالة. بلا شك، كان مور قاتلاً. وقد اعترف بذلك. فبعد طفولة من الفقر وجرائم صغيرة بين الحين والآخر، التحق بالجيش، وأصبح فيما بعد مكتئباً من الأعباء الزوجية والمادية. وذات ليلة أدمن المسكرات واقتحم منزل العجوز فريدجر ستابلتون البالغ من عمره ٧٧ عاماً، الذي كان معروفاً أنه يحفظ مبالغ كبيرة من النقود في حجرة نومه.

من وراء باب، خرج ستابلتون بمسدسه، فيُطلق مور عليه النار من الخلف بمسدس. قتل ستابلتون في الحال، وفي غضون دقائق كان مور يهرب ومعه ٥٦٠٠ دولاراً. أبلغ أحد الواشين البوليس، وفي الصباح التالي تم القبض عليه في عربته خارج المدينة. وعندما تم القبض على مور بأدلة الجريمة، اعترف بإثمه، وحُكم عليه بالموت. لقد بدد حياته، وتحول إلى العنف، والآن سيواجه بنفسه نهاية عنيفة.

ولكن وليام نيل مور الذي كان يعد الساعات المتبقية على إعدامه المحدد، لم يكن نفس الإنسان الذي قتل فريدجر ستابليتون. فبعد سجنه بفترة قصيرة، زاره اثنان من قادة الكنيسة بناءً على وصية أمه. أخبراه عن الرحمة والرجاء اللذان كانا متاحان له من خلال

يسوع المسيح.

أوضح لي مور أثناء زيارتي إلى جورجيا قائلاً: «لم يخبرني إنسانٌ أبداً بأن يسوع يحبني، وأنه مات من أجلي. لقد كان حباً يمكنني أن أشعر به. كان حباً كنتُ أريده. كان حباً كنتُ أحتاجه.»

في ذلك اليوم قبل مور هبة المسيح بالغفران المجاني والحياة الأبدية، واعتمد على الفور في حوض صغير كان يستخدمه أمناء السجن. ولم يصبح فيما بعد نفس الإنسان أبداً.

ظل مور لمدة ١٦ عاماً في سجن الموت كمبشر بين السجناء. قاد دراسات كتابية، وأدار حلقات صلاة. نصح السجناء، وقدم الكثير منهم للإيمان بيسوع المسيح. وأرسلت بعض الكنائس بالفعل أناساً إليه في مكان الموت كي يقدم لهم النصح. تلقى العشرات من دورات الكتاب المقدس بالمراسلة. وربح غفران أسرة ضحيته. وأصبح معروفاً بـ «صانع السلام» لأنه زنزانته - المزدحمة بالكثير من السجناء الذين صاروا مسيحيين من خلاله - كانت دائماً الأكثر أماناً، وهدوءاً، ونظاماً.

في نفس الوقت اقترب مور أكثر وأكثر من الإعدام. من الناحية القانونية، كانت قضية مستعصية. فنظراً لأنه اعترف بالجريمة، لم تكن هناك مخارج قانونية فعلية تتيح له إطلاق سراحه بالاستئناف. وبمرور الوقت، أكدت المحاكم حكم الموت عليه.

«شخصية قديسة»

ومع ذلك، كان تحول مور عميقاً جداً حتى إن الناس بدأوا ينتبهون. فبدأت الأم تريزا وآخرون يناضلون لإنقاذ حياته. قال سجين سابق تقابل مع مور في السجن: «بيلي ليس كما كان. فإن أعدمتوه اليوم، فسوف تقتلون جسداً، لكنه جسد بذهن مختلف. فالأمر سيبدو وكأنه إعدام الشخص الخاطئ». [٥]

أعلن محرر في *Atlanta Journal and Constitution* مادحاً إياه

ليس فقط على تأهيله، بل أيضاً كونه «عامل تأهيل للآخرين»:
«إنه شخصية قديسة في نظر كثيرين.» (٦)

قبل ساعات قليلة من وضع مور على الكرسي الكهربائي، وقبل حلق رأسه وإبطه الأيمن حتى يمكن توصيل الأقطاب الكهربائية المميتة، أدهشت المحكمة الجميع تقريباً بإصدار توقف مؤقت عن إعدامه.

والأكثر دهشة، صوّت مجلس عفو جورجيا مؤخراً بالإجماع على استبقاء حياته باستبدال عقوبة الإعدام بالسجن مدى الحياة. لكن ما كان مذهلاً حقاً – في الحقيقة – الأمر الغير مسبوق في تاريخ جورجيا الحديث – هو عندما قرر مجلس عفو جورجيا أن مور - المعترف والمُدان ذات مرة بالسطو المسلح والقتل - يجب إطلاق سراحه. وفي ٨ نوفمبر من العام ١٩٩١ أطلق سراحه.

بينما كنت جالساً مع مور في منزله المطل على منظر طبيعي لأشجار صنوبر كثيفة الأوراق، سألته عن مصدر تحوله المذهل.

سألته قائلاً: «لقد كان نظام تأهيل السجن هو الذي فعل هذا التحول، أليس كذلك؟»

فضحك مور وأجاب: «لا، لم يكن ذلك».

فاقترحتُ قائلاً: «إذاً كان برنامج لتطوير الذات، أو وجود إتجاه فكري إيجابي».

فهز رأسه مؤكداً: «لا، ليس ذلك أيضاً».

«عقار بروزاك؟ التأمل الفائق؟ المشورة السيكولوجية؟»

فقال: «مهلاً يا لي Lee، فأنت تعرف أنه لم يكن أياً من تلك الأمور.»

لقد كان على حق، فقد عرفتُ السبب الحقيقي، لكني أردتُ فقط أن أسمعه منه. ثم سألتُ: «إذاً ما الذي كان مسئولاً عن تحول بيلي مور؟»

فأجاب بقوة: «بوضوح وبساطة، إنه يسوع المسيح. لقد غيرني بطرق كان لا يمكنني أن أتغير بها من ذاتي أبداً. أعطاني هدفا للحياة. ساعدني على عمل الشئ الصحيح. أعطاني قلباً للآخرين. لقد خلص نفسي.»

هذه هي قوة الإيمان لتغيير حياة الإنسان. ومن هنا، كتب الرسول بولس: «إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُل قَدْ صَارَ جَدِيداً.»

إن بيلي مور المسيحي ليس هو بيلي مور القاتل. لقد تدخل الله بغفرانه، ورحمته، وقوته، وحضور روحه الدائم. وهذا النوع من نعمة التحول متاح لكل إنسان يتصرف وفق الأدلة المتاحة ليسوع المسيح باتخاذ قرار الابتعاد عن خطاياه، وقبوله كغافر وقائد له.

إنه في انتظار كل من يقبلون الله وطرقه.

ترسيخ الإيمان

لخصت تلك المشاهد الثلاثة بحثي الذي استمر سنة لإجابات على العوائق «الثمانية العنيدة». يؤكد المشهد الأول عظم القضية ككل للمسيح، وإتاحة الإجابات القوية على أقسى الأسئلة حول الإيمان المسيحي. وبتعبير آخر، هناك مبررات وافرة للشخص العاقل للإيمان بيسوع. يلقي المشهد الثاني الضوء على ميلنا البشري لتفسير ذلك الدليل بناءً على الكبرياء والذات. وفي النهاية، فإن الإيمان خطوة إرادة، فالله سيعطينا ما نريد. المشهد الثالث يستخدم مثالاً جذرياً لتوضيح رغبة الله في تغيير حياة أولئك الذين يستجيبون للدليل، ويقهرون كبريائهم، ويفتحون له قلوبهم.

وهذا كله يمكن أن يُختصر إلى عملية من ثلاث كلمات – التحري ... القرار ... التحول – التي اختبرتها في رحلتي الروحية. لقد استجبتُ للدليل بشكلٍ أساسي في العام ١٩٨١ بقرار التخلي عن الإلحاد والثبات في المسيح. ومثل مور، لم أعد كما كنتُ أبداً. ونظراً لانفتاح حياتي بشكلٍ أكثر وأكثر رحابةً على الله وطرقه، اكتشفتُ أن قيمي، وشخصيتي، وأولوياتي، وإتجاهاتي، وعلاقاتي،

ورغباتي كانت تتغير مع مرور الوقت – إلى الأفضل.

واليوم، نظراً لاستعادة ذكريات تحقيقي الأصلي، تدَّعمت ثقتي في قرار العام ١٩٨١. إن طرح أسئلة غير مريحة لم يُضعف من إيماني، بل شدده. والتحقق في «النقاط الرقيقة» للمسيحية رسخ عندي من جديد السلامة الجوهرية والكمال المنطقي للإيمان. وحين تنقى إيماني بصرامة الفحص الفكري، فقد خرج إيماناً أعمق، وأغنى، وأكثر مرونة، وأكثر تأكيداً من ذي قبل.

ومع ذلك، فيما كنتُ متكئاً على ذلك الكرسي الموجود في غرفة معيشتي، وقد راجعتُ تحقيقي، أدركتُ أن مهمتي لم تكن مكتملة تماماً. فقد قدم المبشر الذي صار متشككاً - والذي أنكر بقوة وجود إله محب، لكنه بكى اشتياقاً ليسوع - الكثير من الدوافع لإثارة اللقاءات حول العوائق «الثمانية العنيدة» للإيمان.

كان الهدف من تحقيقي هو الحصول على إجابات للقضايا التي أزعجتني بالأكثر في رحلتي الروحية، وليس لمحاولة اكتشاف بينة «تمبلتون» وكتاباته نقطة بنقطة. ولكن كان هناك تداخل كبير بين القضايا التي أعاقت طريقه إلى الإيمان والنماذج التي أزعجتني عندما كنت باحثاً روحياً.

تساءلتُ كيف كان سيستجيب تمبلتون لمقابلاتي مع هؤلاء الخبراء الثمانية؟ هل سيقبل أدلتهم وحججهم؟ أم أن التقدم العنيد للزهايمر قد سلب قدرته على إعادة تذكر القضايا الروحية مجدداً؟

مذكرة رجاء

كان يوم ربيعي مشرق في منتصف ما بعد الظهيرة في مقاطعة أورانج بكاليفورنيا، حيث تحركتُ مع ليزلي مؤخراً. كنتُ قد طبعتُ تواً النسخة المخطوطة من هذا الكتاب، والتي تحتوى على ما يقرب من ٥٠٠ صفحة. وكنتُ بصدد جمعها في صندوق عندما دخلت ليزلي مكتبي.

«ماذا تفعل؟»

فأومأتُ تجاه المخطوطة وأجبتُ: «هناك شخصٌ أريد أن أرسل هذه المخطوطة إليه».

وضعت ليزلي كوب الشاي، واقتربت لتضع ذراعها حول كتفي، وقالت: «تمبلتون، أليس كذلك؟ إنني أفكر فيه من حين للآخر. في الحقيقة كنتُ أصلي من أجله.»

لم يدهشني ذلك، فسألتها «تصلين ماذا؟»

«أن يكون بصحة جيدة حتى يعيد التفكير في استنتاجاته حول الله. وأن يكون منفتحاً للتفسيرات التي تلقيتها أنت من الخبراء. وأن يستجيب لذاك الصراع بداخله الذي يبدو وكأنه يجذبه إلى يسوع».

أومأتُ برأسي. لقد كنتُ أصلي أنا أيضاً. قلتُ: «لقد تحدثتُ مع زوجته في التليفون منذ لحظاتٍ قليلة. وأخبرتني بأن الزهايمر لم يكن رفيقاً معه، وأنه الآن يعاني من مشاكل صحية أخرى. وعندما أتيحت لي فرصة التحدث معه، وسؤاله عن حال الزهايمر معه، أجاب بكلمة واحدة فقط بصوت مكتئب جداً، وقال: «مدمر».

فقالت ليزلي بهدوء: «آه، يؤسفني سماع هذا.»

وتنهدتُ قائلاً: «وأنا أيضاً. إنه لحزن شديد». وضعتُ بعض الصفحات الأخرى في الصندوق. «لقد قالت زوجته أيضا إن بيلي جراهام جاء ليراه منذ شهور قليلة».

اتسعت عينا ليزلي، وقالت: «حقاً؟، وماذا حدث؟»

«إنهما لم يريا بعضهما الآخر على الفور. فقد قالت زوجته إنه عندما تعرَّف عليه تمبلتون، كان الأمر كما لو أن رجفة قد تخللته، وبدأ يصرخ، وقد ألقى ذراعيه حوله وعانقه. لم تستطع أن تقول أشياء رائعة كافية عن مدى لطف ومحبة بيلي. لقد زاره زيارة قصيرة، وأكلا معاً. قالت إن بيلي صلى قبل الأكل. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتلى فيها صلاة المائدة. وبعد ذلك قبل أن يرحل، صلى بيلي من أجل تمبلتون.

استطعتُ أن أرى أن عيني ليزلي كانتا مملوءتان بالدموع. وقالت «أنا سعيدة جداً أنهما استطاعا أن يقضيا بعض الوقت معاً. فربما ينتج شئ عن هذا».

أومأتُ ثم انتقلتُ للاستمرار في تجميع المخطوطة. وقلت: «لقد قالت مادلين إنها متشوقة لرؤية كتابي، ووعدت بأن تقرأه لتمبلتون. أتمنى فقط أنه لم ينتظر طويلاً وأن ذهنه سيكون صافياً بدرجة كافية حتى يفهم ما قاله هؤلاء الدارسون، لكني أشعر بأنه كان ينبغي أن أرسله – إذا لم يكن هناك مانع».

بعد ذلك جلستُ لأكتب له خطاباً، متمنياً له الصحة الجيدة، ومشجعاً إياه، بقدر الإمكان، للاحتفاظ بذهن صاف، وإلقاء نظرة جديدة على الدليل المؤيد ليسوع. وقّعت اسمي ووضعت القلم، لكني ترددتُ في طي الخطاب. لقد أردتُ أن أكتب شيئاً آخر، فلم أكن متأكداً فقط مما تبقى لأقوله.

تطلعتُ وراء النافذة. كانت Saddleback Mountain رائعة المنظر تحت السماء الزرقاء. ولمدة قصيرة غرقتُ في التفكير. وفجأة، تدَّفقت الكلمات في ذهني. التقطتُ القلم، وأضفت هذه الفقرة سريعاً بينما كانت ليزلي تضع ياها فوق كتفي:

> تشارلز، أرجو أن تقبل إلى قلبك ما يقوله سفر الأمثال ٢: ٣ ـ ٥: «إِنْ دَعَوْتَ الْمَعْرِفَةَ وَرَفَعْتَ صَوْتَكَ إِلَى الْفَهْمِ، إِنْ طَلَبْتَهَا كَالْفِضَّةِ وَبَحَثْتَ عَنْهَا كَالْكُنُوزِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُ مَخَافَةَ الرَّبِّ وَتَجِدُ مَعْرِفَةَ اللهِ.»

ختمتُ الملحوظة في ظرف، ووضعته في الصندوق، والتقطتُ مفاتيح السيارة قائلاً: «لنرسل هذا.»

ملحق

ملخص كتاب «القضية .. المسيح»

في كتاب «القضية .. المسيح»، استعدتُ وتوسعتُ في رحلتي الخاصة من الإلحاد إلى المسيحية بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ بمحاورة ١٣ خبيراً بارزاً حول البرهان التاريخي ليسوع المسيح. وفيما يلي ملخص الإجابات حول الموضوعات التي تحريتُ عنها.

• هل يمكن الوثوق بسير حياة يسوع؟

ذات مرة اعتقدتُ أن الأناجيل كانت مجرد دعاية دينية، وأنها ملطخة بشكل ميئوس منه بتخيلات مثيرة وحماسة تبشيرية. ولكن كريج بلومبيرج من معهد دينفر اللاهوتي ـ أحد أوائل المصادر الموثوق بها في الولايات المتحدة حول سير حياة يسوع – بنى حالة مقنعة للتأمل في شهادة شهود العيان وقبول العلامات المميزة التي لا تُخطئ من الدقة. إن هذه السجلات حول حياة يسوع مبكرة جداً لدرجة أنه لا يمكن تفسيرها كاختراع تفسيري. قال بلومبيرج: «خلال العامين الاولين بعد موت يسوع، يبدو أن أعداداً مميزة من أتباعه قد صاغوا تعليماً عن الكفارة، قانعين أنه قام من الموت جسدياً، ورابطين بين يسوع والله، ومؤمنين أنهم وجدوا العون بالنسبة لكل هذه القناعات في العهد القديم.» تشير دراسة إلى أنه لم يكن هناك وقتٌ كاف بأي حال كي تنمو الأسطورة، وتمحو أساساً راسخاً من صميم الحق التاريخي.

• هل سير حياة يسوع يمكنها أن تواجه الفحص؟

أكد بلومبيرج بشكلٍ مقنع أن كُتَّاب الأناجيل قصدوا الحفاظ على التاريخ الموثوق به، وقد كانوا قادرون على فعل ذلك، وكانوا أمناء

ومستعدون لتضمين مادة صعبة التفسير، ولم يسمحوا للتحيز أن يلون تقاريرهم على نحو غير ملائم. إن التناغم بين الأناجيل حول الحقائق الجوهرية، والذي يُصاحبه اختلاف في بعض التفاصيل الجانبية، يمنح التقارير المصداقية التاريخية. والأهم من هذا هو أن الكنيسة الأولى ما كان لها أن تتأصل وتنمو في أورشليم لو كانت تُعلِّم الحقائق حول يسوع أن معاصريه كان من الممكن اكتشاف مبالغتهم أو زيفهم. وباختصار، فإن الأناجيل كانت قادرة على اجتياز الاختبارات الدليلية الثمانية، وهي توَضح مصداقيتها الرئيسية كسجلات تاريخية.

• هل حُفظت لنا سير حياة يسوع بشكل موثوق به؟

الباحث العالمي بروس ميتزر – أستاذ في معهد برنستون اللاهوتي – قال إنه مقارنةً بالوثائق القديمة الأخرى، هناك عدد غير مسبوق من مخطوطات العهد الجديد يمكنها أن تعود تاريخياً إلى توقيت الكتابات الأصلية بفترة قريبة. فالعهد الجديد الحالي خالي من الاختلافات النصية بنسبة ٩٩,٥٪، بلا تعاليم مسيحية رئيسية في الشك. فالمعايير التي استخدمتها الكنيسة الأولى لتحديد أي الكتب يجب اعتبارها ذات سلطان أكدت أننا نملك أفضل السجلات عن يسوع.

• هل هناك براهين موثقة عن يسوع خارج سير حياته؟

قال إدوين ياموشي من جامعة ميامي – وهو خبير بارز في التاريخ القديم: «لدينا توثيق تاريخي عن يسوع أفضل مما لدينا عن مؤسس أية ديانة قديمة أخرى.» فالمصادر من خارج الكتاب المقدس تؤيد أن كثيرين آمنوا أن يسوع أجرى معجزات شفاء، وأنه كان المسيا، وأنه صُلِبَ، وأنه رغم موته المخزي، فإن أتباعه الذين آمنوا أنه كان لا يزال حياً قد عبدوه كالله. وثّق أحد الخبراء ٣٩ مصدراً قديماً أكدت أكثر من مائة حقيقة حول حياة يسوع، وتعاليمه، وصلبه، وقيامته. فهناك سبعة مصادر مدنية، والعديد من القوانين المسيحية المبكرة تخص لاهوت يسوع، وهو تعليم

«حاضر تماماً في الكنيسة الأولى» وفقاً للدكتور جاري هابيرماس الذي كتب «يسوع التاريخي».

• هل علم الآثار يؤكد سير حياة يسوع أم يعارضها؟

جون ماكراي – أستاذ علم الآثار لأكثر من ١٥ عاماً، ومؤلف كتاب «علم الآثار والعهد الجديد *Archaeology and the New Testament* – قال إنه لا شك أن الاكتشافات الأثرية قد عززت مصداقية العهد الجديد. فلم يدّحض اكتشافٌ واحد على الإطلاق إشارة تاريخية. والأهم هو أن علم الآثار قد برهن أن لوقا – الذي كتب حوالي ربع العهد الجديد – كان مؤرخاً مدققاً بشكل خاص. استنتج أحد الخبراء: «لو كان لوقا دقيقاً بصورة مثابرة تماماً في تقريره التاريخي [للتفاصيل الصغيرة]، فعلى أي أساس منطقي يجب أن نفترض أنه كان ساذجاً وغير دقيق في تقريره عن الأمور الأكثر أهمية، لا فقط بالنسبة له، بل بالنسبة للآخرين أيضاً؟» وعلى سبيل المثال قيامة يسوع، وهو الحدث الذي وثّق تأكيده بأنه ابن الله الوحيد.

• هل يسوع التاريخ هو نفسه يسوع الإيمان؟

جريجوري بودي – باحث جامعة ييل، والمتعلم في جامعة برنستون، والذي كتب الكتاب الأشهر «الحكمة الساخرة أم ابن الله *Cynic Sage or Son of God*» – عرض نقداً قوياً لسيمينار يسوع، وهو مجموعة تتساءل ما إذا كان يسوع قد قال أو فعل معظم ما هو منسوب إليه. لقد عرَّف السيمينار ك «عدد صغير تماماً من الباحثين المتشددين الذين هم على الجانب الأقصى من تفكير العهد الجديد.» لقد استبعد السيمينار إمكانية المعجزات في البداية، وطرح معايير مشكوك فيها، وأعلن بعض المشتركين وثائق محيرة ذات جودة قصوى مريبة. والأبعد من ذلك هو أن فكرة أن القصص عن يسوع قد خرجت من الأساطير تفشل في مواجهة الفحص. قال بويد: «إن برهان يسوع بأن ما قاله التلاميذ عنه ... هو أبعد ما يكون عن صحة تفكير سيمينار يسوع.»

باختصار، يسوع الإيمان هو نفسه يسوع التاريخ.

• هل كان يسوع مقتنعاً حقاً بأنه ابن الله؟

بالرجوع إلى أكثر التقاليد المبكرة، الآمنة بلا شك من التطور الأسطوري، كان بن ويزنجتون الثالث مؤلف كتاب *The Christology of Jesus* قادراً أن يوضح أن يسوع كان لديه وعي بالذات سام وفائق. وبناءً على الدليل قال ويزنجتون: «هل آمن يسوع أنه كان ابن الله، مسيح الله؟» والإجابة نعم. هل رأى نفسه باعتباره المسيا الأخير؟ نعم، هذه هي الطريقة التي رأى بها نفسه. هل آمن أن أي إنسان أقل شأناً من الله يمكنه خلاص العالم؟ لا، لستُ أؤمن بذلك.» قال الباحثون إن إشارة يسوع المتكررة إلى نفسه باعتباره ابن الإنسان لم تكن تأكيداً على الناسوت، بل كانت إشارة إلى دانيال ٧: ١٣ ــ ١٤، حيث يُرى ابن الإنسان وهو له السلطان الكلي والمُلك الأبدي، والذي يقبل عبادة كل الأمم. قال باحث: «وهكذا، فإن تأكيد أن يسوع ابن الإنسان هو تأكيد على الألوهية.»

• هل كان يسوع مجنوناً عندما أكد أنه ابن الله؟

جاري كولنز ــ أستاذ علم النفس لمدة ٢٠ عاماً، ومؤلف ٤٥ كتاباً متعلقاً بعلم النفس ــ قال إن يسوع لم يُبين مشاعر غير مناسبة، بل كان متصلاً بالواقع، وكان لامعاً ذات أفكار مدهشة في الطبيعة الإنسانية، وقد تمتع بعلاقات مستمرة عميقة. واستنتج كولنز: «لا أرى علامات أن يسوع كان يعاني من أي مرض عقلي معروف.» وبالإضافة إلى ذلك، فقد دعَم يسوع تأكيده بأنه الله من خلال الأعمال الإعجازية للشفاء، والإظهارات المدهشة لسلطانه على الطبيعة، والتعليم الذي لا يُنافس، والفهم الإلهي للبشر، وقيامته التي كانت الدليل الجوهري لألوهيته.

• هل حقق يسوع صفات الله؟

بينما التجسد ــ الله يصير جسداً، اللامحدود يصير محدوداً ــ يُوَسع خيالنا، أشار اللاهوتي اللامع د. أ. كارسون إلى أن هناك الكثير من الأدلة أن يسوع قد أظهر خصائص الألوهية. فبالرجوع إلى فيلبي ٢، يؤمن كثير من اللاهوتيين أن يسوع قد أخلى نفسه طوعاً من الاستخدام الحر لصفاته الإلهية بينما تتبع مهمته لفداء البشر. ورغم ذلك، فإن العهد الجديد يؤكد بشكلٍ خاص أن يسوع قد امتلك أساساً كل مؤهلات الإلوهية، بما فيها كلية المعرفة، وكلية الوجود، وكلية القدرة، والخلود، والثبات.

• هل ضاهي يسوع ــ ويسوع وحده ــ شخصية المسيا؟

قبل مئات السنوات من ميلاد يسوع، تنبأ الأنبياء بمجيء المسيا، أو الممسوح، الذي سيفدي شعب الله. ونتيجة ذلك، فإن عشرات من نبوات العهد القديم هي بمثابة بصمة إصبع استطاع المسيا الحقيقي وحده أن يُناسبها. وهذا أعطى اسرائيل طريقة لاستبعاد الدجالين، وتصديق اعتمادات المسيا الحقيقي. على خلاف الشواذ الفلكية ــ فرصة من تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون، تريليون ــ فإن يسوع، ويسوع وحده عبر التاريخ، ضاهى بصمة الإصبع النبوية هذه. وهذا يؤكد شخصية يسوع لدرجة هائلة من اليقين. فالخبير الذي حاورته حول هذا الموضوع ــ لويس لابيديس ــ مثال إنسان نشأ في بيت يهودي محافظ، وآمن أن يسوع هو المسيا بعد دراسة منظمة للنبوات. أما اليوم فهو راعي كنيسة في كاليفورنيا، والرئيس السابق لشبكة قومية من ١٥ تجمع مسياني.

• هل كان موت يسوع أكذوبة وقيامته خدعة؟

بتحليل البيانات الطبية والتاريخية، استنتج د. ألكسندر ميزريل ــ وهو طبيب يحمل أيضاً الدكتوراه في الهندسة، استنتج أن يسوع لم يستطع تحمل آلام الصلب المرعبة، والجُرح الغائر الذي طعن رئتيه وقلبه. في الواقع، حتى قبل الصلب، كان يسوع في حالة

حرجة يعاني من صدمة hypovolemic نتيجة الجلد المرعب. إن فكرة أن يسوع قد تعرّض للإغماء نوعاً ما على الصليب، وأنه قد ادّعى الموت، تفتقد أي أساس برهاني. فمنفذو الإعدام الرومان كانوا يتصفون بالشراسة، عالمين أنهم بأنفسهم سيواجهون الموت لو أن أياً من ضحاياهم قد نزل من الصليب حياً. وحتى لو أن يسوع قد عاش نوعاً ما أثناء العذاب، فإن حالته المرعبة لم تكن تستطع إطلاقاً أن تُوحي بحركة عالمية مبنية على أساس أن يسوع قد انتصر على القبر في مجد.

• هل كان جسد يسوع غائباً حقاً عن قبره؟

ويليام لين كريج الذي حصل على شهادتي دكتوراه، وكتب كتباً كثيرة حول القيامة، قدَّم الدليل المدهش أن الرمز الدائم للقيامة – وهو قبر يسوع الفارغ – كان حقيقة تاريخية. فالقبر الفارغ مسجل أو مُتضمن في المصادر المبكرة – إنجيل مرقس، والقانون في ١ كورنثوس ١٥ – التي تعود إلى فترة أقرب جداً من الحدث لاذي لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون قد كانت نتاجات الأسطورة. فحقيقة أن تقرير الأناجيل أن النسوة قد اكتشفن القبر الفارغ تُدَعم أصالة القصة لأن شهادة النسوة افتقدت المصداقية في القرن الأول، ومن هنا لم يكن هناك دافعٌ لتقرير أنهن وجدن القبر الفارغ لو لم يكن هذا حقيقياً. لقد كان موقع قبر يسوع معروفاً بالنسبة للمسيحيين، ولليهود، وللرومان، ومن ثم فقد كان من الممكن أن يتعرض للفحص من قِبل المتشككين. في الواقع، لا أحد – ولا حتى السلطات الرومانية، أو القادة اليهود – أكدَ على الإطلاق أن القبر كان لا يزال يحوي جسد يسوع. وبدلاً من هذا، كانوا مُجبرين لاختلاق القصة السخيفة بأن التلاميذ – رغم عدم توافر دافع أو قصة – قد سرقوا الجسد – وهي نظرية لا يؤمن بها اليوم حتى أكثر النقاد تشكيكاً.

• هل رؤى يسوع حياً بعد موته على الصليب؟

إن برهان ظهورات يسوع بعد القيامة لم تتطور تدريجياً عبر

السنوات كما شوّهت الأسطورة ذكريات حياته. بل بالأحرى فإن قيامته كانت «الإعلان المركزي للكنيسة الأولى منذ لحظة البداية.» كما قال خبير القيامة اللامع جاري هابيرماس. إن القانون القديم من ١ كورنثوس ١٥ يذكر أفراد معينين لاقوا المسيح القائم. وقد تحدى بولس متشككي القرن الأول للتحدث مع هؤلاء الأفراد شخصياً لتحديد حقيقة الأمر لأنفسهم. وسفر أعمال الرسل منثورة في ثناياه تأكيدات مبكرة جداً عن قيامة يسوع، بينما تصف الأناجيل لقاءات عديدة بالتفصيل. استنتج اللاهوتي البريطاني مايكل جرين: «إن ظهورات يسوع مُوَثقة تماماً كأي شئ في الأصالة ... ولا يمكن أن يكون هناك شكٌ عقلاني بحدوثها.»

• هل هناك أية حقائق مُدَعمة تشير للقيامة؟

قدم بروفيسور مورلاند برهاناً مفصلاً أكد توثيقاً قوياً للقيامة. أولاً، كان التلاميذ في وضع فريد لمعرفة ما إذا كانت القيامة قد حدثت، وقد ضحوا بحياتهم لإعلان صدقها. لا أحد يموت طوعاً وعن معرفة من أجل أكذوبة. ثانياً، بغض النظر عن القيامة، ليس هناك سبب مقنع يدفع مثل أولئك المتشككين كبولس ويعقوب للإيمان والموت في سبيل إيمانهم. ثالثاً، أثناء أسابيع الصلب، صار آلاف اليهود مقتنعين بأن يسوع قد كان ابن الله، وبدأوا يتبعونه، تاركين الممارسات الاجتماعية الرئيسية التي كانت لها أهمية دينية واجتماعية قصوى لقرون. لقد آمنوا أنهم خاطروا بالإدانة لو كانوا على خطأ. رابعاً، فإن أسرار التناول والمعمودية قد أكدت على قيامة يسوع وألوهيته. وخامساً، الانبثاق الإعجازي للكنيسة في مواجهة الاضطهاد الروماني الوحشي «يشق ثقباً عظيماً في التاريخ، ثقباً بحجم وبشكل القيامة» كما قال مول C. F. D. Moule.

بتجميع الأمور، استنتجتُ أن شهادة هذا الخبير تشكل برهاناً قوياً أن يسوع المسيح كان ما نادى به – ابن الله الوحيد. والإلحاد الذي اعتنقته طويلاً جداً التوى تحت ثقل الحق التاريخي.

للتفاصيل التي تدّعم هذا الملخص، برجاء الرجوع لكتاب «القضية .. المسيح»

عن المؤلف

لي ستروبل – الذي يحمل ماجستير الحقوق من كلية ييل للحقوق، ودرجة الصحافة من جامعة ميسوري – هو المحرر القانوني السابق لصحيفة شيكاغو تريبيون. تتضمن جوائزه أعلى أوسمة شرف إلينوي لتحري التقارير وصحافة خدمة المجتمع من *-United Press Internation al*. وقد كانت رحلته من الإلحاد إلى المسيحية موّثقة في كتابه الأعلى مبيعاً والحائز على الميدالية الذهبية «القضية .. المسيح: التحري الشخصي لصحفي عن البرهان المؤيد ليسوع».

حالياً، يمثل لي Lee راعياً معلماً في *-Saddleback Val ley Community Church* في Lake Forest، كاليفورنيا. وهو عضو رئيسي في جمعية Willow Creek. سابقاً، كان لي Lee راعياً معلماً في -Willow Creek Commu nity Church في ضواحي شيكاغو. وقام بتدريس قانون التعديل الأول في جامعة روزفلت. تتضمن كتبه الأكثر مبيعاً *Inside the mind of Unchurched Harry and Mary* الذي ربح أيضاً الميدالية الذهبية، و *What Jesus Would Say*، و *God's Outrageous Claims*. وكلها من إصدارات Zondervan Publishing House. وقد استخدم كتابه Reckless Homicide كنص ملحق في كليات قانون كثيرة.

لي وزوجته ليزلي متزوجان منذ ٢٨ عاماً، ولديهما ابنان: أليسون، خريج تعليم أساسي من جامعة إلينوي، وكايل، خريج دراسات كتابية من كلية Judson.

ملاحظات وهوامش

المقدمة: تحدي الإيمان

1. George H. Smith, Atheism: The Case Against God (Amherst, N.Y.: Prometheus Books, 1989), 51.

2. Charles Colson, How Now Shall We Live? (Wheaton, 111.: Tyndale House, 1999), 31-32.

3. «Billy Graham Indiana Crusade.» Available: www. billygraham.org/ newsannouncementl2.asp [1999, June 4].

4. Billy Graham, Just As I Am (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1997), 137-138.

5. Charles Templeton, Farewell to God (Toronto: Mc-Clelland & Stewart, 1996), 3.

6. Ibid., 11.

7. Ibid., 9.

8. Ibid., 5-6.

9. Billy Graham, Just As I Am, 139.

10. George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 98.

11. W. Bingham Hunter, The God Who Hears (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1986), 153.

12. Charles Templeton, Farewell to God, vii.

13. Ibid., 200-202.

إلى طريق الإجابات

1. Michael Martin, The Case Against Christianity (Phila-

delphia: Temple University Press, 1991), 3, 5.

2. Patrick Glynn, God: The Evidence (Rocklin, Calif.: Forum, 1997), 20.

3. See: Lee Strobel, The Case for Christ (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1998), 131—143; Ben Witherington III, The Christology of Jesus (Minneapo¬lis, Minn.: Fortress Press, 1990); and William Lane Craig, Reasonable Faith (Wheaton, 111.: Crossway, 1994), 233-54.

4. See: 1 Corinthians 15:3—8.

5. See: Lee Strobel, The Case for Christ, 35, 208-11, 229-33, 264-65.

٦. إرميا ٢٩: ١٣.

الاعتراض الأول: بما أن الشر موجود، والمعاناة موجودة، فلا يمكن أن يوجد إله محب

1. John R. W. Stott, The Cross of Christ (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1986), 311.

2. See: Lee Strobel, «Thanksgiving Near; Only Food Rice,» The Chicago Tribune, November 25, 1974.

3. Peter Maass, «Top Ten War Crimes Suspects,» George, June, 1999.

4. Peter Kreeft, Making Sense Out of Suffering (Ann Arbor, Mich.: Servant: 1986), viii.

5. Philip Yancey, Where Is God When It Hurts? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1990), 15.

6. Ibid., 20, quoting novelist Peter De Vries.

7. The OmniPoll, conducted by Barna Research Group, Ltd., January, 1999.

8. Charles Templeton, Farewell to God, 201-2.

9. See: Matthew 7:7.

10. See: Peter Kreeft and Ronald K. Tacelli, Handbook of Christian Apolo¬getics (Downers Grove, 111.: Inter-Varsity, 1994), 48-88.

11. See: Leo Tolstoy (David Patterson, translator), Confession (New York: W. W. Norton & Co.: 1996), Reprint edition.

12. Harold Kushner, When Bad Things Happen to Good People (New York: Schocken Books, 1981), 43.

13. See: Romans 5:3—4.

14. Hebrews 5:8: «Although he was a son, he learned obedience from what he suffered....»

15. 2 Peter 3:9: «The Lord is not slow in keeping His promise, as some understand slowness. He is patient with you, not wanting anyone to perish, but everyone to come to repentance.»

16. C. S. Lewis, The Problem of Pain (New York: Macmillan, 1962), 93.

17. See: Matthew 9:12-13.

18. Jeremiah 6:13a.

19. Isaiah 64:6a.

20. Charles Templeton, Farewell to God, 201.

21. Philippians 3:8 (KJV): «1 count all things hut loss for the excellency of the knowledge of Christ Jesus my Lord: for whom 1 have suffered the loss of all things, and do count them but dung, that I may win Christ.»

22. Philip Yancey, Where Is God When It Huns?, 255-56.

23. Warren W. Wiersbe, Classic Sermons on Suffering (Grand Rapids, Midi.: Kregel Publications, 1984), 92.

24. Jesus said in John 16:33: «These things I have spoken to you, that in me you may have peace. In the world, you have tribulation, but take courage; I have overcome the world» (NASB).

25. John R.W. Stott, The Cross of Christ, 335-36, the last sentence quot¬ing P. T. Forsyth, Justification of God (London: Duckworth, 1916), 32.

الإعتراض الثاني: بما أن المعجزات تتعارض مع العلم، فلا يمكن أن تكون حقيقية

1. Richard Dawkins, «Snake Oil and Holy Water.» Available: www.forbes.com/asap/99/1004/235.htm [1999, Nov. 19].

2. R. Douglas Geivett and Gary R. Habermas, In Defense of Miracles (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1997), 280.

3. Charles Templeton, Farewell to Cod, 21.

4. Quoted in: Nicky Gumble, Searching Issues (Eastbourne, East Sussex, UK: Kingsway Publications, 1994), 99.

5.———————. «Interviews.» Available at: www.pbs.org/faithandreason [1999, Nov. 21[

6. Dale and Sandy Larsen, Seven Myths about Christianity (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1996), 86.

7. Michael Ruse, Darwinism Defended (London: Addison; Wesley, 1982), 322.

8. See: William Dembski, The Design Inference (Cam-

bridge: Cambridge University Press, 1998); Michael Behe,» Darwin's Black Box (New York: The Fress Press, 1996); and William Dembski and Michael Behe, Intelligent Design (Downers Grove, 111.: Inter Varsity Press, 1999).

.9. Rudolf Bultmann, Jesus (Berlin, 1926), 159.

10. George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 215.

11. Archibald Robertson, The Origins of Christianity (New York: International Publishers, 1954), 82, quoted in: George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 216.

12. Norman L. Geisler writes in Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 1999), 512: «Most miracle claims for Muhammad do not occur in the Qur'an [or Koran], the only book in Islam for which divine inspiration is claimed.... The vast majority of alleged mir¬acles are reported in the Hadith (Islamic tradition), considered by Muslims to contain many authentic traditions. There are hundreds of miracle stories in the Hadith.»

13. Richard Robinson, «Religion and Reason,» in Critiques of God, ed. Peter A. Angeles (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1997), 121.

14. Alvin Plantinga, «Two Dozen (or so) Theistic Arguments,» Lecture pre¬sented at the 33d Annual Philosophy Conference, Wheaton College, Wheaton, Illinois, October 23-25, 1986.

15. For a booklet summarizing Craig's five reasons for believing God exists, see: William Lane Craig, God, Are You There? (Norcross, Ga.: Ravi Zacharias International

Ministries, 1999).

16. Stephen W. Hawking and Roger Penrose, The Nature of Space and Time (Princeton, N.J.: Princeton University Press. 1996), 20.

17. Anthony Kenny, The Five Ways: St. Thomas Aquinas' Proofs of God's Existence (New York: Schocken Books, 1969), 66.

18. David Hume to John Stewart, February, 1754, in The Letters of David Hume, ed. J. Y. T. Greig (Oxford: Clarendon Press, 1932), vol. I, 187.

19. Kai Nielsen, Reason and Practice (New York: Harper & Row, 1971), 48.

20. Arthur Eddington, The Expanding Universe (New York: Macmillan, 1933), 124.

21. Stephen W. Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam Books, 1988), 123.

22. For a list of examples, see: John Leslie, Universes (London: Routledge, 1989).

23. P. C. W. Davies, Other Worlds (London: Dent, 1980), 160-61.

24. Ibid., 168-69.

25. For example, see: P. C. W. Davies, «The Anthropic Principle,» in Par¬ticle and Nuclear Physics 10 (1983), 28; and Patrick Glynn, God: The Evidence, 29-31.

26. John Polkinghorne, Serious Talk: Science and Religion in Dialogue (London: Trinity Press International, 1995), 6.

27. Patrick Glynn, God: The Evidence, 53-54, 26.

28. Michael Ruse, «Evolutionary Theory and Christian

Ethics,» in The Darwinian Paradigm (London: Routledge, 1989), 262, 269.

29. John Healey, fund-raising letter, 1991.

٣٠. أنظر: ١ كورنثوس ١٥: ٤وما يوازيها.

31. Gerd Ludemann, What Really Happened to Jesus?, trans. John Bowden (Louisville, Ky.: Westminster John Knox Press, 1995), 8.

32. Luke Timothy Johnson, The Real Jesus (San Francisco: Harper San Francisco, 1996), 136.

33. For a list of these historical tests, see: C. Behan McCullagh, Justifying Historical Descriptions (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 19. To see how the Resurrection meets these criteria, see: William Lane Craig, God, Are You There?, 46-47.

34. John Hick, Introduction, in The Existence of God, ed. with an Intro¬duction by John Hick, Problems of Philosophy Series (New York: Macmillan, 1964), 13-14.

35. See: William Alston, «Religious Diversity and Perceptual Knowledge of God,» in Faith and Philosophy 5 (1988), 433-48.

36. Romans 8:16: «The Spirit himself testifies with our spirit that we are

God's children.»

الإعتراض الثالث: نظرية التطور تُفسّر الحياة، فالله إذاً ليس مطلوبا

1. «Iconoclast of the Century, Charles Darwin (1809-1882),» Time, Decem¬ber 31,1999.

2. Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis (Chevy Chase, Md.: Adler & Adler, 1986), 77.

3. See: Charles T. Jones, «DNA Tests Clear Two Men in Prison,» The Oklahoman, April 16, 1999.

4. See: Steven Mills and Ken Armstrong, «Convicted By a Hair,» The Chicago Tribune, November I8, 1999.

5. Ibid.

6. Patrick Glynn, God: The Evidence, 2—3.

7. «Iconoclast of the Century: Charles Darwin (1809-1882),» Time, December 31, 1999.

8. Charles Templeton, Farewell to God, 232.

9. Francisco Ayala, <Creative Evolution, John H. Campbell and J. W. Schoff, eds. (New York: James and Bartlett, 1994), 4-5.

10. Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis, 67.

11. Ibid., 66.

12. Douglas Futuyina, Evolutionary Biology (Sunderland, Mass.: Sinauer, 1986), 3.

13. Richard Dawkins, The Blind Watchmaker (New York: Norton, 1987), 6.

14. Phillip E. Johnson, Darwin on Trial, 2d ed. (Downers Grove, 111.: Inter-Varsity Press, 1993), 126-27.

15. Michael Behe, Darwin's Black Box (New York: The Free Press, 1996), 232.

16. Ibid., 193, 251, 243 (emphasis in original).

17. Introduction by Bill Hybels in: Lee Strobel, Inside the Mind of Unchurched Harry and Mary (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1993), 7.

18. David M. Raup, «Conflicts Between Darwin and Paleontology,» Bul¬letin, Field Museum of Natural

History, January 1979, quoted in Paul S. Taylor, The Illustrated Origins Answer Book, 4th ed., (Meda, Ariz.: Eden, 1993), 108; and in Hank Hanegraaff, The Face that Demonstrates the Farce of Evo¬lution (Nashville, Tenn.: Word, 1998), 34.

19. Phillip E. Johnson, Darwin on Trial, 2d ed., 54.

20. Charles Darwin, Origin of Species, 6th ed. (New York: New York Uni¬versity Press, 1988), 154.

21. George Johnson, «Science and Religion: Bridging the Great Divide,» The New York Times, June 30, 1998.

22. Charles B. Thaxton, Walter L. Bradley, and Roger L. Olsen, The Mys¬tery of Life's Origin (Dallas, Tex.: Lewis and Stanley, 1984), back cover.

23. Ibid.

24. Francis Darwin, The Life and letters of Charles Darwin (New York: D. Appleton, 1887), 202.

25. R. Vallery-Radot, The Life of Pasteur, trans. by R. L. Devonshire (New York: Doubleday, 1920), 109.

26. Robert Shapiro, Origins (New York: Summit Books, 1986), 99.

27. William Day, Genesis on l'lanet Earth (East Lansing, Midi.: House of Talos, 1979), 7.

28. Quoted in: S. Tax, ed., Evolution After Darwin (Chicago: University of Chicago Press, 1960), 1:57.

29. See: Gordon C. Mills, Malcolm Lancaster, and Walter L. Bradley, «Ori¬gin of Life and Evolution in Biology Textbooks—A Critique,» The American Biology Teacher, February, 1993.

30. Ernst Haeckel, The Wonders of Life, trans. by J.

McCabe (London: Watts, 1905), 111, quoted in: Stephen C. Meyer, «The Explanatory Power of Design» in Mere Creation (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1998), 114.

31. Klaus Dose, 'The Origin of Life: More Questions Than Answers,» in Interdisciplinary Science Reviews 13 (1988), 348.

32. Francis Crick, Life Itself (New York: Simon and Schuster, 1981).

33. «How Did Life Begin?» Newsweek, August 6, 1979.

34. J. Buell and G. Hearn, eds., Darwinism: Science or Philosophy? (Dal¬las, Tex.: Foundation for Thought and Ethics, 1994), 68-69; quoted in: Stephen C. Meyer, «The Explanatory Power of Design,» Mere Creation, 126.

35. See: Dean Kenyon and G. Steinman, Biological Predestination (New York: McGraw Hill, 1969).

36. See: Randall A. Kok, John A. Taylor, and Walter L Bradley, «A Sta¬tistical Examination of Self-Ordering of Amino Acids in Proteins,» Origins of Life and Evolution of the Biosphere 18 (1988).

37. Ilya Prigogine and Isabelle Stengers, The End of Certainty: Time, Chaos, and the New Laws of Nature (New York: The Free Press, 1997), 71.

38. H. P. Yockey, «A Calculation of the Probability of Spontaneous Bio¬genesis by Information Theory,» Journal of Theoretical Biology 67, 380.

39. See: Charles B. Thaxton, Walter L. Bradley, and Roger L. Olsen, The Mystery of Life's Origin, 191-96.

40. Ibid., 194.

41. Phillip E. Johnson, Darwin on Trial, 111.

42. A. Dauvillier, The Photochemical Origin of Life (New York: Academic Press, 1965), 2.

43. Peter Radetsky, «How Did Life Start?» Discover, November 1992.

44. Fazale R. Rana and Hugh Ross, «Life from the Heavens? Not This Way,» Facts for Faith, October, 2000 (emphasis in original).

45. Ibid, (emphasis in original).

46. Peter Radetsky, «How Did Life Start?» Discover, November, 1992.

47. Ibid.

48. Ibid.

49. See: A. G. Cairns-Smith, Genetic Takeover and the Mineral Origins of Life (New York: Cambridge University Press, 1982).

50. Quoted in: Walter L. Bradley and Charles B. Thaxton, «Information and the Origin of Life,» The Creation Hypothesis (Downers Grove, 111.: Inter-Varsity Press, 1994), 194.

51. William A. Dembski, ed., Mere Creation, 46.

52. Fazale R. Rana and Hugh Ross, «Life from the Heavens? Not This Way,» Facts for Faith, Quarter 1, 2000.

53. Klaus Dose, «The Origin of Life: More Questions than Answers,» Inter¬disciplinary Science Review 13 (1998), 348.

54. Robert Shapiro, Origins, 99.

55. Francis Crick, Life Itself, 1.53.

56. J. Morgan, «In the Beginning ...» Scientific American, February 1991.

57. See: Stephen Jay Gould, «Will We Figure Out How Life Began?,» Time, April 10, 2000.

58. J. F. W. Hersehel, Preliminary Discourse on the Study of Natural Phi¬losophy (London: Longman, Rees, Orme, Brown and Green, 1831), 149.

59. Carl Sagan, Rroca's Brain (New York: Random House, 1979), 275.

60. Phillip E. Johnson, Darwin on Trial, 103.

61. See: Candace Adams, «Leading Nanoscientist Builds Big Faith,» Bap¬tist Standard, March 15, 2000.

62. Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis, 358.

الإعتراض الرابع: الله لا يستحق العبادة طالما أنه يقتل الأطفال الأبرياء.

1. Quoted in: Carry Poole and Judson Poling, Tough Questions 4 (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1998), 12.

2. Psalm 86:15.

.3. Charles Templeton, Farewell to God, 71.

4. George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 77.

5. Ibid., 76.

6. Thomas Paine, Age of Reason, Part I (First printed 1794; reprinted by The Freethought Press Association, New York, 1954), 18-19, quoted in George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 78.

٧. قضاة ١٩: ٢٥، ٢٩.

٨. ٢ صموئيل ١٢: ٣١.

٩. ملاخي ٣: ١٦أ.

١٠. ١ صموئيل ١٥: ٣.

١١. مرقس ١٠: ١٤,

١٢. أنظر: ٢ ملوك ٢: ٢٣-٢٥.

13. Walter C. Kaiser Jr., Peter H. Davids, F. F. Bruce, and Manfred T. Brauch, Hard Sayings of the Bible (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1996), 233, 234.

14. Ibid. See also: I Kings 20:14-15.

15. Charles Templeton, Farewell to God, 197 (emphasis removed), 198,199.

16. Genesis 1:29-30. After the Flood, God told Noah and his sons in Gen¬esis 9:3: «Everything that lives and moves will be food for you. Just as I gave you the green plants, I now give you everything.»

17. Isaiah 65:17, 25.

18. Proverbs 12:10.

19. George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 210-11.

20. Charles Templeton, Farewell to God, 38.

21. John 3:12.

22. See: Clifford A. Wilson, Rocks, Relics and Biblical Reliability (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1977), 42.

23. William F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel (Baltimore, Md.: Johns Hopkins Press, 1953),

176.

24. See: Colin J. Hemer, The Book of Acts in the Setting of Hellenistic His¬tory (Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns, 1990).

25. William M. Ramsay, St. Paul the Traveler and the Roman Citizen (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1982), 8.

26. A. N. Sherwin-White, Roman Society and Roman Law in the New Tes¬tament (Oxford: Clarendon Press, 1963), 189.

27. See: William F. Albright, «Retrospect and Prospect in New Testament Archaeology,» in The Teacher's Yoke, E. Jerry Vardama'n, ed. (Waco, Tx.: Bay-lor University, 1964), 288ff.

28. Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 544.

29. See: Bertrand Russell, «What Is an Agnostic?», Look magazine, 1953, quoted in Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 455-56.

30. John 10:37.

31. John 3:2.

32. See Sura 2:118; 3:181-84; 4:153; 6:8, 9, 37 in the Koran.

33. Sura 6:37.

34. Ibid.

35. Luke 7:22.

36. Norman Geisler and Thomas Howe, When Critics Ask (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1992).

37. Matthew 16:16, Mark 8:29, Luke 9:20.

38. Gregory A. Boyd and Edward K. Boyd, Letters From a Skeptic (Wheaton, 111.: Victor, 1994), 120.

39. Revised Standard Version.

40. John Noble Wilford, «Sizing Up the Cosmos: An Astronomer's Quest,» New York Times, March 12,1991, quoted in: Hugh Ross, Creator and the Cos¬mos (Colorado Springs: NavPress, 1993), 116.

41. Hugh Ross, Creator and the Cosmos, 17.

42. Robert Jastrow, «The Secret of the Stars,» New York Times Magazine, June 25, 1978, quoted in: Hugh Ross, Creator and the Cosmos, 116.

43. See: Bertrand Russell, «What Is an Agnostic?» Look magazine, 1953, quoted in Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 455-56.

44. Gregory A. Boyd and Edward K. Boyd, Letters From a Skeptic, 189.

45. John 6:68

46. John 8:58.

الاعتراض الخامس: من المُهين الإدعاء بأن يسوع هو الطريق الوحيد إلى الله

1. Available at: http://cnn.com/Transcripts/0001/12/lkl.00.html [2000. January 13].

2. R. C. Sproul, Reason to Relieve (Grand Rapids, Mich.: Lamplighter Books, 1982), 44-45.

3. See: Robert J. Wagman, The First Amendment Book (New York: Pharos Books, 1991), 106. Also see: Chapkinsky v. New Hampshire, 315 U.S. 568 (1942).

4. See: Cohen v California, 403 U.S. 15 (1971).

5. John 14:6.

6. See: John Hick and Paul K Knitter, eds., The Myth of Christian Unique¬ness (London: SCM Press, 1987), 141, quoted in: Paul Copan, True for You, But Not for Me (Minneapolis, Minn.: Bethany House, 1998), 78.

7. Available at: http://cnn.com/Transcripts/0001/12/lkl.00.html [2000. January 13].

8. Quoted in: Paul Copan, True for You, But Not for Me, 34.

9. Ravi Zacharias, Can Man Live without God (Nashville, Tenn.: Word, 1994), from introduction by Charles Colson, ix.

1.0. Charles Templeton, Farewell to God, 27.

11. Acts 4:12.

12. Charles Templeton, Farewell to God, 27, emphasis added.

13. Quoted in: Ravi Zacharias, Can Man Live Without God, back cover.

14. 2 Peter 1:16.

15. See: «The Exclusivism of Religious Pluralism,» in: Paul Copan, True For You, But Not For Me, 71-77.

16. John 1:1, 14.

17. Genesis 18:25c.

18. See: Psalm 24:3-4.

19. See: Matthew 20:1-16.

20. See: Luke 7:36-50.

21. Acts 17:26-27

22. Romans 1:20

23. Romans 2:14-15.

24. Romans 10:14-15.

25. Jeremiah 29:13.

الإعتراض السادس: الله المُحب لن يُعذّب البشر في الجحيم أبداً

1. Bertrand Russell, Why I Am Not a Christian (New York: Simon and Schuster, 1957), 17.

2. Quoted in: Cliffe Knechtle, Give Me An Answer (Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1986), 42.

3. This story, including the interview with Judge Cortland A. Mathers, orig¬inally was reported in an excellent investigation into mandatory sentencing by The Boston Globe's Spotlight Team. See: Gerard O'Neill, ed., Dick Lehr and Bruce Butterfield, «A Judgment on Sentences: Some Judges Balk at Preset Penalties,» The Boston Globe, September 27, 1995.

4. B. C. Johnson, The Atheist Debater's Handbook (Buffalo, N.Y.: Prometheus, 1979), 237.

5. Ezekiel 33:11: «Say to them, <As surely as I live, declares the Sovereign LORD, I take no pleasure in the death of the wicked, but rather that they turn from their ways and live....'»

6. George H. Smith, Atheism: The Case Against God, 300.

7. See: Alan Gomes, «Evangelicals and the Annihilation of Hell, Part II,» Christian Research Journal 13 (Summer 1991), 8-13.

8. Luke 10:27.

9. See: Samuele Bacchiocchi, «Hell: Does it Have an

End?», Signs of the Times, August 1999, 8-10.

10. Daniel 12:2: «Multitudes who sleep in the dust of the earth will awake: some to everlasting life, others to shame and everlasting contempt.»

11. John Stott and David L. Edwards, Essentials: A Liberal-Evangelical Dialogue (London: 1988), 316.

12. See: Hebrews 9:27.

13. See: 2 Peter 3:9.

14. See: Hebrews 11:6.

15. For further analysis of evidence concerning reincarnation, see: Gary R. Habermas and J. P. Moreland, Beyond Death: Exploring the Evidence for Immortality (Wheaton, 111.: Crossway, 1998), 237-53; and Norman L. Geisler and J. Yutaka Amano, The Reincarnation Sensation (Wheaton, 111.: Tyndale, 1986).

16. C. S. Lewis, The Problem of Pain (Glasgow: William Collins Sons, 1983), 107.

17. See: Lee Strobel, The Case for Christ, 164—66.

الإعتراض السابع: تاريخ الكنيسة مُكدّس بالظلم والعنف

1. Ken Schei, «What Is an Atheist for Jesus?» Available: www.atheists-for-Jesus.com/about.htm [2000, January 10].

2. D. James Kennedy, Why I Believe (Dallas: Word, 1980), 118, 121.

3. Maurice Possley, «Court Hears How FBI Agents Bugged Judge,» The Chicago Tribune, April 26, 1985.

4. Maurice Possley, «Judge Liked <People Who Take Dough,' Greylord File Shows,» The Chicago Tribune, April 27, 1985.

5. Maurice Possley, «Records Charge Deals By Judge; <We Can Make $1,000 a Week.' Olson Quoted.» The Chicago Tribune, February 21, 1985.

6. Bertrand Russell, Why I tun Not a Christian (New York: Simon and Schuster, 1957), 25-26.

7. «Why Are We Here: The Great Debate,» International Herald Tribune, April 26, 1999.

8. Charles Templeton, Farewell to God, 127, 129.

9. Ibid., 154.

10. See: Richard Boudreaux, «Pope Apologizes for Catholic Sins Past and Present,» The Los Angeles Times, March 13, 2000.

11. Peggy Polk, «Papal State: Despite His Recent Ills, Pope John Paul II is Focused on the Future,» The Chicago Tribune, June 5, 1995.

12. Matthew 7:21-23.

13. Patrick Glynn, God: The Evidence, 157.

14. See: Lucian, The Death of Peregrine, 11-13, in The Works of Lucian of Samosata, trans. by H. W. Fowler and F. G. Fowler, 4 vols. (Oxford: The Clarendon Press, 1949), vol.4.

15. See: Justin Martyr, First Apology: Ante-Nicene Fathers, ed. by Alexan¬der Roberts and James Donaldson (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1973).

16. Philippians 1:21.

17. Bruce L. Shelley, Church History in Plain language (Dallas, Tex.: Word, 1982, 1995, updated 2d edition), 189.

18. As the Third Millennium approached, Spanish priests

and nuns pub¬licly asked forgiveness for «those religious workers who worked closely with the Inquisition and the monks who were soldiers.» See: «Catholic Clerics Apologize for Past Cruelties,» The Chicago Tribune, November 14, 1999.

19. David Neff, «Our Extended, Persecuted Family,» Christianity Today, April 29,1996, 14.

20. Mark A. Noll, A History of Christianity in the United States and Canada (Grand Rapids: Eerdmans, 1992), 51.

21. Dale and Sandy Larsen, Seven Myths About Christianity (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1998), 110.

22. Anthony Grafton, with April Shelford and Nancy Siraisi, New Worlds, Ancient Text (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 1992), 132.

23. Ibid., 136. Ecclesiasticus, or Sirach, is not considered to be divinely inspired scripture by Protestants, although it is part of the Roman Catholic and Orthodox canons. It is also known as «The Wisdom of Jesus, the son of Sir¬ach,» after its author, a scholar who apparently wrote the book between 195 and 171 B.C.

24. «Cardinal's Yom Kippur Letter Seeks Atonement for Church Anti-Semitism,» The Chicago Tribune, September 21, 1999.

25. Luis Palau, God Is Relevant (New York: Doubleday, 1997), 23, 82.

26. See: Michael Novak, David N. Livingstone, David Lyle Jeffrey, et al., «Where Would Civilization Be Without Christianity?», Christianity Today, December

6, 1999, 50-59.

27. Ibid., 56.

٢٨. متى ٧:١٢.

الإعتراض الثامن: ما زالت لدي شكوك، لذلك لا يمكن أن أكون مسيحيا

1. Dan Barker, Losing Faith in Faith (Madison, Wis.: Freedom from Reli¬gion Foundation, 1992), 106,109.

2. Quoted in: Lynn Anderson, If I Really Believe, Why Do I Have These Doubts? (Minneapolis, Minn.: Bethany House, 1992), 60 (emphasis added).

3. See: Lee Strobel, «Reformed Hood Comes Back to Pay His Dues,» The Chicago Tribune, Oct. 27, 1977; arid Lee Strobel, God's Outrageous Claims (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1997), 63-67.

4. Os Guinness, In Two Minds (Downers Grove, 111.: InterVarsity Press, 1976), 61.

5. Andre Resner, Grief and Faith—Three Profiles of Struggle in the Face of Loss, Annual Lectures, Pepperdine University, April 19, 1989, quoted in: Lynn Anderson, If I Really Believe, Why Do I Have These Doubts, 78 (empha¬sis in original).

6. See: Paul C. Vitz, «The Psychology of Atheism,» Truth: An International Interdisciplinary Journal of Christian Thought I (1958), 29.

7. See: Mark 9:14-27.

8. Emphasis added.

9. John 8:31-32: «To the Jews who had believed him, Jesus said, <If you hold to my teaching, you are really my disciples. Then you will know the truth, and the truth

will set you free»

10. Gary E. Parker, The Gift of Doubt (San Francisco: Harper & Row, 1990), 69.

الخاتمة: قوة الإيمان

1- Quoted in: Leadership magazine, Spring 1999, 75.

2- Quoted in: Servant magazine, Spring 1999, 8.

3- From the essay, "What I Do Not Believe," by Russell Hanson, Quoted in: William A. Dembski, Intelligent Design (Downers Grove, III.: InterVarsity Press, 1999), 27, emphasis added.

4- William Lane Craig, Reasonable Faith (Wheaton: Crossway, 1984), 72.

5- Bill Montgomery, "U.S. Supreme Court Halts Execution: Even Victim's Family Pleaded for Mercy," The Atlanta Journal and Constitution, August 21, 1990.

6- "When Mercy Becomes Mandatory," The Atlanta Journal and Constitution, August 16, 1990.

٧- ٢ كورنثوس ١٧:٥.

أيضاً مِنْ تأليف لي ستروبيل



والتي حصلت على الجوائز
القضية .. المسيح
صحفي محنّك
تعقّب أعماق القصّة الأكبرَ في التأريخ

هَلْ يَسوع حقاً ابن الله القدوس؟ هل هناك سبب لاعتقاد ذلك؟ في كتابٍ من أكثر الكتب رواجاً، "القضية .. المسيح"، فَحصَ المراسلُ الإستقصائي المتدربَ قانونياً لي ستروبيل الإدّعاءات حول المسيح، وهو بذلك يتتبّع رحلتَه الذاتية الروحية مرة أخرى، ليَتوصَّل إلى القرارَ المُرضي والذي توصّل إليه بمشقةٍ بأن يَسوع هو ابنَ الإلهَ الفريدَ.

كُتب في أسلوبَ تحقيق فلم شهيرَ إستقصائي، الحالةَ للسيد المسيح تَستشيرُ دزينة سلطاتَ على يَسوع بالدكتوراة مَنْ كامبردج، برينسيتون، برانديس، ومؤسسات بارزة أخرى لتَقديمِ

الدليلِ التاريخي — الدليلُ العلمي
الدليل النفسي — دليل البصمات
أدلة أخرى

هذا الكتابَ الشديد اللهجةَ ليس بروايةَ. بل هو مسعى مُثَبّتَ للحقيقةَ حول الشخصيةَ الأكثر أهمية في التاريخ.

اقتني نسخةً لمكتبتَكَ الخاصّة اليوم!

هل كان الله يقول الحق عندما قال:
"تَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ"؟

في كتابه الأكثر مبيعاً "القضية .. المسيح The Case for Christ". فحص المحرر الصحفي دارس القانون لي ستروبل Lee Strobel تأكيدات المسيح حتى وصل إلى الحكم الذي طال انتظاره بأن يسوع هو ابن الله الوحيد.
ولكن بالرغم من الأدلة التاريخية القوية التي قدمها ستروبل، إلا أن كثيرين يتجادلون حول مسائل جادة بخصوص الإيمان بالله. فكما في المحكمة، يريدون أن يصرخوا قائلين: "اعتراض!" إنهم يقولون: "لو كان الله محبة، فماذا عن كل المعاناة في العالم بأسره؟" أو "إن كان يسوع هو الباب المؤدي إلى السماء، فماذا عن ملايين الناس الذين لم يسمعوا عنه؟" أو "إن كان الله يهتم بكل إنسان، فلماذا سيعذب البعض إلى الأبد في الجحيم؟"
في "القضية .. الإيمان The Case for Faith". يحوّل ستروبل مهاراته المتماسكة في التحري تجاه أقسى الاعتراضات الشعورية للإيمان – الحواجز "القلبية" الثمانية للإيمان. إن كتاب "القضية .. الإيمان The Case for Faith" مخصص يشعرون غالباً بالانجذاب إلى يسوع، لكنهم يُعترضون بحواجز عقلية تقف بقوة في طريقهم. بالنسبة للمسيحيين، سوف يُعمّق هذا الكتاب أحكامهم، وسيمنحهم ثقة متجددة في مناقشة المسيحية حتى مع أكثر أصدقائهم تشككاً.

"كل إنسان – الباحثون، المتشككين، المؤمنين المتحمسين – سيستفيد عندما يخطو لي ستروبل الطريق بحثاً عن الغابات كما يفعل من جديد في "القضية .. الإيمان The Case for Faith". ففي ثنايا لقاءاته الفحصية تتهاوى بعض أقسى العقبات العقلية للإيمان."
لويس بالاو Luis Palau

بعمق وبأمانة عقلية، يتحرى لي ستروبل ثم يفند أقسى الاعتراضات الموجهة للمسيحية. هذا الكتاب ممتاز للمثقف، والمتشكك، والباحث. وسيلة عظيمة لبناء الإيمان.
بيل برايت Bill Bright، مؤسس ورئيس Campus Crusade for Christ Int

---

لي ستروبل، ملحد سابق، يحمل درجة ماجستير الحقوق من جامعة ييل Yale للحقوق، وكان المحرر القانوني لصحيفة شيكاغو تريبيون. وهو حالياً راعياً و معلماً في Saddleback Valley Community Church في Orange Country، كاليفورنيا، وعضو رئيسي في جمعية Willow Creek. وهو مؤلف عدة كتب منها الكتاب الحائز على الميدالية الذهبية "القضية .. المسيح The Case for Christ"؛ Inside the Mind of Unchurched Harry and Mary.

☎ ٠١٦١٣٧٣٢٩٨
website:www.el-kalema.com
email:info@el-kalema.com
I.S.B.N: 977-384-073-5

